

# الآثار الأثرية في القمم

في السبانيا والبرتغال

وإلى

صاحبها السيد

والسيد تاج الدين

الناشر مكتبة الخديوي



حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧

رقم الإيداع: ٩٧/٣/٢٩

التقييم الدولي I.S.B.N

٩٧٧-٥٠٤٦-٣٣-٥

مطبعة المنى

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت ٤٨٢٧٨٥١



أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس  
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بغرناطة



غرناطة، منظر عام لمدينة الحمراء  
وقد ظهرت من وراءها جبال سيرا نيفادا مجللة بالثلوج





فصر الحمراء. نافورة فناء الأسود ومن وراءها الشرفة الوسطى



غرناطة، منظر عام لمدينة الحمراء  
وقد ظهرت من ورائها جبال سيرا نيفادا مجللة بالثلوج





إشبيلية، منارة المنصور أو "الخیر الدا" La Giralda وهي الآن  
برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى



سرقسطة. عقد من عقود قصر الجعفرية (قصر بني هود)  
محفوظة بمتحف ملريد الوطني



بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

كان من عناية الله أن أتيح لي، أن أحقق أمنية قديمة طالما جاشت بها نفسي، وأنا أكتب تاريخ الأندلس، هي أن أزور هذه الربوع القديمة، التي لبثت قرونًا ماثوى دولة إسلامية عظيمة، وحضارة إسلامية زاهرة، وأن أشهد ما تبقى فيها من الآثار الأندلسية الباقية، وأتقصى بنفسى، ما تبقى منها منطبعا من العادات والتقاليد الأندلسية، وأعيش حينًا في هذا الجو، الذي عاش فيه من قبل ملايين من المسلمين، في عز وسودد ورخاء.

واليوم وقد زرت هذه الربوع العزيزة مرارًا، وتجولت في سائر مدنها ونواحيها، وشهدت خواصها الطبيعية، واستطعت أن أكتشف كثيرًا من طبائع أهلها، وتقاليدهم وعاداتهم، يجدر بي أن أقدم نتيجة هذه الدراسة، وهي ما تزل حية في نفسي، ماثلة في مشاعري.

إن الأندلس القديمة، تبدو اليوم بلادًا إسبانية نصرانية محضة، لا تكاد تشعر وأنت تتجول فيها، أن هذه البلاد، كانت يومًا منزل أمة عربية إسلامية، اللهم إلا ما يصادفك من آثار قليلة، تذكرك بهذا الماضي البعيد. وحتى هذه الآثار، فيما خلا بضعة صروح عظيمة، مثل حمراء غرناطة، وجامع قرطبة، وبعض الحصون والقصور الأندلسية القديمة، تكاد تختفي تحت أثوابها النصرانية، التي خلعتها الأمة الغالبة، منذ عصر "الاسترداد" La Reconquista.

إن قرطبة، وإشبيلية، وطليطلة، وسرقسطة، وبلنسية، ومرسية، وشاطبة، وجيان، وغرناطة، ووادي آش، ومالقة، ورندة، وشرش، وبطليوس، وماردة، وباجة، وبابرة، ولشبونة، وغيرها وغيرها، من القواعد الأندلسية القديمة، لا تكاد فيما خلا غرناطة وإشبيلية وقرطبة، تبدي شيئًا من مظاهرها الإسلامية القديمة، ولا نستطيع إلا بالبحث المجهد، أن نظفر في بعض أحيائها أو أطلالها الدارسة، بلمحات ضئيلة من طابعها الأندلسي. فالمساجد كلها قد هُدمت، أو حُوِّلت إلى كنائس، أو بُنيت الكنائس فوق أنقاضها، والأحياء الأندلسية القديمة، قد اختفت في معظم المدن أو حاضت معالمها، ولم تبقى منها إلا بقايا متناثرة، هنا وهناك في سفوح القصبك والحصون الأندلسية القديمة؛ وحتى هذه الأحياء الأندلسية التي مازالت تقوم في أعماق بعض المدن القديمة، تبدو في أثواب متواضعة رثة، وقد أُلِمَّ معظمها لغمر النسيان والعفاء.

على أنه توجد مع ذلك طائفة هامة من الصروح والآثار الأندلسية، التي شاعت العناية أن تتجو من أحداث الزمن وعادية المحو والغاء، في عدة من القواعد الأندلسية الذاهبة. وإذا تركنا حمراء غرناطة وجامع قرطبة جانباً، فإن معظم هذه الصروح والآثار، يتمثل في طائفة من القلاع (القصور) الأندلسية القديمة، والقصور التي كانت ملحقة بها، وفي بعض القناطر العربية، التي ألفت عليها يد الدهر، وبقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة، ثم في بعض الأطلال التي تركت إلى جانب بعض الكنائس، التي أقيمت فوق أنقاض المساجد، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس، ومن عقود أو أسوار أو مشارف دارسة، وأخيراً في عدد عديد من النخائر والتحف واللوحات الأندلسية، المبعثرة هنا وهناك في بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية. وهذا كله إلى ما خلفه الفن الأندلسي من أثر خالد، في طرز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية، من كنائس وقصور وأبواب وعقود وغيرها، وفي زخارفها ونقوشها، وما خلفه فن المنجنين الذي نشق من الفن الأندلسي، من الآثار الظاهرة في طرز كثير من الصروح، التي أنشئت في مختلف المدن الإسبانية، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر.

\* \* \*

ولقد تجولت في سائر القواعد الأندلسية الذاهبة، التي أضحت اليوم مدناً نصرانية إسبانية أو برتغالية، شاهدت وأتقصى هذه الآثار والأطلال، والنخائر الأندلسية الباقية، هنا وهناك، وأستوعب لمحاتها المندثرة. وقد استغرق مني هذا التجوال خمس رحلات متوالية ما بين سنتي ١٩٥٠ و١٩٥٤، ولم يكن دائماً سهلاً ولا هيناً في ظروف المواصلات الإسبانية المعروفة، ومع ذلك فقط استطعت أن أزور نيفا وستين مدينة أندلسية ونصرانية لها علاقة بتاريخ الأندلس، واستطعت أن أفيد خلال تجوالي ومشاهدتي، كثيراً من المعلومات والملاحظات القيمة. وكنت أفيد مذكراتي على الفور، فوق الصروح والأطلال الدارسة. وفي ثياب الكنائس الجامعة، وفي أروقة المتاحف العديدة، حتى اجتمعت لدي منها طائفة كبيرة، رأيتهما جذيرة بالتكوين والتنسيق والإخراج.

وقد لفتت نظري أثناء هذا التجوال الشامل ظاهرة تبعت إلى كثير من التأمل، ذلك أنني شاهدت في كثير من المدن الإسبانية والبرتغالية، التي كانت من قبل قواعد أندلسية إسلامية، كثيراً من الآثار الرومانية والقرطاجنية والإيبيرية، ومنها معابد ومسارح، وهياكل أخرى كاملة. ودعك من القناطر والحصون والعقود والأسوار الرومانية، التي كانت قائمة في كثير من مدن شبه الجزيرة الإسبانية حينما فتحها المسلمون، والتي مازال معظمها قائماً حتى اليوم في حالة جيدة، مثل أسوار آبله وطركونة العظيمة، والقناطر المائية الضخمة في شقوبية،



وماردة، وغيرهما، ومن الحصون والعقود والقناطر النهرية عدد عديد، فهذه كلها أبقى عليها المسلمون طوال عهدهم، وعملوا على تجديدها وإصلاحها والانتفاع بها. ودعك من الكنائس القوطية التي كانت قائمة وقت الفتح، وأبقى المسلمون على معظمها لعبادة رعاياهم النصارى، ولكن المدهش حقاً هو أن المسلمين قد أبقوا في نفس الوقت على المعابد الوثنية والنصرانية الرومانية وغيرها، لم يقوموا بهدمها، ولم يمسوها بسوء، وإليك بعض أمثلة بارزة لهذه الآثار الوثنية والنصرانية، التي كانت قائمة أيام المسلمين، وما زالت قائمة إلى يومنا:

١- في مدينة يابرة البرتغالية، يوجد معبد روماني كامل، هو المعروف بمعبد ديانا، وهو من أجمل وأكمل المعابد الرومانية في شبه الجزيرة.

٢- في مدينة ماردة يوجد معبد روماني، ومسرح روماني عظيم، يقبله "أمفيتاتر" روماني، يضارعه في الزوعة والفخامة، كما يوجد قوس تراجان الشهير.

٣- في مدينة ساجنتو (مريبطر) وهي ضاحية بالنسية، يوجد مسرح روماني كامل.

وقد لبث المسلمون قروناً سادة في هذه القواعد الأندلسية، ولم يفكروا في هدم هذه الآثار القديمة، من رومانية أو غيرها، مع كونها وثنية أو نصرانية. والسبب في ذلك بسيط واضح، هو أن المسلمين كانوا بعقليتهم المستبصرة، ودينهم السمح، يرون أن هذه الآثار إنما هي ذخائر فنية من تراث العصور الغابرة يجب الإبقاء عليها، وكانوا بذلك يرتفعون بالقيم الفنية إلى مستوى لا تصدع منه الاعتبارات الدينية الضيقة. وهذه الاعتبارات الدينية الضيقة هي التي حملت السياسة الإسبانية في عصور التزمت والتعصب، على أن تقصد بالمحو والإفناء الشامل، كل ما خلفته الأمة الأندلسية من مساجد وصروح وآثار جليلة. وربما كان ثمة إلى جانب الاعتبارات الدينية، اعتبار معنوي آخر هو أن لا تبقى الأمة الغالبة على شيء أو على كثير من روائع الفن الأندلسي، حتى لا تكون شاهداً أمام الأجيال اللاحقة، بما كانت عليه حضارة الأمة المغلوبة من مستوى رفيع باهر. وقد يرجع إفلات بعض الصروح والآثار الأندلسية القليلة، التي نجت من سياسة المحو والإفناء، إلى كفاح بعض الأذهان الإسبانية المستبصرة، كما حدث بالنسبة لجامع قرطبة ومنارة إشبيلية، وحمراء غرناطة، والتي اقتصر ظفر التعصب على بترها أو تشويهها.

وقد تحدثت وأنا بمدريد في هذا الموضوع مع العلامة والمؤرخ الإسباني الكبير الأستاذ مننديت بيدال، فحاول أن يشرح موقف السلسلة الإسبانية من هذه المسألة على النحو الآتي:

"إنه من المستحيل أن يطلب إلى عقلية القرن الثالث عشر والرابع عشر، أن تحترم مساجد مخصصة لعبادة أخرى، ولم يكن من المعقول أن تترك المساجد، إذ لم يكن لوجودها

محل، فهدمت لتقوم الكنائس، وإنه ليكون سبقاً للتاريخ أن يُطلب احترامها. وقد كانت إسبانيا في عصر البروتستانتية (الإصلاح الديني) بلدًا لا يدين بالتسامح.

ولكن إسبانيا كانت قبل سقوط غرناطة، تحتفظ بالأديان الثلاثة: النصرانية والإسلام واليهودية، وكان سان فرناندو (الملك فرناندو الثالث) ملك الأديان الثلاثة، وشعر قبره مكتوب باللاتينية والعربية والعبرية.

وكذلك كانت إسبانيا تبدو في هذه العصور أحيانًا أكثر تسامحًا من غيرها. مثال ذلك أن الصليبيين الفرنسيين في موقعة العقاب (١٢١٢ م) نكلوا عن متابعة الحرب، حينما رأوا زملاءهم الإسبان يأبون قتل الأسرى المسلمين. وقبل ذلك في موقعة باب الشزري Roncesvalles (٧٧٨ م)، أمر شارلمان أن يقتل من لم يعتق النصرانية من الأسرى المسلمين.

ولا بأس بهذه التعليقات والمقارنات التاريخية، بيد أنها لا يمكن أن تكفي لتبرير سياسة الأمة الغالبة في القضاء على الآثار الأندلسية، وقد كان من هذه الآثار غير المساجد، مدارس وقصور وحمامات وصروح مختلفة أخرى، تناولتها جميعًا سياسة الهدم والإفناء الشامل. وهذا اللوم لموقف السياسة الإسبانية من تراث الأمة المغلوبة، يردده كثير من العلماء الإسبان أنفسهم حسبما يجيء خلال الكتاب.

وكذلك لا يمكن أن تصدح هذه التعليقات والمقارنات التاريخية، من قدر السياسة المستتيرة السمحاء، التي أملت على الفاتحين المسلمين، احترام تراث الأجيال الغيرة الفنى، المدني والدينى، فى إسبانيا وفى غيرها.

وإنى لأضع اليوم بين أيدي قراء العربية هذه الدراسة الشاملة، وهذه الصور المختلفة للآثار الأندلسية الباقية، فى سائر القواعد الأندلسية الذاهبة، ملينة بالعبء التاريخية المؤلمة. ولود أن أنوء بأنى لم أقصد بما كتبت تكوين رحلة أو مشاهدات شائعة عابرة، ولكنى أردت أن أقدم قبل كل شيء دراسة تاريخية أثرية لهذا التراث الأندلسي، الذي مازل مثلاً أمام أعيننا، ينبئنا بكثير من عظمة الماضي وروعته.

وقد عنيت عناية خاصة بمسألة الخرائط والصور، فحصلت على مجموعة كبيرة من الخرائط الإسبانية التفصيلية، وخطط المدن الأندلسية، كما حصلت على مجموعة كبيرة من صور الآثار الأندلسية فى مختلف البلاد التى زرتها، ومنها ما صورته بنفسى، وقد أوردت منها فى هذا السفر طائفة كبيرة، نسيين منها عظمة هذه الآثار وروعتها.

وإنى أنتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى مختلف السلطات الإسبانية، ولا سيما دور البلديات، ومكاتب السياحة، والمتاحف، والكنائس والأديار، ودور المحفوظات، فى



مختلف البلاد التي زرتها؛ وكذلك إلى العلماء والأصدقاء الإسبان الذين لقيتهم، واتصلت بهم خلال رحلاتي المتوالية، لما لقيت منهم جميعاً من ضروب المعونة والمجاملة. وأخص بالذكر منهم الأستاذ لويس سيكو دي لوشينا وسبستيان لومبريرو بغرناطة، وفيلكس هرناندث بقرطبة، والدكتور باييري بطرطوشة، والأستاذ كادينا بقسطلونة، والدكتور سارناوو كاريرس بشاطبة، والدكتور بوسكيتس مولت بميورقة، والأب رмбаوو برنده، والسيور خوان تمبوري ألفاريث بمالقة، وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم.

كما أقدم جزيل الشكر إلى معهدنا المصري بمدريد لما أسدى إلى من معاونات قيمة لدى مختلف الهيئات العلمية.

القاهرة في يولييه سنة ١٩٥٦

محمد عبد الله عنان

## خطاب إلى المؤلف من العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال

ثارثال، رقم ٢٣ (شامرتين) مدريد - في ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٧

الأستاذ م. ع. عزان - مدريد

صديقي المحترم

لك خالص الشكر لإرسالك إليّ كتابك "الأثر الأندلسية في إسبانيا والبرتغال" وهو الذي تعرض فيه لنائج رحلاتك ودراساتك في هذه الأعوام الأخيرة في الجزيرة الإسبانية؛ وإنه لما يستحق جزيل الشكر، أن تقوم بالتعريف بهذه الأشياء باللغة العربية؛ لأنني أعتقد أنه من الضروري جداً، أن تقع المعرفة المتبادلة، والإدراك المتبادل، والتقدير المتبادل.

بيد أني لود فقط أن أبدي بعض إيضاحات صغيرة حول التأكيدات التي أبديتها بالنسبة للمعاملة المختلفة التي قام بها كل من المسلمين والإسبان تجاه الأثر التي لقوها عند فتوحهم، وعند استردادهم لهذه الفتوح. واعتقادي أن الأثر الرومانية، وما قبل الرومانية، قد بقيت مصونة لمئاتها الفاتكة، في حين أن العمارة العربية هي أقل بكثير في المثانة، وأكثر اهتماماً بزخارفها الجصية الجميلة، ولم يبق الإسبان بهدم المساجد الإسلامية، ولكن الذي حدث هو أنهم - وهو ما يطابق المنطق - حولوها إلى كنائس نصرانية، مثلما فعل العرب حينما استخدموا لمزاولة شعائرهم الكنائس النصرانية القديمة. وثمة أمر آخر، وهو أنه عند ذكر التعبيرات الخاصة بالمناصب العسكرية والفضائية المشتقة من العربية، تسرب سهو صغير؛ حيث ذكرت كلمة Alvarez، وهي لقب عائلي، ويجب أن يذكر بدلاً منها Alférez، وهي منصب عسكري.

ولما فيما يتعلق بما تبقى، فإنني متفق معك. ذلك أن ما كاد ينتهي العصر الوسيط، عصر التعايش المشترك، حيثما كان يقوم في القرى حي إسلامي بمساجده وحي يهودي بمعابده، حتى جاء عصر التزمت وعدم التسامح.

وإنني مع أخلص تحياتي، مازلت أحتفظ عن محادثتنا بأطيب الذكريات.

ر. مننديث بيدال

تلقيت هذا الخطاب من صديقي العلامة المؤرخ الكبير الأستاذ مننديث بيدال، رئيس الأكاديمية الملكية الإسبانية، وذلك على أثر ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، واطلاعه على ترجمة ما ورد في مقدمته خاصًا بموقف المسلمين من الآثار القديمة، وموقف الإسبان من الآثار الأندلسية.

ولني مع تقديري لما جاء في خطاب العلامة الكبير من الملاحظات، أود أن أسجل هنا فقط نقطتين:

الأولى - أن الصروح الأندلسية من مساجد وقصور ومدارس وغيرها، لم تندثر، لأن العمارة الإسلامية أقل متانة من العمارة الرومانية؛ ولكن لأنها قويت وهدم معظمها بناءً بأيدي الإسبان، عقب "الاسترداد". وأما فيما يتعلق بمدى متانة العمارة الإسلامية فإني أود أن أذكر هنا فقط صرحًا إسلاميًا واحدًا، هو جامع قرطبة، الذي حُوّل إلى كنيسة جامعة، والذي مازال قائمًا بعقوده وسواريه، وسائر أبنيته في أجود حالة من الحفظ، وذلك بالرغم من أن أقدم أجنحته، وهو الجناح الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل الأموي، قد مضى على بنائه زهاء ألف ومائتي عام.

الثانية - أن العرب عند الفتح لم يقوموا بهدم جميع الكنائس التي كانت قائمة بالمدن المفتوحة، أو تحويلها جميعًا إلى كنائس؛ وإنما الذي حدث وتزايد جميع الروايات، هو أنهم حولوا بعض الكنائس الرئيسية إلى مساجد، وبنوا مكانها المساجد، كما حدث في قرطبة وطليطلة، وبعض قواعد أخرى، ولكن الثابت المحقق إلى جانب ذلك، هو أنهم تركوا في نفس الوقت في سائر المدن الأندلسية كثيرًا من الكنائس، لكي يزاول فيها النصارى شعائرهم أحرارًا كإخوانهم المسلمين. وقد كان المستعربون أو النصارى المعاهدون يكونون في مختلف القواعد الأندلسية أقليات كبيرة، وكانوا إلى جانب كنائسهم القديمة، يقيمون كنائس من وقت إلى آخر. وكانت هذه الكنائس في أحيان كثيرة، تقوم إلى جانب المساجد. فأين هذا كله من سياسة الهدم الشامل التي اتبعتها إسبانيا النصرانية عقب "الاسترداد" نحو سائر المساجد والصروح الأندلسية الأخرى؟ إنه لا شيء سوى التباين الواضح بين التسامح المستنير، والتزمت المطبق.

محمد عبد الله عنان



## تصدير

### للطبعة الثانية

مذ ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، استطعت أن أقوم برحلات جديدة لطائفة من المدن والأماكن الأندلسية التي لم يتح لى زيارتها من قبل؛ مثل جيان وأبدة وبباسة فى شرق الأندلس، وإستجة وقرمونة ولبله فى غربيهـا، وأرشدونة ومربلة والمنكب وشلوبائية ومتريل فى جنوبهـا، وهذا فضلاً عن زيارتى الجديدة المتكررة للقواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة، ومالقة وغيرها، وقد استطعت خلال هذه الرحلات الجديدة، أن أقوم بدراسة طائفة كبيرة أخرى من الآثار الأندلسية الباقية، وأن أجمع كثيراً من المعلومات الأثرية المفيدة.

ومن ثم فقد رأيت أن أصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب، متضمنة لتلك الدراسات الجديدة، متضمنة فى نفس الوقت لكثير من الزيادات والتصحيحات، الاصطلاحية والأثرية، التى اجتمعت لى خلال المراجعات العديدة التى قمت بها فى الأعوام الأخيرة، ومنها مراجعات لمصادر مخطوطة هامة.

وقد أضيفت إلى الكتاب طائفة كبيرة جديدة من الصور الأثرية لمختلف المدن والأماكن الجديدة التى زينت فى هذه الطبعة، هذا إلى ما أضيف إليه من الصور الجديدة، لبعض المدن والأماكن السابقة.

وكذلك أجريت فى تنظيم الكتاب بعض التعديلات، من تقديم وتأخير اقتضاء تنسيق المواد القديمة والجديدة.

وإنى إذ أضع هذه الطبعة الجديدة من الآثار الأندلسية الباقية، بين لىدي القراء، أرجو أن أكون قد استطعت أن أنقل إليهم صورة جامعة لذلك التراث الأثري المؤثر - ترك الأمة الأندلسية المجيدة.

القاهرة فى: ربيع الثانى سنة ١٣٨١

سبتمبر سنة ١٩٦١

محمد عبد الله عنان



الكتاب الأول  
**القواعد الهندسية الكبرى**



## ١ - قرطبة

### Cordoba

لبيت قرطبة زهاء ثلاثة قرون، قاعدة الدولة الإسلامية بالأندلس، ومركز الفُوح والغزوات المختلفة، ومثوى الحركة العقلية الأندلسية. ولبيت حتى بعد انهيار الخلافة، تحتفظ في ظل الطوائف، ثم المرابطين والموحدين، بكثير من هيبتها النادرة، كقاعدة رئيسية من قواعد الإسلام في إسبانيا. وكان لسقوطها في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٣٦ م (٦٣٣ هـ) أعظم وقع في الأندلس، وفيما وراء البحر. ومع أن مجتمعها الإسلامي التالد، أخذ ينهل منذ سقوطها بسرعة، وقد غادرها أكثر سكانها المسلمين، ولا سيما الأشراف ولبناء الطبقات الممتازة، فراراً إلى القواعد الإسلامية الأخرى، فقد بقي بها في ظل حكم القشتاليين كثير من المسلمين الذين تدجنوا<sup>(١)</sup>، ثم فقدوا بمضي الزمن، وحكم الاندماج في المجتمع الجديد، خواصهم ودينهم ولغتهم؛ ولم يمض زهاء قرن أو قرنين، حتى كان المجتمع الإسلامي في قرطبة، قد غاضت آثاره الأخيرة.

وقرطبة مدينة أندلسية إسبانية عريقة، ترجع إلى العصر الروماني، وهي تقع على سفح جبال قرطبة الجنوبي، على منحنى الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وترتبطها مزيج بين السلاط الخضر، حيث تزرع الحبوب والكروم، وغابات الزيتون وحدائق البرتقال والليمون، وبين السفوح المنحدرة من جبال سييرا مورينا<sup>(٢)</sup> حيث توجد المراعي الطيبة. وهي في الوقت نفسه، مدينة صناعية، بها مناجم الفحم والرصاص والنحاس، وأهم صادراتها الفواكه والنبذ والزيت.

ولا تعد قرطبة اليوم، من المدن الإسبانية الكبيرة، وهي ليست في مرتبة بلنسية أو إشبيلية من حيث اتساع الرقعة، أو كثافة السكان، ولا يعدو سكانها اليوم مائة وثمانين ألف نفس، وقد بلغوا في عهد ازدهارها أيام الدولة الإسلامية زهاء خمسمائة ألف.

واليوم تبدو عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة، مدينة أوربية بكل معاني الكلمة. وهي تكاد تكون مربعة الرقعة. وأعظم شوارعها "متنزه القبطان الأعظم" "Paseo del Gran

(١) من تدجن أي لف واستأس، ومنها منجن ومنجنون، وبالإسبانية Mudéjares وهم المسلمون الذين كانوا يعيشون تحت حكم الإسبان.

(٢) جبل سييرا مورينا Sierra Morena هي بالعربية "جبل الشارات".

"Capitàn"، وهو شارع عريض جداً تقوم على جانبيه طائفة من المباني الفخمة المحدثّة، والقبطان الأعظم الذي سُمي باسمه هو "جونثالفو دي كوردوبا" وهو من أعظم قواد إسبانيا أيام الملكين الكاثوليكين فرديناند وإسبيللا، فاتحى غرناطة؛ ويقاطع هذا الشارع شارع عظيم آخر هو شارع كنانيلخاس، "Avenida de Canalejas"، وعند تقاطعهما يقع "ميدان الثيران"، حيث توجد ساحة مصارعة الثيران. وأهم ميادينها التجارية "ميدان كانوقلاس" "P. de Cànovas"<sup>(١)</sup>، وعلى مقربة منه يقع "ميدان إشبيلية"، ويتفرع من كليهما بعض الشوارع الضيقة التي تؤدي إلى المسجد الجامع. ومن أهم شوارعها الوسطى "شارع سان بابلو" وشارع "سان لورنسو" وشارع "سان فرناندو". وتقوم المدينة كلها في شمال النهر، ما عدا ضاحيتها الصغيرة المسماة "حي الروح القدس" "Barrio del Espíritu Santo"، وهي تقع على الضفة الجنوبية من النهر تجاه المسجد الجامع. ومما يجدر ذكره أنه مازالت توجد بقرطبة اليوم شوارع صغيرة تحمل أسماء "المنصور" و"ابن رشد" و"ابن ميمون" وهي تقع متجاورة على مقربة من المسجد الجامع.

وقد نزلت قرطبة الحديثة كل معالمها القديمة، فلم يبق بها اليوم - إذا استثنينا مسجدها الجامع القديم - ما يذكرنا بماضيها الإسلامي المجيد. وتكاد قرطبة - إذا استثنينا أيضاً بعض الدروب المحيطة بالجامع - تخلو حتى من الأحياء الأندلسية القديمة، ذات الدروب الضيقة والطابع الخاص. وقد غاض من مبانيها الحديثة كل أثر للطراز الأندلسي القديم، الذي مازال يُمثل في كثير من مدن الأندلس الأخرى، ولا سيما إشبيلية وغرناطة، وهي تبدو على الجملة بشوارعها الشاسعة المحدثّة، وعماراتها العالية، مدينة أوربية محضّة، لا تذكر لأول وهلة بشيء من ماضيها القديم.

ولكن قرطبة الأوربية النصرانية، مازالت حتى اليوم تحتفظ بأثر من أعظم الآثار الأندلسية، وهو مسجدها الجامع القديم، الذي عاصر أيام عظمتها الزاهية، منذ بداية الدولة الأموية، وأيام محنتها خلال الفتنة والثورات المتعاقبة، وأيام المرابطين والموحدين، حتى سقوطها في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقدّيس فرناندو وذلك في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦ م.

ويقوم هذا الأثر الإسلامي العظيم - مسجد قرطبة الجامع أو "La Mesquita Aljama" كما يسميه الإسبان - فوق بقعة صخرية، تقع في نهاية جنوب غربي قرطبة، على مقربة من القنطرة العربية القديمة، المقامة على نهر الوادي الكبير، وتحيط به الدروب الضيقة من جوانبها الأربعة، وتبدو على جدرانها وواجهاتها الخارجية آثار العفاء والقدم. ولكنك متى

<sup>(١)</sup> كنانيلخاس وكانوقلاس من أعلام السلسلة الإسبان في القرن التاسع عشر.

جزت إلى داخل فناءه الشاسع، وتأمّلت مدخله الرئيسي، أدركت لأول وهلة أنك تواجه أثرًا من أجل وأبدع الآثار الإسلامية الباقية.

وفي قصة المساجد الأندلسية الجامعة، تمثّل عبّرة التاريخ الخالدة. فقد حولت - أو حولت مواقعها - جميعًا إلى كنائس جامعة (كاتدرائيات)، وفي أمثلة كثيرة، كانت تُبنى الكنيسة الجامعة كلها أو بعضها من أنقاض المسجد المهذوم، كما هو الشأن في كنيسة طليطلة الجامعة، وأحيانًا تستبقى منارة الجامع لتغدو برجًا لأجراس الكنيسة، كما هو الشأن في كنيسة إشبيلية الجامعة، وذلك كله إشادة بظفر النصرانية على الإسلام في إسبانيا. ولم يشذ مسجد قرطبة عن هذه القاعدة، فهو اليوم بالرغم من محاربيه وعقوده الإسلامية، كنيسة قرطبة الجامعة (كاتدرائية). وقد بُدِيَء بإنشاء مسجد قرطبة، في سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م)، على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وكان موضعه كنيسة قوطية. وأراد عبد الرحمن أن يكون مسجد قرطبة أعظم مساجد الأندلس وأفخمها، فجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المموه من أربونة ونيمة وإشبيلية وقسطنطينية. ولكنه توفي قبل إتمامه، فتمّه ولده هشام، وأنشأ به منارته الأولى، وزاد فيه عبد الرحمن بن الحكم بهوين جديدين من ناحية القبلة، أعني من الناحية الجنوبية المواجهة للنهر (٢١٨ هـ - ٨٣٣ م). وجدده الأمير محمد بن عبد الرحمن، وأنشأ به مقصورة فخمة كانت الأولى من نوعها بمساجد الأندلس. وفي عهد ولده الأمير عبد الله أنشئ "الساباط" الموصل من القصر إلى الجامع، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبني فوق عقد كبير، يفضي من القصر إلى مقربة من المحراب. وجدد عبد الرحمن الناصر واجهة الجامع وهنم منارته القديمة، وأنشأ مكانها منارة أخرى أرفع وأفخم (سنة ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م). وكانت منارة الناصر مربعة الواجهات، لها أربعة عشر شباكًا ذات عقود، وتحتوي على سلمين؛ أحدهما للصعود والآخر للنزول، وفي أعلاها ثلاث تفلحات، اثنتان من الذهب، والثالثة من الفضة. وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها، نكاد تخطف الأبصار ببريقها<sup>(١)</sup>.

ثم زاد فيه ولده الحكم المستنصر زيادات كبيرة، فابتنى المحراب الثالث، واستغرق بناؤه أربعة أعوام، وعملت له قبة فخمة، زخرت بفسيفساء بدیعة، واستقدم الحكم من قسطنطينية خبيرًا بأعمال الفسيفساء، وأرسل إليه قيصر منها قدرًا كبيرًا؛ وأنشأ الحكم أيضًا مقصورة جديدة بها قبة على الطراز البيزنطي، ولبتى إلى جانب المسجد دارًا للصدقة، وأخرى للوعاظ وعمل المسجد. وتشغل زيادة الحكم في الجامع قسمه الأوسط، الذي يلي جناحه القديم الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل وهو يبلغ نحو ثلث الجامع<sup>(٢)</sup>. وأخيرًا جاء

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب (بيروت) ص ٣٨.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩، وأعمال الأعلام ص ٤٨.



المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور) فزاد فيه من ناحيته الشرقية، زيادة كبيرة، فأقام بهذا الجامع القديم، من شماله إلى جنوبه، على رقعة شاسعة، تكاد تغل مساحته الأصلية، جناحاً أو جامعاً جديداً، رُوعي في إنشائه التماثل والمطابقة للصرح القديم (٣٧٧ هـ - ٩٨٧ م) وبذلك تضاعف حجم الجامع تقريباً، وبلغ عدد سواريه ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وأربعمائة وسبعة عشرة، وبلغت نزيلاته مائتين وثمانين.

وهكذا لبث الأمراء والخلفاء عصوراً يتعاقبون في توسيع جامع قرطبة وتجميله، حتى غدا برقعته الشاسعة، وسواريه الألف وأربعمائة، وأبوابه البرونزية العديدة، ومحاريبه الفخمة، وزخارفه البديعة، من أعظم المساجد الجامعة في العالم الإسلامي، إن لم يكن أعظمها جميعاً.

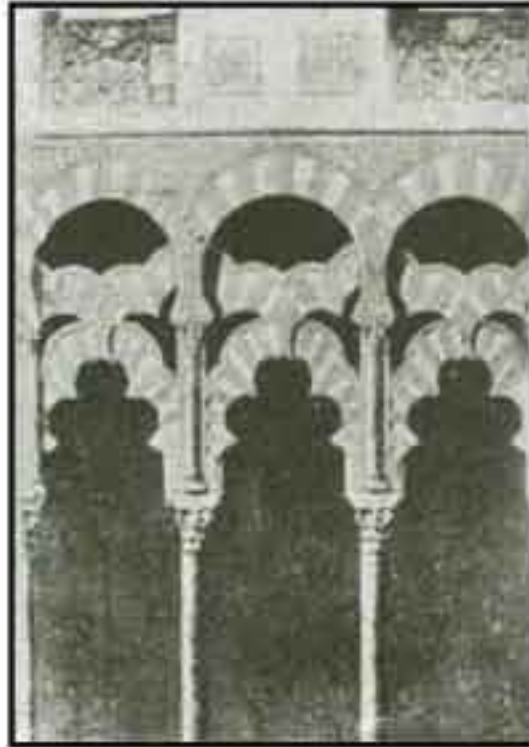
وقد كان جامع قرطبة، فضلاً عن وظيفته الدينية الرئيسية كمسجد الإمارة ثم الخلافة الرسمي، يتخذ مركزاً لبعض المهام الكبرى، فقد كانت تؤخذ فيه بيعة الأمير أو الخليفة الجديد، وكانت تعلن من فوق منبره عظام الحوادث، وتقرأ الأوامر والأحكام الخلافية الهامة، وكان يعقد به مجلس قاضي القضاة، وفضلاً عن ذلك كله، فقد كان جامع قرطبة، مركزاً للجامعة قرطبة الشهيرة، التي ازدهرت أيام الخلافة، وكانت تنظم بين أروقته حلقات الدراسات الرفيعة المختلفة، التي جعلت من قرطبة، خلال العصور الوسطى، أعظم مركز للدراسات العلمية الممتازة في الغرب.

ويشغل جامع قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً، وعرضه مائة وخمسة وثلاثين، وبذا تبلغ مساحته ٢٤٣٠٠ متراً مربعاً، ويدخل في ذلك صحنه المكشوف الواقع في شماله والذي يعرف اليوم بفناء النارنج أو البرتقال "Patio de los Naranjos"، وهو فناء شاسع مستطيل يكاد يبلغ ثلث رقعته، وهو أندلسي الطرز والمظهر، بمعالمه وأوضاعه ونوافيره وأشجاره، ويحيط به من الشمال والغرب عدد من الأبنية، ذات أعمدة وعقود على الطرز القوطي، ويدخل إليه من الباب الرئيسي المجاور للمنارة، وهو الباب المسمى باب الغفران "Puerta del Perdon"، وكان للجامع من قبل تسعة عشر باباً فخمة، تؤدي كلها إلى فناءه الشاسع. ويبلغ ارتفاع "باب الغفران" سبعة أمتار، وعقده كحدوة الجواد، وقد زُين بزخارف عربية جميلة. بيد أنه ليس هو باب المسجد القديم، ولكنه أنشئ بعد سقوط قرطبة سنة ١٣٧٧ م، ورُوعي في إنشائه أن يكون تقليداً للطرز العربي. وفي فناء البرتقال توجد عدة من النوافير، وقد غرست في جنباته وفي وسطه أشجار البرتقال، وهو تقليد إسباني قديم متبع في سائر المساجد الجامعة، التي حولت إلى كنائس، ومنها صحن جامع إشبيلية الذي يعرف أيضاً بفناء البرتقال.

ويقع بناء الجامع في جنوبي الصحن بينه وبين النهر، وتشرف لأجل واجهاته وهي الشمالية على الغناء، وهي ترجع إلى عصر عبد الرحمن الداخل وولده هشام. وفي هذا الجناح يوجد أقدم أبواب الجامع، وهو يقع في وسط الجدار الواقع في الناحية الغربية، ويطلق عليه الإسبان اسم باب "ثنت إشتين" "San Esteban". أما الجناح الكبير الذي أنشأه المنصور فيقع إلى اليسار، ومنخله الرئيسي باب برونزي هائل رائع الزخرف، ويعرف بباب النخيل "Puerra de las Palmas" وهو مواجه لباب الغفران. وله ثمانية عشر بابًا أخرى، في جوائبه الأربعة، سد معظمها اليوم، وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للدخل من أول نظرة، ويحار البصر في تأمل عقود، وأعمدته العديدة المتقاطعة، التي لا تكاد تدرك العين نهايتها. وتبلغ عقودها في الطول تسعة وعشرين، وفي العرض تسعة عشر، ويبلغ ارتفاع سقفه نحو ثلثي عشر مترًا، ولأول وهلة، ولمدى قصير فقط، يشعر المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي. ولكنه متى دقق البصر قليلًا، أدرك في الحال أن المسجد قد استحال إلى كنيسة، بل إلى كنائس لا نهاية لها. والواقع أن الجامع يبدو من الخارج، في مجموعه، كأنه كنيسة أكثر منه جامعًا، وقد عُدلت أسقفه على الطراز الكنسي، وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى، وهي التي تظل الهيكل الرئيسي الذي أنشئ في وسطه، وحلت محل القباب سقف مصلعة، تزيناها من الداخل نقوش نصرانية، وأنشئت على طول جوائب الجامع الأربعة من الداخل، هياكل لا نهاية لها، ونصبت فوقها الصلبان، وتمثال القديسين وصورهم، وجعل من كل عقد أو اثنين هيكل قائم بذاته. ولم يترك من جوائبه سوى مكان المحرابين، وأحد المحرابين قديم مخرب، ويقع على مقربة من الزاوية اليمنى للجامع، والمرجح أنه المحراب الأول قبل توسعة الجامع. والمحراب الثاني قريب منه، ويقع في نحو الثلث من الناحية الجنوبية. وهو فخم مزين بالنقوش والآيات القرآنية، وفي دخله مخدع صغير، وسقفه عقد رخامي مزين بالزخارف المذهبة، وهو معلق يفتح للزائرين بذاكرة خاصة.



جامع قرطبة، صحن الجامع  
وقد ظهرت به لشجار النارنج وبرج الأجراس الذي أقيم مكان العنارة القديمة



جامع قرطبة، عقود منخل المحراب

ومنى سرحت البصر في هذه التفاصيل مدى لحظة، أدركت أنك تجوس خلال أثر إسلامي شوهدت معالمه الإسلامية بطريقة منظمة، ولكن ساذجة فجة. وأشد ما يؤذي النظر خلال هذا الجلال المشوه، ما يسود وسط الجامع وجوانبه من الظلام. فالضوء قليل ينفذ إلى بضعة أركان ونواح متفرقة. والسبب في ذلك هو أن معظم القباب القديمة قد أزيلت وبنيت مكانها أسقف مستوية، وبُني ما بين كثير من الأعمدة، ويكاد ينعمد الضوء حول الهيكل الكبير القائم في وسط الجامع. وقد بُني هذا الهيكل بشكل مغصوب مفتعل، تحت القبة الرئيسية وبين القباب الأربع التي تحيط بها، على شكل صليب "Crucero"، وقد سد فيها ما بين الأعمدة وزينت الجدران من الداخل، وكذلك سقوف هذه القباب بزخارف نصرانية، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة، ورسمت صور القديسين بين الزخارف، ونصب في كل من الناحيتين اليمنى واليسرى هيكل، علقت فوقه صور كبيرة للقديسين. وصفت كرسي المرثلين عند الهيكل الأيمن، كما وضعت هنالك عدة أناجيل تاريخية. وبُني في كل من الناحيتين الأخرين في أعلى الوسط مخدع فخم، والظاهر أنهما مخدعان ملكيان، كانا أيام ازدهار الملوكية، يخصصان لجلوس الملك وأسرته عند إقامة القداس.

وترجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم، إلى أوائل القرن السادس عشر، ذلك أنه لما سقطت المدينة في أيدي النصارى، ودخلها ففتحها سان فرناندو ملك قشتالة، أقيم في المسجد الجامع قداس شكر، ثم أنشئ به هيكل مؤقت، واستمر الجامع بحالته الأصلية حيناً، واقتصر الملوك الإسبان على إجراء تغييرات جزئية في أوضاع الجامع،



وبإنشاء المصليات والهيكل الصغيرة. وفي عصر الملك ألفونسو العالم، في أواخر القرن الثالث عشر، أزيلت المقصورة الخليفة، وأقيم مكانها المصلى الكبير "Capilla Mayor"، وكان يستخدم في ذلك صناع من المدجنين، الذين يعرفون الطراز والزخارف العربية، وذلك حرصاً على شكل المسجد وطرازه ولكن الفن الأندلسي كان يومئذ قد فقد كثيراً من قوته وروعته، ومن ثم فإن أعمال المدجنين في المسجد، لم تكن تضارع الأوضاع والزخارف الأندلسية الأصلية، في براعة التنسيق وجمال الابتكار، وجاءت هذه التغييرات في معظمها أقرب إلى الفن القوطي منها إلى الفن الإسلامي.

باب القديسة كاتالينا أحد أبواب الجامع



وقد كانت إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع على هذا النحو، مثار نقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من إسبانيا وغيرهم. وقد وصفه بعضهم بأنه "أشنع عمل همجي" <sup>(١)</sup> ارتكب لتثويبه. وكان ذلك أيام الإمبراطور شارلوكان، ففي سنة ١٥٢١، استأذن أسقف قرطبة دون ألونسو مانريكي الإمبراطور، في إقامة هيكل رئيسي، يسبق على الجامع صفته النصرانية بصورة حاسمة، فأذن الإمبراطور، وأقيم الهيكل القوطي الكبير الذي يتوسط الجامع "Crucero"، واقتضى بناء قبته العالية، أن يزال السقف الأندلسي. وكانت إقامة هذا الهيكل الضخم، وما أحدثه في الجامع من تشويه مؤلم، أثرًا من آثار التعصب الكنسي العميق الذي طبع السياسة الإسبانية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والذي قضى على كثير من الآثار الأندلسية الفخمة. ومما هو جدير بالذكر أن الإمبراطور حينما رأى هذا الصرح الفضولي الضخم داخل الجامع بعد ذلك، أبدى سخطه، وندم لما صرح به، واحتج على إقامة الهيكل على هذا النحو في وسط هذا الفراغ الرائع، الذي تبدو فيه ملامح الفن الإسلامي، وصرح بأن عمل النصارى يبدو بالنسبة له ضئيلًا باهتًا، ويروى أنه قال للمشرقيين على الجامع: "لقد بنيت هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر، وقد قضيت بذلك على ما كان أثرًا وحيدًا في العالم".

والغريب في ذلك أن الإمبراطور شارلوكان نفسه، هو الذي أمر بإزالة جزء كبير من قصر الحمراء في غرناطة، ليبنى عليه قصره الروماني، إلى جانب قصر الملوك المسلمين، وهو الذي أمر بإزالة مسجد الحمراء ليبنى مكانه كنيسة سانتاماريا.

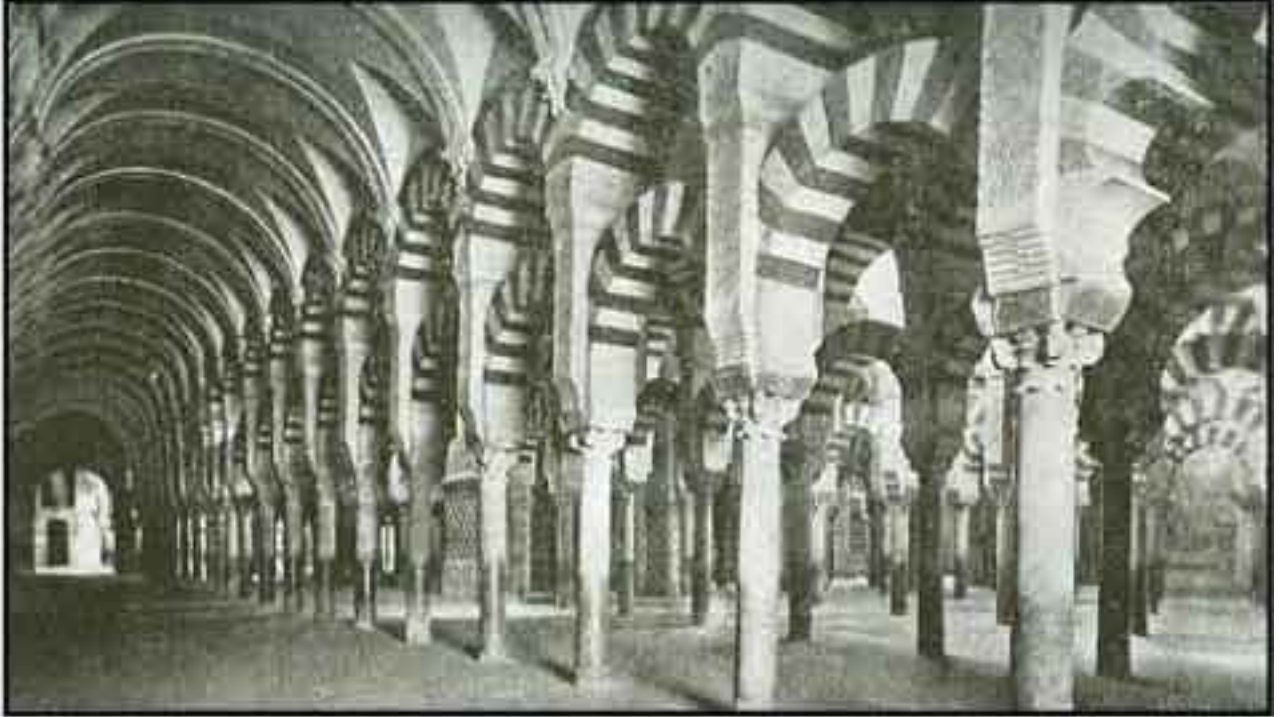
وقد تم بناء هذا الهيكل الكبير في أواخر القرن السادس عشر. ويقول العلامة الأثري الإسباني كونتريراس، متولى إصلاح قصر الحمراء، "إن إقامة هذا المصلى الجديد، في قلب القديم، قد رذ في تحطاط الفن" وإته في رأيه "هو الذي أسبق على الجامع ملامحه المظلمة الموحشة" <sup>(٢)</sup>.

وقد استمر الصنّاع المنجّون، واليهود والنصارى الذين تتلمذوا عليهم، في القيام بأعمال الترميم والزخارف في المسجد الجامع عصورًا. ولؤلئك المدجنون هم الذين خلقوا هذا المزيج من الفن الإسلامي النصراني، وهو الفن المنجّي، وهو الذي غلب على كثير من الصروح الأثرية الإسبانية، منذ القرن الثالث عشر، وحتى سقوط غرناطة كان المدجنون هم الذين يقومون في قرطبة وغيرها، من المدن الأندلسية القديمة، بالإصلاحات والزخارف الأثرية الأندلسية.

<sup>(١)</sup> A. F. Calvert & W. M. Galliehan: Cordova, a city of the Moors, p. 76.

<sup>(٢)</sup> R. Contreras: Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada, Sevilla y

Córdoba. (Madrid 1878) p. 66.



جامع قرطبة. الجناح الأيسر المسمى "جامع المنصور"، وهو الذي أنشاه المنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٧  
- ٣٨٠ هـ (٩٨٧ - ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم

وفي سنة ١٥٩٣، أزيلت منارة الجامع القديمة، وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالي، على نمط يشبه المنارة، وقد جاء أعلى منها، وارتفاعه الحالي ثلاثون متراً، وفي داخله سلم حجري سميك. وقد ظهرت عليه آثار الهلى والقدم. وفي جنباته عتف ومخادع تسكنها بعض الأسر الفقيرة. وقد أقيم فوقه تمثال للقديس رافائيل حامى المدينة.

وقد حمل العلماء الأثريون جميعاً، وفي مقدمتهم العلماء الإسبان على هذا التشويه، لأثر من أجل الآثار الإسلامية، ووصفه العلامة كونتريراس بأنه "تكنيس للفن"<sup>(١)</sup>. بيد أن هذا السخط وهذا التأسى لمسح مسجد قرطبة الجامع، يبدو بنوع خاص فى هذه الكلمة البليغة المؤثرة التى يستهل بها المستشرق والعلامة الأثري الإسباني أمادوردي لوس ريوس، كلامه عن تاريخ المسجد الجامع، وهى فى الواقع لبلغ رذاء لهذا الأثر الإسلامى العظيم:

"إنه لا الأوضاع النصرانية الفخمة التى تقوم اليوم، فى وسط هذه العمدة التى لا تحصى، ولا ذخائر الفن التى أشدقه عليها أكبر الفنانين الذين أقاموها فى القرن السادس عشر، ولا تلك السلسلة التى لا نهاية لها من المصليات التى ترجع إلى كل عصر، والتى حشرت بجدران المسجد وشوكتها، ولا الصور التى تغطى عقودها فى الجزء المخصص للمحارب، ولا أولئك الملائكة الثقيل الذين كأنهم يؤخرون طيرانهم لكى يذيروا العبادات المقدسة، ولا الكلمات الإنجيلية التى تدوي من كرسى الروح القدس، فى هذه العقود ذات البناء المحدث، يمكن أن تهدد أو تمحو ذرة من جلال هذه الأشباح المتجولة، التى تبحث عبثاً فى زاوية المحراب عن ذلك الكتاب المقدس، الذى غمست صفحته، حسبما تقول الرواية المتوارثة، بدم عثمان الزكى شهيد الإيمان. إن ثمة عالماً من الذكريات يملأ مخيلة السائح، حينما يسرح البصر بشعور من الأسى خلال هذه التشويهات: تلك الأعمال التى أملاها إيمان أجداننا المغرقة المخلص معاً. فدفعتهم الرغبة، فى أن يمحوا إلى الأبد، من البقعة التى خصصت لكتاب عيسى، روح محمد، وأشباح أوليائه الذين يغشونها، والذين سوف يغشونها دائماً ما بقيت فى الوجود. ذلك أنه بالرغم من كل التشويهات التى عملت، وكل التغييرات التى أحدثت بها، فإنه قد ختم عليها، وفقاً لقانون محتوم، بخاتم الفن الذى أوحى بها، وروح الأمة التى وضعت خططها وأقامتها"<sup>(٢)</sup>.

وقد زار قرطبة فى أواخر القرن السابع عشر (سنة ١١٠٢ هـ - ١٦٩١ م) الوزير المغربى محمد بن عبد الوهاب الغساني وزير مولاي إسماعيل سلطان المغرب وسفيره إلى كارلوس الثانى ملك إسبانيا، ووصف لنا مسجدها الجامع فيما يأتى:

(١) R. Contreras, Ibid, P. 66.

(٢) D. Rodrigo Amador de los Rios: Inscripciones de Córdoba P. 8.

"وهو مسجد كبير جدًا في غاية الإتقان وحسن البناء، وبداخله ألف وثلاث مائة وستون سارية، كلها من الرخام الأبيض، بين كل سارية قوس فوق قوس آخر، وله من الأبواب الآن أربعة عشر بابًا، وقد سد كثير من الأبواب وغيرها. ومحرابه الإسلامي باق على حاله لم يتغير، ولم يحدث فيه شيء، إلا أنهم جعلوا عليه شبكًا من نحاس، وطرحوا أمامه صليبيًا فلم يدخل عليه أحد إلا قبل ذلك الصليب، ولم يزد بداخله ولا بحائطه، شيء قليل ولا كثير. ولهذا المسجد صحن كبير جدًا مشتمل على خصّة ماء في وسطه، ويدور بها في سائر الصحن من أشجار النارج مائة وسبع عشرة شجرة؛ ويقابل موضع المحراب من الصحن منار المسجد، وهو منار كبير مبنى بالحجارة، إلا أنه ليس بغاية الارتفاع كمنار طليطلة وإشبيلية. ومازل سقف المسجد وأبوابه باقية على حالها لم يحدث فيها شيء، إلا ما تدعو الضرورة إليه من إصلاح السقف، الذي يتداعى إلى السقوط وشبه ذلك. وقد أحدث النصارى بوسط هذا المسجد مقابلًا لمحرابه قبة كبيرة مربعة، مشبكة بشبائك من نحاس أصفر، جعلوا داخل هذه القبة صليبيًا من صلبانهم، وكتب صلواتهم التي يحضرونها مع الموسيقى وشبهها.

وأبواب هذا المسجد باقية على حالها من البناء الأول والنقش بالكتابة العربية؛ وهذا المسجد هو أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صنيًا<sup>(١)</sup>.

وزل قرطبة من بعده في سنة (١١٧٩ هـ - ١٧٦٥ م)، الغزال الفلبي سفير سلطان المغرب لبي عبد الله المنصور بالله، إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث. وهو يصف لنا عاصمة الخلافة القديمة، وموقعها في الوادي قرب جبال "سيرمرين" ويقول لنا إن أهل قرطبة، معظمهم من أهل الحرف، وأن المدينة في غاية النظافة، ومعظم سورها أيام المسلمين باق على حاله. وفي ظاهرها الحدائق والغراس. ثم يصف جامعها الأعظم "الذي تجاوز في الارتفاع كل مبانيها واستدارتها بالسور الإسلامي" "وهو من أعظم مساجد الدنيا في الطول والعرض والعلو" ثم يقول:

"ومذ عبرنا هذا المسجد، لم تفتّر لنا عبدة، مما شاهدنا من عظمته، وتذكرنا ما كان عليه عهد الإسلام، وما قريء فيه من العلوم، وتليت فيه من الآيات، وأقيمت به من الصلوات. وقد تخيل في الفكر أن حيطان المسجد وسوربه تسلم علينا، وتهش إلينا، من شدة ما وجدنا من الأسف، حتى صرنا نخاطب الجمادات، ونعائق كل سارية، ونقبل سوارى المسجد وجداره". ثم يصف المحراب وفخامته، وما نقش عليه من آيات، وكونه يحمل اسم منشئه، وهو الإمام

<sup>(١)</sup> رحلة الوزير محمد بن عبد الوهاب المسماة "رحلة الوزير في افتكك الأسير" المنشورة بعناية معهد فرانكو



المستنصر بالله، وتاريخ إنشائه، ويقول لنا إن الإسبان قد بنوا في وسطه قبة ضخمة، وأنشأوا تحتها هيكلًا نصرانيًا<sup>(١)</sup>.

وفي جامع قرطبة عدة نقوش وكتابات، نزل على تواريخ إصلاحه والزيادات فيه، أقدمها نقش فوق الحافة العليا من عقد باب الغربى، وهو يؤرخ تاريخ التجديد الذي قام به الأمير محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٤١ هـ.

بيد أن أهم نقوش المسجد الجامع، هما اثنان، أولهما يؤرخ ما قام به عبد الرحمن الناصر من إقامة واجهته، وقد نقش في لوحة رخامية ثبتت بالجانب الأيمن من باب النخيل، بخط كوفي جاء فيه ما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، أطال الله بقاءه، ببنيان هذا الوجه وإحكام إنشائه، تعظيمًا لشعائر الله، ومحافظة على حرمة بيوته، التى أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل النخر، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله، في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاث مائة، على يد مولاه ووزيره وصاحب مبادئه عبد الله بن بدر، عمل سعيد بن أيوب.

والثانى ما نقش بالكوفية داخل المحراب فى أسفل القبلة، وهو يؤرخ، ما قام به الحكم المستنصر فى إنشاء المحراب، وكسوته بالرخام وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين، أمر الإمام المستنصر بالله، الحكم، أمير المؤمنين أصلحه الله، بعد عون الله فيما شئد من هذا المحراب، بكسوته بالرخام، رغبة فى جزيل الثواب، وكريم المآب، فتم ذلك على يد مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضى الله عنه، بنظر محمد تمليح، وأحمد بن نصر، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب، عبيده، فى شهر ذي الحجة من سنة أربعة وخمسين وثلاث مائة. ومن يسلم وجهه إلى الله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور.

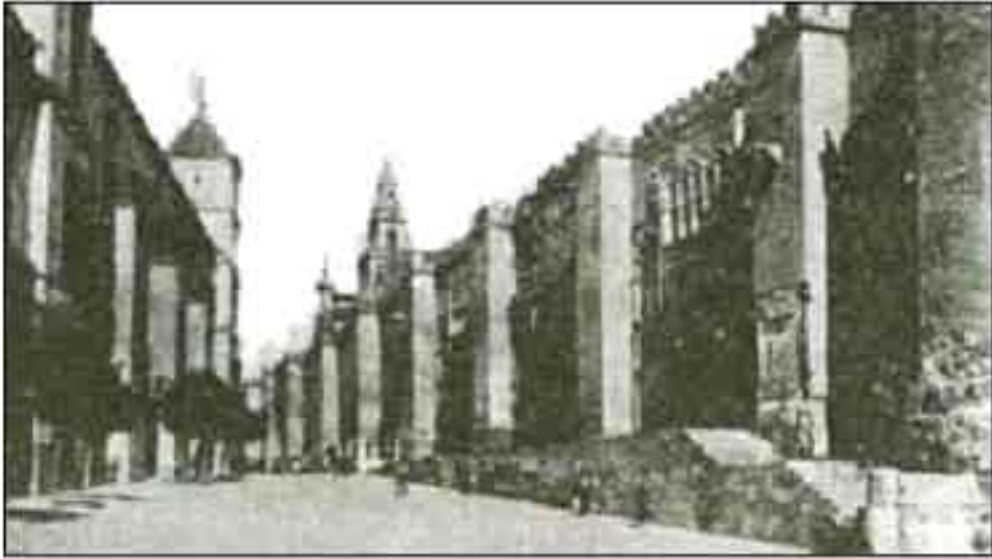
وتوجد فى المحراب ثمة نقوش أخرى تتضمن بعض الآيات القرآنية، وهى جميلة مذهب. هذا ومن المعروف أن جامع قرطبة، كان موقعه قريبًا من القصر. وكان القصر يقع فى جنوبه الغربى على ضفة النهر (الوادي الكبير) قرب القنطرة القديمة، وكان يصل بين

<sup>(١)</sup> من رحلة الغزال المسماة نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد بقلم أحمد بن المهدي الغزال قفاسي المنشورة بعناية معهد فرانكو بتطوان، ص ٣٧.



القصر والجامع "السباط" أو الممر المسقوف الذي تقدم ذكره، والذي كان مخصصًا لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة، بعيدًا عن أعين الكافة. ويبدو من الروايات والتحقيقات المختلفة، أن مواقع القصر كانت تشتمل على المكان الذي يقوم فيه اليوم القصر الأسففي "Palacio Espiscopal"، والمعهد المقابل له، وبناء السجن الإقليمي وما يليه من الحدائق، التي تعرف اليوم بحدائق القصر "Huerta del Alcázar"، وهي تقع مكان حدائق القصر الأموي القديم، بين النهر، وبين الحي الذي يُسمى اليوم "حي القصر القديم" "Bartio del Alcázar viejo"، وقد كان هذا القصر مقام الأمراء منذ قيام الدولة الأموية، حتى أوائل عهد الناصر، وكان يضم مدافعهم أيضًا. ولم يبق اليوم شيء من آثار القصر الأموي القديم، ولا القصر الإسباني الذي أقيم إلى جانبه، في عصر الملك ألفونسو الحادي عشر، والذي استعمل فيما بعد محكمة وسجنًا لديوان التحقيق.

وتقع القنطرة الأندلسية القديمة تجاه المسجد الجامع من الناحية الجنوبية، وهي قنطرة رومانية الأصل، جددتها المسلمون أيام السموح بن مالك أمير الأندلس، وجددت بعد ذلك غير مرة. وهي قائمة على ستة عشر عمودًا، وفي نهايتها الجنوبية تمثال مرتفع للقديس رفاييل حامي المدينة. وهي تربط قرطبة بضاحيتها المسماة "حي الروح القدس" الذي سبقت الإشارة إليه، وما زالت هذه القنطرة تحتفظ بكثير من معالمها الأندلسية.



جامع قرطبة. الناحية الجنوبية المقابلة للقصر الأسفلى



قرطبة. القنطرة العربية على نهر الوادي الكبير

وإلى مقربة من الجامع يقع المتحف الأركيولوجي في أحد الأزقة الصخرية، وقد



جمعت فيه طائفة كبيرة من اللوحات، والأحواض الرخامية والزخارف العربية، وكثير من القطع الخشبية الممبورة بالآيات القرآنية، ومعظمها مأخوذ من الجامع، ومجموعة من الأواني الخزفية الأندلسية، ومنها قطع بدیعة الصنع والزخرف، وأتية جميلة للزينة وغيرها. وكذلك توجد به طائفة من مخلفات حفائر الزهراء، ومنها وعاء صغير مصنوع من النحاس الأسمر، وله في متحف الزهراء نموذج من الجص الأبيض.

وجامع قرطبة هو - بعد قصر الحمراء - أعظم الآثار الأندلسية الباقية.

قرطبة: باب المدور وهو بابها الأندلسي الوحيد الباقي

وهو في الوقت نفسه أضخم أماكن العبادة النصرانية، بعد كنيسة القديس بطرس في رومة؛ ولم يبق اليوم شيء في عاصمة الخلافة القديمة من الآثار الأندلسية الذاخرة، سوى منارة صغيرة قديمة ترجع إلى أوائل القرن العاشر الميلادي، وقد جردت من نقوشها الحديثة لتعود إلى طرازها الأندلسي. وقد استأجرت اليوم إلى برج أجراس لكنيسة "القديس يوحنا أبى الفوارس" "San Juan de los Gaballeros".

ويقول العلامة جومث مورينو، إن هذه المنارة هي من منشآت عهد الرحمن الثاني، (عبد الرحمن بن الحكم)، وإن طرازها هو نفس طراز برج كنيسة سانتياجو (سنت ياقب) في قرطبة، وكنيسة سان سلفادور في إشبيلية<sup>(١)</sup>.

ولم يبق اليوم من أسوار قرطبة الأندلسية القديمة، سوى أطلال قليلة دراسة ليست لها أية أهمية أثرية.

بيد أنه يوجد من أبواب قرطبة القديمة موقع باب واحد، هو الباب الذي يُسمى باب المدور "Puerta de Almodovar"، وهو يقع في جنوب غربي المدينة على مقربة من الجامع، وهو عبارة عن باب معقود في إطار كبير مربع يبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار،

وعرضه عشرة، وفي أعلاه شرفة كبيرة عريضة يبلغ ارتفاعها مثل ارتفاعه، وقد عُلّتها مشارف نصرانية، وقد أقيم هذا الباب على أنقاض باب "بطليوس" القديم، ويرجع بناؤه الأصلي إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي.

ومما يذكر أن قرطبة، كانت أيام المسلمين مشهورة ببراعة صائغيها وما ينتجونه من تحف فنية بديعة، وهي مازالت إلى اليوم تحتفظ ببقية من هذا التراث حيث تُصنع بها التحف والآنية الفضية المزخرفة.

## ٢ - أطلال الزهراء

### Medina Azzahra

تحتل سيرة مدينة الزهراء، وذكريت فخامتها الذهبية، مقامًا ملحوظًا في تاريخ الأندلس المعماري والفني، وتفتن عظمها وروعة صروحها، بعظمة عصر منشئها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وقد بدأ الناصر بإنشاء هذه الضاحية الملوكية الفخمة في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) بعد أن ضاقت قرطبة عاصمة الخلافة، بما يتطلبه ملكه العظيم من استكمال الفخامة الملوكية، ووجود القصور والأبهاء والرياض الشاسعة. وأنشئت الزهراء في بقعة تقع على مقربة من شرقي قرطبة شمال نهر الوادي الكبير، واستمر العمل في إكمال صروحها العظيمة، ومرافقها الفخمة، بقية عهد الناصر، ومعظم عهد ولده الحكم المستنصر، أعني زهاء أربعين عامًا، ولم يدخر الناصر جهدًا ولا نفقة في تشييد حاضرتيه الجديدة، وتجميلها وزخرفتها، وأنشأ فيها قصر الخلافة العظيم، وقصره الخاص المسمى بالمؤنس، وزودها بنفيس الرياش والتحف والذخائر النادرة، وأسبع عليها أروع ما تمخض عنه العصر، من ضروب الرونق والبهاء.

بيد أن الزهراء لم تعمر طويلًا كقاعدة ملوكية. فقد لبثت منزل الخلافة الأندلسية زهاء أربعين عامًا فقط، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٥ هـ إلى نهاية عهد ولده الحكم المستنصر في سنة ٣٦٦ هـ. ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة الخلافة، ومنزل الملك، ولكن لأن تحولاً خطيراً وقع في سلطان بني أمية. فقد نهض متغلب جديد، هو الوزير محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور)، وحجر على الخليفة هشام المؤيد بالله ولد الحكم، واستأثر بتأعنا بكل سلطة في الدولة، ثم بدالاه أن ينقل مركز الحكم إلى قاعدة جديدة تكون منزل سلطانه، فأنشأ لنفسه ضاحية ملوكية جديدة تقع على مقربة من شرقي قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير، وذلك في سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م)، وسماها "الزاهرة". ونقل إليها خزائن الأموال والسلاح ودولابن الحكم، وبذلك اختتمت حياة الزهراء الملوكية.

ثم عفا عليها الزمن بعد ذلك بتأعنا، حتى وقعت ثورات البربر، عقب انهيار الدولة العمرية، في أواخر القرن الرابع الهجري، فالتحمت الزهراء، وقوضت صروحها الفخمة، ونُهبت ذخائرها وتحفها، وغمرها الخراب والنسيان، ولم يمض بعيد، حتى غاض اسمها نفسه، من صحف التاريخ الأندلسي، فلا نكاد نظفر لها بذكر منذ أيام الطوائف.

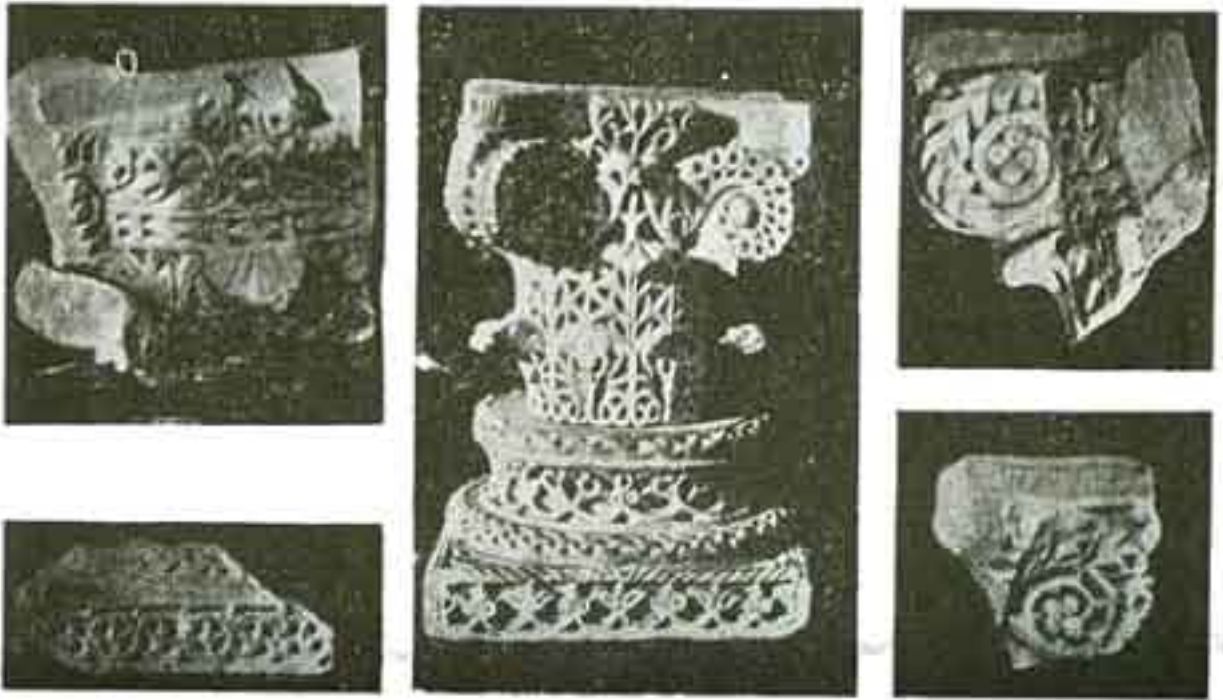


ومنذ نحو قرن فقط عادت سيرة الزهراء، وذكريت فخامتها الزاهية، تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا المسلمة؛ المعماري والفني. واهتم العلماء الإسبان بالكشف عن معالمها وأطلالها، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة، على أحوال الخلافة الأندلسية، ونظمها الإدارية والاجتماعية، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره. وعينت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالي، بإجراء الحفريات الأثرية، للكشف عن صروح المدينة الخالفة، وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة، التي اضطلعت بهذا العمل، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع، فقد استطاع الأثريون الإسبان، أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء، ومواقع صروحها ولبهائها الملوكية.

وقد أتبع لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة، وكانت آخرها في يناير سنة ١٩٦٠، وتقع هذه الأطلال الضخمة شرقي قرطبة، على بعد نحو سبعة أميال منها، وشمال نهر الوادي الكبير على قيد ميلين، وتحتل منحدرًا صخريًا وعراء، يقع أسفل الأكمة، التي يحتلها دير "سان خيرنمو" الشهير. وتسمى هذه المنطقة التي تحتلها أطلال الزهراء "قرطبة القديمة" "Córdoba la Vieja".

وتشتمل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠، منطقة واسعة، تمتد ١٥١٨ مترًا من الشرق إلى الغرب، و٧٤٥ مترًا من الشمال إلى الجنوب. ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها، وما يزل على ذوي الشأن أن يبذلوا جهودًا فاحشة لإكمال مهمتهم، فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة، ومن نقوشها وزخارفها، التي مازال بعضها قائمًا في بعض الجدران، والتي تتمثل بالأخص في مذابح القطع الرخامية التي وجدت، يكفي لتكوين فكرة عامة عن هندسة المدينة الملوكية، ومناعتها وفخامة صروحها.

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعتين ثلاث، مدرجة من أعلى إلى أسفل. وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخلفي والمقام الخاص. وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس. وتشمل المجموعة الثالثة ثلاثة أبهاء كبيرة عالية ذات أعمدة ضخمة، وأروقة جانبية، وقد كانت حسبما يُظن، أبهاء رسمية لاستقبال السفراء والشخصيات الملوكية، ومازالَت جدرانها تحمل بعض الزخارف الأصلية بألوانها الزاهية.



زخارف رعوس وفواعد أعمدة من العرمر الأبيض، معا وجد في حفائر الزهراء

وقد تم الكشف عن المنطقة الأولى منذ سنة ١٩٢٥، وهي تمتد فيما بين البهو الأكبر أو "مجلس الغربية" ومجموعة المساكن الخليفة، أعنى قصر الخلافة ومقام الخلفاء، وهي التي وفق إلى كشفها الأستاذ بلانكيث بوسكو منذ سنة ١٩١٢. وكشفت الحفريات التالية عن الجدار الشمالي، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء، ثم البهو الكبير ذي الشرفة، وعن مساكن الحرس، والطريق المؤدي إلى البهو الغربي والمتصل بشرقيه.

وترجع منطقة الجدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته، وهي من منشأته في العصر الأول من بناء الزهراء. وقد أصلحت على امتداد سبعين مترًا. ويمتد القسم الأول منها فيما بين باب الطريق المعبد، وزاوية القصر الخلافي. وهذا الجزء من الجدار أمتن بناءً ولحكم صنعًا، من قسمه الذي بني فيما بعد، في عهد الحكم المستنصر.

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين، فيقع أولهما على قيد ثمانية أمتار أسفل القصر الخلفي، ويشتمل كل منهما على بهو كامل. وهناك ما يدل على أن كلا منهما، كان يحتوي على مجموعة من المساكن المتماثلة، المخصصة لسكنى طائفة عامة من البطانة أو الجند. ويشغل الفناء الغربي رقعة تمتد من الشمال إلى الجنوب قدرها ٢٠، ٢٤ مترًا. ومن الشرق إلى الغرب ٢٠ مترًا، وهي مساحة تبلغ نحو خمسمائة متر، وفيه بقايا أبنية تبدو أكثر أهمية من تلك التي كان يشتملها الفناء الشرقي. والفناء الشرقي مثل قرينه، ولكنه أقل منه نظامًا. ويحتوي على أربع غرف متماثلة تقريبًا، تطل أبوابها جميعًا على الفناء، وبه من الزاوية الشمالية غرفتان منحدرتان. ولم يستطع المكتشفون أن يحددوا موقع المدخل بالنسبة لهذين الفناءين الكبيرين، ولم يظهر فيهما مكان لباب صغير أو كبير. والظاهر أنهما يكونان معًا موقع مسكن لأحد الكبراء، وربما كان الفناء الشرقي موقع مسكن "للحریم"، أو بعبارة أخرى جناح القصر الذي تسكنه النساء والأولاد، ففيه غرف أنيقة بعضها مبط بالرخام، وأمكنة للفراش ومطابخ ومرافق.

ولما الفناء الغربي، فالظاهر أنه مكان الجناح الخاص، الذي كان السيد يستقبل فيه الزوار، ويصرف الأمور ويضع تحفه ومكتبه. ويرى بعض المكتشفين أن هذا المكان، ربما كان مسكنًا للحاجب أو رئيس الوزارة.

وهناك رويتان، تتعلق إحداهما بأخذ البيعة للحكم المستنصر في سنة ٣٥٠ هـ، وتتعلق الثانية بزيارة أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع للحكم في شهر صفر سنة ٣٥١ هـ — (٩٦٢ م). وفي تفاصيل هاتين الروايتين، وفي أوصافهما، ما يلقي ضوءًا على أوضاع المدينة الخليفة، وما يدل على أن المعالم التي وردت فيها، إنما تحدد المكان نفسه وتؤكد، وقد كان الباب الرئيسي لمدينة الزهراء الذي جاز منه أردونيو هو "باب القبة"، ثم يليه عند المدخل "باب السدة".

وقد استقبله الحكم في "المجلس المؤنس"، وجاز بعد ذلك إلى الروشنيين الباقين، وانحنى أمام العرش الخليفي المجاور للبهو الغربي، أو "مجلس الغربية" الذي سبقت الإشارة إليه. وفي مكان يقع شمال هذا البهو، استقبله الحاجب جعفر المصحفي، الذي نكبه المنصور فيما بعد. وقد اكتشفت اليوم هذه المعالم كلها.

وفي شرقي القصر الخليفي فناء صغير، هو الذي اكتشفه الأستاذ بلاثكيت بوسكو منذ سنة ١٩١٤. وعلى قيد نحو ستة عشر متراً أسفل هذا الفناء المتواضع، يقع بهو ضخم مربع تقريباً يشغل مساحة قدرها ٤٦٠ متراً، وقد بلط بقطع كبيرة من الرخام، ويحيط به رواق عرضه متران ونصف، تحف به أعمدة ضخمة قوية مربعة، سمك ضلعها نحو متر تقريباً. ويمتد من زاوية الشمالية الشرقية، نفق عرضه زهاء مترين يتجه نحو الجنوب الشرقي، وله بابان متعاقلان بينهما نحو مترين. وعلى مقربة من بابه يبدو سلم ضخم، يصعد نحو المدينة الخليفة، وقد اكتشف منه خمس درجات فقط. وهي مبنية بالحجارة الضخمة، التي بنيت منها مدينة الزهراء كلها. وربما كان هذا السلم، هو سلم قصر الخلفاء ذاته. والظاهر أن هذا الفناء ومتعلقاته كان مئوى لبعض الدواوين العامة، كديوان الخزانة أو نحوها، وهو متفق في ذلك مع الأوصاف العامة للمدينة الخليفة، حيث يوصف الجزء الأوسط منها، بأنه مكان يضم في أعلاه المساكن الخليفة، ثم تليها الدواوين في الجزء الأوسط، ثم تقع الحدائق في الحيز الأدنى.

وأحدث ما كشفت عنه حفريات الزهراء، هي المجموعة الثالثة التي أشرنا إليها في صدر هذا الفصل. وقد تم هذا الاكتشاف في سنة ١٩٤٤، وكشف عن بهو عظيم، ذي أفنية ثلاثة، تقوم على عقود من الأعمدة، وقد تحطمت عناصره، وشوهت بشدة، ولكن وجدت مسائر مواد وزخارفه تحت الأنقاض.

وقد عكف العلماء الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة هذا البهو وتنسيقه مما وجد من الأنقاض والأعمدة والعقود والزخارف المكتشفة، وهو يتكون من أربعة أروقة أو أبهاء متلاصقة، تبلغ واجهتها معاً نحو أربعين متراً، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاثة أروقة مستطيلة، يتوسطها رواق ذو عقود في الجانبين، وتبلغ عقود خمسة تقوم على سبعة أعمدة، اثنان يستند كل منهما إلى عقد الحائط، وخمسة حرة. وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رعوس، وقواعد رخامية مزخرفة. ومن الرواق الثالث يفتح باب على بهو داخلي، قد أقيم على الطراز المفروض، وزين جانباه بالزخارف الرخامية، وقسم إلى قسمين. ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً، وعرضه نحو سبعة أمتار، وقد صيغت العقود كلها على نمط واحد، وزينت رعوسها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت، والتي توجد منها بين الأنقاض مئات القطع، وهذه الرعوس كلها من



طرز خلافي جميل من النسق الكلاسيكي، ووجد في إحدى هذه القواعد نقش كوفي جميل يشيد بذكر عبد الرحمن الناصر، ومؤرخ في سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م).

وعملت في كل من الرواقين الأول والثالث، كوتان، كل منهما في طرف، والأربعة متقابلة متماثلة. ويجري البناء في تركيب مدخل جديدة قد زين بعضها بقطع الحجر الحمراء التي وجدت، وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار.

يقول الأستاذ كستيجون أحد أعضاء اللجنة الأثرية المكتشفة: "إن هذا البهو الذي يمتاز بتناسبه الجميل، وعقوده القوية، وزخارفه الجميلة، لا بد أنه كان من تحف مدينة الزهراء الهندسية، وقد رأيت اللجنة نظراً لأنه لم يكن له اسم معين، أن تسميه بهو "عبد الرحمن الثالث" (الناصر)، لما وجد في رموس أعمته من إشادة بذكر هذا الخليفة، وكذلك على عقد مدخله الأوسط من ذكر له يرجع إلى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ - ٩٥٧ م)" (١).



مدينة الزهراء: بعض العقود  
والزخارف التي وجدت بين أنقاض  
المجلس المؤنس بالقصر الخلفي،  
وأعيد تركيبها بما يسميه الأثريون  
الإسبان "بهو عبد الرحمن الناصر"  
أو "بهو السفراء"

(١) R. Castejón: Nuevas Excavaciones en Medinat Al - Zahra, El - Salon de Abd Al -



وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال، تقع أعلى هذه الأبنية من اليسار، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل، وهي لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها أثر الدهان واضحاً، وقد تبين أن لون الدهان الذي كان مستعملاً في هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض، يعلوه خط أحمر. وتبين كذلك أن البلاط المستعمل في أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الوحدة منها أربعين سنتيمتراً، وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء، هي أحجار قوية كبيرة، بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً، وعرضه أربعون.

وقد عثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعة الضخمة المتنوعة، من أطلال المدينة الخلفية، بطائفة كبيرة من القطع الخزفية، والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية المتنوعة، ومئات من القطع والأواني الخزفية، والبللورية، وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل المدينة، وعرضت فيه بعض القطع، والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش، وبعض الأواني الخزفية المصححة. وأقيم إلى جانب المتحف بهوان كبيران يغص كلاهما بالقطع الخزفية، والبللورية المتكررة، التي يعكف الأخصائيون على فحصها وتصحيح ما يمكن تصحيحه منها.

وكان من أنفس ما عثر به المكتشفون بين أطلال الزهراء، تمثال وعمل من البرونز الأسمر الدقيق الزخرف، وهو يحفظ اليوم حسبما أسلفنا بالمتحف الأركيولوجي بمدينة قرطبة، إلى جانب عدة قطع رخامية بديعة، وجدت أيضاً بين أطلال الزهراء. ويوجد نموذج جصى من هذا العمل محفوظ بمتحف الزهراء الذي سبقت الإشارة إليه.

وقد نفقنا أطلال الزهراء مراراً، وتجولنا بينها ساعات طويلة، تحت شمس قرطبة المحرقة. وإنه ليبدو لنا أن هذه المجموعة من الأبنية والأبنية والعقود، والأماكن والأنفاق، إذا كانت تدل على ما كانت عليه المدينة الخلفية من ضخامة ومنعة، سواء بموقعها فوق المنحدر الجبلي الوعر، أم بضخامة حجارتها الصخرية الصلدة، ومثالة أطلالها المكتشفة، فإنها مازالت بعيدة عن أن تدل على ما كانت عليه مدينة الزهراء الملوكية من آيات الجلال والروعة التي تحدثنا عنها الروايات المعاصرة. على أن الحفائر المستقبلية، وهي مازالت رهين منطقة شاسعة، قد تكشف فيما بعد، عن كثير من ضروب الفخامة والجلال، التي تنقص اليوم أطلالها المثلثة<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> رجعنا في هذا البحث إلى مشاهداتنا الخاصة، وإلى تقارير الحفائر الرسمية التي أجريت تحت رعاية الحكومة الإسبانية:

- 1- Medina Azzahra y Alamiya, por D. R. Velazquez Bosco (Madrid 1912).
- 2- Excavaciones del plan nacional en Medina Azahra (Córdoba) campana de 1943, por R. Castejón y Martínez de Arizala (Madrid 1945).



مدينة الزهراء: جانب آخر من الأطلال



مدينة الزهراء: بعض الأطلال التي أسفرت عنها  
الحفريات



وعل الزهراء البرونزي المحفوظ بمتحف قرطبة

### ٣ - إشبيلية

#### Sevilla

كانت إشبيلية أيام الدولة الإسلامية، أعظم مدن الأندلس وأجملها، وكانت أعظم وأجمل من قرطبة ذاتها، وقد سطعت أيام بني عباد، إذ كانت دار الملك، وغدت أيام الموحدين مركز الحكم مرة أخرى، ولكنها لقيت مصرعها كقاعدة إسلامية أيام الموحدين أيضاً، وسقطت في أيدي القشتاليين في ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م)، أعني بعد سقوط قرطبة بأثني عشر عاماً، وغدت من ذلك الحين حتى أوائل القرن السادس عشر، دار الملك في قشتالة.

وما تزل إشبيلية حتى اليوم أجمل مدن الأندلس، وأوفرها سحرًا، بل هي في الواقع من أجمل المدن الإسبانية، وقد أسبغت عليها غاية الدول والعصور المتعاقبة، طابعًا من الروعة والجلال، يُمثل في صروحها ومعاهدها الفخمة، وآثارها التاريخية الكثيرة.

وقد سميت إشبيلية اشتقاقًا من اسمها اللاتيني "إشبالي" أو هسبالي Hispalis وهي تسمى أيضًا في الألب الأندلسي "حمص"، وذلك لأنه قد نزلها عند الفتح جند حمص الشام<sup>(١)</sup> وأطلقوا عليها هذا الاسم، لما لمسوه من شبه بين المتينتين في الموقع والخطط والتربة، وإليها يشير أبو الطيب، صالح بن شريف الرندي في مرثيته حين يقول:

وَأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فيأض وملآن

وتعد إشبيلية اليوم بين المدن الإسبانية الكبيرة، ويبلغ سكانها نحو ربع مليون نسمة، وهي تأتي بعد بلنسية من حيث فخامتها وعدد سكانها، ويشقها نهر الوادي الكبير من جانبها الغربي، وبها ميادين جميلة وشوارع فسحة عامرة، ولا سيما في أحيائها الجديدة، الواقعة بين الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) والنهر. وأجمل ميادينها التاريخية، ميدان سان فرناندو المسمى اليوم "الميدان الجديد" "Plaza Nueva"، وتزدان إشبيلية بكثير من المتزهات الجميلة، وحدائق البرتقال اليلعة، ولا سيما على ضفاف الوادي الكبير، وبها مصانع كثيرة للسجاد والزيوت والإسمنت والزجاج والخزف، وهي تحتفظ بالأخص بمصنع من أعظم مصانع الخزف، والأدوات الخزفية المزخرفة في إسبانيا، ويقع هذا المصنع العظيم على ضفة النهر في ضاحيتها المسماة "لاكارتوخا"، ويشغل به أكثر من ألف عامل، وتصدر منتجاته الأنيقة

<sup>(١)</sup> راجع معجم البلدان لبغوت الحموي تحت كلمة "إشبيلية"، وكذلك قروض المعطار ص ٢٠ و ٢١.

ذات الألوان الزاهية إلى سائر أنحاء العالم. وقد زرنا هذا المصنع الشهير، وأعجبنا بما ينتجه من الأولي والتحف الخزفية المدهشة من كل ضرب ولون، وتصدر إشبيلية الزيوت والنبيل والفواكه والمعادن، وبها حركة تجارية عظيمة.

وإشبيلية أيضاً مركز حركة ثقافية عريقة، وبها جامعة قديمة ترجع إلى قرنين، تحتوي على كليات للآداب والحقوق والعلوم وكلية مستقلة للطب، وتدرس العربية قليلاً بكلية الآداب.

وبها دار محفوظات الهند "Archivo general de Indias"، وهي تضم مجموعات قيمة من الوثائق المتعلقة باكتشاف أمريكا، وتاريخ المستعمرات الإسبانية الأمريكية وإدارتها، ويقصدها الباحثون من سائر البلاد ولا سيما أمريكا، التي يعني علمائها بدراسة هذه المجموعات بنوع خاص.

وليس في إشبيلية من الآثار الإسلامية سوى القليل، وحتى هذا القليل يكاد يختفي تحت أثوابه النصرانية المجددة، بيد أنه يمثل في الوقت نفسه بروعة وأهميته الأثرية البالغة.

ويكتفي أن تحتفظ إشبيلية بديرها الإسلاميين الفريديين، وهما منارة مسجدها الأعظم السالف، و"القصر" ذو الطابع الإسلامي الفريد.

ولنبداً الحديث عن المسجد الأعظم ومنارته الباقية، والواقع إنه لم يبق من جامع إشبيلية اليوم وحدة قائمة بذاتها، كما هو الشأن في جامع قرطبة، الذي تركت عقود ومحاربه، ونصبت في داخله الكنائس والهيكل الجديدة. ولكنه أزيل وأقيمت مكانه كنيسة إشبيلية العظمى، التي تعتبر بضخامتها وفخامتها، ثاني كنيسة في العالم بعد كنيسة القديس بطرس في روما، ولم يبق اليوم قائماً منه سوى صحنه القديم ومنارته.

وقد قام بإنشاء هذا المسجد عاهل المغرب والأندلس الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحيدي، ولد الخليفة الأكبر عبد المؤمن بن علي، وذلك في شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ (مايو سنة ١١٧٢ م)، أثناء إقامته بمدينة إشبيلية، وكانت يومئذ قاعدة حكم الموحدين بالأندلس، وكان مسجد إشبيلية الجامع المسمى بجامع ابن عتبس وهو المنسوب للقاضي عمر بن عتبس، والمشيّد في سنة ٢١٤ هـ. أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم - قد ضاق برواده، نظراً لنمو المدينة وتكثف سكانها، وكثرة الموحدين الوافدين عليها. وقد ترك لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين المعاصر، وشاهد العيان - وصفاً مسهباً لإنشاء هذا الجامع، يقول فيه، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب قد "حاز النخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للأندلس، فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار، على أعظم البناء والاقتدار، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطية تحت الأرض أطول مما فوق الأرض، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام، وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل

العدوة، مما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله، فأعلى بنيته، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه. وأنفذ أمره العالي ببنيته في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمسمائة المؤرخة. لم يرفع البناء عنه قط في فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية، إلى أن كمل بالتسقيف، وجاء في أبهى المنظر الشريف، أعجز في بنيانه من تقدمه، وتغنى في ميزانه وخبره ورخمه مقدمه، قارب به جامع قرطبة في السعة. وليس في الأندلس جامع على نده وسعته وعند بلاطه<sup>(١)</sup>.

وذكر لنا ابن صاحب الصلاة اسم الناظر على بناء المسجد وعرفائه. وهو العريف أحمد بن باسة، والناظر على النفقة، وهو أبو داود بلول بن جلداس خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال. ومن الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية، أبو بكر بن زهر، وأبو بكر الساقى. ثم يقول: إن سرب المدينة كانت تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع، فنكبت عنه. وحرفت إلى جهة الخوف على سرب واسع، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض، وعنى العرفاء ببناء القبة التي على محرابه وبنجارتها أعظم عناية. وأقاموا عن يسار المحراب، ساباطاً في الحائط، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع لشهود صلاة الجمعة، وافتن الصناعات في عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب، وفي إيداع نقوشه، وترصيعه بالصنل المجزع بالعاج، وأبنوسه يتلألأ بصفائح الذهب والفضة، ولشكال في عمله من الذهب الإبريز، يتلألأ نوراً، ويصبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً<sup>(٢)</sup>. ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة. وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه في أكثر الأيام، ومعه أشياخ مملكته، ويشير للمشرفين عليه بالجد في البناء وإتقانه. حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس، وكمال التنقيف، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً. وسافر الخليفة أبو يعقوب إثر إتمامه إلى حضرته مراكش في شعبان سنة ٥٧١ هـ. وافتتح الجامع المذكور للصلاة بصفة رسمية على يد والي إشبيلية السيد أبي إسحق إبراهيم بن الخليفة أبي يعقوب، وأقيمت به خطبة الجمعة لأول مرة في يوم الجمعة ٢٤ ذي الحجة سنة ٥٧٧ هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢ م)، وأزيلت من جامع بن عنبس من ذلك اليوم<sup>(٢)</sup>.

ولما عاد الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في أوائل سنة ٥٨٠ هـ، معتزماً غزو الأراضي النصرانية في جيوشه لجرارة التي عبرت معه، أمر عك وصوله إلى إشبيلية عامله أبا داود بلول بن جلداس، أن يشتغل أثناء غيبته في الغزو. بإنشاء سور حصين لقصبة

(١) السفر الثاني من كتاب تاريخ لمن بالإمامة على المستضعفين لعبد الملك بن صاحب الصلاة (مخطوط أكفورد)، لوحة ١٦٧.

(٢) كتاب ابن صاحب الصلاة للملف لذكر لوحة ١٦٨ ب و ١٦٩ أ.



إشبيلية، وبناء صومعة (منارة) للجامع تكون متصلة بالسور والجامع، ثم خرج الخليفة في جيوشه، وغزا أراضي البرتغال الشمالية، وحاصر مدينة شنترين، ووقعت بينه وبين النصاري تحت أسوارها معركة عنيفة، هزم فيها الموحدون وقتل أبو يعقوب، وذلك في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ (يولييه ١١٨٤ م).

فلما بويع ولده أبو يوسف يعقوب بإشبيلية بالخلافة، أمر بالكف عن بناء سور القسبة، ولكنه أمر بالاستمرار في إيفاء أمر أبيه ببناء صومعة الجامع، وكان العمل في بنائها قد بدأ بالفعل قبل ذلك ببضعة أسابيع، ووضع العريف أحمد بن باسة أساسها لصق الجامع، وكان قد وافق بئراً معينة، فردمت وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس وقام بالنظر على نفقته العامل محمد بن سعيد. ثم بدأ العريف ببناءها بالحجر المسمى "بالطجون العبادي"، المنقول من سور قصر ابن عباد، ولم تمض بضعة أشهر حتى عزل ابن سعيد عن العمل، وتعطل البناء، إلى أن وصل أبو بكر بن زهر حافظ البناء من حضرة أمير المؤمنين بمراكش في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م)، وقد أمر بإعادة بناء الصومعة، وبناء ما اختل من الجامع، فاستأنف العمل فيها، حسبما نذكر بعد <sup>(١)</sup>.

ولما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٤٨ م، حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة. وفي سنة ١٤٠٢ بُدِيَء بإنشاء كنيسة إشبيلية العظمى (الكثدرائية) فوق موقع المسجد الجامع القديم، واستمر العمل في بنائها أكثر من قرن ونصف، حتى غدت برقعها الشاسعة، وعقودها المنيفة، وزخارفها البديعة، ثلثي كنائس العالم من حيث الضخامة والروعة. وهي تقع في جنوب المدينة، وبها تحت القبة العظمى، قبر كريستوف كولمبوس مكتشف العالم الجديد. وليس هنا مقام التحدث عن أوصاف هذه الكنيسة الباذخة، التي يحار البصر في تأملها، وإنما الذي يهمنا هو التحدث عما بقي حولها من أثر المسجد الجامع الذي بنيت مكانه؛ فقد بقي من مسجد إشبيلية أولاً صحنه، وهو ما يزال يحتفظ بشكله وموقعه القديم. وهو يقع شمالي الكنيسة ويبلغ نحو ربع مساحتها، وفي وسطه نافورة أندلسية، وقد وضعت فيه أنية التعميد الحجرية، وعُرس فيه أشجار البرتقال، ويعرف اليوم "بفناء البرتقال أو فناء النارنج" "Patio de los Naranjos"، وما تزال عقود الصحن قائمة من ناحية الشمال والغرب، ولكنها مُسخت وبني فيما بينها. كذلك ما تزال ساريات الصحن القديمة قائمة، في هذين الجانبين. وقد بقي باب الجامع الرئيسي، الواقع في شمال الصحن، كما هو بعقده وزخارفه البرونزية الإسلامية، وقد نُقشت على كل من قبضتيه الضخمتين ما يأتي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد"، ويبلغ عرضه نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة. ومن الغريب أن هذا الباب الأندلسي

<sup>(١)</sup> كتاب ابن صاحب لصلاة المؤلف لذكر لوحة ١٧٠ أ و ب.

الشاهق، أضحى بالزعم من نقوشه الإسلامية، والآيات المرفوعة عليه، يعرف بالإسبانية "ببواب الغفران" "Puerta del Perdón"، وهو يفضي إلى هيكل أقيم تحت عقده الداخلي، ونصب في جانبه تمثال للعدراء، ينحني أمامه طلاب التوبة والغفران.

ويصف الغزال الفاسي في رحلته كنيسة إشبيلية العظمى بإفاضة، ويسميتها "الجامع الأعظم الذي كان للمسلمين" ويعطف على صحن الجامع بقوله: "وبصحن الجامع خمس وعشرون شجرة من الدارنج، وخصتان، وضريح واحد به بيوت عدة يسكنها القرابية"<sup>(١)</sup>.



إشبيلية. الكنيسة العظمى (لكنترالية)، وإلى ورائها "الخيراندا" (برج الأجراس)



كنيسة إشبيلية العظمى.

باب الغفران من الداخل وقد ظهر من ورائه صحن الكنيسة

<sup>(١)</sup> رحلة الغزال ص ٣١. والقرابية جمع (قرايلي) Fraile أعني القس.

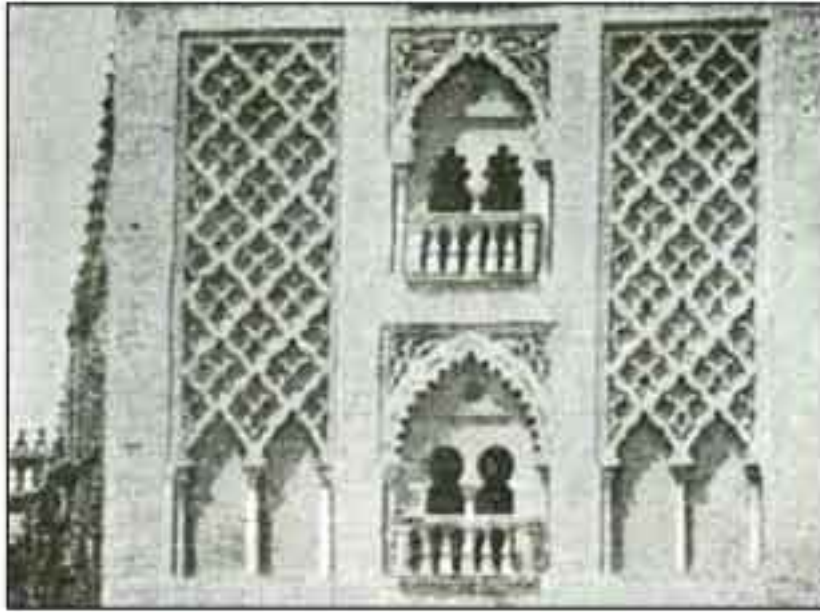
ويلى صحن الجامع جنوباً صرح "الكنترائية" الضخم، ويقع بها الرئيسي المباشر فى الجهة الشرقية، وهو باب عريض ضخم، ويبدو أنه باب الجامع الكبير. ولها ستة أبواب أخرى شرقية وشمالية. وكلها ملبسة بالنحاس والنقوش العربية والآيات القرآنية. وهى بلا ريب من أبواب جامع إشبيلية القديم.

هذا، وأما عن جامع إشبيلية القديم وهو جامع ابن عدبس الذى سبق ذكره، فقد أقيمت فوق موقعه كنيسة سلفادور وهى من كنائس إشبيلية القديمة، وتحفظ فى متحف إشبيلية الأركيولوجى لوحة إنشاء هذا الجامع حسبما نذكر بعد.

### لاخير الدا La Giralda

وهى منارة أو صومعة مسجد إشبيلية الجامع المتقدم ذكره، وهى بروعها وجمالها تبدو لأولءة إشبيلية الأثرية، ونقع إلى جور زاوية الكنترائية العظمى الشمالية الغربية، وفى جنوب غربى الصحن. وقد سبق أن ذكرنا كيف بُدئ بإنشاء المنارة المذكورة فى أواخر عهد الخليفة أبى يعقوب يوسف، ثم استؤنف بناؤها فى عهد ولده الخليفة أبى يوسف يعقوب، وهو الملقب بالمنصور، وقد ذكر لنا ابن صاحب الصلاة أنها بنيت بغير أدراج، يصعد إليها فى طريق واسعة للدواب والناس والسدنة، وأنه لما صدر أمر الخليفة ببناؤها، وبناء ما اختل من الجامع، وذلك فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م)، شرع فى بنائها بالأجر الذى يؤخذ من بناء حجر سور ابن عباد المتقدم الذكر، وعنى بالبناء ثد عنية، ودلم العمل فى ذلك أعواماً، يجري البناء فيها أحياناً متقطعة، فإذا غادر الخليفة إشبيلية إلى الحضرة، تعطل البناء، ثم يستؤنف متى حضر. وكان الخليفة المنصور يلزم الجلوس بنفسه على البنائين فى المند التى كان يعاود فيها البناء، واستمر ذلك إلى أن كانت موقعة الأرك الشهيرة <sup>(١)</sup> التى أحرز فيها الموحدون بقيادة المنصور نصرهم الباهر على القشتاليين، وذلك فى سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٥ م)، فحينما عاد المنصور إلى إشبيلية مكللاً بغار النصر. وكان بناء المنارة قد تم ولم تبق سوى أعمال التجميل، أمر بتزويدها بتفافيحها الذهبية المشهورة. وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفافيح ورفعها إلى أعلى المنارة فى حفل كان من شهوده، قال:

<sup>(١)</sup> وتعرف فى الإسبانية بموقعة Alarcos.

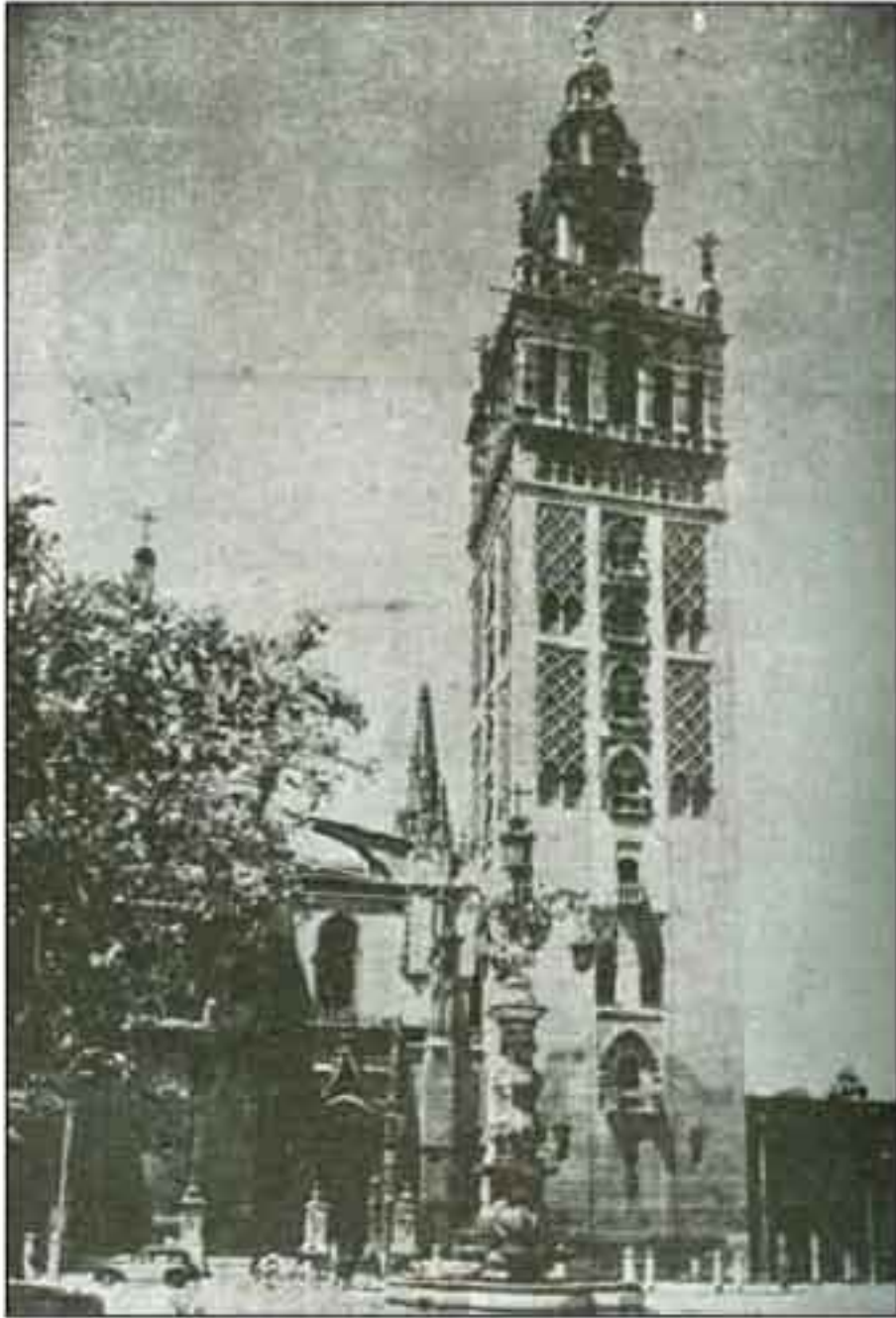


إشبيلية. تفاصيل من الزخارف الخارجية لمنارة المنصور (لاخير الدا)

"فلما وصل أمير المؤمنين، وهزم الله له أذفونش الطاغية، أمر - رضي الله عنه - في مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغربية الصنعة، العظيمة الرفعة، الكبيرة الجرم، المذهبة الرسم، الرفيعة الاسم والجسم، فرفعت في منازلها بمحضرة، وحضر المهندسون في إعلانها على رأسه، وبلوغ وطره، مركبة في عمود عظيم من الحديد، مرسى أصله في بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها، زنة العمود مئة وأربعون ربعا من حديد، موقفاً هناك، في تلاحك البنيان، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء، يكابد من زعازع الرياح، وصدمات الأمطار، ما يطول لتعجب منه من مقاومته وثباته. وكان عند الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى، سبعة آلاف منقال كباراً يعقوبية عملها الصياغ بين يدي أمير المؤمنين وحضوره. ولما كملت سترت بالأخشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة، بالتكبير عليها والتهليل، حتى وصلت ورفعت بالمسندة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة، ووضعت في العمود، وحصلت فيه، وحصنت بمحضرة أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه، وبمحضرة ابنه وولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله، وجميع بنيه، ولشياخ الموحدين، والقاضي، وطلبة الحضر، وأهل الوجاهة من الناس، وذلك في يوم الأربعاء عتب ربيع الآخر، بموافقة التاسع والعشرين من مارس العجمي عام أربعة وتسعين وخمسمائة، ثم كشفت عن أخشيتها، فكانت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز، وبشعاع رونقها"<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> كتاب ابن صاحب لصلاة السلف لذكر لوحة ١٧١ أ و ب.





إشبيلية. لآخر الدا La Giralda أو منارة جامع المنصور.



ونزيد نحن على ما تقدم أن منارة جامع إشبيلية، كانت قرينة لمنارتين شقيقتين فيما وراء البحر، هما منارة جامع الكتبية (أو الكتبيين) بمراكش، وهي التي مازالت تزدان بها العاصمة المغربية القديمة حتى اليوم، ومنارة حسان (تور حسان) القائمة على مقربة من شاطئ المحيط بمدينة الرباط، وكلتاهما على نفس الطراز والنمط، في الداخل والخارج. وقد أمر بإنشاء المنارتين أيضًا الخليفة يعقوب المنصور. وقيل في شأن منارة الكتبية إنه بُدِيَء بإنشائها في عهد الخليفة عبد المؤمن، ولكنها لم تكمل إلا في عهد حفيده المنصور. وعلى أية حال فقد تم إنشاء الكتبية في سنة ٥٩٤ هـ، بعد تمام منارة إشبيلية بقليل<sup>(١)</sup>، وأقيمت منارة حسان في نفس الوقت، ولكن بنائها لم يكمل، ووقف دون القصة العليا. وفي وسعنا بتأمل منارة الكتبية أن ننصوّر منظر منارة إشبيلية قبل تحويلها إلى برج للكنيسة.

ومازالت منارة إشبيلية، بالرغم من تحويلها إلى برج للأجراس، تحتفظ بكثير من روحها الإسلامية القديمة، وهي مربعة الشكل، بالغة الارتفاع، وقد اشتهرت عصورًا بجمال هندستها، وروعة زخارفها، التي بقي الكثير منها حتى اليوم، واشتهرت بالأخص بتفاصيلها الذهبية، وكانت الوسطى منها بالغة الضخامة. ومما يذكر أن الذي قام بصنع هذه التفاصيل، ورفعها إلى أعلى المنار، هو المعلم أبو الليث الصقلي، وأن قيمة ما أنفق على تذهيب التفاصيل، بلغت من النقد مائة ألف دينار<sup>(٢)</sup>.



مراكش. منارة جامع الكتبية الشهيرة،  
وهي قرينة لآخر الدا

(١) روض القرطاس لابن أبي زرع (طبعة تورليرج) ص ١٥١.

(٢) روض القرطاس ص ١٥١.

ويبلغ ارتفاع منارة المنصور أو "لاخير الدا" La Giralda كما يسميها الإسبان ستة وتسعين مترًا، ويُصعد إليها من الداخل، بواسطة ممرات منحدرية صاعدة مرصوفة بالأجر، تبلغ أربعة وثلاثين، وبها في ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجانبية، لها نوافذ ومشرفيات عربية، زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة. وتعلو هذه الطبقات الأربع، طبقة خامسة، ذات أروقة، ومشرفيات عالية، والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين، ثم تأتي بعد ذلك الطبقة الأخير، وهي اليوم برج أجراس الكنيسة. ذلك أنه قد وقع في الثلث الأعلى من المنارة تغيير عظيم، وكانت تفتيحها الذهبية الأربعة قد سقطت في سنة ١٣٥٥ م، على أثر زلزال مروع هز أركانها بشدة، وغاصت في الأرض وتلفت قشرتها الذهبية الزاهية. وفي سنة ١٤١٠ حولت قبتها العليا إلى برج متواضع للأجراس، ولما تم بناء كنيسة إشبيلية العظمى في سنة ١٥٥٨ م، بُدِيَ العمل في تحويل قمة المنارة إلى برج عظيم للأجراس فبقي هيكلها الرئيسي بطبقته الخمس على أصله، ثم بنى الإسبان فوقه برج الأجراس الحالي من طابقين على طراز عصر الإحياء، واستغرق بناؤه عشرة أعوام، ونصبوا فوق البرج تمثالاً برونزياً للإيمان "Santa Fe" ارتفاعه نحو خمسة أمتار. وله شارة تتور عند هبوب الريح (يسدور بالإسبانية Girar)، ومن ثم فقد أطلق الإسبان على المنارة اسمها الذي تعرف به وهو "لاخير الدا" "La Giralda" أي "الدوارة".

ويشير الغزال إلى "لاخير الدا" بقوله: "وصومعتها (أي صومعة الكنيسة) خارجة عن المسجد بقليل، تشاكل في التشييد صومعة الكتبية في العلو والضخامة، والصعود لها من غير مدارج، إلا أن هذه زاندوا في فحلها علواً فاتحاً، على ما اقتضاه نظرهم محل النواقيس"<sup>(١)</sup>. وهكذا أصبحت منارة المنصور، برج الأجراس "Campanula" لكنيسة إشبيلية العظمى، بعد أن كانت منارة مسجدتها الجامع.

يقول العلامة الأثري الإسباني كونتريراس: "إن "لاخير الدا" تبدو صريحاً كاملاً من الطراز العربي، وفيها تبدو مظاهر الفن الخزفي الحقيقي. ومن الأسف أن هذا البرج الجميل، قد توج بجسم غريب عنه جداً، لا يسمح لنا أن نتصور وضعها القديم، وتفاحتها الذهبية، وألوانها الزرقاء الزاهية"<sup>(٢)</sup>. وقد كان لطراز "لاخير الدا"، وجماله وافتقانه، أثر واضح في تطور الفن المعماري الكنسي، المتعلق بالأبراج الكنسية، فترى في إشبيلية، وفي كثير من مدن

(١) رحلة الغزال ص ٣١.

(٢) Rafael Contreras: Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada (٢) Sevilla y Córdoba. P. 129.

الأندلس الأخرى، كثيرًا من الأبراج الكسبية، قد أقيم على طراز شبيه بطراز لآخر الداء، وزخارفها وتقسيمها الأندلسية.

وقد أتيح لنا أن نصعد إلى أعلى برج "لاخير الدا"، وأن نلقى على إشبيلية الحسناء، نظرة من هذا الارتفاع الشاهق، وهي تبدو رائعة مستديرة الشكل، مكتظة بالشوارع، والدروب الضيقة، ومعظم منازلها بيضاء، وهو اللون المفضل في الأندلس، ويبدو الغناء الأندلسي في كثير منها، وفيه نخلة أو نخيل، وتظلها من الناحية الجنوبية، المقابلة للنهر، بعض التلال، وتبدو حدائق القصر، وحدائق أخرى من وراء "الكتراثية" رقاعًا خضراء رائعة.

وتتنصب "لاخير الدا"، في قلب إشبيلية، بقامتها الرشيدة الشاهقة، باللغة الروعة والجلال، كأنها ملكة تزهو وتتسامى، وهي تشرف على إشبيلية كلها من نواحيها الأربع، وتشرف على نهر الوادي الكبير القريب منها. وعلى واديه الينع كله، وتستطيع أن تراها وأنت بالقطر من مسافات بعيدة.

ومن آثار إشبيلية التي يبدو فيها الطابع الأندلسي قويًا واضحًا، كنيسة "سان ماركوس"، وقد صنع برج نواقيسها، على طراز منارة الجامع، وهو يعتبر أجمل "منار" في إشبيلية بعد "الخير الدا".

### قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla

ولا بد لنا أن نشير أولاً، إلى أن كلمة "القصر" "Alcázar"، أصبحت في إسبانيا، علمًا يطلق على الصروح أو القصور الملوكية الإسلامية، أو أطلالها الباقية، في قواعد الأندلس الذهبية، عدا غرناطة التي اختصت قصورها الملكية باسم "الحمراء"، وبالرغم من أن قصر إشبيلية معظمه من إنشاء الملوك الإسبان، فإنه يسمى كذلك؛ لأنه أقيم على بقايا قصر إسلامي سبق، وأقيم على الطراز الأندلسي.

ويقع قصر إشبيلية، على مقربة من الكنيسة العظمى، وفي جنوبها الشرقي، والظاهر أن واجهة متخله من بقايا قلعة أندلسية قديمة، يتم عن ذلك طرازها ومشارفها العربية. وتقوم بعد الغناء الذي يلي المتخل، ثلاثة عقود قديمة، يبدو أيضًا أنها من عقود الصرح الأندلسي القديم، ثم يلي هذه العقود ساحة شاسعة، تقوم عقودها الجنوبية، على أعمدة رشيقة من الرخام الأبيض، ويبدو طرازها الأندلسي واضحًا.

وهنا يبدو لك الصرح الأندلسي بأبهائه وعقوده ومشرفياته وزخارفه العربية، في ذروة روعته وجماله. "والقصر" طبقان عظيمان؛ والطابق الأول، هو الذي يبدو في معظمه أندلسي

الأصل، وإن كانت قد أضيفت إليه أبنية حديثة، من إنشاء ملوك إسبانيا، والطابق الأعلى كله من صنع إسباني، أجري تقليدًا للنمط الأندلسي.

ويحتوي الطابق الأول على عدة أفنية ولُهاة، لكل منها اسمه الخاص، وهي: قاعة العدل، وفناء الصيد، وفناء العذارى، وبهو كارلوس الخامس، وبهو السفراء، وجناح فيليب الثاني، وفناء العرائس، وجناح الملوك الأندلسيين، وجناح الملوك الكاثوليك<sup>(١)</sup>، وأهم وأبدع هذه الأُلهاء "بهو السفراء"، وهو بهو شاسع فخم تظله قبة عالية جدًا معقودة على عمد ومقرنصت عربية بديعة الزخرف. وجدرانها مكسوة بالقيشاني الفخم، تتخلله نقوش عربية مقلدة في الغالب، وفي دائرة الجدران الوسطى، نقشَت عبارة عربية مكررة في الدائرة كلها، وهي "الغبطة المتصلة"، وإلى جانبها رسوم أسود صغيرة. وفي هذه الطبقة السفلى يبدو الطابع الأندلسي الأصيل قويًا، وفي أفنيئها وأُلهائها عدة أبواب كبيرة وصغيرة، أندلسية الأصل بها نقوش عربية.

ويتخلل زخارف القصر المدجنية، كثير من العبارات والتحيات والأدعية الإسلامية، وبعض الآيات القرآنية، وهي مقلدة منقولة عن نظائرها في بعض الصروح الأندلسية المعاصرة.

ففي أبواب "قاعة السفراء"، نقشَت عبارة "الملك لله" يمينًا ويسارًا، على مصاريع الأبواب. وفي الجزء الأعلى من هذه الأبواب، توجد الكتابة المهمة الآتية، وقد نقشَت في لوحة زرقاء:

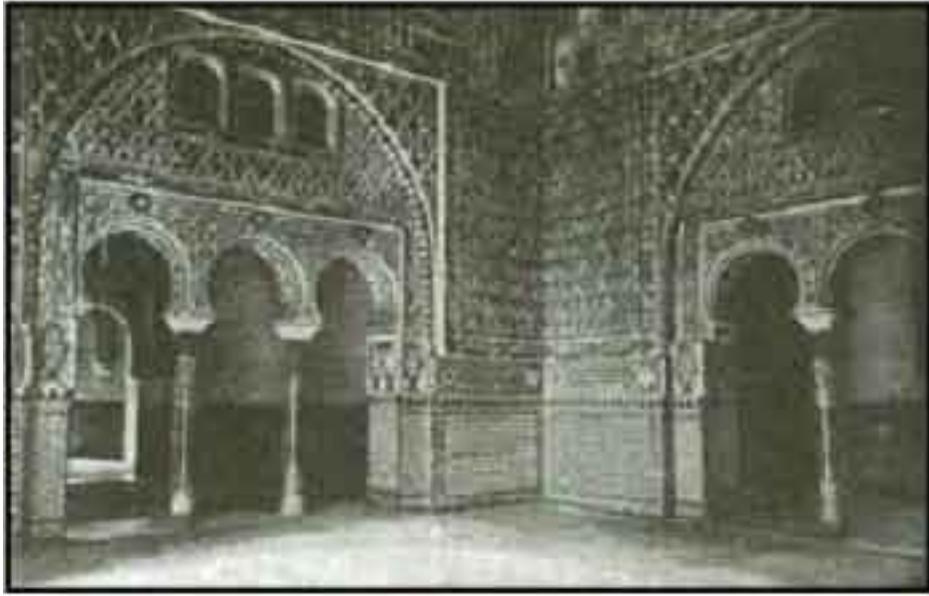
"أمر مولانا المعظم المرفع ضن بضر، ملك قشتالة وليون، أدام الله سعده، وهنيء أيامه، بعمل هذه الأبواب الجديدة، لهذه القبة السعيدة، بما أجنب من العزة والرفعة، من حشد السرور والسعود".

وفي هذه اللوحة بالذات توجد عبارة "ولا غالب إلا الله" (وهي شعار بني نصر ملوك غرناطة) منقوشة ثمانى مرات يمينًا وشمالًا، بالأزرق والأبيض، بخط كوفي جميل.

وفي قاعة السفراء ذاتها توجد العبارة الآتية منقوشة بالكوفية: "عز لمولانا ضن بدر، أيده الله ونصره" وضن بضر لو بدر هو ملك قشتالة بيدور الأول.

<sup>(١)</sup> وهي بالإسبانية: P. de las Doncellas, P. de la Monteria, Patio de la Justicia P. de los Monecas, P. de Felipe II Salon de Embajadores, P. de Carlos V, Dormitorio de los Reyes Moins, D. de los Reyes Catlicos.





قصر إشبيلية، بهو السفراء



إشبيلية، عقود من جناح الملوك الأندلسيين



وفي الجزء الأعلى من المصراع الأيسر للباب، توجد عبارة مشوشة مختلطة الألفاظ، تشير إلى أن الذي اضطلع بالعمل هم "المعلمون الطليطلون وذلك عام ألف وأربع مائة وأربع". ويرى المستشرق أمانوردي لوس ريوس، أن في هذه العبارة ما يدل على أن هذا القصر، لم يقد بإنشائه الفنانون الغرناطيون كما يظن البعض، بل قام بإنشائه أسلذة وصناع من المدجنين من أهل طليطلة<sup>(١)</sup>.

ونقش على الحزام الخارجي "لفناء العذارى" ما يأتي "الحمد لله على نعمه على نعمه على نعمه".

ونقش في البهو الأيمن المسمى "جناح الملوك الأندلسيين" في القبلة، هذه الأبيات الشعرية:

يأتيك الطالع السعيد	يأبها المجالس الجديد
حتى أعماد وهو عيد	لا زالت الزهر خير مثوى
وممكت غيظا...	ومن ينل المحب عينا

وفي أفاريز هذا البهو في مواضع مختلفة "المنة لله العظمة لله السعد والتوفيق نعم الرفاق"، ثم "عز لمولانا السلطان صن بطر...".

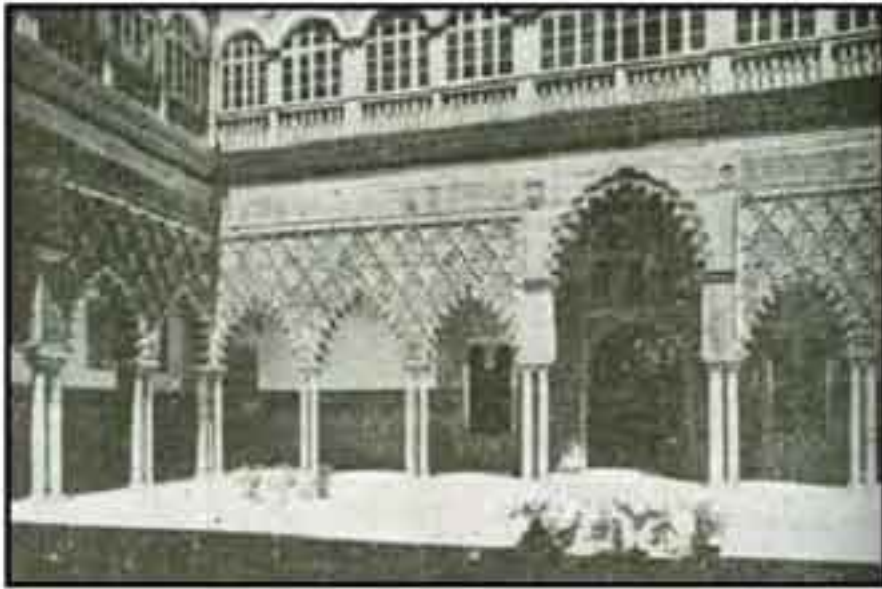
وفي البهو الخارجي لهذا الجناح في قوسه الأعلى، نقشت هذه العبارة مكررة "يا نقتي يا أملي، أنت الرجاء، أنت المولى، اختم بخير العمل".

ونقشت على جدران الطبقة السفلى من القصر بصفة عامة، هذه العبارة مكررة بكثرة: "النعمة الشاملة"، وكذلك نقش في الحزام الخشبي الأوسط هذه العبارات مكررة: "اليمين والسلامة، العزة والكرامة، السعد الدائم".

ونقش في الساحة الكبرى "Patio Principal" عند المدخل "الحمد لله على نعمه"، ثم العبارات الآتية مكررة "عز لمولانا، الملك لله، اليمين والإقبال، ولا غالب إلا الله".

(١) Amador de los Ríos: Inscripciones Arabes de Sevilla, p. 74.

(٢) كلمة غير مقروءة.



قصر إشبيلية. مدخل فناء النذاري



قصر إشبيلية. فناء النذاري

ومما يلفت النظر بوجه خاص، أنه نقش في زاوية من فناء العرائش آية الكرسي «بسم الله وإلهمك إله واحد لا إله إلا هو انْخِ الْفَيْيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ...». ومن المعروف أن الصناع المدجنين كانوا ينقلون كثيرًا من الآيات محرفة، بطريق التقليد الوضعي فقط، حتى أنهم كانوا يثبتون بعض هذه الآيات، في زخارف الأديار ذاتها، دون أن يشعروا أنها من القرآن، وقد شاهدنا مثلًا من ذلك، في مصلى الدين الملكي ببرخش، حسبما نذكر بعد عند كلامنا عن هذا النير.

وأما الطبقة العليا من القصر فهي كلها من إنشاء الملوك الإسبان، وقد أنشئت تقليدًا للطراز الأندلسي، وهي تحتوي على الأماكن الآتية: مصلى المئوك الكاثوليك، بهو الملوك، جناح الملك بيدرو، وبه عدة غرف وأبهاء ذات مشرفيات عربية بديعة، وقد فرشّت جميعًا بالآثاث والرياش الفخم، وزينت جدرانها بطائفة من الصور لأكابر الفدائين، والبناء كله من طراز أندلسي يحاكي الطابق الأول، وقد غطيت جدراته كلها بالقيشاني الملون، ونقشت به أيضًا نقوش عربية مقلدة.

وتختلف الرواية في أصل "القصر" الأندلسي، ويرى البعض أنه يقوم في بعض أجزائه على أنقاض قصر المعتمد بن عباد، وقد كان موقعه قريبًا من النهر في مثل البقعة التي يقوم عليها "القصر". وقد رأينا فيما تقدم عند الكلام على بناء صومعة جامعة إشبيلية (لاخير الدا) أنها بنيت من أنقاض سور قصر ابن عباد، ومعنى ذلك أن بقايا قصر بن عباد، كانت قائمة حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، ومن ثم فإنه يبدو من المحقق أن معظم الأجزاء المنفلى لقصر إشبيلية، قد بنيت في هذه الفترة بالذات، أعني في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، أيام الخليفة أبي يعقوب يوسف وولده الخليفة المنصور الظافر في معركة "الأرك" الشهيرة. وتضع الرواية الأندلسية تاريخ إنشاء هذا القصر في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٣ م) وقد بدأ بإنشائه الخليفة أبو يعقوب يوسف، وأنشأ في الوقت نفسه قنطرة من السفن على نهر الوادي الكبير، وأصلح أسوار المدينة، وما زالت تقوم إلى اليوم في إشبيلية بقية من الأسوار الموحدية، وابنتى المسجد الجامع في نفس هذا التاريخ حسبما تقدم. وليس من المستبعد أن يكون هذا القصر الذي أنشأه الخليفة الموحدي، قد أقيم على بقايا قصر أندلسي سابق، ربما كانت بقايا قصر المعتمد بن عباد. ويذكر لنا الغزال سفير سلطان المغرب إلى ملك إسبانيا أنه حينما زار إشبيلية سنة ١٧٦٦، أنزل "بقصر إشبيلية"، وهو يقول "إن هذه الدار (أي القصر) تقع داخل قصبة أحد ملوك الإسلام، وقيل إنها كانت للمعتمد بن عباد رحمه الله"، وإنها من الديار التي لم يكن مثلها بالبلاد الإشبيلية بالكلية، إلا ما كان بغرناطة على ما قيل"، ثم يصف القصر

وحدثته بحماسة وإعجاب<sup>(١)</sup>. وكان يحيط بالقصر أيام الموحدين، أسوار وأبراج منيعة بقي منها إلى اليوم برج وحيد على النهر، هو البرج المئمن المسمى "برج الذهب" "Torre de Oro" الواقع جنوب شرقي القصر، على ضفة نهر الوادي الكبير، على مقربة من قنطرة سان تلمو، وهو برج ذو ثلاث طبقات ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر مترًا. وقد أنشئ هذا البرج في سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) بإشارة السيد أبي العلاء حاكم إشبيلية الموحدية يومئذ، وكان يربطه بالقصر سور، ويعتبر مركز دفاعي أمامي لباب القصر<sup>(٢)</sup>.

ولما افتتح الملك فرديناند الثالث الملقب بسان فرناندو مدينة إشبيلية في سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) لبقى "القصر" كما هو. ثم قام الملك بيدور الأول (بطرس) بتغييرات وإضافات كبيرة فيه، ما بين سنتي ١٣٥٣ و ١٣٦٥، وأصلح لبهاء الملك خوان الثاني، وابتنى فيه الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإسabella، مصليات وقاعات جديدة. ثم جاء الإمبراطور شارلكان فقير كثيرًا من معالمه. وأحدث فيه بعد ذلك تغييرات أخرى أيام فيليب الثالث وفيليب الخامس. ثم بذلت بعد ذلك مجهودات كثيرة لإعادته وإعادة نقوشه كما كان، قبل أن يتناوله الملوك الإسبان بالتغيير والمسخ. ومع أن هذه التغييرات المتوالية، قد أفقدته كثيرًا من معالمه الإسلامية، إلا أنه مازال بشكله الحالي يعتبر نموذجًا بديعًا للفن الأندلسي والفن المدجني أي الأندلسي النصراني.

يقول العلامة الأثري كونتريراس: "إن (القصر) يكتسب الطابع الغرناطي، الذي لسبغ في هذا الوقت بالذات على "بهو السباح" ببناؤه وزخارفه الرائعة". ثم يقول "وفي قصر يعقوب تغيض هيئة جيل من أجيال البطولة، وفيه تمثل حياة الملوك النصاري الذين عاشوا فيه، وأمدوا تاريخنا المجيد بآلاف الصفحات؛ إن الموحدين الذين طبعوا هذا الصرح بأنقى ذكرياتهم الإفريقية، قد تركوا في جدرانه الآثار الخيالية التي اشتقوها من خرائب الشعوب المغلوبة"<sup>(٣)</sup>.

ويلحق بالقصر حدائق العظيمة البانعة، وهي منسقة على الطرز الأندلسي وبها كثير من أشجار البرتقال، والنخيل العربي، وتتخللها روائن ساحرة كثيرة. والظاهر أنها قد أقيمت مكان حدائق القصر القديمة.

(١) رحلة الغزال ص ٢٦.

(٢) راجع روض قرطاس (طبعة تورنبرج) ص ١٦١. ومجلة Al - Andalus (1934) p. 372.

(٣) R. Contreras: Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada, Sevilla y

Córdoba, p. 102, 103 & 109.



## دار پلاتوس

ليست هذه الدار أثرًا أندلسيًا، ولكنها قطعة من الفن الأندلسي الإسلامي الخالص، وهي كما يستفاد من لوحة في فناءها من إنشاء سادتها الأوائل أسرة "مدينا سالي". وقد أنشئت في سنة ١٥٣٣، وتوالت في ملكيتها دوق "مدينا سالي" وألبا. وقد ذكر في لوحة أخرى أن البناء قسوطي الطراز، وأن فناءه مصنوع على طراز أفنية قرطبة وخرناطة العربية. وفناءه أجمل ما فيه، وهو مربع ذو عقود عربية، ستة في الطول وخمسة في العرض، وفي وسطه نافورة مرمرية بديعة. وقد كسيت جدرانه بالقيشاني الجميل المختلف النقوش والألوان، وقد نقش عليها العبارة الآتية "الملك الدائم لله، العز القائم لله". ووراء الفناء بهو في داخله مصلى صغير، وسقفه مصنوع من الخشب المقرنص، وبه زخارف بيضاء منجنية فوقها شريط به نقوش عربية لا تقرأ، وسقف البهو الداخلي الأصغر أيضًا من الخشب المقرنص، وبه زخارف عربية.



إشبيلية. فناء دار پلاتوس وعقوده العربية



إشبيلية. فناء دار على  
الطراز الأندلسي



وفي الدور الأعلى أروقة ذات عقود تطّل على الفناء، ويؤدي إليها سلم عربي جميل، وفوقه قبة عربية بها زخارف مذهبة، وتحتها مربع من النقوش المدجنية.

وقد سُمي هذا البناء بدار بلاتوس "Casa de Pilatos" حسبما جاء في لوحة إنشائه، تشبهاً بالفصر المماثل الذي كان في بيت المقدس للحاكم الروماني بلاتوس، وهو يقع في وسط مدينة إشبيلية وتفضي إليه دروب ضيقة.

### بعض النقوش العربية الأخرى

وفي متحف إشبيلية الأثري (الأركيولوجي) توجد عدة لوحات وقطع رخامية عليها نقوش عربية، منها لوحة رخامية طولها نحو ثلاثة أمتار وعرضها أقل من نصف متر، وقد كتب عليها بالكوفية البدائية تاريخ إنشاء جامع ابن عدّس، وهو كما قدمنا جامع إشبيلية القديم، وذلك على النحو الآتي:

"يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المبين الأمر ببنيان هذا المسجد على يدي عمر بن عدّس قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومئتين وكتب عبد البر بن هرون".

وقد أثار ابن صاحب الصلاة، عند حديثه عن انتقال الخطبة إلى جامع إشبيلية الموحدية، إلى هذه اللوحة، وقد كانت مثبتة في الفناء الخلفي للجامع، المقابل للمحراب، وذكر لنا أنه كان مكتوباً عليها بخط قديم هذا النص بذاته<sup>(١)</sup>.

ومنها لوحة جصية مأخوذة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة "سلفادور" وهي التي أقيمت فوق موقع مسجد ابن عدّس المتقدم الذكر، عليها كتابة كوفية فيها بعد البسملة بأن أعلى المنار قد أمر ببناؤه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد بن عباد، وذلك عقب تدمره بسبب الزلزال، في مستهل ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، كما توجد قطعة رخامية صغيرة عليها "أبو القاسم محمد".

ويذكر العلامة المستشرق أمادور دي لوس ريوس، أنه توجد في متحف إشبيلية الإقليمي لوحة رخامية، كانت محفوظة في الأصل بكنيسة "سان خوان دي لاپالما" عليها بالخط الكوفي ما يلي:

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين" لوحة ١٦٩ ب.



إشبيلية. برج الذهب

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله  
على محمد خاتم النبيين، أمرت السيدة الكبرى  
أم الرشيد أبي الحسين عبد الله بن المعتمد على  
الله المؤيد بنصر الله أبي القاسم محمد بن عبد  
أدام الله تأييده وأمره وإعزازها، بإقامة هذه  
الصومعة بمسجدها، صانه الله، طلباً لجزيل  
الأجر والثواب. فتمت بعمون الله على يدي  
الوزير الكاتب الأمير أبي القاسم بن حجاج  
وفقه الله، وذلك في شعبان من عام ثمانية  
وسبعين وأربع مائة<sup>(١)</sup>. ولكني لم أوفق إلى  
زيارة المتحف الإقليمي هذا، ولم أجده مذكوراً  
بين معالم إشبيلية اليوم.

## الأسوار الموحدية

ولم يبق من أسوار إشبيلية القديمة الرومانية العربية داخل المدينة سوى أبراج القصر،  
وبرج الذهب "Torre de Oro" الواقع على ضفة الوادي الكبير، وقد تقدم ذكره؛ بيد أنه  
ما زالت توجد خارج المدينة بقية كبيرة من الأسوار القديمة، يبلغ طولها نحو أربع مائة متر،  
وارتفاعها نحو ثمانية أمتار، وتمتد من الباب المسمى "باب مكارينا" حتى قبالة دير  
"الكابوسين"، ومنها جزء كبير يرجع إلى عصر الموحدين، ويخترقها عقدان قديمان إلى جانب  
"باب مكارينا"، وبها ستة أبراج موحدية من أصل مائة وستة وستين برجاً كانت موزعة على  
الأسوار كلها، ومنها أربعة ما زالت تحتفظ بكامل بنائها، وتمتد هذه الأسوار بحذاء "شارع  
الكابوسين" الفسيح، وهو من أعظم شوارع إشبيلية الخارجية. وما زالت تعرف حتى اليوم  
بالأسوار الموحدية "Las Murallas Almohades".

\* \* \*

Amador de los Rios: Incripciones Arabes de Sevilla, p. 107. Lévy - Provençal: <sup>(١)</sup>

Inscriptions Arabes d'Espagne, p. 40.

وإشبيلية، إذا استثنينا غرناطة، أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بالطابع الأندلسي. وربما كان ذلك لطول إقامة المسلمين بها، فقد حكموها أكثر من خمسة قرون، ومن ثم فإن خططها وأبنيتها تأثرت بالطابع الإسلامي إلى حد كبير. وما زالت ثمة بها أحياء برمتها على نسقها الأندلسي القديم، من حيث الدروب الضيقة، والمنازل ذات الأبواب المزدوجة والأفنية الأندلسية. وهذا الطرز من المنازل يحتوي على فناء مستدير، في وسطه نافورة، ويحيط به سياج من البلور أو تزيين جوانبه بالخزف الملون، ويتصل الباب الخارجي برواق رخامي. وفي الدور الأول تقام أروقة ذات عمد مطلة على الفناء، وهذا الفناء هو مجلس الإشبيليين



المفضل في الصيف، حيث يجتمعون حول النافورة الرطبة. ويبدو الطابع الأندلسي على أشده في حي "سانتا كروث" Santa Cruz أي الصليب المقدس، أحد أحيائها الشعبية القديمة. وهو أقرب أحياء إشبيلية شبهًا بحي البتازين الشهير في غرناطة. بل إن الطابع الأندلسي ليبدو قويًا في أحياء إشبيلية وصروحها الحديثة. ففي كثير من المنازل والفنادق الكبيرة ترى الأفنية الأندلسية البديعة، وفي وسطها النوافير والخضرة، وقد أطلت عليها المشرفيات والشبابيك العربية، وترى الجدران، وقد زينت بالخزف الملون ذي الزخارف الأندلسية البديعة.

إشبيلية. جانب من الأسوار الموحدية وأحد أبراجها

ويغلب الروح الأندلسي المرح على إشبيلية، وهي في ذلك على نقيض من غرناطة التي يسودها الجمود والتحفظ؛ وفي إشبيلية تعرض أجمل مناظر الرقص الأندلسي، وتلقى الأغاني الأندلسية المرحية، وتعرض أجمل الأزياء والشيلان الأندلسية، وأبدع منتجات الخزف الأندلسي الملون، وعلى العموم فإن إشبيلية تثير بكل ربوعها وصروحها، ومعالمها وآثارها، ودروبها ومغائيبها، في النفس كثيرًا من ذكريات المدينة الأندلسية الذاخرة.

### قلعة جابر

ويوجد في بلدة "قلعة جابر" الصغيرة "Alcála de Guadaira"، التي تقع على مسافة قريبة من جنوب شرق إشبيلية، أثر أندلسي هام، هو عبارة عن قلعة جابر. وقد كانت من حصون إشبيلية الأمامية الشرقية، واشتهرت بحصانتها وأهميتها الدفاعية منذ عهد الطوائف وقد وسعت وجددت أيام الموحدين في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف وسقطت في أيدي القشتاليين عند حصارهم لإشبيلية في سنة ١٢٤٧ م. وقام النصارى خلال القرن الخامس عشر بعمل تعديلات، وإضافات كثيرة فيها، ولكن بقيت أجزاء كثيرة من بنائها الأصلي. وتقع قلعة جابر فوق ربوة عالية وتشرف على المدينة الصغيرة من الجنوب، وتشغل أطلالها منطقة



أطلال قلعة جابر

واسعة، وتتكون من فناءين كبيرين يشرف على كل منهما أبراج تبلغ نحو العشرة في الفناءين. ومدخل كل منهما عقد عربي. وتمتد مساحة القلعة بعد ذلك إلى مسافة كبيرة، وتقوم من حولها بقية كبيرة من أسوارها القديمة. وهي ليست عالية. وقد أنشأ الإسبان في تلك الساحة بعض أبنية حديثة ومتنزهات. ومنها كنيسة القديمة آجيلاً Sta Aguila وهي حامية المدينة. ويوجد في نهاية الساحة الخارجية عقدان قويان وبقية أخرى من الأسوار. وتبلغ واجهة القلعة الرئيسية المطلّة على المدينة نحو مائتي متر، وبرجها الرئيسي ضخّم مربع الشكل.

وقد كانت قلعة جابر أيام الموحدين من أهم النقاط الدفاعية الشرقية حول إشبيلية، وكان الموحدون قد أقاموا حول إشبيلية - وهي قاعدة حكمهم في الأندلس - سلسلة من الحصون القوية كانت قلعة جابر من أضخمها وأمنعها. فلما سقطت قلعة جابر في يد النصارى، غدت بدورها مركزاً للدفاع عن إشبيلية، عاصمة قشتالة الجديدة، ضد هجمات المسلمين.



## ٤ - قرمونة

### Carmona

ويتبع الكلام عن إشبيلية، الكلام عن مدينتين، تقعان على مقربة منها، ولو أنهما ليستا من الناحية الاصطلاحية، من القواعد الأندلسية الكبرى، هما قرمونة وإستجة.

تقع مدينة قرمونة على مقربة من جنوبي نهر الوادي الكبير، في شمل شرقي إشبيلية، على قيد اثنتين وثلاثين كيلو مترًا منها، في بسيط من الأرض، وافر الخضرة والخصب، كباقي تلك الرقعة الكبيرة اليلعة التي يحتضنها الوادي الكبير في حنيته نحو الشرق، والتي تغمرها غابات الزيتون، وحقول القمح النضرة، وتعتبر بجمالها من أجمل رقاع الأندلس وأخصبها.

وقد كانت قرمونة أيام الدولة الأندلسية من أهم وأمنع مدن ولاية إشبيلية. وتتوء الزوايا الإسلامية بعراقة قرمونة وحصانيتها، وتتوء بالأخص ببابها الشهيرين الباقيين إلى اليوم، وهما باب إشبيلية، وباب قرطبة<sup>(١)</sup>. وقد قامت بها أيام الطوائف مملكة بني برزال البربرية، ثم افتتحها بنو عباد، وضمت إلى مملكة إشبيلية، واستمرت تلعب دورها في تلك المنطقة من الأندلس الوسطى، حتى استولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة في سنة ١٢٤٧ م، قبيل استيلائه على إشبيلية بلشهر قلائل.

وقرمونة مدينة كبيرة، يبلغ سكانها نحو أربعين ألفًا، وقد بنيت أحياؤها الوسطى في بطن الوادي، وأحياؤها الجانبية من الناحيتين الشرقية والغربية على ربوئين صاعدتين، على هيئة ضلعي المثلث. والقسم القديم من المدينة، وهو الذي يحتل مكان المدينة الأندلسية، يبدو أنه هو المحصور ما بين باب إشبيلية جنوبًا، وباب قرطبة شمالًا، وباب إشبيلية هو بداية الربوة الصاعدة حتى باب قرطبة، وتقع في دخلها ووسطها الكنيسة العظمى. أما المدينة الحديثة، فتمتد غربًا من باب إشبيلية حتى المقابر الرومانية التي تقع عند مدخل المدينة. وتخترق المدينة الداخلية شوارع طويلة ضيقة، وبها السوق الكبير، وهي تبدو على العموم ذات طابع أندلسي واضح.

<sup>(١)</sup> راجع لروض المعطر (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٥٨.





فرمونة. مدخل المدينة وقد ظهر فيه باب إشبيلية  
وجزاء من أسوار القصبة



فرمونة. باب إشبيلية  
وهو بابها الغربى

## الآثار الأندلسية

باب إشبيلية: وهو من أعظم وأروع الأبواب الأندلسية الباقية، وهو عبارة عن عقد ضخم يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، واتساعه من أسفل نحو خمسة، ومن أعلى نحو أربعة، ويعلوه من الأمام عقد أكبر مستدير، وفوق الباب بقية شرفة كبيرة عالية، تبلغ واجهتها نحو خمسة عشر متراً، ويبلغ ارتفاع الباب والشرفة معاً نحو العشرين متراً، ويبلغ عمق الباب أو ممره نحو عشرة أمتار، وينتهي من الناحية الأخرى بعقد مماثل لعقد المدخل، وببينهما من الداخل عقد متوسط، ثم يأتي بعد الباب وعقوده الثلاثة، وهي المغطاة، بنحو عشرة أمتار من العراء. عقد آخر عمقه نحو ستة أمتار، وإلى يمينه قطعة هائلة من السور الأندلسي يبلغ طولها نحو خمسة وعشرين متراً، وارتفاعها نحو ثلاثين، وتتوج العقود والشرفة من أعلى، السواري العربية المعروفة، ويبدو الأثر كله في حالة رائعة من القوة والمناعة، ويتوسط بموقعه قسماً قرمونة، القديم منهما والحديث. وقد سمي باب إشبيلية؛ لأنه يتجه نحو الجنوب الغربي إلى طريق إشبيلية.

باب قرطبة: وهو عقد ضخم مزدوج عمقه نحو ثمانية أمتار، وعرضه نحو سبعة أمتار وارتفاعه نحو عشرة، وإلى كل من يمينه ويساره عضادة عرضها نحو ثمانية أمتار وارتفاعها نحو اثني عشر متراً، وبها ثلاثة أعمدة. ومن الواضح أنها إضافة متأخرة. ويوجد أيضاً إلى كل من يمين هاتين العضادتين ويسارهما، قاعدة برج ضخمة مستديرة الشكل، قد بنيت بالأحجار الكبيرة الصلدة، وهما تحتفظان بأصلهما العربي، وأما الباب فقد أدخلت عليه تغييرات، ولكن بقيت في أسفله الأحجار الصلدة التي يبدو أنها قديمة، وقد بنيت فوق أعلى الباب مقصورة نصرانية. وقد أقيم في الناحية الأخرى من الباب عن كل من يمينه ويساره، عمودان يرتفعان عن الأرض نحو مترين، وظاهر من موقع الباب، وكونه يطل على الوادي والحقول المجاورة، ويجاور الربوة الصخرية، أنه كان نهاية المدينة من الشمال، وقد سمي باب قرطبة؛ لأنه يتجه نحو الشمال الشرقي إلى طريق قرطبة، ومن المقرر من الوجهة التاريخية أن باب قرطبة يرجع في القديم إلى أصل روماني، ثم جدد أيام المسلمين، واتخذ طابعه الأندلسي، ثم توالى عليه بعد ذلك تغييرات وتجديدات قام بها ملوك قشتالة.

قصر مرشدة: ويطلق هذا الاسم على طلل ضخم تبلغ واجهته نحو مائة متر ويقع على ربوة عالية تطل على الوادي، وتبدو منه المدينة بيضاوية الشكل، وفي وسطها الكنيسة العظمى، ومدخل هذا الطلل باب ضخم ذو ثلاث عقود متواصلة وعليه شرفة عالية، قد تآكلت

حافتها، وإلى يمينه برج مثلث، ومن وراءه ساحة صغيرة، يتلوها عقد آخر، وتبدو الأطلال داخل الصرح الفخم متناثرة في كل ناحية، ويبلغ عرضه من الداخل نحو ثمانين متراً، ومن الأطلال بقايا أبراج ولسوار، وبقايا غرف، كلها في حالة مطبقة من الخراب، والمعروف أن هذا الصرح الضخم، هو القلعة التي أنشأها الملك بطرس القلسي (بيدرو) ملك قشتالة (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م)، وكان بداخلها قصر أنشأ أيضاً، ولكن يبدو من ناحية أخرى، أن هذه القلعة قد أنشئت مكان القسبة الأندلسية القديمة وفوقها أنقاضها، وربما كان بين الأطلال الحالية كثير من أنقاض القسبة ولسوارها.

الكنيسة العظمى: وهي تسمى كنيسة سانتا ماريا، وهي كنيسة صغيرة قديمة، ولكن جميلة ذات عقود قوطية عالية، ولها نوافذ من الزجاج الملون، وقد بنيت فوق مكان المسجد الجامع القديم، وقد بقي منه إلى اليوم صحنه الذي جعل صحناً للكنيسة، وبه ستة من عقود الجامع، وتبلغ مساحة هذا الصحن عشرين متراً في عشرة، وظاهر كذلك من باب الكنيسة المعقود، وتوسطه للعقود العربية التي بالصحن، أنه كان أيضاً مدخل الجامع الرئيسي.



قرمونة. باب قرطبة وهو بابها الشرقي



قرمونة. أطلال "القصر" القديم وباب مرشافة

## ٥ - إستجة

### Ecija

كانت إستجة أيام سيادة الرومان في شبه الجزيرة، من المستعمرات الرومانية الملحوظة، وسماها العرب "إستجة" من اسمها الروماني القديم Astigis.

وهي مدينة كبيرة، تقع على الضفة اليسرى لنهر شنيل، فرع الوادي الكبير، في هضبة أخضر خصب من الأرض، ويبلغ سكانها نحو ثلاثين ألفاً، وهي من أعمال مقاطعة إشبيلية، وتبعد عنها نحو ثمانين كيلو متراً، وتبعد عن قرطبة نحو ستين. وفي الطريق إليها من قرطبة تكثر البساتين الخضراء تتخللها غابات الزيتون وحقول القمح، وقد تعرضت المرتفعات أو المنخفضات هنا وهناك، ولكن الخضرة تغمرها دائماً، وتظلها الجبال من الشمال على مدى البصر.

وكانت لإستجة في عهدها الإسلامي، أسوار مزدوجة منيعة، تخترقها عدة أبواب كبيرة، وكانت كما هي اليوم، تحتل الرقعة الواقعة على ضفاف النهر<sup>(١)</sup>.

وإستجة اليوم مدينة جميلة مشرقة، تخترقها شوارع طويلة واسعة، وتبدو في ثوب من الأثقة والنظافة يميزها عن المدن الإسبانية الممثلة، وأشد ما يميز إستجة، هو طابعها الأندلسي العميق، فهي بخططها وتقاسيمها، تبدو مدينة أندلسية حقاً، ومنازلها جميعاً بيضاء، لا ترتفع إلى أكثر من طبق أو طابقين، ويوجد الفناء الأندلسي في كثير منها بنافورتته ولشجاره، ويغطي جدرانها الزليخ الأندلسي الملون، وهذا ما حدا بالعلامة الأثري الأستاذ توريس بالباس أن يصفها بحق بأنها "أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بالطابع الأندلسي".

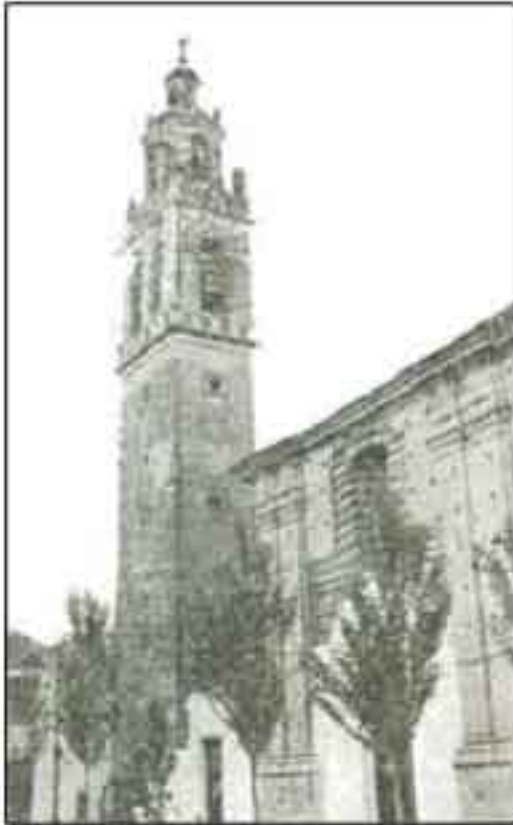
ويقع الميدان الكبير في وسط المدينة، ويتفرع منه عدد كبير من الشوارع العريضة والضيقة. وتقع الكنيسة الكبرى على مقربة منه في درب ضيق يفضي إليه، وتسمى كنيسة "الصليب المقدس" Santa Cruz، ويسمى برجها المستقل القائم إلى يسارها مطلاً على الشارع بنفس الاسم. والكنيسة صغيرة، وهي حديثة البناء، ولكن تقوم إلى جانبها أطلال الكنيسة القديمة وعقودها العالية. ويبدو من هذه الأطلال، ومن وجود عقد عربي في صدر الفناء المجاور لها، أن الكنيسة وأطلالها القديمة كلها، تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وقد أقيمت الكنيسة القديمة، فوق أنقاض الجامع، في سنة ١٥١٢ م.

(١) لروص المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٤ و ١٥.





إربدة. منظر جزئي للمدينة



إربدة. الكنيسة العظمى  
وبرج "سلتا كروث"



إربدة. عقد عربي  
في فناء الكنيسة يظن أنه من بقايا الجامع

ويقع العقد العربي المشار إليه في صدر الفناء الواقع إلى يسار الكنيسة، بينها وبين  
البرج، وهو عقد واسع ومنخفض يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار، وسعته كذلك، وقد بقيت نقوشه  
وزخارفه العربية في الزوايا.

وبالرغم من أنه لا توجد في إستجة آثار وأطلال أندلسية ذات شأن، فإنه توجد لوحتان  
أندلسيتان، قد ثبتتا في أسفل برج الكنيسة في واجهته المطلّة على الشارع، ويبدو من شكل  
البرج وطرازه، أنه ربما كان منار الجامع القديم، وقد بقي نصفه الأسفل محتفظاً ببناؤه القديم،  
وحول نصفه الأعلى إلى برج للأجراس. ويقع هذا البرج، وهو يحمل نفس اسم الكنيسة -  
سائتا كروث - في الناحية اليسرى لفناء الكنيسة الخارجي، ويطل على الشارع الضيق، ويبلغ  
ارتفاعه نحو ثلاثين متراً من الأرض، وفي وسط واجهته الخارجية كوة مستديرة، والبرج  
مربع الشكل، يبلغ ضلعه نحو ستة أمتار.

### اللوحتان العربيتان

وقد ثبتت في أسفل واجهة البرج المطلّة على الشارع لوحتان عربيتان على ارتفاع  
نحو أربعة أمتار من الأرض، وبينهما لوحة لاتينية تباعد بينهما بنحو متر ونصف. الأولى  
مستطيلة الشكل يبلغ ارتفاعها نحو ٦٠ سنتيمتراً، وعرضها ٥٠، والثانية مربعة الشكل، يبلغ  
ضلعه نحو ٥٥ سنتيمتراً.

وقد نقش في اللوحة الأولى بالخط الكوفي ما يأتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أمر أمير المؤمنين أعزّه الله، عبد الرحمن بن محمد، ببنين  
هذه السقاية، رجاء ثواب الله الجزيل (وأجره العظيم) فتم ذلك بعون الله على يدي موليه  
وعامله، أمية بن محمد بن شهيد، في شهر المحرم سنة ثمان مئتي عشر وثلاثمائة".

ونقش في اللوحة الثانية، وهي من الرخام، أحد عشر سطراً من الكتابة الكوفية، هذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أمرت ببناء هذه السقاية أعزّها الله والدة أم أمير المؤمنين  
المؤيد بالله هشام بن الحكم، أطل الله بقاءه، رجاء منها ثواب الله الجزيل وأجره العظيم، فتمت  
بعون الله وتأييده على يد صنيعتها صاحب الشرطة وقاضي أهل كورة إستجة وقرمونة  
وأعمالها، أحمد بن عبد الله بن موسى، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ست وستين وثلاثمائة".

ومعنى ذلك أن اللوحة الأولى ترجع إلى أوائل عهد الناصر لدين الله، وأن اللوحة  
الثانية ترجع إلى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر. وأم أمير المؤمنين المشار إليها في هذا  
النص، هي صبح البشكنسية جارية الحكم، وأم ولده هشام المؤيد.

ويوجد في إسّجة عدا كنيسة "سانتا كروث" عدة كنائس أخرى يقع معظمها على مقربة من الميدان الكبير، ومنها كنيسة سانتا مارياء وكنيسة سان فرنسيسكو، ويوجد بها أيضاً عدد من الألبير القديمة.

وقد حاولنا أن نتقصى آثار القطرة الأنطلمية التي أنشأها الحاجب المنصور على نهر شذيل قبالة إسّجة، أي قبالة طرفها الشمالي، فوجدناها قد جددت تجديدًا كاملاً، ولم نجد في عقودها الحالية، ما يحمل على الظن، بأن منها ما هو قديم يرجع إلى العهد الإسلامي.

وقد سقطت إسّجة في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٣٧ م، في عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة.

## ٦ - طليطلة

### Toledo

كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية، ثم كانت بعد فتح المسلمين للأندلس من أعظم وأهم القواعد الأندلسية. وقد لبثت أيام الدولة الإسلامية، مؤثلاً لثورات المولدين والبربر. وكان



طليطلة. باب الشمس

المولدون أو المسلمون الإسبان، هم عنصر سكانها الغالب، ومن ثم فإن ولاءهم للحكومة الإسلامية لم يكن قوياً. وقد عانت حكومة قرطبة في إخضاعها وحكمها مناعب وصعاباً جمة. وفوق ذلك فقد كانت طليطلة بموقعها على المنحدرات الصخرية العالية، الممتدة حتى ضفاف التاجه، الذي يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب، وأسوارها الضخمة، وقلاعها الحصينة، من أمنع مدن العصور الوسطى، وهي ما تزال إلى اليوم متى تأملت موقعها الجبلى الوعر، وبقياس أسوارها وحصونها القديمة، ودروبها الصخرية القفرة، تذكرنا بحصانيتها القديمة.

وهي تقع في منعطف نهر التاجه على بعد خمسة وسبعين كيلو متراً من مدريد، وتربطها بالعاصمة الإسبانية مواصلات حديدية منظمة، وكذلك طريق سيارات حسن، ويفد إليها السياح بكثرة من سائر البلاد.

وقد كانت طليطلة أول قاعدة أندلسية هامة سقطت في أيدي النصارى، وكان سقوطها في شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة. وكان هذا السقوط نذيراً خطيراً بتصدد صروح الدولة الإسلامية. وكان المسلمون حينما فتحوا طليطلة، قد استبقوا كثيراً من خططها ومعالمها وصروحها القوطية والرومانية القديمة، وجعلوا مسجدها الجامع مكان الكنيسة القوطية التي تقع في وسطها. ولكنها نمت وازدهرت في ظلهم، واشتهرت بصناعاتها الصلبية والحديدية، وأسلحتها الفاخرة. وبلغ سكانها أيام المسلمين نحو مائتي ألف نسمة. فلما سقطت في أيدي النصارى هجرها معظم سكانها المسلمين، وتضايل سكانها ونشاطها الصناعي في ظل الحكم الإسباني، بالرغم من أنها كانت في وقت من الأوقات عاصمة إسبانيا النصرانية، وكانت مقرّاً لبلاط فرديناند وإسبانيا، وأحياناً لبلاط الإمبراطور شارلكن. واستمر تدهورها حتى عفت معظم صناعاتها القديمة، وأصبح سكانها اليوم لا يعدون ثلاثين ألف نسمة.



طليطلة. منظر جزلي لواجهة المدينة يبين موقعها على نهر التاجه



طليطلة. القنطرة الأندلسية المسماة قنطرة "القنطرة"  
Alfenàtra القلعة فوق نهر التاجه



وطليطلة اليوم مدينة متواضعة، وهي ما زالت تحتفظ بخططها القديمة، بدروبها الضيقة المنحدرة ومنازلها الصخرية العتيقة، وما زالت بها بقية من أسوارها ولبراجها وأبوابها القديمة، ومنها الباب المسمى "باب بساجرا" "Puerta de Visagra" أو باب ألفونسو السادس، وأصله من الأبواب الأندلسية القديمة، وكان يسمى "باب شرقي"، وقد جدد في منتصف القرن السادس عشر. وتقع القنطرة العربية القديمة على التاجه أمام شمال شرقي المدينة، وما زالت تسمى إلى اليوم "Puente de Alcà--tra" قنطرة القنطرة، وقد أنشئت في سنة ٩٩٧ م أيام المنصور بن أبي عامر مكان القنطرة الرومانية القديمة، ثم جدها ألفونسو السادس فاتح طليطلة بعد أن كانت تتهدم، وهي تقوم على عقدتين ضخمتين عميقين، وعليها باب قديم في أعلاه برج، وعلى الزبوة المقابلة لها من الشمال، يقوم الصرح المسمى "بالقصر"، وفي نهايتها باب آخر أحدث صنعا.

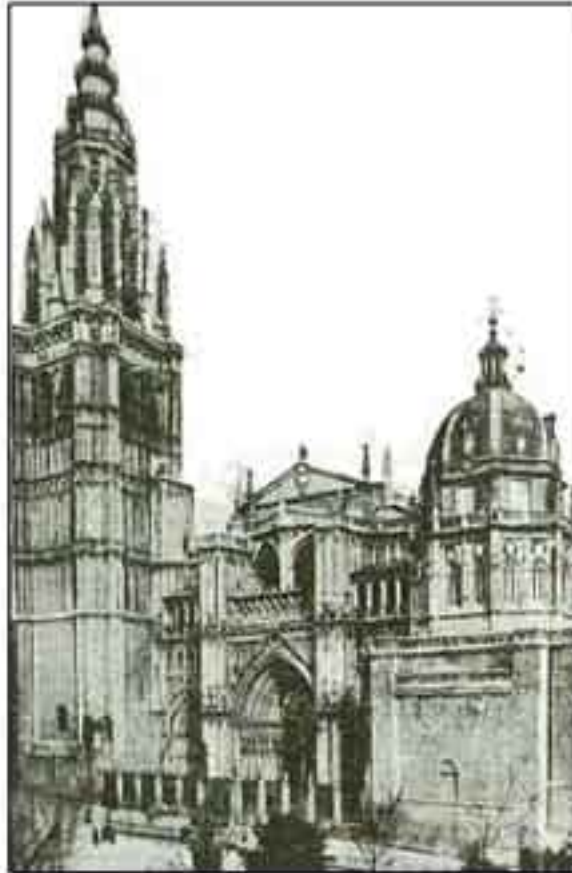
وما زالت طليطلة تحمل إلى اليوم طابع العصور الوسطى، وتبدو حصانتها القديمة في كل بقعة من بقاعها، وكل حي من أحيائها. والمدينة القديمة، المدينة القوطية الأندلسية، ما زالت قائمة بدروبها الضيقة المتشابكة، ومنازلها القديمة الصلدة، وشوارعها المنحدرة، وحتى كنيسها العظمى (الكنترائية) تقع في وسط شبكة من الدروب الضيقة. والمدينة كلها تتحدر بصخرتها المنبوعة نحو نهر التاجه الواقع في جنوبها، وتوجد في الضفة الأخرى من التاجه مما يلي قنطرة القنطرة، عدة شوارع ومبان حديثة، وهذه تعتبر المدينة الجديدة. وما زال نهر التاجه والمنحدر والأسوار والأبواب المشرفة عليه، تعين لنا معالم المدينة القديمة، ولا توجد في طليطلة ميادين كبيرة، وميدانها الرئيسي "الميدان الكبير" "Plaza Mayor" قريب من التاجه، ومنه تتفرع عدة دروب ضيقة يفضى إحداها إلى الكنيسة العظمى.

### الكنيسة العظمى

وتقع كنيسة طليطلة العظمى (الكنترائية) في وسط المدينة تقريبا، وهي تحتل مكان المسجد الجامع القديم، وقد كان هذا المسجد كنيسة قوطية قديمة، فحولها المسلمون وقت الفتح إلى مسجد طليطلة الجامع. ولما سقطت طليطلة في أيدي القشتاليين، كان من عهود التمسليم التي قطعها ملك قشتالة على نفسه أن يبقى للمسلمين جامعهم إلى الأبد، يؤدون فيه شعائهم أحرارا. بيد أنه لم يمض على ذلك سوى شهرين، حتى قام لسقف طليطلة الجديد بتحويل الجامع إلى كنيسة بالقوة القاهرة، ونصبت فيه الهياكل، ولم يكن احتجاج المسلمين ولا هياجهم شينا. وفي شهر ديسمبر سنة ١٠٨٥ م دشنت الكنيسة الجديدة في حفل ملوكي ضخم، واستمر بناء الجامع بعد تحويله إلى كنيسة قائما زهاء قرن ونصف حتى أمر بهدمه الملك فرناندو

الثالث في سنة ١٢٢٧ م. وأمر بأن تبنى مكانه الكاتدرائية الحالية، وهي من أعظم وأغنى الكنائس الإسبانية. وقد كانت طليطلة ومازالَت مقر الرئاسة الدينية العليا للكنيسة الإسبانية. وقد بدأ بناء هذه الكنيسة في عصر فرناندو الثالث، ولكن بنائها استمر دهرًا ولم يتم إلا في سنة ١٤٩٢، في نفس الوقت الذي سقطت في غرناطة آخر القواعد الأندلسية. وتوجد في نهاية صحنها لوحة كتب عليها بالإسبانية ما يأتي: "في سنة ١٤٩٢ فتحت غرناطة وكل ممتلكاتها، على يد الملكين فرديناند وإسبيللا. وفي نفس هذا العام في نهاية شهر يولييه، أخرج جميع اليهود من جميع ولايات قشتالة وأراجون وطليطلة. وفي السنة التالية - سنة ١٤٩٣ - كان إتمام هذه الكنيسة".

ويوجد تحت القبة الكبرى، في شريط الحظيرة التي تحيط بهو الهيكل الكبير، نقوش خشبية مصورة تمثل قصة حصار غرناطة وفتتاحها، ويبدو فيها فرسان معممون هم الفرسان المسلمون، كما تبدو مناظر الحمراء وقلاعها. وتبدو صور الملك فرديناند والملكة إسبيللا كل على جواده، وتسمى هذه النقوش "افتتاح غرناطة في عصر الملكين الكاثوليكين" "Conquista de Granada en tiempo de los Reyes Católicos"، وتعتبر من أقيم ما يزدان به صحن الكنيسة.



طليطلة. الكنيسة العظمى

وفي ناحية أخرى من الكنيسة، توجد قاعة كبيرة لها مدخل زُين بنقوش وزخارف مدجنية. وكذلك سقفها زين بنقوش مدجنية مذهبة. وقد رسمت على جدرانها الأربع، صور جميع الأساقفة، الذين تولوا كرسي طليطلة، منذ إنشائه حتى العصر الحالي. وتحفظ كنيسة طليطلة بطائفة كبيرة من الأتية الذهبية، والصلبان والتيجان الملوكية والأسقفية التاريخية الثمينة، تحفظ في غرفة خاصة في نهايتها.

وإلى جانب هذه الذخائر، التي تشتهر بها كنيسة طليطلة، يوجد معرض الصور والثياب الأسقفية في ألباء "المقدس"، ويحتوي معرض الصور، على مجموعة كبيرة من الصور الدينية، بريش أكابر الفنانين الإسبان وغيرهم، ومنها مجموعة رائعة من صنع دومنيكو إل جريكو (اليوناني) الذي عاش في طليطلة في أواخر القرن السادس عشر وتوفي بها. وتضم قاعة الثياب المقدسة، مجموعة كبيرة من الأتواب الأسقفية المذهبة، التي كانت لمختلف الأساقفة الذين تولوا كرسي هذه الكنيسة.

### علما السلطان أبي الحسن المريني

على أن أهم ما يثير طلعة الباحث بين ذخائر كنيسة طليطلة، هو علما السلطان أبي الحسن المريني، اللذان غنمهما الإسبان، في موقعة سالانو Salado أو موقعة طريف، وهي الموقعة التي نشبت بين الإسبان، وبين الجيوش الأندلسية والمغربية المتحدة، بقيادة السلطان يوسف أبي الحجاج والسلطان أبي الحسن المريني الذي عبر إلى إسبانيا لنجدة المسلمين، وذلك في ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) وهُزم فيها المسلمون هزيمة فادحة، وسقط معسكر السلطان أبي الحسن في يد النصاري، وكان من أسلابه هذان العلمان، اللذان مازالت تحتفظ بهما حتى اليوم إسبانيا النصرانية، عنواناً لظفرها في ذلك اليوم المشهود. وقد علق هذان العلمان الإسلاميان، على جدران قاعة الثياب المقدسة، وأولهما عبارة عن سجادة كبيرة مذهبة الجوانب، طولها ٣,٧٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً، ذات لون أصفر، وقد نقشت في شريطيها الأعلى والأسفل بحروف بيضاء هذه العبارة: "النصر والتمكين والفتح المبين، لمولانا أبو الحسن أمير المسلمين".

ونقش في باطنها، في عدد من الدوائر بلغت ستة عشرة، العبارات الآتية بأحرف سوداء: "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم" "الحمد لله على نعمه" "الملك الدائم" "العز القائم" "اليمين الدائم" "العز القائم".

وفي ذيلها أنها صنعت للسلطان في المدينة البيضاء في شهر جمادي الآخر عام أربعين وسبعمائة.

وفي الشريط العمودي الأيمن ما يلي: "تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله".  
وفي الشريط الأفقي الأدنى تكملة الآية: "ألمو لكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون".  
وما النصر إلا من عند الله "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" نصر من الله وفتح قريب "وما توفيقي إلا بالله".

وفي الشريط العمودي الأيسر: "يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم".

ونقشت في الأهلة وعددها ستة عشر عبارة: "لا إله إلا الله"، في ثمانية منها، و"محمد رسول الله" في الثمانية الأخرى، وعدد النجوم عشرون.

وفي ذيل هذا العلم، أنه صنع لأمر المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، في قصبة فاس، في شهر المحرم سنة ثني عشر وسبعمائة، والسلطان المذكور هو أبو يوسف المنصور الجد الثاني للسلطان أبي الحسن<sup>(١)</sup>.

وقد زار الوزير ابن عبد الوهاب سفير ملك المغرب، طليطلة سنة ١٦٩١ م، وهو يقم لنا في رحلته التي سبقت الإشارة إليها، هذا الوصف الشائق لطليطلة وكنيستها العظمى، وهو يسميها في وصفه بالمسجد، ويبدو في هذا الوصف عميق نثره، بروعة منظرها وذاخرها:

"وسوار هذه المدينة وحيطاتها وأزقتها، باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين، ولزرها أثر الحضارة، إلا أن أكثر أزقتها ضيقة جداً، ودورها باقية على حالها من البناء الإسلامي وتفصيله، والنقش في السقف والحيطان بالكتابة العربية، ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا، إذ هو مسجد كبير مبنى كله من الحجارة الصلبة، القريبة الشبه بالرخام، وسقفه مقبوه من الحجارة، وهو في غاية ارتفاع السمك، وعلوه في الجوّ، وسواريه في غاية الضخامة والصناعة العجيبة، والنقوش، وقد أحدث النصارى في هذا المسجد من جوائبه، زيادة في الوسط بشبابيك من نحاس أصفر، وفيها من تصاويزهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركمان، التي يضربون بها وقت صلواتهم، مع الكتب التي يقرعونها في الصلوات، شيء كثير. وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة المصلوب، وهو من ذهب يقبلونها

<sup>(١)</sup> رجعت في إيراد هذه الأوصاف والنقوش، إلى مشاهداتنا ودراستنا لخاصة داخل كنائس طليطلة. وراجع أيضاً في ذلك ما كتبه المستشرق أماتور دي لوس ريوس في رسالته:

Trofeos militares de la Reconquista, Estudio acerca Ensenas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos) y la Catedral de Toledo (Madrid 1893).



في صلواتهم. ولباب هذا المسجد غاية في الإتقان والصناعة. وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوالمهم، التي لا يمكنهم تركها. ومن الزيادات المحدثّة في جوانب هذا المسجد، بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال كثيرة، فيها من النخائر والأحجار الملونة، مثل الباقوت الأحمر والأبيض والأصفر والزمرد، والتيجان المرصعة بالدر الفاخر، والأحجار النفيسة التي لها بال ولا تقوم بمل. ومع هذه النخائر تاج كبير من الذهب، ومعه سواران من ذهب، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله<sup>(١)</sup>.

وكذلك تحدث الغزل الفاسي في رحلته عن كنائس طليطلة. وقد زارها في سنة ١٧٦٥م، وأفاض في وصف ضخامتها وروعها، وما تحتويه من النخائر الجليّة، وهو يصفها بأنها "الجامع"، ويقول إنه من أعظم المساجد، وله طراز خاص غير مسجد قرطبة، وبناؤه وسواريه من الرخام، وبوسط المسجد قبة عظيمة، نصبت تحتها كنيسة وزينت جدرانها بأنواع الصور والرسوم، وعلقت عليها الصلبان، وبأركان الجامع خزائن مملوكة بالنخائر الإسبانية النصرانية، من تيجان وقلائد وخواتم وصلبان وغيرها من الذهب وغيره، وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة. وهذه النخائر تفوق نظائرها في إشكريال (يقصد قصر الإسكوريال)، ثم يقول إنه مازالت بالمدينة مقبرة للمسلمين، وعليها ساريان من الرخام فيها أسماء وتواريخ بعض أكبر المسلمين<sup>(٢)</sup>.



طليطلة . شارع داخل المدينة

ووصف الكنيسة العظمى فيما تقدم "بالجامع"، يرجع إلى كونها تحتل موقع المسجد الجامع القديم، ويقارنها الغزل في وصفه "بجامع قرطبة"، ولكن الواقع أن جامع قرطبة، بالرغم من تحويله إلى كنيسة بل كنائس، مازال يحتفظ بشكله وأوضاعه الإسلامية من عمد وبوارج وغيرها. أما كنيسة طليطلة فهي أثر نصراني محض.

(١) رحلة لوزير في الفتك الأسيرة السالفة الذكر، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٢) رحلة لغزل السالفة الذكر، ص ٦٧ و٦٨.



## الآثار الأندلسية

ولا توجد في طليطلة آثار أندلسية محصنة، سوى بقايا المسجد الصغير، التي حولت إلى كنيسة تسمى اليوم "Cristo de la Luz". ويقع هذا الأثر في داخل المدينة، تقضى إليه دروب ضيقة منحدرية، ويبدو لأول وهلة أنه بقية مسجد إسلامي، تتألف من ثلاثة عقود في مثلها بأعمدتها وزخارفها العربية. والظاهر أن المسجد كان صغيراً، وقد محيت نقوش القبلة الإسلامية ورسمت مكانها صورة شخص أو قديس. ورسمت في حنايا النوافذ القديمة، بعد أن سدت، صور العذراء، ولا يوجد بالمكان هيكل، ولكن يوجد صليبان متقابلان، وهو خال، وإلى جواره حذيفة مهمة ومساكن متواضعة.

وقد كان يطلق على هذا المسجد اسم مسجد "باب المردوم". ويوجد في نقش واجهته العبارة الآتية: "بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حنيد من ماله ليتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يدي موسى بن علي البناء وسعادة فتم في المحرم سنة تسعين وثلاث مائة، (٩٩٩) م".

ويوجد أيضاً من الآثار الأندلسية عدد من البيع اليهودية. ومعظمها مبني على طرز عربي واضح، وبعضها بُني على طراز المسجد، بعقوده وأروقته وأعمدته، وبها نقوش وزخارف عربية. ويبدو هذا الطرز واضحاً،



في الكنيسة المسماة اليوم سانتا ماريادي بلانكا Sta Maria de Blanca وهي تقع في نهاية طليطلة، على مقربة من منزل المصور (إل جريكو). وقد كانت بيعة يهودية، ثم حولت في سنة ١٤٠٥ إلى كنيسة، وأسس إلى جانبها دير للراهبات. وقد أصلحت في أواخر القرن الثامن عشر، ثم جعلت أثرًا قومياً. وهي مبنية على نسق المسجد بعقوده وبوائكه، وبها سبعة عقود في الطول وأربعة في العرض، وبها أربعة وعشرون عموداً سداسية الشكل، وفي مدخلها بعض نقوش عربية.

طليطلة. بقايا المسجد المسمى "كريستو دي لوت"

وكذلك كنيسة سن سلفادور "San Salvador"، كانت في الأصل مسجداً، ثم حول إلى كنيسة في سنة ١١٥٩ م، بعد الفتح بنحو سبعين عاماً، واستولى عليه النصراني من الموحدين.

## القصر وصروح أخرى

ومن أهم صروح طليطلة القديمة، التي تتصل بالعصر الإسلامي، "القصر" "Alcázar"، وهو بناء قديم ضخم، شيد على صخرة عالية تطل على نهر التاجه، أمام قلعة "القطرة"، وكان أيام الرومان حصناً، فجدهه الملوك القوط، ثم جدد أيام المسلمين، وأنشأ به الحكم بن هشام أمير الأندلس في سنة ٧٩٧ م قلعة منيعة، لضبط مدينة طليطلة وقمع ثوراتها، وكانت تستعمل حصناً ومقرًا للحاكم. وهذه القلعة أو القصبه، هي التي حولت فيما بعد إلى ما يسمى اليوم "بالقصر"، وهو صرح عبوس منيع البناء والموقع، له فناء مربع معقود، وأربعة أبراج كبيرة، يقوم كل منها في ركن من أركانه الأربعة.

ولما سقطت طليطلة في أيدي النصارى، استعمله الإسبان كقلعة لحصانته، ثم حوله الملوك الإسبان، في القرن الثالث عشر، إلى قصر للإقامة فيه، وأصلحه وزينه الملك فرديناند وإسبيللا، ثم الإمبراطور شارلكان، ولسبت عليه الفخامة الملوكية، وعاش فيه ملوك وملكات، واستقبل فيه عدد من مشاهير السفراء، وكان يتخذ مقرًا للبلاط من آن لآخر. ثم استعمل بعد ذلك سجنًا لليونان التحقيق. ولعب في الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة دورًا هامًا، حيث اعتصم به الملكيون أنصار الجنرال فرانكو، واستطاعوا الدفاع عنه حتى تم لهم الظفر على الجمهوريين.

وتوجد في ظاهر طليطلة، بقية من أسوارها الأندلسية القديمة، وقد عُثر كثير من معالمها في العصور التالية.

ومن آثار طليطلة القديمة أيضًا، البناء المسمى "حمام كابا" "Baffo de la Cava" وهو يقع غربى طليطلة على مقربة من النهر، وهو عبارة عن قلعة ومنزل معًا، وتنسب إليه أسطورة، تقول إنه كان مسكنًا لفلورندا الحناء ابنة الكونت يوليان، الذي علون العرب على فتح إسبانيا، انتقامًا لاعتداء رديك ملك القوط على ابنته.

وتشتهر طليطلة بنوع خاص، بمنزل الفنان الكبير دومنيكو إل جريكو "D. el Greco" أي اليوناني، وهو مصور عبقرى من أصل يوناني، عاش في طليطلة في أواخر القرن السادس عشر، وتوفي بها (سنة ١٦١٤)، وقد غدا المنزل الذي كان يقيم فيه اليوم متحفًا قوميًا، يزخر بصوره وآثاره. وهو يقع في نهاية طليطلة في شمالها، على مقربة من نهر التاجه، ويحج إليه زوار المدينة باستمرار.



طنيطلة. القصر Alcàzar قبل تخريبه أثناء الحرب الأهلية



طنيطلة. بقايا الأسوار الأندلسية

وتوجد في طليطلة مصانع رسمية للسلاح والذخيرة. وقد حافظت طليطلة على شهرتها القديمة، في صنع الأسلحة والآلات القاطعة، وكذلك صنع الأقمشة الحريرية. وكانت صناعة الأسلحة الطليطلية، من أزهر الصناعات أيام المسلمين، وقد شاهدنا من منتجاتها السيوف، والمدى الفاخرة، التي زينت مقابضها بالعاج والأحجار الثمينة، كما شاهدنا تحفاً كثيرة دقيقة الصنع يفخر الطليطليون بها.

ومما يجدر ذكره أن طليطلة تشتهر بصنع الحلوى الأندلسية القديمة المسماة "ماتابان" "Mazapan"، وهي تكثر في الأعياد والمولد الدينية، وترسل إلى سائر مدينة إسبانيا.

## ٧ - بلنسية

### Valencia

بلنسية هي اليوم ثالثة المدن الإسبانية بعد مدريد وبرشلونة. وهي مدينة ضخمة، تخرقها ميادين فسيحة وشوارع مديدة، وتقع في منطقة زراعية وصناعية هامة، على مقربة من الشاطئ الغربي الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، على بعد ٤٩٠ كيلو متراً من مدريد، ويبلغ سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٢٧، ٣١٢ ألف نفس، ولكنهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثمائة وخمسين ألفاً.

ومن محاصيلها الزراعية، الأرز والذرة والقطن والبقول والفواكه والأزهار. ومن بين منتجاتها الصناعية الأسمدة وزيت الزيتون، والكوكو، والخروع، والمشروبات الروحية، والآلات الموسيقية، والحريز والصوف، وبها حركة تجارية كبيرة.

وقد سقطت بلنسية في أيدي الإسبان في سنة ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ)، وبالرغم من أنها كانت أيام الدولة الإسلامية، من أعظم القواعد الأندلسية، وقد احتفظت بطابعها الإسلامي حتى منتصف القرن الثالث عشر، ولبثت من بعد ذلك عصرًا آخر، منزل جماعات كثيرة من المدجنين، وبالرغم من أنها من بعد سقوط الأندلس النهائي (سنة ١٤٩٢ م)، قد لبثت نحو قرن من أعظم مراكز الموريسكيين أو العرب المنتصرين - بالرغم من ذلك كله فإنك لا تلمح بها اليوم لمة مسحة أندلسية أو موريسكية واضحة، بل ترى نفسك في قلب مدينة أوروبية عصرية محضة، ذات ميادين وشوارع عظيمة وأبنية شاهقة محدثة، وأعظم ميادينها "ميدان الزعيم" "Plaza del Caudillo" القريب من محطتها الحديثة، وأعظم شوارعها شارع خوسيه أنطونيو "Avenida de José Antonio"، وشارع فرديناند الكاثوليكي "Gran Via de Fernando el Católico"، وشارع كولمب "Calle de Colón" وشارع البارون دي كارثير "Av. de Baron de Career" وغيرها، وكلها شوارع مديدة فسيحة تزخر بالمآجر، والمقاهي والفنادق والمباني الشاهقة، ومما يلفت النظر أن من بين شوارعها شارع يسمى شارع الرصافة، وحى يعرف بحى الرصافة "Calle de Ruzafa"، ويذكرنا هذا الاسم الأندلسي برصافة قرطبة الشهيرة، وقد كان في بلنسية أيام المسلمين حى يسمى بهذا الاسم<sup>(١)</sup>. ولنا ندري إن كان حى الرصافة هذا، الذي يوجد في بلنسية الحديثة، قد خلف مكان سمي به

(١) راجع لروض المعطار ص ٥٢.



القديم في المدينة الأندلسية. وعلى أية حال فقد سمعنا من البنسنيين أنه من أقدم خطط بنسنية وهو شارع تجاري هام، يمتد من "مسرح الثيران" على مقربة من المحطة، طويلاً إلى داخل المدينة، وينتهي بحي متوسط الظاهر هو حي الرصافة، ويتقاطع في نحو منتصفه مع شارع "خوسيه أنطونيو"، وهو من أهم شوارع بنسنية، ويقوم في وسطه ممر تظله أشجار النخيل الجميلة، كما توجد عدة شوارع وميادين أخرى في بنسنية تزينها أشجار النخيل.



بنسنية. الكنيسة العظمى وبرجها المسمى "المجنيتي"

ويشق نهر توريا "Turia" المدينة من الشمال، وتقع في الناحية الأخرى الحدائق الملكية، وهي حدائق غناء حسنة التنسيق.

على أننا نستطيع بالرغم من هذا الطابع الأوربي العميق، الذي يطبع مظاهر بنسنية وخططها، أن نلمح مسحة أندلسية أو موريسكية باهتة في بعض دروبها القديمة الضيقة، وفي طراز بعض مساكنها العتيقة. أما عن الآثار الأندلسية الباقية، فإنه لا يوجد في بنسنية أي أثر أندلسي أو موريسكي ذو شأن، اللهم إلا بقايا حمامات عربية، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى (الكتدرائية)، في شارع صغير يسمى شارع حمامات الأميرال "Calle de los Baffos del Amirante" وهي تقع داخل منزل قديم، وتحتوي على أربع قباب قديمة من قباب الحمامات العربية، ذات كوات نجمية الشكل، وقد أنشئت إلى جانبها بعض الحمامات الحديثة، وهي معروفة بأنها الأثر الإسلامي الوحيد في بنسنية.

ومن الصروح الأثرية البارزة في بنسنية كنيسة العظمى، وكان مكانها قبل الفتح الإسلامي كنيسة قوطية قديمة فحولها العرب إلى مسجد جامع. ولما افتتح السيد الكمبيادور (الكنبيطور) المدينة في سنة ١٠٩٤ م حول المسجد إلى كنيسة، ثم ردت الكنيسة مسجداً، بعد أن عادت المدينة إلى سلطان المسلمين في سنة ١١٠٢ م. ولما افتتح خايمي الأول ملك

أراجون بلنسية من أيدي المسلمين في سنة ١٢٣٨ م، قلب هذا المسجد الجامع إلى كنيسة، سميت باسم "ماريا العالية القداسة" "Santissima Maria" وبُنيء بإنشاء الكاتدرائية في أواخر القرن الثالث عشر، وتم بناؤها في سنة ١٣٧٦، وهي على الطراز القوطي، وليست كبيرة الحجم، وقد جددت في معظم أجزائها، ما عدا قسم صغير منها يبدو أنه أقدمها. أما برجها الشهير الذي يسمى "المجليتي" "El Miguelete" فقد أنشئ في نهاية القرن الرابع عشر منفصلاً عنها، وهو شاهق يبلغ ارتفاعه خمسين متراً، ويشرف على المدينة من سائر نواحيها.

ومن أقدم كنائس بلنسية، كنيسة القديس أندريس "San Andrés"، وقد كانت قائمة أيام المسلمين.

وأهم آثار بلنسية الأخرى، القلعة المسماة "برج الجبلين" "Torre de Serranos" وهي تقع تجاه النهر في الميدان المسمى بهذا الاسم، وهي قلعة حصينة أنشئت في نهاية القرن الرابع عشر، والبرج المسمى "برج الكوارتو" "T. del Cuarto" وهو يقع في غربي المدينة، وقد أنشئ في سنة ١٤٤٤، وكان يستعمل فيما بعد سجنًا للنساء، ودار البورصة المسماة "لونها" "La Lonja"، وهي بناء جميل على الطراز القوطي، يستعمل مركزاً للتعامل بالجملة في المحاصيل، وإلى جانبه قاعة فسيحة قديمة هي دار المحكمة التجارية.

ويقع على الضفة الأخرى من النهر متحف الفنون الجميلة، ويحتوي على مجموعة كبيرة من الصور الدينية وغيرها، من صنع أكبر المصورين في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وتمتاز بلنسية بأنها مركز من مراكز الثقافة الإسبانية، ففيها جامعة قديمة ترجع إلى خمسة قرون، وتضم كليات للآداب والحقوق والطب، ويلحق بها مكتبة عظيمة تسمى "المكتبة الجامعية والبلدية" وبها أكثر من مائة ألف مجلد، هذا عدا مكتبات فرعية أخرى، مثل مكتبة البلدية ومكتبة الحقوق والمكتبة الشعبية وغيرها. وبها داران للمحفوظات والوثائق التاريخية، هما "محفوظات مملكة بلنسية" "Archivo del Reino de Valencia"، وهي تضم كثيراً من مجموعات الوثائق الخاصة بأحوال الموريسكيين (العرب المنتصرين)، وديوان التحقيق، وقد اطلعنا فيها على الأوامر الملكية الصادرة من فيليب الثاني في سنة ١٥٥٣، بتحريم حمل السلاح على الموريسكيين. وقد كانت بلنسية، بعد سقوط الأندلس النهائي من أعظم مراكز الموريسكيين. وهناك أيضاً دار المحفوظات البلدية، وهي تحتوي على كثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ بلنسية.

وقد زرت ميناء بلنسية، التي تصل إليها من طريق شاسع يقع على ضفة النهر الأخرى، وتقوم على ضفتيه الأشجار الباسقة، ويسمى "متنزه بلنسية" "Paseo de Valencia"، وهي ميناء صغير ترسو في خليجها الهادئ، سفن الصيد الكبيرة وسفن الشحن، وبعض سفن قليلة للركوب من ذوات الأحجام المتوسطة، ولا ترسو به السفن الكبيرة، والحركة فيه قليلة هادئة.

وعلى مقربة من الميناء في شمال المدينة، تقع القلعة التي بناها الإمبراطور شارلكان للدفاع عن المدينة ضد غارات أمير البحر التركي خير الدين بارباروس، وهي التي كان يقوم بها بمعاونة الموريسكيين ووحدهم، لكي يسهل لهم سهل الهجرة والفرار من اضطهاد ديوان التحقيق الإسباني ومحاكماته المروعة.

وقد كانت بلنسية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، في بداية عهد المرابطين، مسرحاً لمغامرات الفارس الإسباني الأشهر السيد الكنييطور "El Cid Campeador"، وقد استولى عليها في يونيو سنة ١٠٩٤ م وحكمها حيناً، بيد أنه مما بلغت النظر حقاً أنه ليس بالمدينة أي أثر أو تمثال للسيد، أو أية آثار أخرى تتعلق بهذا العهد، مع ما عرف عن الإسبان من المبالغة في تخليد ذكرى أبطالهم، ولا سيما أولئك الذين أبلوا في محاربة المسلمين. وما زالت بلنسية تحتفظ بشهرتها القديمة في صنع الأواني الخزفية، وبها مثل إشبيلية صاحبتها المسماة مائيس "Manises" مصنع من أعظم مصانع الخزف الإسبانية.



باتنية. قلعة "الجبليين"



مريبطر (باتنية). باب معقود من أطلال حصن "العشرة"

## ساجنتو

هذا وقد زرت ضاحية ساجنتو "Sagunto" الواقعة في شمال بلنسية، على قيد خمسة وعشرين كيلو متر منها، وهي مدينة قديمة، وبها فوق منحدر التل بقية مسرح روماني قديم، ومتحف صغير للأواني الخزفية، وعلى مقربة من المسرح الروماني فوق الزبوة، توجد بقايا قلعة ومساكن أندلسية، ومازل بها ثمة باب كبير ذو عقد عربي، وفوقه مشارف وكوك عربية.

وتفسير ذلك واضح، وهو أن ضاحية ساجنتو هذه، ليست إلا مدينة مُربِطُر الأندلسية القديمة "Murviedro"، وقد كانت أيام الطوائف، مركز إمارة صغيرة مستقلة، وتوجد حول بلنسية، على مسافات بعيدة، مروج بلنعة، وقد أقيمت بها حدائق البرتقال، ومزارع القطن الخصبة، وهو ينمو هناك متأخرًا نحو شهرين أو ثلاثة عنه في مصر نظرًا لحرطوبة الجو.

ويلي بلنسية عدة من الضواحي القريبة، التي ترتبط بتاريخها الإسلامي، وتحمل أسماء ترجع إلى أصل عربي، مثل الكدية "Alcudia"، والداية أو الضيعة "Aldaya"، وبنى فري "Beniferri"، وبنى قاسم "Benicasim"، وبنوئال "Puzal" وغيرها. وترتبط بلنسية بمديرد بمواصلات حديدية منظمة، وترتبط كذلك ببرشلونة، وثغور الأندلس مثل لقت، وقرطاجنة، والمرية، ومالقة، بمواصلات برية وبحرية حسنة.



## ٨ - مرسية

### Murcia

مرسية هي اليوم من مدن إسبانيا الكبرى، في مرتبة إشبيلية، وقرطبة، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وتقع في بسط أخضر في وادي شقورة، ويشقها نهر شقورة "Segura" من الوسط، وهي على نقيض بلنسية مدينة عتيقة الطراز في شوارعها وميادينها وطراز مساكنها، وليست لها تلك المسحة الأوربية، التي تبدو واضحة في خطط بلنسية ومعالمها، ومعظم مبانيها منخفضة ذات طبعتين أو ثلاث. وبالرغم من أن بها بضعة شوارع كبيرة عريضة، فإن شوارعها التجارية الداخلية ضيقة. ولا سيما شارعها الرئيسي وهما "Calle de la Piateria"، و "C. de la Traperia"، حيث يغص كلاهما بالمتاجر والمقاهي المتقابلة. وأكبر ميادينها هو ميدان الدستور "Plaza de la Constitución"، ويصل قسميها الكبيرين على ضفتي نهر شقورة قنطرة كبيرة حديثة، وعلى الضفة الأخرى من النهر طواحين كثيرة تدار بقوة لتحدر الماء. وتوجد قنطرة حجرية أخرى تصل المدينة بضاحية سان بنيتو التي يقوم بها مسرح النيران (الكوريدا).

ومرسية مدينة زراعية صناعية وتجارية معاً. ومن أهم منتجاتها الدقيق والخمور والفواكه، وبها صناعات الصوف والكتان والقطن والبارود. وقد نما سكانها في العهد الأخير نمواً عظيماً، وهم يبلغون اليوم نحو ربع مليون نسمة.

وقد سقطت مرسية في يد الإسبان في ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م). ومع ذلك فإنها مازالت تحتفظ بطابع مدن العصور الوسطى. ولا توجد اليوم في مرسية أثر أندلسية ذات شأن، ولم يبق من أسوارها وأبوابها وصروحها القديمة شيء، ولا توجد سوى بقايا بعض الحمامات العربية<sup>(١)</sup>، وبعض أطلال قديمة مشوهة بنير سانتا كلارا. غير أن مسحة مرسية القديمة ومعالمها، مازالت تتم عن طرازها الأندلسي، ولا سيما أسواقها الرئيسية، فهي بنزوبها الضيقة، وحواليها المكتظة المتقابلة، تشبه القيسرية القديمة، ثم إنه مازالت تعقد على ضفة النهر أسواق عامة على الطريقة الشرقية، تعرض بها الطيور والخضر والفواكه والمأكولات

<sup>(١)</sup> كانت هذه الحمامات توجد بالمنزل رقم ١٥ من شارع Calle de la Madre de Dios وقد علمت أخيراً أنها هدمت.

والملابس والمنتجات الريفية. وقد حضرنا هذه السوق ذات صباح، ورأينا في مناظرها، ملامح العهد الأندلسي القديم وروحه وتقاليد.

وتقع كنيسة مرسية العظمى في وسطها، في ميدان صغير على مقربة من النهر، وقد بنيت على موقع المسجد الجامع، الذي حوله النصارى عند افتتاحهم للمدينة إلى كنيسة مؤقتة. ويرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الرابع عشر. وهي جميلة، وطرازها قوطي، وبه مزيج من طراز عصر الإحياء. وتقع خارج مرسية، على قيد نحو فرسخ من شمالها الشرقي، أطلال حصن أندلسي قديم، يطلق عليه اليوم اسم حصن "مونتي أجودو" Castillo de Monte Agodo وهي تقع فوق ربوة عالية منعزلة مشرفة على الحقول، ومما هو جدير بالذكر أن هذا الحصن كان أيام الطوائف، من المراكز الدفاعية الأمامية لمرسية، وفيه حاصر الوزير ابن عمار، حينما هاجم مرسية في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م)، صاحبها أبا عبد الرحمن بن طاهر، وتغلب عليه.



مرسية. شارع معقود الجوانب

ومرسية كبيرة الرقعة مترامية الأطراف، تحيط بها حدائق ورياض متصلة، وأكثرها حدائق البرتقال والزيتون والليمون، وتحدها من الغرب والجنوب سلسلة من السلال العالية. ومما بلغت النظر في مرسية كثرة النخيل بها على نحو ما كان أيام المسلمين، وكذلك مناظرها الريفية الساذجة، التي تبدو جنباً إلى جنب مع ملامحها الأوروبية، فقد نرى مثلاً في شوارعها قطعاً من الغنم، وإلى جانبه تسير حشائش فوق دراجة، أو تسوق سيارتها.

وفي مرسية طائفة خاصة من الجنائين، لها عوائد وأغان خاصة، ولها مواكب وحفلات مأثورة؛ وفي مواسمها تفيض مرسية بالوافدين عليها من كل صوب.

ومرسية مركز ثقافي أيضاً، وبها جامعة صغيرة، تضم كليات ثلاث للعلوم والحقوق والآداب.



مرسية. الكنيسة العظمى



مرسية. القنطرة الحجرية على نهر شقورة

الكتاب الثاني

**الشجر الأعلى وشرق الأندلس**

## ١ - سرقسطة

### Zaragoza

كانت سرقسطة - وقد حُرف اسمها العربي عن اسمها الروماني Caesar Augusta - أيام الدولة الإسلامية. عاصمة النهر الأعلى. ثم غدت خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة قاعدة للنوار والخوارج على حكومة قرطبة. ومنذ أوائل القرن الرابع، تغدو مركزاً لسلطان بني تميم في النهر الأعلى. وقد حكموها إلى ما بعد انهيار الخلافة، وقيام دول الطوائف بقليل حتى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٩ م). ثم خلفهم في حكمها بنو هود، وغدت سرقسطة في ظلهم قاعدة لإمارة أو مملكة قوية من ممالك الطوائف. واستمروا في رياستها زهاء ثمانين عاماً، من سنة ١٠٣٩ م، حتى سقوطها في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في سنة ١١١٨ م (٥١٢ هـ).

وكان لموقع سرقسطة في الشمال الشرقي، بعيداً عن قلب المملكة الإسلامية، وقربها من القواعد النصرانية، وسقوطها في يد النصارى في وقت مبكر، تأثير واضح في اختفاء صفاتها الإسلامية ومعالمها الأندلسية بسرعة. ومن ثم فإننا نجد سرقسطة منذ القرن الثاني عشر، مدينة إسبانية نصرانية، ونجدها اليوم مدينة أوربية حديثة، قد خلعت عنها طابع العصور الوسطى، الذي ما يزال يبدو في مدن أندلسية أخرى، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة.

وسرقسطة مدينة كبيرة، ذات شوارع وميادين فسيحة، ومبانيها عالية ضخمة، ويخترقها نهر إيبرو (إبرة)، عند نهايتها، على مقربة من الكنيسة العظمى، والنهر ليس عريضاً في تلك الجهة، وقد أقيمت عليه هنالك قنطرة رومانية، عربية الطراز، ترجع إلى القرن الخامس عشر، تسمى قنطرة الحجر "Puente de la Piedra"، وعلى الضفة الأخرى من النهر، أحياء متواضعة وأرض قفرة. ويبدو نهر إيبرو في تلك الجهة، تقريباً على نحو ما يبدو عليه نهر الوادي الكبير في قرطبة، من حيث موقعه وراء الجامع.

وسرقسطة مركز تجاري وصناعي هام، تربطها مواصلات حديثة حسنة، مع مدريد وبرشلونة وبلنسية. ومن منتجاتها الزجاج الصيني والآلات والمصنوعات الحديدية. ويبلغ سكانها اليوم مائتان وثمانون ألف نسمة.

وقد أشرنا إلى أن سرقسطة، فقدت صفاتها الإسلامية والأندلسية، في عصر مبكر جداً. والواقع أن سرقسطة لا تحمل أية مسحة أندلسية. بيد أنه يوجد بها مع ذلك، بعض الآثار الأندلسية التي تستحق الذكر والتعريف.



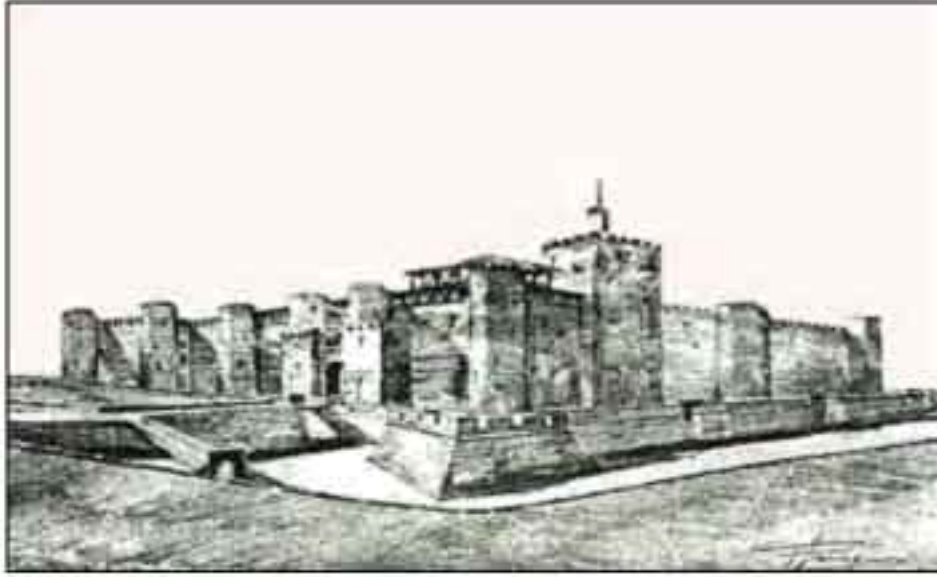
## قصر الجعفرية

ولنبداً بالحديث عن الصرح المسمى بقصر الجعفرية "Palacio Aljaferia" وهو يستعمل الآن ثكنة عسكرية ومخزناً للسلاح، ويقع هذا الصرح الضخم في شرقي سرقسطة، على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إيبرو، وهو يقوم فوق بقايا الصرح الأندلسي القديم، وقد كان يضم القصر والقصبة، ويرجع بناؤه حسبما يجيء إلى القرن الحادي عشر الميلادي، ثم توالى عليه بعد ذلك تغييرات وإضافات كثيرة، على يد الملوك النصارى، حتى غدا يمثل في أجزائه المختلفة عصوراً مختلفة.

ويتمثل العصر الإسلامي في صرح الجعفرية، في بعض الأماكن الداخلية التي مازالت تعرب عن طرازها الشرقي، وفي بقايا المسجد، التي مازالت قائمة في داخله، وهي عبارة عن قاعة صغيرة بها عقدان عريبان، وشريط به نقوش كوفية، وقد أحرق المكن من الداخل، ولم يبق منه إلا زخارف العقود، والمقوّل إن الفرنسيين هم الذين أحرقوه أيام الغزو النابليوني.

على أن الذي يهمنا من هذا الصرح، هو جناحه الأيسر، وهو القصر الملكي، الذي أسس على بقايا القصر الأندلسي، وأدخلت فيه بعض أجزائه. ومن حسن الحظ، أن الرواية الإسبانية قد حفظت لنا اسم القصر الأندلسي، وهو "Aljaferia" أو بعبارة أخرى قصر "الجعفرية". إن هذا الاسم يذكرنا في الحال بقصر بني هود ملوك سرقسطة المسلمين، وهو القصر الذي أنشأ أعظم ملوكهم، أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر. وقد حكم المقتدر مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً، من سنة ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ (١٠٤٦ - ١٠٨١ م)، وكان من أعظم ملوك الطوائف، واشتهر ببراعته في العلوم الفلسفية والرياضية. وسمى قصر المقتدر بقصر "الجعفرية"، نسبة إلى كنيته، وهي "أبو جعفر"، وكان من أعظم وأفخم القصور الملكية في تلك العصور، وقد اشتهر في تاريخ الفن الإسلامي باسم "دار السرور"، وكان أروع ما فيه، بهوء الزائع الذي زينته جدرانه بالنقوش الذهبية البديعة، والذي كان يسمى لذلك بالبهو الذهبي أو مجلس الذهب، وفيه يقول منشئه المقتدر:

قصر السرور ومجلس الذهب      بكما بلغت نهاية الطرب  
لو لم يجز ملكي خلافاً      لكن لدي كفاية الأرب



سرقسطة. واجهة قصر الجعفرية القديم حسبما يظن من خطط ورسوم قديمة

ولما سقطت سرقسطة في يد الإسبان، شوهت معالم هذا القصر البديع، كما شوهت معالم معظم الصروح والقصور الأندلسية الأخرى. وقد تعاقب عليه ملوك أراجون، أيام كانت سرقسطة عاصمة المملكة، بالتغيير والتبديل، ثم جاء من بعدهم الملك الكاثوليكيان فرديناند وإسبيللا، ثم فيليب الثاني، وقد أحدث أولئك جميعًا تغييرات وإضافات في هذا القصر الأندلسي، حتى غدا مزيجًا من طرازات مختلفة، من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر. وفي القصر كثير من آثار الملكين الكاثوليكين، وفيه بالأخص عدة من شعارهما الملكي، تبدو فيه رموز إسبانيا المتحدة. وفيه أيضًا لوحة تذكارية بمولد إسبيللا ملكة البرتغال في سنة ١٢٧٢ م. وقد كانت هذه الأبهة والقاعات الملكية تؤلف المسكن الملكي، يدل على ذلك فخامته وسقوفه المذهبة. وكان ملوك أراجون وملكاتهما، يتوجون في هذا الصرح الملكي، في حفلات بانخة.



سرقسطة، منظر عام لقصر الجعفرية كما هو الآن



سرقسطة، كنيسة العمود، والميدان المطلة عليه

وفي سنة ١٤٨٥، اتخذ ديوان التحقيق الأرجوني مركزه في هذا الصرح، ويوجد في الجانب الأيمن من القصر، برج منيع ذو سلم عريض وغرف جانبية من الحجر الصلد. وكانت هذه المخادع الصخرية تستعمل سجنًا للمتهمين، كما أن حفلات "الأوتو دا فيه" "Auto - da - fe" كانت تقام في الفناء الخارجي، ومنه يخرج المحكوم عليهم إلى الميدان، حيث ينفذ فيهم حكم الإعدام حرقًا.

ثم استعمل منذ أواخر القرن الثامن عشر كنكة عسكرية، وهدمت أسواره القديمة، وأزيل مصلى بيدرو الرابع، وقُضي بصفة نهائية على محاسنه وبدائعه العربية. يقول الأستاذ مورينو: "وهو عمل بربرية من أشد ما وقع في تاريخنا خزيًا"<sup>(١)</sup>. وقد نقلت من مخلفاته إلى متحف مدريد، قطع من العقود والزخارف البديعة، ورعوس الأعمدة التي كانت بالبهو الذهبي<sup>(٢)</sup>.

ويستعمل قصر الجعفرية الآن أيضًا مخزنًا للسلاح، وقد رأينا فيه كميات وافرة من البنادق والمدافع.

## آثار أخرى

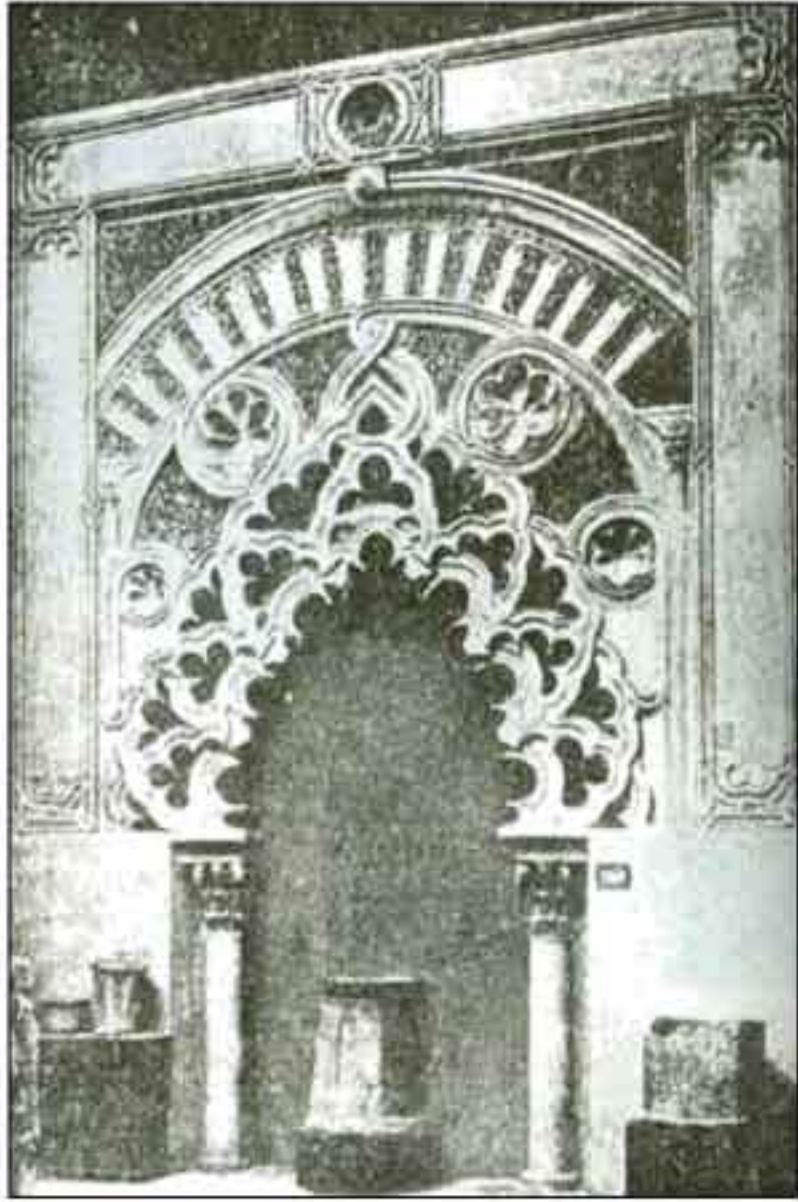
ومن الآثار الأندلسية القليلة في سرقسطة، العقد العربي الكبير المسمى "عقد العميد" "Arco del Déan"، وهو يقع في حي الكنائس، على مقربة من الكنيسة الشهيرة المسماة "لاسيو" في درب عتيق، وهو عبارة عن أربعة عقود ضخمة متوالية يفصل كل منها عن الآخر نحو خمسة أمتار، وبذلك يبلغ طول الممر كله ١٥ مترًا، وارتفاعه نحو سبعة أمتار. وقد شيد فوقه مبنى عتيق، وإلى جواره أيضًا مبنى آخر مماثل، عليه مساحة طراز عربي. ولا يوجد في سرقسطة أي أثر آخر يحمل الطابع العربي الخالص سوى هذا العقد.

---

<sup>(١)</sup> الأستاذ جومث مورينو في كتابه لسالف الذكر: (El Arte Arabe Espanol) وهذه عبارته الإسبانية التي يندد فيها بما أصاب هذا الأثر الإسلامي القديم: "Acto de barbarie de lo más señalados en desdoro de nuestra historia" (ص ٢٢١).

<sup>(٢)</sup> هذا، وقد نشر الأستاذ ف. إنيغيث ألمش F. Iniguez Almech رسالة عنوانها: Asi fué la Aljaferia (Zaragoza, 1952) "هكذا كان قصر الجعفرية" جمع فيها عدة تخطيطات ورسوم تاريخية مما عمل لمواقع قصر الجعفرية وأجنته في صصور متعاقبة، كما ضمه عدة صور لبعض عقود وزخارفه الموجودة بمتحف مدريد، وعدة رسوم متخيلة لبهو ذهبي ومحاربه وواجهته. وقد نقلنا هنا بعضها.





سرفسطة. عقد زخرفى من عقود قصر الجعفرية القديم  
محفوظ بمتحف مدريد الوطنى



أما كنيسة "لاسيو" "La Seo" هذه التي يقع وراءها العقد العربي، فهي أقدم كنائس سرقسطة، ومعنى اسمها "الكنيسة العظمى". وقد أقيمت فوق موقع المسجد الجامع القديم. وكان في هذا الموقع كنيسة رومانية قديمة وقت الفتح، فحولها المسلمون إلى مسجد، وفي عهد بني هود وسع المسجد، وحول إلى مسجد جامع عرفت "بالجامع الأبيض". فلما دخل النصارى سرقسطة، حولوا مسجدها الجامع في الحال إلى كنيسة، وسلمها ألفونسو المحارب فاتح سرقسطة، إلى

الزهدان البرنارديين، ثم أنشأ بها المصلى والهيكول (سنة ١١١٨ م). ومع أن كنيسة "لاسيو"، ليست هي كنيسة سرقسطة العظمى (الكثائية)، فإنها تحتل المكانة الأولى بين كنائس سرقسطة.



وتقع الكثائية على مقربة من "لاسيو"، في صدر الميدان الكبير. وتسمى "كنيسة العمود" "Sta Maria del Pilar" وهي حديثة نوعاً، إذ يرجع بناؤها الحالي إلى أواخر القرن السابع عشر، وهي شاسعة منيرة، ويقل إنه كان يقوم في مكانها كنيسة بهذا الاسم، حينما افتتح المسلمون سرقسطة. ويقول المستشرق كوديرا في بحث وضعه في هذا الموضع، إن موسى بن نصير حينما دخل سرقسطة في سنة ٧١٣ م، أمر بتجريد هذه الكنيسة من أبنيتها وتحفيها<sup>(١)</sup>.

سرقسطة. الكنيسة العظمى (لاسيو)

وهذه الكثائية الفخمة، تطل واجهتها الخلفية على نهر إبرو، ويقع إلى جانبها الأثر المسمى "لونخا" "La Lonja" أعني قاعة المعاملات التجارية.

وإلى جوار الكثائية من الناحية اليسرى، يقوم البرج الأثري المسمى "La Zuda" (لازودا)، وهو عبارة عن برج وحيد للأجراس، بُني على الطراز المنجني، ويشبه المنارة في مجموعته، وهو يرجع إلى عصر قديم جداً.

Fr. Codera: Despojo de la Sta Capilla de Nuestra Sra del Pilar de Zaragoza por <sup>(١)</sup> Muza en el año 713. (V. La Lectura Católica 1879).

والى جانب هذا البرج، توجد بقية صغيرة من أسوار عتيقة، يقال إنها بقية من الأسوار الرومانية أو العربية القديمة.

وقيل لى حينما كنت فى سرقسطة، إنه يوجد قبر فى منزل خلص، يقع فى شارع



سرقسطة الكبير، المسمى شارع كوسو "Coso"، توجد به بقايا حمامات عربية، ولكنى لم أستطع مشاهدة هذا الأثر.

وقد رأيت فى متحف سرقسطة، قسماً صغيراً للآثار الإسلامية، يحتوي على عدة عقود وزخارف ولوحات زخرفية، أخذت من قصر الجعفرية، ولكنى لم أعر فيها على كتابات عربية. ويوجد بهذا القسم أيضاً مصحف صغير قديم، أو هو جزء من مصحف، وخاتم، ومفتاح حديدي ضخمة، يبدو أنه كان مفتاحاً لباب أحد الحصون أو المنازل الكبيرة، وجرة عربية كبيرة بلا زخارف ولا كتابات.

سرقسطة. عقد "العبيد"

كما أنه توجد صفحة وحيدة من الورق، كتبت عليها ستة عشر سطراً، هى عبارة عن آيت قرآنية.

## ضوء على تاريخ المدجنين

بيد أنه توجد فى كنترالية سرقسطة، مجموعة من وثائق عربية، تلقى ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم فى مملكة أراجون، منذ القرن العاشر الميلادى إلى القرن الخامس عشر. وهى عبارة عن ستة عشر وثيقة، كلها عقود بيع وشراء ووديعة وغيرها، عرفت بين أفراد من المدجنين، وبين المدجنين والنصارى، وبها وثائق محررة بتاريخ متأخرة فى سنتى ١٤٨٤ و ١٤٩٦ م. ويستفاد من تلاتها أن المدجنين فى مملكة أراجون، كانوا إلى هذا العصر المتأخر، وحتى بعد سقوط غرناطة فى يد الإسبان، يحتفظون بدينهم الإسلامى، وأنه كانت ما تزال ثمة بعض مساجد قائمة، فى بعض أنحاء ولاية سرقسطة. وقد استعرضنا محتويات بعض هذه الوثائق، فى كتابنا نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> راجع الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٤٩ و ٥٠.

## ٢ - تطيلة

### Tudela

وتقع مدينة تطيلة شمال غربي سرقسطة، على قيد سبعين كيلو متراً منها، على الضفة اليسرى لنهر إيبرو، وفي منتصف الطريق بينها وبين بنبلونة. وهي مدينة متوسطة الحجم، تمتد فوق بسيط أخضر، ومن ورائها التلال. وهي مستطيلة الرقعة يخترقها شارع طويل ضخم تتفرع منه شوارع جانبية ضيقة، ويقع النهر إلى يمينها، وهو واسع تغطي ضفته الحدائق الغناء.

وقد سقطت تطيلة في يد النصارى، قبيل سقوط سرقسطة بعام أو اثنين، في سنة ١١١٧ م (٥١١ هـ).

وليس في تطيلة آثار أندلسية ظاهرة، ولكن الأبحاث الأثرية الأخيرة، أثبتت أن كثرائية تطيلة، قد أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع، وهو الذي أقامه موسى بن موسى بن قسي في القرن التاسع الميلادي، وكان يضارع في الفخامة مسجد سرقسطة، الذي كان يسمى "المسجد الأبيض". وتبين أيضاً من الأبحاث الأثرية في مكان "المقدس" بهذه الكنيسة، أنه لما جددت الكنيسة في أواخر القرن الثاني عشر، استعملت في تجميله عقود من سقف جامع تطيلة؛ كما أنه توجد بها نافذة ذات قوسين توءمين؛ وبها من أعمدة المسجد، عمود كامل، وعدة رموس أعمدة، كبيرة وصغيرة.

\* \* \*

وعلى مقربة من مدينة تطيلة، تقع بلدة "روطة" "Rued"، وقد كانت أيضاً من قواعد مملكة سرقسطة الإسلامية. وهي تقع في أسفل الجبل فوق بقعة صخرية حصينة على ضفة نهر خالون أحد أفرع الإيبرو الجنوبية، وبها كنيسة حنة. وتفصلها عن تطيلة منطقة وعرة قفرة. وقد اشتهر حصن روطه بمناعته أيام المسلمين في حروب "الثغر الأعلى"، وكان في عهد بني هود، ملاذاً وملجأً للأمراء بني هود يهرعون إليه وقت الخطر الداهم، من ثورة داخلية أو هزيمة حربية أو غيرها. وكانت روطه بعد سقوط سرقسطة، منزل عهد الملك بن هود الملقب بعمد الدولة، ثم ولده سيف الدولة المستنصر بالله، وهو آخر سليل حكمها من بني هود، وقد تنازل عنها لألفونسو ريمونديس ملك قشتالة في سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م).

### ٣- لاردة

#### Lérida

كانت لاردة أيام العصر الإسلامي، من قواعد ولاية "الثغر الأعلى" التي كانت عاصمته مدينة سرقسطة. ونظراً لوقوع "الثغر الأعلى"، بعيداً عن الحاضرة الأندلسية (قرطبة)، فقد كان ولاته وأمرأؤه في كفاح دائم مع النصارى المحيطين به من الشمال والشرق والغرب.

ولما نهارت الخلافة الأندلسية، وقامت دول الطوائف، قامت مملكة بنى هود في سرقسطة وما حولها من القواعد، مثل وشقة ولاردة وتطيلة وإفراغة وطرطوشة وطركونة. ولكن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة، لم تثبت طويلاً أمام هجمات النصارى المستمرة، فأخذت قواعدها تسقط في أيديهم تباعاً. وسقطت لاردة في يد كونت برشلونة رامون برنغار الرابع، في سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م)، وعبر واليها المسلم ابن هلال البحر، ملتجئاً إلى أمير مبرقة.

وتقع لاردة غربي ثغر برشلونة، على قيد نحو مائة وخمسين كيلو متراً منها، وتفصل بينهما منطقة تغلب عليها الوعورة، وتكثر فيها الجبال العالية. ومع ذلك فإن هذه الهضبة تغطيها الخضرة والأشجار المختلفة، وتتخللها البساتين من أن لآخر، خاصة بالزروع والكروم. وفي ظاهر لاردة، تكثر البساتين الخضراء، وغلات الزيتون والكروم والبقول الياضنة، وتظللها الجبال من ورثها في الأفق البعيد.

ولاردة مدينة كبيرة مستطيلة الرقعة، تمتد على الضفة اليمنى لنهر "سجري" أحد أفرع نهر إيبرو، ويشرف عليه شارعها الرئيسي، وهو شارع "الكوديليو" بأشجاره الظليلة، ويخترقها من الوسط "الشارع الكبير" "Calle Mayor"، وهو شارعها التجاري الذي يغص بالمتاجر والمقاهي، ومنه تتفرع الشوارع الجانبية إلى الداخل، صاعدة من الجانب الآخر نحو الزبوة الصخرية، التي تقع عليها أطلال القسبة الأندلسية ولكتراثية القديمة.

وهذه القسبة هي كل ما تحويه لاردة من الآثار الأندلسية، وتسمى بالحصن "El Castillo". وهي عبارة عن مجموعة من الأطلال الخربة، تقوم فوق بقية أسوار قوية عالية، يبدو أنها كانت أسوار القسبة الخارجية، المتصلة بأسوار المدينة، ولا يوجد منها في السطح





لاردة. أطلال القسبة الأندلسية

الأعلى سوى عقدين كبيرين، بدت عليهما مظاهر العفاء؛ ويوجد إلى جانب هذه الأطلال الباقية من قسبة لاردة، ثكنة عسكرية يبدو أنها تحتل الساحة السفلى التي كانت للقسبة الأندلسية.

وتقوم فوق نفس الربوة، تجاه أطلال القسبة، أطلال الكنيسة العظمى القديمة، المقبول بأنها تقوم فوق موقع مسجد قديم. وهي قوطية بيزنطية، وقد شيدت في أوائل القرن الثالث عشر. ومما تلفت النظر أن عقودها وجدرانها، تحمل كثيراً من الزخارف المدجنية الشبيهة بالعربية، مما يدل على أن أثر الفن الإسلامي، كان ما يزال قوياً في هذه المنطقة، في القرن الثالث عشر.

وإذا صح أن كتراية لاردة القديمة، تقوم فوق أنقاض مسجد القسبة القديم، فإنه يبدو أن هذه القسبة، كانت تضم في نفس الوقت الحصن والقصر، وأنها كانت مقر الأمير أو الحاكم المسلم.

ويوجد في لاردة بضعة كنائس قديمة أخرى، تقع بالأخص في المنحدر النازل من الربوة، إلى داخل المدينة مثل كنيسة "La Zuda"، التي يظن أنها شيدت فوق أنقاض مسجد قديم، وكنيسة



لاردة. أحد عقود القسبة الأندلسية

"La Anuciata"، وبها زخارف مدجنية. كما يوجد بها المارستان القديم، وهو بناء يرجع إلى القرن الخامس عشر.

ولم نشاهد على نهر سجري أثراً لقطرة عربية قديمة. والظاهر أن القطرة العربية قد اندثرت منذ بعيد، وتقوم مكانها اليوم على النهر قطرة حديثة جداً.

وتقدم لاردة إلى جانب أحيائها القديمة، ذات الشوارع العتيقة المزدهمة، التي تتجه من الشارع الكبير نحو الربوة، طائفة من الأحياء الحديثة التي تشقها شوارع جميلة منسقة.



وتحيط بالمدينة بسائط فضيحة من الحقول البانعة والحدائق الغناء، وقد علمت من  
محادثتي مع بعض العارفين، أن نظام الري الذي يسمونه ولاية لاردة كلها، مازال يقوم على  
نفس النظم والمنشآت التي وضعها المسلمون،  
وقد رأينا بعض طوائف العجر في لاردة، وكذلك رأينا العجر على مقربة من بلدة  
"إسبولا" "Espula" القريبة، يقيمون في حمى سور صخري في شعب الجبال،  
ويبلغ سكان لاردة أكثر من أربعين ألف نسمة.

## ٤ - طرُكُونة

### Tarragona

تقع مدينة طرُكُونة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، جنوب شرقي برشلونة، وتبعد عنها نحو مائة كيلومتر. وتبدو المنطقة الواقعة بين برشلونة وطرُكُونة، مما يلي شاطئ البحر، من أجمل المناطق الإسبانية، تغلب عليها الخضرة، وتكثر بها الحدائق الينعة، وكثير من نواحيها يقصده الناس للاستمتاع والتنزه، وتوجد التلال والأكام على جانبيها، ولكنها تبدو أيضًا في معظمها خضراء، تغطيها أشجار الزيتون، وتكثر بها حدائق الكروم الأرضية، ويبدو شاطئ البحر على مقربة من طرُكُونة، بسيطًا أخضر تغطيه الأشجار، ومحاصيل الذرة والقطن والخروع وأشجار الزيتون.

أما المنطقة التي تقع بين لاردة وطرُكُونة، فهي بالعكس منطقة وعرة نوعًا، تكثر فيها التلال والربى الصخرية. بيد أن البساتين تتخللها في نفس الوقت، تغطيها الكروم والزروع وغابات الزيتون. فإذا اقتربت من طرُكُونة، بدت هذه الغابات الزيتونية في كثرة تلفت النظر، ثم تعقبها قبيل المدينة غابات النخيل الجميلة.

وطرُكُونة مدينة كبيرة ذات شوارع طويلة فسيحة، ويشقها شارعها الأعظم المسمى "رَملة القائد الأعظم" "Rambla del Generalísimo"، الذي تظله الأشجار الينعة. وهي تقع على منحدر صخري يمتد حتى البحر، وتشرف عليه إشرافًا بديعًا، ومن أسفل الربوة، تقع على خليج مستدير ذي لسان يمتد داخل البحر، ومن ورائه خليج آخر تحف به الجبال. ومن الناحية الأخرى تشرف المدينة على وادٍ أخضر، تحده بعد ذلك سلسلة من الجبال العالية.

وتبدو طرُكُونة في ثوب مدينة أوربية متوسطة، وتمزج كمعظم المدن الإسبانية بين القديم والحديث، وتضم إلى جانب أحيائها الحديثة، وشوارعها الفسيحة، طائفة من الأحياء الصخرية الضيقة، ذات المباني العتيقة الطراز، ومن بينها حي صغير يسكنه العجس، ويبدو النخيل في بعض منازل المدينة على النحو الأندلسي، كما تبدو في بعض أطرافها ومنحدراتها. وقد سقطت طرُكُونة في أيدي النصارى في وقت مبكر، وانتزعها من المسلمين برنجار الثالث كونت برشلونة، في سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٩ م).

وكان لطركونة أيام الرومان شأن، وكان يقصدها بعض الإمبراطورة للاستطيف بضواحيها الجميلة، وما زال هذا الطابع الروماني يغلب عليها من الناحية الأثرية، فكل ما تضمنه حتى اليوم من الآثار القديمة، يرجع إلى العصر الروماني.

وفي مقدمة هذه الآثار الأسوار الرومانية، وهي أسوار ضخمة عالية يبلغ طولها نحو كيلو متر، وهي تقع على مقربة من الكنيسة العظمى، وقد شيدت من أحجار ضخمة، وليس بها أبراج، وهي تبدو رائعة المنظر.

ويغص متحف المدينة بالقطع الأثرية الرومانية، وقد ذكر لي منيره أنه لا توجد في طركونة، أية لوحات أو نقوش عربية من أي نوع، وأن كل ما فيها من الآثار يرجع إلى العصر الروماني.

وكنيسة طركونة العظمى (الكتدرائية)، هي صرح عظيم فخم ذات واجهة رائعة، وقد بنيت على الطراز الروماني القوطي، وبنيء بإنشائها في أواخر القرن الثاني عشر، ومن المرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد طركونة الجامع، يدل على ذلك قدمها، وموقعها في وسط المدينة القديمة، ويوجد في أحد أروقة الكنيسة الداخلية على مقربة من المنخل، الأثر الأندلسي الوحيد الذي يوجد في طركونة، وهو عبارة عن محراب رخامي صغير يبلغ طوله نحو متر وربع وعرضه نحو ثمانين سنتيمتراً، وقد ثبت في مكان عالٍ من جدار الدير، وفي إفريز عقده من الجانبين ومن أعلى كتابة كوفية، هذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله لعبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بعمله على يدي جعفر فتاه وموليه سنة تسع وأربعين وثلاث مائة".

ومن المرجح أن هذه اللوحة، تتعلق بأعمال أو إصلاحات أجريت في جامع طركونة، الذي أقيمت فوق موقعه الكنيسة، وذلك بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر.

كذلك يوجد في متحف الكنيسة العظمى، إنجيل عربي لاتيني مطبوع في القرن السابع عشر.

ويبلغ سكان طركونة أربعة وثلاثين ألفاً.



طركونة. واجهة الكنيسة العظمى



طركونة. الأسوار الرومانية

## ٥ - طرطوشة

### Tortosa

تبعد مدينة طرطوشة نحو خمسين كيلو مترًا من طركونة، وتقع على نهر إيبرو (إبرة) الذي يشق ولاية أراجون كلها، على مقربة من مصبه في البحر الأبيض المتوسط.

وهي تشغل رقعة كبيرة شبه مستديرة، وتحف بها الجبال عن كثب، وتضم من السكان سبعة وأربعين ألفًا، ويشقها النهر نحو نصفين، النصف الأيمن أو الشرقي، ويشمل الأحياء الراقية والمصالح والمتاجر الهامة، والنصف الأيسر أو الغربي، ويشمل الأحياء المتوسطة والمتواضعة، كما يشمل عددًا من المزارع النضرة. والتربة هنا وافرة الخصب، وتنمو بها الذرة والكروم والحدائق النضرة، وتوجد حقول الأرز على النهر بكثرة، وكذا تبدو شجيرات النخيل كثيفة ساحرة.

وتبدو طرطوشة من الناحية العمرانية مدينة أوربية حديثة، لا يبدو فيها ما يذكرنا بماضيها الإسلامي، بيد أنه يلاحظ أن في أطرافها المجاورة لأطلال القلعة، توجد شوارع قديمة ضيقة صخرية صاعدة، ولا سيما من ناحية الكنيسة العظمى. ويلوح لنا أن المدينة الأندلسية كانت تشغل بالأخص هذه المنطقة على يمين النهر، خصوصًا متى ذكرنا أن الكنيسة العظمى تشغل مكان الجامع القديم. وقد كان يقوم عادة في وسط المدينة.

وقد سقطت طرطوشة في أيدي النصارى، قبيل سقوط لاردة بقليل في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م). وكانت في أواخر عهدها الإسلامي مثوى للمجاهدين والمغامرين، من رواد الحملات البحرية، التي تنحدر في شواطئ الأمم النصرانية المجاورة. فدعا البابا إلى تأليف حملة صليبية لفتحها، واجتمعت قوات النصارى من الإسبان والبيزبين والجنوبيين وفرسان المعبد، بقيادة الكونت رامون برنجار الرابع أمير برشلونة، واضطر المسلمون إلى تسليم المدينة صلحًا في آخر سنة ١١٤٨ م، مشترطين الاحتفاظ بمساجدهم وأماكنهم. ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم، أكثر من ثلاثين أو أربعين عامًا، ثم اضطروا إلى تسليمها لحكامهم الجدد.

وليست في طرطوشة آثار أندلسية ذات شأن، ولكن أطلال قلعتها التي تسمى "La Zuda" (السودا) تمت بلا ريب بصلة إلى العهد الإسلامي، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الأطلال من أسوار وبقياء أبراج، تشغل مساحة كبيرة، فوق ربوة عالية، تقع في وسط



المدينة، وتشرف من الخلف على النهر. ويرجع الأثريون أصل هذه القلعة إلى العصر الروماني. ولكن المرجح أنها جددت واستعملت خلال العصر الإسلامي، وكانت تؤدي وظيفة القسبة الأندلسية من الناحية الدفاعية، وموقعها يعاون في تقصى خطط المدينة الأندلسية.

وتقع الكنيسة العظمى (الكثريّة) في وسط المدينة، على مقربة من القلعة، وهي



كنيسة قديمة تمتاز بواجهتها وزخارفها الداخلية، ويتقدمها دير يلفت النظر بصحنه، المبني على الطراز القوطي العربي. والمعروف من تاريخ هذه الكنيسة، التي ترجع إلى القرن الثالث عشر، أنها أنشئت فوق موقع جامع طرطوشة، الذي بُني في أوائل القرن العاشر الميلادي، وأن كثيرًا من أنقاض الجامع استعملت في بنائها.

ومما يلفت النظر في شأن هذه الكنيسة، أنه قد ثبتت في جدارها الخلفي من الخارج، لوحة حجرية إسلامية مربعة تقريبًا، ضلعها نحو خمسين سنتيمترًا، وقد نقش عليها عشرة سطور من الكتابة العربية التي محيت نوعًا وهذا نصها:

طرطوشة، واجهة الكنيسة العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه الدار عدة للصناعة والمراكب، عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أيداه الله فتم بناؤها على يد قائده وعبد عبد الرحمن بن محمد، بعون الله ونصره، في سنة ثلث وثلثين وثلث مائة وكتب عبد الله بن كليب..

وقد رأيت من هذه اللوحة صورة من الجص في متحف طرطوشة، وأخرى مماثلة في متحف طرطوشة، وعلمت من مدير متحف طرطوشة الدكتور بايري، أنه لا توجد في طرطوشة، لية لوحات أو نقوش عربية أخرى، أو وثائق عربية من أي نوع.

\* \* \*

وقد اشتهرت طرطوشة في عهدها الإسلامي بنشاطها العلمي والثقافي، وإليها ينسب أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب "سراج الملوك" المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م). وهو من كتب السلسلة الملكية المشهورة.

وهي مازالت تحتفظ اليوم بسمعتها الثقافية القديمة، وفيها يقوم مرصد طرطوشة الشهير.

ويقع هذا المرصد على الضفة الأخرى من النهر، في طرف المدينة الغربي، على ربوة عالية بجوار النير، ويشرف عليه الآباء اليسوعيون. وبه قسم للطبيعة وآخر للكيمياء، وثالث للأرصاد الجوية، وقد جهز كل قسم منها بأحدث الآلات العلمية الدقيقة، وأنشئت به مكتبة علمية عظيمة.

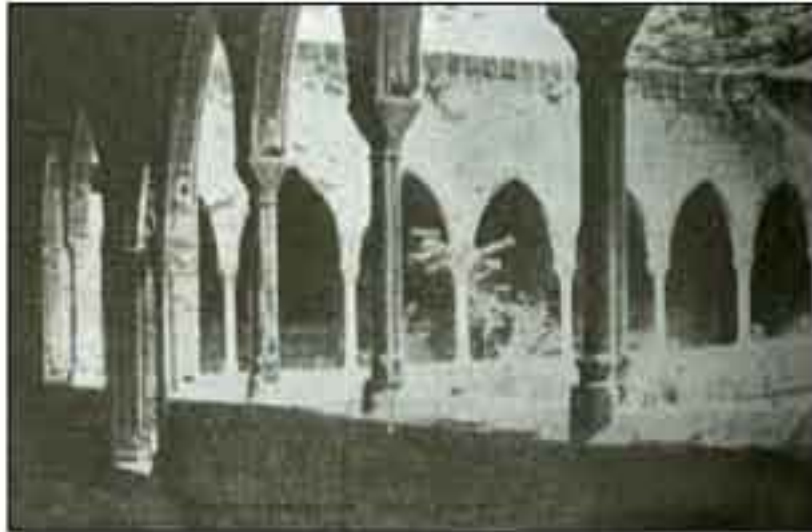
وقد استقبلني فيه الأب الشاب أوريول كردوس، وطاف بي مختلف أقسامه، وأطلعني على عمل الآلات المختلفة.

ويتبع هذا المرصد من الناحية الإدارية "المجلس الأعلى للعلوم" في مدريد، ويعد الطلاب لنيل الدكتوراه في العلوم. ولكن ليس به طلاب منتظمون، وإنما يعمل فيه الآباء والعلماء فقط. وهو على صلة بسائر مراصد العالم، ومنها مرصدنا المصري بطنطا، وبه أحدث الأجهزة لرصد الزلازل، وحركات الشمس، وكثافة الأمطار، والحرارة، والأرصاد الجوية، وغيرها.

وإنما عنيبت بذكر هذه الكلمة عن مرصد طرطوشة، للتدليل على نواحي النشاط العلمي والثقافي الممتاز، الذي يقوم به الآباء في مختلف الميادين.



طرطوشة. أطلال القسبة الأندلسية



طرطوشة. فناء الدير المجاور للكنائس ذو العقود العريضة

## ٦ - ميورقة

### Mallorca

حرصت على أن أعبّر البحر إلى جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية (جزائر البليار)، وأن ألقى فيها أياماً، أنقضى آثار العصر الإسلامي في تلك الجزيرة الكبيرة الساحرة.

وكان عبوري إلى ميورقة بطريق الجو، وقد أتاحت لنا الطائرة، وهي تجوب الجزيرة على ارتفاع منخفض نوعاً، أن نشهد سطح الجزيرة عن قرب، وأن نتعرف مجمل خواصها الطبيعية.

إن جزيرة ميورقة تغلب على سطحها الصفة الصخرية، وخصوصاً من أطرافها؛ فهذه الأطراف هي هضاب تغلب فيها الجبال والربى، وفي المناطق الوسطى توجد وديان منبسطة ومنحدرات خضراء، ويحتوي محيط الجزيرة على خلجان عديدة، منها ما يصلح مرافئ بديعة لإيواء السفن. وتغطي الأشجار الباسقة وغابات الزيتون، معظم البساتين والمنحدرات بالجزيرة، يحوطها على مدار الشاطئ سياج صخري أصفر، وجبال ذات أكام متوسطة الارتفاع.

وإلى جانب جزيرة ميورقة، توجد جزيرة منورقة "Menorca"، وهي تقع في شمالها الشرقي، ويلاسه "Ibiza" وتقع في جنوبها الغربي، وعدة أخرى من الجزائر الصغيرة.

ويبلغ سكان الجزائر الشرقية كلها نحو ثلاثمائة وثمانين ألف نسمة. وهذه الجزائر بالرغم من غلبة الهضاب على طبيعتها، غنية بالرقاق الخصبة، وفيما خلا مدينة ميورقة، فإن معظم سكانها يحترفون الزراعة، ويجود بها القمح والكتان والفواكه، ولا سيما التين والبرتقال، ومن أعظم صادراتها زيت الزيتون، حيث تغطي غابات الزيتون مساحات واسعة منها.

وعاصمة الجزائر كلها هي مدينة ميورقة، أو مدينة بالمادي ميورقة كما تسمى بالإسبانية. وهي تقع في غرب ميورقة، على خليج يتخذ صورة القوس، وفي منتصفه لسان يحمي الميناء، وفي جانبه الأيمن تمتد المدينة في لسان طبيعي، وفي شمال القوس، وفي طرفه تنساب أحياء المدينة الكبيرة. وتبدو الجبال عن بعد تظلل البساتين الخضراء، التي تلي المدينة من الشرق والشمال، ويحيط هذا السور الجبلي بموقع المدينة من طرفي القوس.

ومدينة ميورقة مدينة ضخمة، يبلغ سكانها مائة وخمسين ألفاً. معظمهم من القطلان، ويؤلف القطلان أغلبية بين سكان الجزائر الشرقية. وهم أيضاً أغلبية في مدينة برشلونة

العظيمة وأحوازها، ويلاحظ أن القطلان جنس أرقى مدنية وثقافة. وأكثر حيوية وإنتاجاً من الإسبان. ولهم لغة وآداب خاصة. والمدينة قسمان، فأما قسمها الذي يشغل طرفي القوس فيقع في بقاع مستوية. وتشقه شوارع وميادين ضخمة، ويبدو عليه طابع الجدة والحدثة.



ميورقة. منظر عام للمدينة والميناء

ولما قسمها الآخر، وهو الذي يشغل الوسط، ويمتد من البحر شمالاً، فيقع معظمه فوق مرتفع من الأرض يمتد صاعداً حتى يستوي في نهاية المدينة، وتخترقه شوارع عديدة ضيقة، يبدو عليها طابع العصور الوسطى. ولا غرو ففي هذا القسم توجد معظم معالم ميورقة الأثرية، وتوجد به أيضاً معظم الأحياء التجارية، وتتمركز معظم حركة الأعمال.

وكانت الجزائر الشرقية قبل العصر المسيحي، في يد المستعمرين القرطاجيين، ثم الرومان، وعرفها العرب في عصر مبكر قبل افتتاح الأندلس، وغزاها عبد الله بن موسى بن نصير سنة ٧٠٨ م. بيد أن المسلمين لم يسيطروا سيادتهم على تلك الجزائر قبل منتصف القرن التاسع الميلادي، حينما بعث عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس، حملة بحرية إلى ميورقة في سنة ٨٤٧ م أخضعها، وفرضت عليها الجزية. وفي سنة ٩٠٣ م كان الفتح الحقيقي للجزائر على يد زعيم مجاهد يدعى عصام الخولاني، قاد في عصر الأمير عبد الله، حملة من المجاهدين، وافتتح ميورقة. واستعمرها المسلمون وحكموها من ذلك الحين على يد الولاة المتعاقبين. وفي سنة ١٠١٤ م افتتحها مجاهد العامري أمير دانية، وضمها إلى مملكته المستقلة، واستمر في حكمها حتى وفاته في سنة ١٠٤٤ م. وسميت مدينة ميورقة في عصره مدينة مجاهد، وحكمها ولده على من بعده حينما ولما سقطت مملكة دانية في يد بني هود أمراء سرقسطة في سنة ١٠٧٦ م، استردت الجزائر استقلالها في ظل ولايتها من المسلمين، واستمرت إمارة مستقلة، تصارع حملات النصارى المتعاقبة عليها من الجنوبيين والبلزيين



والقطلان، حتى سقطت نهائياً في أيدي النصارى بقيادة ملكهم خليمي الأول ملك أراجون الملك بالفتح، وذلك في سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ).

وكانت الجزائر الشرقية أيام المسلمين، ولا سيما كبراهها ميورقة عامرة بالسكان، غنية زاهرة، تتمتع بقسط كبير من الرخاء والتمدن. وكانت لها علائق تجارية عظيمة مع ثغور المغرب.

\* \* \*

ولنعد الآن إلى مدينة ميورقة عاصمة الجزائر، ومستودع الآثار والذكريات الأندلسية، فنقول إنها مازالت تحتفظ بكثير من معالم العصر الإسلامي وآثاره، وإن كانت هذه المعالم والآثار، تكاد تختفي اليوم تحت أبواب التجدد أو أثر الإهمل والعفاء.

وما زالت ثمة بعض المعالم الأثرية، تحدد لنا مواقع المدينة الأندلسية. وقد كان هذا الموقع يمتد من البحر شرقي الميناء شمالاً حتى نهاية المدينة الحالية، وشرقاً حتى ميدان الفتح "Plaza de la Conquista"، وميدان إسبانيا "P. de Espana" وشارع پريمودي رقييراه وغرباً حتى شارع الجمهورية الفضية. وتشغل هذه الرقعة بالضبط وسط مدينة ميورقة الحالية، وهو الجزء الواقع فوق الرقعة المرتفعة، التي تطل من جنوبها على البحر، عند الكنيسة العظمى وبقيّة الأسوار الأندلسية.

وقد كان للمدينة الأندلسية في العصور الوسطى، ستة أبواب وردت أسماؤها جميعاً، في وثيقة تقسيم ميورقة العربية اللاتينية التي نتحدث عنها فيما بعد، وهي "باب البلد" في الشرق، و"باب الكحل" و"باب البلياط" و"باب السراجب" في الشمال، و"باب برتئين" في الغرب، و"باب الجديد" في الجنوب الغربي مما يلي البحر. وكان يخرق المدينة الأندلسية من وسطها الشارع الكبير، وهو الذي يحتل مكانه اليوم "شارع الفتح"، ثم "الميدان الكبير" "P. Mayor"، ثم شارع سان ميغيل حتى "باب البلياط" في الشمال.

### المعالم الأثرية

وتقوم كنيسة ميورقة العظمى فوق موقع المسجد الجامع، على مقربة من البحر، تجاه "القصر" الذي نتحدث عنه بعد، وتسمى الكاتدرائية "La Seo"، وقد أسست عقب افتتاح النصارى لميورقة، في أواسط القرن الثالث عشر. والمعروف أن مصلاها المسمى "بالمصلى الملكي" "Capital Real"، وهو أقدم أجزائها، يقوم فوق جزء المسجد الذي كان به المحراب. وهي كنيسة عظيمة مبنية على الطراز القوطي، وقد استغرق إنشاؤها بضعة قرون، ويسمى بابها الذي يطل على ناحية البحر "باب المنظرة" "Puerta del Mirador"، وهو عقد قوطي شاقق.

وتوجد في ميورقة خلاف الكنيسة العظمى، عدة كنائس أثرية أخرى، في مقدمتها كنيسة القديس ميغيل "San Miguel"، الواقعة في الشارع المسمى بهذا الاسم، على مقربة من "الميدان الكبير". والمعروف من تاريخها أنها كانت مسجداً، وحُولَ إلى كنيسة عند دخول النصارى الفاتحين المدينة.

كما يوجد دير سان فرنيسكو، وقد أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر، وله صحن ذو عقود على الطراز الأندلسي.

قصر المدينة: "Almudaina" وهو صرح قديم ضخم، يقوم قبالة الكنيسة العظمى من ناحية الغرب، وهو اليوم مقر القيادة العسكرية ودار المحفوظات العامة. وتُدلى واجهته العتيقة، وبناؤه الوعر الحصين، بأنه كان حصناً وقصراً.

والمعروف من تاريخه أنه كان قصراً للولاة والأمراء المسلمين، شيد فوق أنقاض صرح روماني قديم، واستمر مقراً لهم حتى سقطت ميورقة في يد النصارى، وعندئذ غدا صرح "المدينة" مقاماً للملوك النصارى، وغُذِلَ بناؤه وغُيِّرَ مראהه حتى صار إلى وضعه الحاضر.

وفي داخل قصر المدينة فناء كبير مربع، ذو عقود عريضة من الناحيتين، وفي وسطه



ميورقة. واجهة قصر المدينة

النخيل على الطراز الأندلسي. ولم يبق في هذا الصرح العتيق من عهده الأندلسي سوى القليل، من ذلك في فناءه الداخلي الذي يسمى "فناء الملكة" نافذتان لهما عقود عريضة، وحوض نافورة عربي الطراز، وهيكَل عقد عربي يقوم في أعلى الجدار في أحد ممراته. وتوجد أيضاً عدة قطع زخرفية من أعمنته القديمة ملقاة في الحديقة المجاورة.

ويقوم القصر على نفس الرتبة المرتفعة التي تقوم عليها الكنتراثية، ويحيط به من الناحية اليمنى سور حصين مبني بالحجارة الضخمة، منحدر إلى أسفل، وفي نهايته برج قد يرجع إلى العصر الأندلسي.

وعلى ذكر الأسوار نقول إنه لم يبق من أسوار المدينة الإسلامية، سوى الجزء الذي يقع جنوب الكنتراثية على البحر، ويحمي ساحتها المطلة عليه والمسماة "بالمنظرة"، وبقيّة أخرى في الناحية الشرقية، في الشارع المسمى "باب البحر" على مقربة من موقع "باب البحر" القديم. وفي هذه الجهة توجد أيضاً قلعة عربية صغيرة، تقع في ميدان المعبد "P. de Temple" القريب، كان يحتلها قُرسان المعبد "عقب الفتح النصراني".



ميورقة. الكنيسة العظمى وقصر المدينة،  
وقد ظهرت بقية الأسوار العربية مشرفة على البحر



ميورقة. فناء الملكة داخل قصر المدينة

عقد المدينة: ولم يبق من عقود الأبواب الأندلسية القديمة سوى عقد باب المدينة وهو يقع في وسط شارع المدينة "C. Al mudaina". ويعتبر هذا الشارع الصخري العتيق من أقدم شوارع ميورقة، وهو بقية ظاهرة من المدينة الأندلسية حيث يبدو طراز الأندلسي، في شكله وفي منازل من الجانبين، وفي أبوابها ذات العقود العربية.



وأما عقد المدينة فهو عقد حجري، يبلغ سمكه من الداخل مترين، وارتفاعه نحو ثمانية أمتار، وتساعه أربعة، وهو لتساع الشارع، وتعلوه شرفة حجرية ذات كوة صغيرة، وفي هذا الشارع تقع عدة منازل قديمة، ترجع إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبها أفنية وشرفات ونوافذ يغلب عليها الطابع الأندلسي. ويوجد في هذا الشارع أيضاً متحف صغير، هو متحف الجمعية الأثرية المسماة "لوليانا"، وقد شاهدنا فيه رأس محراب عربي له عمودان رفيعان من الرخام، وبضعة شواهد أو قطع من شواهد قبور إسلامية، على بعضها نقوش كوفية باسم المتوفى أو عام وفاته.

ميورقة . عقد باب المدينة

ويفضى شارع المدينة إلى شبكة من الدروب العتيقة الضيقة، مثل شارع موري "Morey"، وشارع سرا "Serra"، وشارع "النقاء"، "Pureza"، وهي كلها من طراز شارع المدينة، وكلها تدلّ بأنها كانت من أحياء المدينة الأندلسية القديمة.





ميورقة، فناء دير سان فرنسيسكو ذو العقود العربية



ميورقة، حصن بنفير (المنظر الجميل)



الحمامات العربية: وفي إحدى هذه الشوارع وهو شارع سراء تقع الحمامات العربية، وهي بقية خربة مشوهة من حمامات أندلسية، يبدو عليها أثر الاحتراق، وهي عبارة عن مربع في كل ضلع من أضلاعه، ثلاثة عقود، ويحتوي جميعًا على اثني عشر عقدًا رفيعة، وتعلوه قبة صغيرة قد جردت من نقوشها، ولم نر بها أية نقوش أو كتابات؛ لأن النار قد أتت على قشرتها الخارجية. وفي وسط الفناء فجوة كبيرة قديمة.

وتقع هذه الحمامات داخل حديقة منزل خاص، هو منزل السيد بيدرو موريل "Don Pedro Morel"، والمقول إنها ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي أو الخامس الهجري. في المتحف الأسقي؛ ويحتفظ المتحف الأسقي "Museo Diocesano"، بلوحة حجرية من العصر الإسلامي حجمها نحو ٥٠ x ٣٠ سنتيمترًا، وهي عبارة عن شاهد قبر لمن يدعى سليمان بن منصور، وعليه كتابة كوفية سانحة جدًا، وقد كانت تمحى وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. يا أيها الناس إن وعد الله حق. هذا قبر سليمان بن منصور رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه، إنه توفي اليوم الأحد لست وعشرين يومًا خلون من ذي القعدة من سنة سبع وخمسين وثلاث مائة".

وتوجد في الطابق الأعلى لهذا المتحف قطعتان كبيرتان من الخشب، طول كل منهما نحو خمسة أمتار وعرضها متر، وقد زينتا بنقوش منجنية، على شكل نجوم مضلعة، بارزة في إحداهما، ومحفورة في الأخرى.

كما توجد قطعة خشبية أخرى ذات زخارف مدجنية، وأطباق خزفية جميلة مذهبة من عصر الموريسكيين، وأباريق خزفية أندلسية.

وعلمت أنه توجد ببلدة ماناكور لوحة حجرية أخرى، قد نقش عليها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

الأثر المسمى باللونخا "Lonja": وهو عبارة عن قاعة قوطية كبيرة، على شكل صحن الكنيسة، تقع في شارع "ساجريرا" "Paseo Sagrera" الضخم الممتد على طول البحر، والذي يتوسطه صفان من النخيل المثمر، وهو يرى بكثرة في شوارع ميورقة وميادينها.

وقد كانت اللونخا في العصور الوسطى، كمثيلاتها في كثير من المدن الإسبانية، تستعمل للتعامل والبيع والشراء، وهي اليوم تستعمل متحفًا للصور. وقد رأينا من بينها صورة بريشة سوريانو موريلىو، يصور فيها أبا عبد الله آخر ملوك الأندلس وهو سائر في ركبته مع أمه وزوجته وابنته، على مقربة من غرناطة، في الموضع الذي يسمى إلى اليوم "زفرة العربي

الأخيرة، وهو يبكي ولمه تنحى عليه باللائمة "لأنه يبكي كالنساء مُكًا لم يستطع أن يدافع عنه كالرجال".

ويوجد في ضاحية ميورقة، الحصن المسمى حصن "المنظر الجميل" "Belver" وهو يقع على ربوة تطل على المدينة. وله فناء ذو عقود، ويتكون من طابقين بيضاويين وبطالان على الفناء، وله برج عال. وهو من إنشاء الملوك النصارى، أنشأه الملك خايمي الأول في بداية القرن الرابع عشر.

## وثيقة عربية بتقسيم أراضي ميورقة

وتحتفظ دار المحفوظات البلدية بمدينة ميورقة، بوثيقة عربية وحيدة ترجع إلى عصر الفتح النصارى، وهي عبارة عن عقد أو اتفاق لتقسيم الأراضي بمدينة ميورقة بين زعماء النصارى الفاتحين، يتكون من تسع ورقت مستطيلة (حجمها نحو ٣٠ × ١٥ سنتي)، وأمام كل صفحة مقلها باللغة اللاتينية واللغة القطلونية، ويكون المجموع كراسة كبيرة مستطيلة. وتعرف هذه الوثيقة في تاريخ ميورقة، بكتاب أو عقد تقسيم ميورقة "Repartimiento de Mallorca".

وتعني الوثيقة أولاً ببيان الأقسام المختلفة وأصحابها على النحو الآتي:

- ١ - القسم الخاص بالأقطاط وشركائهم فيه.
  - ٢ - ويقسم هذا القسم إلى أربعة أقسام يعطى كل قسم منها إلى الآتين:
    - أ - قمط نوا جزين.
    - ب - بشب برشلونة وشركاؤه.
    - ج - القمط أنبريائش.
    - د - جليام ماجوره وشركاؤه.
- ثم تعود الوثيقة فتبين هذه الأجزاء تباعاً بالتفصيل (ورقة ١ و ٢).
- وتتحدث الوثيقة بعد ذلك عن تقسيم "جميع الأراضي التي بخارج المدينة" إلى قسمين: الأول "وهو النصف الواحد الذي صار إلى الري رغوون وشركائه".
- ثم تسمى الأعيان الداخلة في هذا القسم، وتقسّمه بعد ذلك إلى أربعة أقسام، وتعدد الأعيان والمزارع الداخلة في ذلك.
- ثم تقول "وقسم رابع منها وهو الربع الواحد الذي صار لجليام ماجوره".

ثم "القسم الرابع الواحد الذي صار إلى القمط أنبرياش".

تقول "ويقسم جميع ما بمدينة ميورقة، على ثمانية أقسام تحت صورها" "قسم وهو النصف الواحد... وهو الذي صار إلى الري رشون وشركائه، من صعد المليون إلى مسجد عبد الملك إلى جنة المصامدة..."

وقسم "وهو النصف الواحد أيضًا، ويحوزه من صور المدينة من برج الحمام على الطريق من باب المدى إلى المسعى، وحفير الصور إلى برج الحمام، بمقربة مخزن الضيان، إلى الوادي إلى باب البلياط بطول الصور إلى باب المدى.

"وقسم ثاني منها وهو الربع الواحد الذي صار للبشيب برجلونة وشركائه فيه، ويحوزه من مسجد الزنقة إلى دار الحاج داود إلى قنطرة باب الغدر إلى الصور إلى باب الجديد".

"وقسم ثالث منها وهو الربع الواحد، وصلر لجليام ماجورة منقادة وفريسة شنجيشه وأصحابهم، ويحوز من حائط رياض أبو يحيى الملاصق باب البلياط بطول شارع الكدية إلى مسجد بريقة، إلى دار الحاج داود إلى باب الغدر من ناحية الجوف".

ويرد خلال تحديد البقاع والأماكن المقسمة، كثير من أسماء الخطط والأعيان والضياح الميورقية في العهد الإسلامي، مثل رحي الشجر، رحي النب، رحي السقاج، رحي اللوزة، رحي ابن مدرك، جنان الصباغ، جنان الطرطوشي، رحي الصفار، رحي ابن الأصفر، رحي ابن قطيعة، رحي بشير، رحي الفخار، إلخ.

ومن أسماء الأبواب: باب الكحل، باب البك، باب البلياط، باب المدى.

وجاء في صفحة ١٢ من الوثيقة في الثلث الأول منها ما يأتي:

لما وقع الاتفاق على أن تقسم جميع أراضي جزيرة ميورقة بخارج باب البلد على نصفين سويين، وينقسم كل نصف على أربعة أقسام، وقع الاتفاق على أن يبقى من خوز الأحواز للمدينة من الوادي إلياس إلى رحي المعبرة بقطين إلى الرابطة بمربين إلى حد رحي القرارة..".

وتحدد الوثيقة بعد ذلك الأقسام "التي صارت للقمط نسوا، والتي صارت للبشيب برجلونة وأصحابه، وللقمط أنبرياش وشركائه، ولجليام ماجورة منقادة وشركائه".



ميورقة، الصفحة الأولى من مخطوط وثيقة التقسيم العربية المحفوظة  
بدار محفوظات ميورقة

وليس لهذه الوثيقة تاريخ. ولكن يستفاد من موضوعها أنها ترجع إلى ما بعد فتح  
النصارى لميورقة بقليل، وقد وقع هذا الفتح بين سنتي ١٢٢٩ و ١٢٣٢ م.

ولمنا نعرف من جهة أخرى سبباً لكتابة هذه الوثيقة بالعربية، وهي تختص بتقسيم  
الأماكن المفتوحة بين النصارى، مقابل نصها اللاتيني والقطلاني، إلا أن يكون ذلك لتعيين  
الأعيان والحدود بأسمائها العربية الصحيحة، التي لم تكن قد غُيرت أو حُرِفت بعد، ولتعريف  
الأصوبة الممنوحة بدقة تتفاد الاضطراب واللبس.

وعلى أية حال فإن محتويات النص العربي لهذه الوثيقة، تلقي أعظم ضوء على خطط  
مدينة ميورقة الإسلامية، وعلى حدودها ومعالمها.

وما زالت توجد إلى اليوم بجزيرة ميورقة، عدة بلاد وقرى تحتفظ بأسمائها الإسلامية،  
مثل بني سالم أو بني عبد السلام "Benisalem" والكنية "Alcudia"، وبني علي أو بني  
العالى Beniali وغيرها، كما أنه توجد أسماء ميورقية ترجع إلى أصول عربية واضحة، مثل  
Bennasar وهو ابن نصر، و Beniatzar ولعله بني الزار أو بني الزرع، وغير ذلك.

ومما يجدر ذكره أنه يوجد بين سكان ميورقة بعض العجزة، وهم يعيشون في بعض  
الشوارع القريبة من الكندرية والقريبة من "اللونا". وقد علمت أنه توجد منهم أقليات تعيش  
في أنحاء الجزيرة، ولكني لم أفد على حقيقة عددهم.

### مدينة سوليير

وقد زرنا مدينة سوليير Soller، وهي مدينة صغيرة تقع شمالي ميورقة على مقربة  
من البحر، وتبعد عنها نحو ساعة بالقطار. وهذه المنطقة التي تفصل بين البلدين، تختلف بين  
البساتن والتلال، وتنمو بها غابات الزيتون بكثرة. وتقع سوليير نفسها في منطقة جبلية في واد  
عميق تحيط به الجبال، وهي مدينة حديثة أنيقة المظهر، ولكن تخترقها من الجانبين شوارع  
ضيقة، وتبدو بها أشجار النخيل والكروم، وليس بها من الآثار ما يزار، ولم نلمح فيها ما  
يذكرنا بالطابع الأندلسي سوى دروبها الضيقة الملتوية. والظاهر أن هذه البساتن الخضراء  
الجميلة الواقعة بين ميورقة وسوليير، وهي التي تكون المثلث الشمالي الغربي من الجزيرة،  
كانت مهبطاً طبيئاً للمستعمرين المسلمين.



## ٧ - قسطلونة

### Castellon

تقع مدينة قسطلونة، في منتصف المسافة بين طرطوشة وبلنسية، وهي إلى بالنسية أقرب، وهذه الرقعة الساحلية التي تمتد بين طرطوشة وقسطلونة، تختلف في البداية من الخضرة اللينة ومناطق الكروم وغلات الزيتون، إلى منطقة، تتخللها التلال، ويغلب عليها القفر؛ ثم تضيق الرقعة قبيل قسطلونة فيما بين البحر والجبال، وتغلب عليها الخضرة.

وقسطلونة من مدن الأندلس الشرقية، التي يرتبط تاريخها معظم الوقت بتاريخ بلنسية، وهي اليوم تبدو في ثوب مدينة أوربية حديثة، وتشغل السهل بعد أن كانت أيام المسلمين تشغل الربوة التي تقع شمل مكانها الحالي، ومن ثم كان اسمها الحديث وهو "قسطلونة السهل" Castellon de la Plana.

وهي مدينة متوسطة الحجم، مثلثة الرقعة، تقع على مقربة من مصب نهر مخارس Mijares، وتخترقها شوارع طويلة منسقة وميادين فيسحة، ويؤري النخيل في شوارعها وميادينها، ويبلغ سكانها خمسة وثلاثون ألفاً.

ولا توجد في قسطلونة أية معالم أثرية أندلسية أو غيرها، وحتى كنيسها القديمة الرئيسية أحرقت أيام الحرب الأهلية؛ وكل ما هنالك أنه توجد بقايا القنطرة العربية فوق نهر مخارس، على بضعة كيلومترات من المدينة، وهي قنطرة صخرية تحمل إليها الماء من مصب النهر، وقد أكد لي السنيور كادينا أمين المتحف والمكتبة البلدية، أنه لا توجد في قسطلونة أو أحوالها، أية أطلال أو نقوش أندلسية أو مورييسكية، وأن المنطقة كلها فقيرة جداً في هذه الناحية. أما المتحف فإنه يضم بقايا آنية خزفية، وبضعة أطباق وألوان أندلسية مصححة، عثر عليها في حفائر قسطلونة، ومنها ما يرجع إلى عصر الخلافة، ويرجع بالقرن إلى عصور متأخرة، ولا سيما العصر المورييسكي، وقد أطلعنا السنيور كادينا على هذه البقايا الخزفية، فوجدناها خالية من كل كتابة عربية، وليست لها أهمية أثرية تذكر.

وقد سقطت قسطلونة في يد النصارى في أوئل القرن الثالث عشر قبل سقوط بلنسية بقليل.

\* \* \*

وعلى مقربة من قسطلونة، في طريق بلنسية، تقع بريانة Burriana، وهي بلدة أندلسية عريقة. وهي اليوم بلدة صغيرة حديثة المظهر والتخطيط، وليس بها آثار تذكر. ويرى بها النخيل، وتمتد من بعدها في الطريق إلى بلنسية، حدائق البرتقال اللينة إلى مسافات بعيدة.

## ٨ - شاطبة

### Jàtiva

كانت شاطبة من القواعد الأندلسية العريقة، وكانت أيام المسلمين مدينة عامرة زاهرة، وقد بكاه أبو الطيب الرندي في مراثيه الشهيرة:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية      ولين شاطبة أم لين جيتان

أما اليوم فإن شاطبة بلدة صغيرة متواضعة، يغلب عليها طابع القدم، ولا يتجاوز سكانها خمسة عشر ألفاً.

وتقع شاطبة على قيد نحو خمسين كيلو متراً جنوب غربي بلنسية، على مقربة من البحر الأبيض المتوسط، ويمتد فيما بين البلدين بسيط جميل خصب يقص بالحقول البانعة، وتنمو فيه محاصيل الذرة والأرز والبقول، وغابات الزيتون وحدائق البرتقال. وتحده الجبال هذا البسيط الأخضر من الجانبين، ولكن على بعد شاسع. وهذه البقعة النضرة هي من أخصب ما شهدت من البساتن الإسبانية.

وقد لفت نظري أسماء عدة من البلاد، التي تقع في طريق شاطبة وعلى مقربة منها، وهي أسماء عربية واضحة مثل "الجزيرة" Alcira و"الخميسى" Algemisi و"بنى فايز" Benifays و"بنى مسلم" Benimuslem و"البريق" Alberijue وغيرها.

وعلى مقربة من شاطبة تبدو أشجار النخيل في سائر القرى، عالية مبعثرة هنا وهناك، وتبدو في ظاهرها حقول الأرز بكثرة تلفت النظر، كما تبدو حدائق البرتقال الجميلة، وتمتد هذه المنطقة حتى مشارف المدينة. بيد أنه تتوسطها بقعة مجذبة، تتخللها الجبال والمستنقعات. ويقع هذا البسيط الأخضر على ضفة نهر "البضياء" Albaida، الذي يجري على مقربة من المدينة، وهو أحد أفرع نهر شُقر.

وشاطبة من أقدم المدن الإسبانية، ويرجعها التاريخ إلى عصر الفينيقيين، وقد كانت في العهد الروماني مدينة عامرة مزدهرة. واحتفظت بأهميتها وزخايرها أيام القوط. وزادت في ظل العهد الإسلامي أهمية وازدهاراً، واشتهرت بمزارعها وحدائقها البانعة، ولبتت من أهم قواعد الأندلس الشرقية، تلى بلنسية ومرسية في الأهمية حتى افتتحها النصارى، بعد أن حاصروها مراراً متوالية، على يد ملكهم خيمي الأول في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م).

وتبدو شاطبة اليوم في ثوب مدينة أثرية، لما تحتويه من أديرة وقصور قديمة. وهي تقع في حمى الربوة العالية. وهي متوسطة الحجم مستطيلة الرقعة يخترقها شارع عريض ظليل، ومعظم شوارعها قصيرة تظللها أشجار التوت العتيقة، وبها عدة ميادين أثرية يزدهن بعضها بالنوافير والتماثيل، وشوارعها الصاعدة المتجهة إلى الربوة ضيقة ملتوية تنم عن أصلها القديم، ومنازلها منخفضة لا تزيد عن طابقين أو ثلاثة، وهي تتخذ على العموم طابعاً خاصاً، يغلب عليه القدم واللون الأثري، وهي من ناحية طابعها الخاص وطرزها الأثري المخضرم، تبدو على شاكلة قريبتها مرسية.

## الحصن والأسوار

وأهم معالم شاطبة الأثرية، هو الحصن الكبير الذي يشغل منطقة شاسعة، فوق حافة الربوة الصخرية الوعرة، التي تشرف على المدينة من ناحية الغرب، والتي تعرف بجبل برنيسا Bernisa. وهي عالية جداً ترتفع عن البسيط الذي تقع عليه المدينة، زهاء ألف وثمانمائة متر، ويصعد إليها بواسطة طريق معبد تخترقه السيارة. وقد صنعت إليها برفقة الأستاذ العلامة الدكتور كارلوس سارتاوو كاريرس عضو أكاديمية التاريخ، وهو أمين متحف شاطبة ومؤرخها، وقد كتب عن حصنها مؤلفاً تاريخياً وأثرياً قيماً.

ومن التجاوز أن يقال الحصن، إذ يوجد في الواقع حصنان، ومجموعة كبيرة مختلفة من الأطلال والأسوار، ويعرف أحد الحصنين بالحصن القديم Castillo Viejo، والآخر بالحصن الجديد Castillo Nuevo. وتحيط بهذه المجموعة الأثرية أسوار واحدة. ويقع الحصن القديم، وهو أصغر الحصنين في الطرف الأيسر للربوة، فوق أكمة منعزلة يصعب الوصول إليها، وهو يرجع فيما يبدو إلى العصر الروماني أو إلى عصر القوط. وتقع أطلال الحصن الكبير في الناحية اليمنى، وهي تحتوي على مجموعة متنوعة من الأبراج والساحات والسلام. وفي هذه المجموعة، نلمح بعض مظاهر العمارة العربية. والمرجح من الناحية التاريخية في شأن الحصن أو الحصنين، أنهما يرجعان إلى العصر القديم، وأنه قد توالى عليهما خلال مختلف العصور المتعاقبة، من الرومان والقوط والعرب ثم الإسبان. إضافات وتغييرات كثيرة. بيد أنه يغلب عليهما الطابع القوطي الأندلسي. وموقع الحصن الكبير على الربوة العالية المشرفة على المدينة، شبيه بموقع القصبات الأندلسية التي سوف يأتي ذكرها، في مالقة وألمرية وغيرهما، من وعورة الموقع ومنعته، وتحكمه في المدينة من الناحية الدفاعية، وإذا فقد كان هذا الحصن أيام المسلمين، هو قصبة شاطبة. ومما يؤيد صحة هذا الفرض، أنه مازال يوجد في أسفل الربوة باب معقود أندلسي الطراز.



شاطبة. الجبل الذي يقع الحصن في أعلاه



شاطبة. أحد أبراج الحصن





شاطبة. أطلال الحصن

ويوجد فوق مرتفع بارز بين أطلال الحصن الكبير، مصلى تاريخي أقامته إحدى ملكات إسبانيا، في القرن الخامس عشر.

كما أنه يوجد به سجن ملكي قديم، وهو مما أنشأ فيه الملوك الإسبان، وهو عبارة عن غرفة داخلية مظلمة شديدة المنعة. وقد سجن في هذا المطبخ، عدة من الأمراء والأكابر الإسبان، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأحيطت سيرهم ومحنتهم بطائفة من القصص المشجي.

ولما لسور شاطبة فقد بقي منها جزء كبير، مما يحيط بالحصن من وراءه، وهي مزيج مما شيده الرومان ولقوط والعرب، ثم الإسبان بعد استرداد المدينة.

الكنيسة العظمى: من المحقق أن كنيسة شاطبة العظمى المسماة "La Seo"، تقوم فوق موقع المسجد الجامع، وهي تقع في وسط المدينة من ناحيتها الجنوبية، في ميدان كبير، وكان الإسبان حينما استولوا على المدينة في سنة ١٢٤٩ م، قد حولوا المسجد كعادتهم إلى كنيسة، ثم هدم المسجد، وأنشئت مكانه كنيسة عظيمة فخمة في القرن الرابع عشر، تمتاز بزخارفها الرائعة من طراز عصر الإحياء. وفي خلال الحرب الإسبانية الأهلية، أحرقت الكنيسة وأصابها تلف كبير، ثم أصلحت وجددت في الأعوام الأخيرة.

وفي ميدان الكنيسة تمثال البابا كالكستوس الثالث، الذي تولى عرش البابوية من سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٥٨ م، وهو إسباني من أبناء شاطبة، ومما هو جدير بالذكر أيضًا أن البابا إسكندر السادس أو إسكندر بورجيا، هو أيضًا من أبناء شاطبة، وهو ابن أخي الباب كالكستوس، وكلاهما من أسرة "بورخا" "Borja" الشهيرة، التي حُرف اسمها فيما بعد إلى "بورجيا" "Borgia"، ثم إن بلدة جاندنيا الصغيرة التي تقع على البحر شرقي شاطبة، هي التي اتخذها إسكندر السادس فيما بعد لقبًا لإمارة ابنه الكبير حيث سماه "دوق جاندنيا".

ويبدي مؤرخو شاطبة من أبنائها، اعتزازًا في تواريخهم، بأن بلادهم قدمت إلى الكرسي الرسولي اثنين من البابوات وسبعة كرادلة من أبنائها.

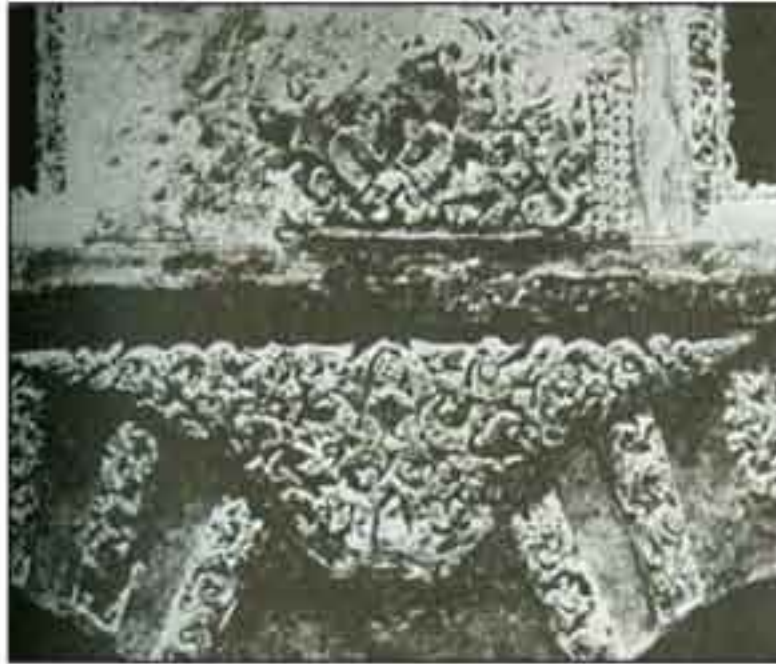


ويوجد في شاطبة بضع كنائس أخرى، وعدد من الأديرة والقصور التاريخية، التي ترجع كلها إلى العصر النصراني.

في متحف شاطبة: وفي شاطبة متحف يضم طائفة نفيسة من الخزائن الأثرية، يبرية ورومانية وأندلسية، من تماثيل وأحواض وأحجار ونقوش ولوحات وأنية خزفية. وقد رأيت فيه التحف الأندلسية الآتية:

أولاً: عقد مزدوج من الرخام وفوقه كوتان. وفي أفراده نقوش مدجنية من أحرف عربية، تؤولف كلمات لا معنى لها. وقد انتهت بعد فحصه إلى أنه ليس من آثار شاطبة الإسلامية، وأنه من صنع عصر متأخر ونقوشه مدجنية بارعة. ويؤيد ذلك ما ذكره لي الأستاذ سارتاوي، من أنه أخذ من قصر أحد الدوقات الإسبان.

ثانياً: يوجد أيضاً عقد عربي لحمام مكون من ثلاثة عقود وعمودين، وهو فيما يرجع من صنع أندلسي إسلامي بيد أنه لا يحمل أية كتابة.



متحف شاطبة. زخارف عقد الحمام العربي

ثالثاً: والأثر الذي يلفت النظر حقاً، هو حوض من الرخام على جوانبه نقوش وصور شبه رومانية، تتكون من أشخاص وطيور ووحوش، وقد أكد لي الأستاذ سارتاوي أنه من صنع عربي أندلسي، وأنه بنقوشه الغضة يعتبر قطعة نادرة من الخزائن العربية المصورة في إسبانيا. وقد وجد في مدينة الحامة. هذا ويوصف هذا الحوض في دليل المتحف أيضاً، بأنه من الآثار العربية. بيد أنني لم أقتنع بهذا الرأي.

ويوجد أيضاً في متحف شاطبة، عدة قطع رخامية من رءوس أعمدة وغيرها مزينة بالزخارف العربية، وهي من أصل إسلامي لا شك فيه.

\* \* \*

وفي وسعنا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية من موقع الكنيسة العظمى، وهي تتوسط نصف المدينة الغربي، ومن طبيعة أحيائها القديمة الواقعة في سفح الربوة التي يقع عليها الحصن. ولما امتداد المدينة الحديث فإنه يبدو في شطرها الشمالي، الذي يخترقه الطريق العريض الظليل "Almeda"، وينتهي بمحطة السكة الحديدية.

## ٩ - دانية

### Denia

لم تكن دانية من القواعد الأندلسية المشهورة التي يتردد ذكرها كثيراً في تاريخ الأندلس، ولم يسطع اسمها إلا في فترة قصيرة، في أواسط القرن الخامس الهجري، حينما غدت أيام الطوائف عاصمة لمملكة مستقلة.

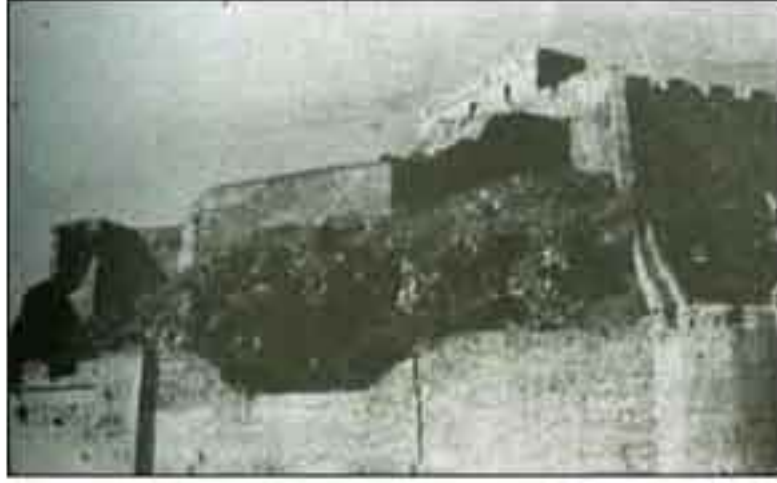
وتقع دانية في ركن منعزل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، قبالة جزيرة يابسة إحدى الجزائر الشرقية، وفي منتصف المسافة بين بنسية ولقنت. ويربطها بلقنت خط حديدي خاص، يخترق رقعة ضيقة يحدها البحر من ناحية، وتحدها الجبال من الناحية الأخرى، وتختلف من البساتن إلى التلال، ومن الخضرة إلى القفر. وعلى مقربة من دانية يبدو البسيط الأخضر، محصوراً بين الجبال من الناحيتين تغطيه غابات الزيتون، فإذا أشرفت على دانية، اتسعت جوانب البسيط الأخضر، ورأيت إلى جانب أشجار الزيتون، حقول الأرز وحدائق البرتقال والكروم، ويمتد السهل وراء الجبال إلى مرمى البصر.

وتقع في هذه الرقعة بلاد قليلة متباعدة معظمها من القرى البحرية، وليس بينها بلاد كبيرة سوى صاحبة سان خوان، وهي مصيف ذو شاطئ بنيع، وبلدة "التيا"، بيد أن الذي يلفت النظر حقاً، هو أنه يوجد في هذه المنطقة عدد من القرى، التي ترجع أسماؤها إلى أصول عربية، مثل بنى مرفيل، وبنى لوبه، وبنى دورم، وبنى الشوى، وبنى جاسر، وبنى عيسى، وبنى دليج، وبنى أريج<sup>(١)</sup>، وعروبة هذه الأسماء ظاهرة بالرغم من تحريف بعضها.

ودانية بلدة قديمة، وكانت تعرف أيام الرومان باسم "Dianium"، وهي اليوم مدينة بحرية صغيرة لا يجاوز سكانها مئة عشر ألفاً، ولا يكاد منظرها المتواضع، يذكرنا بأنها لعبت في العصر الإسلامي دوراً ذا شأن، وكانت أيام الطوائف عاصمة لمملكة عظيمة، تضم الجزائر الشرقية "جزائر البلبل"، فيما بين سنتي ٤٠٥ - ٤٣٦ هـ (١٠١٤ - ١٠٤٤ م)، تحت رئاسة مجاهد العماري، ثم ولده على الملقب بإقبال النولة الذي حكم من بعده حتى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م). وكانت دانية إبل تلك الفترة، وحتى انتهاء النولة المجاهدية في سنة ١٠٧٦ م، من أعظم قواعد الأندلس الشرقية، وكانت مركزاً هاماً لتجمع الأساطيل الأندلسية الغازية، التي كانت تجوب مياه البحر الأبيض حتى شواطئ فرنسا، وجزيرتي كورسيكا وسردينيا.

<sup>(١)</sup> هي بالإسبانية على التوالي: Benisadevi, Benidorm, Benilloba, Benimarfill, Beniargeig, Benidoleig, Benisa, Benigosar.

وقد سقطت دانية في يد الإسبان في سنة ١٢٥٣ م، وفقدت من ذلك الحين أهميتها ورخاءها تباعاً، حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم.



دانية. منظر ناحية من القسبة

وهي اليوم بلدة صغيرة عتيقة الطراز، ذات شوارع عريضة تظللها أشجار التوت، ولكنها ساذجة غير مرصوفة، ويحدها البحر من ناحية مع جزء من الجبل، ويحدها المرج الأخضر والجبل أيضاً من الناحية الأخرى، ويبدو الطابع الأندلسي في دروب دانية ومساكنها ذات الطبقين أو الثلاث، وذلك السقوف المستوية والشرفات العربية؛ ولا يرى النخيل كثيراً في دخلها، ولكن يرى في خارجها. والمدينة تشرف على مرج جميل أخضر في شكل نصف دائرة طرفها إلى البحر، ووسطها تحت الصخرة، وطرفها الآخر يحاذي المرج الأخضر، وهو مرج وافر الخصب والخضرة، وبه حدائق البرتقال والكروم وغلات الزيتون.

ولما من الناحية الأثرية فإنه يوجد في دانية الحصن أو القسبة فيما يبدو، وهي تقع كالعادة فوق الربوة الصخرية، التي تشرف على المدينة من الوسط، ويحدها البحر من ورثها، وهي اليوم مجموعة من الخرائب المتفرقة، ومنخلها عقد عربي، يليه قبيل الفناء الأعلى عقد آخر قصير متدرج في الارتفاع، وتطل من شرق على المرج الذي يحاذي المدينة، وفي نهايتها تطل يقال إنه يرجع إلى العصر اليوناني، يليه تطل آخر يسمى "القصر" "Palacio" وهو خرب، وليست به إمارات تكل على أصله العربي. ويبدو هيكل الأبراج المنيع في هذه المجموعة من الخرائب، كما يوجد جزء من الأسوار القديمة المتصلة بها.

وينوه صاحب الروض المعطر بمناعة أسوار دانية، ومناعة قصبته<sup>(١)</sup>.

(١) لروض المعطر (صفة جزيرة الأندلس) ص ٧٦.

وأغلب الظن أن هذه المجموعة من الأطلال، تعين موقع القصة الأندلسية القديمة، وموقع القصر الملاصق لها.

بيد أنه لا يوجد في دائية كنائس قديمة، يمكن أن تعين إحداها موقع المسجد القديم. وأقدم كنائس المدينة ترجع إلى قرنين أو ثلاثة. أما الكندرية القديمة، التي كانت بها، أيام أن كانت دائية مركز أسقفية، فقد دُثرت؛ ويقال إن موقعها كان بجوار الحصن. وليس في دائية لية آثار أخرى، وليس بها متحف.

ولدائية ميناء كبير، ولكنه قليل العميق، ولا تأوي إليه سوى سفن الصيد، والسفن التجارية الصغيرة، التي تتردد بين دائية والجزائر الشرقية، وبينها وبين الثغور المغربية.



## ١٠ - لقنت

### Alicante

إن هذه البساتين المبهنة الطبيعية، التي تمتد من بلنسية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى لقنت، تعتبر من أجمل بقاع إسبانيا الشرقية.

وهي تختلف بين بساتين خضراء وفرة الخصب، تغطيها حقول الأرز وحدائق البرتقال المتواليّة، وغابات النخيل، وتظلّلها الجبال عن بعد، ثم تعقبها هضبات تمتزج فيها البساتين بالتلال وبالقفر أحياناً، وتبدو فيها غابات الزيتون والكروم الضئيلة، وتستمر هذه الطبيعة المتواضعة حتى تصل إلى لقنت.



لقنت. أطلال القسبة السماعة حصن القديسة بريلدة

ولقنت هي مدينة جميلة مشرقة، تقع على خليج مستطيل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، في حمى تل ضخمة يظلّها من الشمال، ويطلق عليه اسم يبدو عربي الأصل هو "Benacontil" (بني قنديل؟)، وهي من أهم شعور إسبانيا الشرقية، لما تتمتع به من مرفأ بحري بديع. وقد شهدنا بها حين زيارتنا لها للمرة الثانية في صيف سنة ١٩٥٤، عدة من سفن الأسطول الأمريكي راسية في مرفئها.

وهي مترامية الرقعة، بيضاوية الشكل، عليها مساحة حديثة محضة، وتشقها شوارع كبيرة فسيحة وميادين فخمة، ويزدان كثير من شوارعها وميادينها، بصفوف من أشجار النخيل؛ وأهم وأجمل شوارعها هو بلا ريب شارعها البحري الكبير، الذي يمتد من أولها إلى آخرها على طول الميناء، ويسمى "شارع النخيل" "Calle de las Palmas"، وهو يزدان فعلاً بصف طويل مزدوج من النخيل القصير، وتقع فيه أهم المصالح والمتاجر والفنادق والمقاهي. وفي المساء يغتو هذا الشارع الجميل متنزه القوم، وتبدو فيه أنوار الكهرباء معقودة بين النخيل، في أوضاع ساحرة.

ويبلغ سكان لقنت نحو مائة ألف وخمسة آلاف نسمة.

وتتمتع لقنت بحركة صناعية وتجارية طيبة، وتصدر المصنوعات القطنية والصوفية. وهي إلى جانب ذلك تعتبر من أجمل المشاتي الإسبانية، ويقصدها كثير من عشاق النفاة من سائر الأنحاء، إذ لا تنقص درجة الحرارة فيها في يناير عن ثمانية عشر أو عشرين. بيد أنها في الصيف يلفحها حر لا يطاق.

ولما من الناحية التاريخية، فإن لقنت ترجع إلى العصر القديم، وقد كشفت بعض حفرياتها الأثرية الأخيرة، عن أثر تدل على أنها ترجع إلى العصر الإيبيري. وكانت أيام الرومان تسمى مدينة "لوكنتم" "Lucentum"، ولما فتحها المسلمون أطلقوا عليها اسم "لقنت"، وهو الذي حرفه الإسبان إلى "Alicante"، واستمرت تحت حكم المسلمين، حتى استردها النصارى في عهد خايمي الفاتح في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)، بعد سقوط بلنسية بعشرة أعوام.

ولا توجد في لقنت آثار أندلسية واضحة. ولكن توجد بعض أطلال القسبة الأندلسية القديمة، بين أطلال حصنها الذي يسمى حصن القديسة بربارة "Santa Barbara"، وتقع أطلال هذا الحصن على الزبوة الصخرية التي تشرف على المدينة من الشمال والمسماة (بني قنديل)، على ارتفاع نحو ثلاثمائة متر فوق سطح البحر؛ وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الألفية والأبراج المتصلة والمتدرجة؛ ويرجع الأثريون إنشاءه إلى العصر اليوناني، إلى نحو سبعة قرون قبل الميلاد؛ وقد جدد المسلمون واتخذوه "قسبة" للمدينة. وكانت قسبة لقنت فيما يبدو من أمنع القصبات الأندلسية، وإليها يشير صاحب الروض المعطار في كلامه عن لقنت بقوله: "ولها قسبة منيعة جداً في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب"<sup>(١)</sup>. والمعروف أن البرجين الرئيسيين في أطلال الحصن، هما من بقايا القسبة الأندلسية.

(١) الروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٧٠.

وليس في لفتت آثار أخرى أندلسية أو غيرها، سوى حصن سان فرناندو وهو حديث الإنشاء. وليست بها كنائس كثيرة؛ لأنها ليست مركزاً لأسقفية. وأقدم كنائسها هي كنيسة سانتا ماريا "Santa Maria" المقول بأنها تقوم فوق



موقع المسجد القديم، وهي تقع على مرتفع من الأرض، وقد بنيت في القرن الرابع عشر على الطراز القوطي، ولها واجهة جميلة، وهي صغيرة ولكن فخمة.

وتحيط بهذه الكنيسة شبكة من الشوارع الضيقة الصاعدة نحو الصخرة ذات الحصن. والظاهر أن هذه المنطقة، وهي الجزء القديم من المدينة، تقوم على أنقاض المدينة الأندلسية القديمة. ويوجد خارج لفتت على البحر، غابات نخيل كثيرة، تمتد نحو كيلو متر على مقربة من الشاطئ، ثم تليها غابات الزيتون وحدائق التين والزمن إلى مدى طويل.

لفتت، واجهة كنيسة سانتا ماريا

## مدينة ألش

### Elche

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن لقنت، أن ننسى ضاحيتها الجميلة "ألش"، وهي أيضاً مدينة أندلسية عريقة.

وتقع ألش في جنوب غربي لقنت، على قيد عشرين كيلو متراً منها، وإليك لتري قبيل ألش وعلى طولها، أروع منظر يمكن تصوره، من شابات النخيل المتجمعة، فإن هذه الغابات الرشيقة الباسقة، تمتد أميالاً في رقاع كثيفة منسقة من النخيل العالي المثمر، الذي يقدر عدده بنحو مائة ألف نخلة، والذي يعتبر ثمره أهم موارد مدينة ألش.

ووجود هذا النخيل في ألش ظاهرة قديمة، يشير إليها ياقوت عند ذكر المدينة، ويقول لنا "وفيها نخيل جيد لا يفلح في غيرها من بلاد الأندلس"<sup>(١)</sup>.

وألش مثل لقنت مدينة قديمة، ترجع إلى العصر الروماني، وكانت أيام المسلمين مركزاً من مراكز العلم في شرق الأندلس، وإليها ينتمي بعض أكبر العلماء.

ويوجد في ألش أثر أندلسي هام، هو البرج المسمى "برج قلهرة"، وهو يقوم فوق باب ألش القديم.

ويوجد كذلك الصرح المسمى "بالقصر" "El Alcázar"، وقد كان قلعة من قلاع سور ألش القديم، فحوله الملوك الإسبان إلى مقام ملكي حصين. والظاهر أنه يرجع قبل تغييره وتجديده على يد الإسبان إلى أصل أندلسي، حسبما قد يدل عليه اسمه العربي المستعمل.

<sup>(١)</sup> معجم البلدان تحت كلمة ألش.

## ١١ - أوريوالة

### Orihuela

تقع مدينة أوريوالة بين ألس ومرسية، على قيد عشرين كيلو متراً من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، في بسيط أخضر يانع تغطيه الحقول والحدائق الغناء، وتبدو فيه أشجار النخيل العالية، وتحميها الجبال من الأمام والخلف، وهي مستطيلة الرقعة يخترقها نهر شقورة من الوسط، وتجمع في طرازها بين مظاهر القديم والحديث، فأحيائها الأمامية ما بين المحطة والنهر، حديثة الطابع ذات شوارع واسعة ظليلة، وأحيائها التي تلي النهر ضيقة قديمة الطراز، وشارعها الكبير الممتد من المحطة إلى وسط المدينة، تظله الأشجار الباسقة من الجانبين، وفي وسطه كورنيش جميل مرصوف، أقيمت على جانبيه أشجار الزينة والمقاصير الجميلة.

ويبلغ سكان أوريوالة زهاء خمسة وثلاثين ألفاً.

ولأوريوالة في تاريخ الأندلس قصة خاصة، فقد كانت قاعدة لمملكة تدمير القوطية، ولما حاصرها المسلمون عقب الفتح بعامين، دافعت عن نفسها ببسالة، واستطاع أميرها نيودمير أن يعقد مع عبد العزيز بن موسى أول ولاية الأندلس صلحاً، يحتفظ فيه باستقلال مدن مملكته النبعة، وفي مقدمتها أوريوالة، نظير دفع جزية معينة.

وكانت أوريوالة بعد انهيار الخلافة الأندلسية، وقيام دول الطوائف تتبع على الأغلب إمارة مرسية. وظلت كذلك حتى سقطت في أيدي النصارى على أثر انهيار الأندلس الشرقية، وسقوط بلنسية ومرسية، وذلك في سنة ١٢٦٢ م، (٦٦١ هـ).

وتقوم أطلال القسبة الأندلسية القديمة، فوق قمة صخرة عالية وعرة تشرف على طرف المدينة الخلفى، وقد صعدنا الصخرة إلى أقرب نقطة ممكنة من القسبة، وهي عبارة عن أطلال، يبنو منها جزء من الواجهة وقواعد لبعض الأبراج، ومن تحتها أسوار قديمة يغلب عليها البلى، ولم يبق لهذه الأطلال الدارسة قيمة أثرية تذكر، اللهم إلا ما تكلي به من تحديد موقع القسبة القديمة، ويوجد فوق الربوة مقابل الحصن دير ومعهد ديني كبير، تسمى من شرفته المدينة من عل في منظر رائع.



والى هذه القصة يشير صاحب الروض المعطر في حديثه عن أوريوالة بقوله: "ولها قصة في نهاية من الامتناع على قمة جبل"<sup>(١)</sup>.

وقد كانت قصة أوريوالة وأسوارها الإسلامية، ما تزال قائمة حتى أواخر القرن الثامن



عشر، حسبما يدل على ذلك قول الغزال حين زيارته لأوريوالة: "وقد أحاط بالمدينة سور من عمل المسلمين رحمهم الله من الجهات الثلاث، ينتهي من طرفه بجبل شاهق عليه قصة للمسلمين أيضاً"<sup>(٢)</sup>.

ومن المعروف أيضاً أن كنيسة أوريوالة العظمى، تقوم فوق موقع المسجد الجامع، وهي كاتدرائية ولاية لقنت؛ لأن أوريوالة مركز الأسقفية. وهذه الكاتدرائية تقع في طرف المدينة الأيمن، وهي صغيرة قوطية الطراز، وليست لها مميزات فنية ذات شأن، وبها معرض للصورة يضم صورة لبلانكث، ويرجع إنشاؤها إلى القرن الرابع عشر.

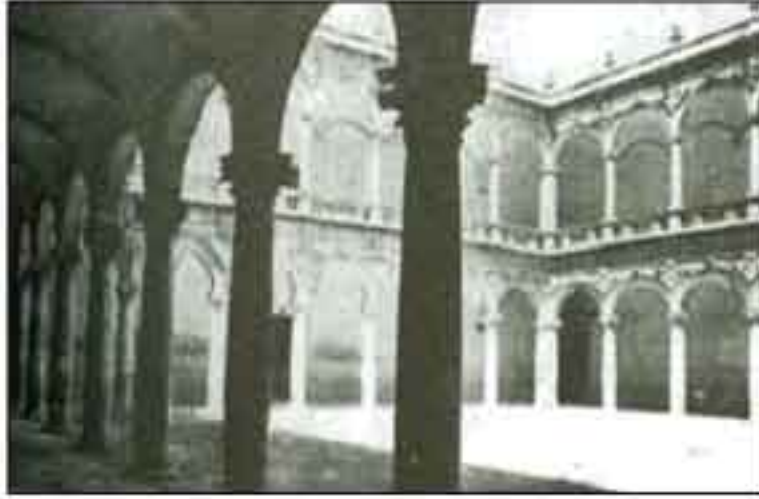
أوريوالة. أطلال القصة الأندلسية فوق الجبل

بيد أن أقدم كنائس أوريوالة هي كنيسة سانتياجو، وهي كنيسة صغيرة جميلة قوطية الطراز، وبها تماثيل وزخارف من طراز عصر الإحياء، وهي تقوم أيضاً على موقع مسجد قديم. وقد كان هذا المسجد قائماً بجوار كنيسة قوطية صغيرة وبينهما جدار فاصل. فلما استولى النصارى على المدينة أمر ألفونسو العاشر ملك قشتالة بإزالة هذا الجدار، وأدخل المسجد في حظيرة الكنيسة. وما زال أثر الفصل القديم يبدو في عدم تناسق عقود هذه الكنيسة التاريخية.

ويوجد أيضاً في أوريوالة دير ومعهد سان دومنجو القديم، وهو معهد ديني وجامعة أدبية. ويمتاز بصرحه القديم الأثري، وهو من الضخامة بحيث يسمونه "الإسكوريال الصغير". ومما يلفت النظر صحنه ذو العقود الأندلسية.

(١) لروض المعطار، ص ٣٤.

(٢) رحلة الغزال، ص ٧٢.



أوريولة. دير معهد سن نومنجو ذو العقود العربية

وما زالت المدينة الأندلسية القديمة، ظاهرة الخطط والأوضاع في أحياء أوريولة، الواقعة فيما بين النهر والزبوة الصخرية، فهناك تكثر الدروب الضيقة الصاعدة نحو الزبوة، بمنازلها المنخفضة العتيقة الطراز. وتتجه هذه الدروب القديمة كلها من ضفة شقورة إلى الداخل، ويمتد النهر على طول هذه الأحياء، ضيق المجرى تطل عليه نوافذ المنازل وشرفاتها، على نحو ما تطل المنازل على الشوارع المائية في مدينة البندقية.

## ١٢ - قرطاجنة

### Cartagena

قرطاجنة من أقدم ثغور إسبانيا الشرقية، أنشأها هزدروبال القائد القرطاجني الشهير، سنة ٢٤٣ قبل الميلاد، وقد لعبت دوراً كبيراً في الحرب البونيقية الشهيرة بين القرطاجنيين والرومان، وذلك لما تخلص به من مناعة موقعها البري والبحري.

وهي تقع جنوبي مرسية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، في نهاية منطقة يغلب عليها القفر، وتقل فيها البساتين وتكثر التلال، وليس فيها من الخضرة إلا غابات الزيتون القليلة.

وتتمتع قرطاجنة بموقع بحري بديع فوق خليج مستطيل، تحجبه الجبال من أمامه، والمدينة من خلفه، وهو مرفأ طبيعي للسفن. ولهذا فإن قرطاجنة هي المركز الرئيسي للأسطول الإسباني، يرسو بها قسم كبير منه، وهي مركز بحري ذو أهمية خاصة، وتضم عددًا من الثكنات والمصانع البحرية الكبيرة، ويعتبر مينائها أهم ميناء إسباني بعد ميناء ثغر فيجو.

وقرطاجنة مدينة أوربية حديثة بكل معاني الكلمة، وهي كبيرة الرقعة ذات شوارع طويلة شاسعة، وميادين ضخمة، وأجمل ميادينها هو ميدان الميناء، وهو ميدان ضخم تتخلله المتنزهات ذات النخيل القصير، وترى منه المرفأ البحري المدهش، والسفن الحربية العديدة التي يأويها، وهو يغفو في المساء منتزه القوم، ويغص بعشرات الألوف من المتنزهين، من مختلف الطبقات والأعمار. ويبلغ سكان قرطاجنة الآن نحو مائة وعشرين ألفاً، وهي من حيث الضخامة والأهمية البحرية والتجارية، تعد بعد بلنسية ثاني ثغور إسبانيا الشرقية "El Levante"، وتقع على مقربة من قرطاجنة مناجم الحديد والرصاص والنحاس الشهيرة، وهي من أعظم مواردها، وفيها يعمل آلاف مع أهلها.

وقد كانت قرطاجنة أيام العصر الإسلامي، تمتاز أيضاً بأهميتها البحرية والتجارية، وكانت ثغر مرسية وما والاها، ومخرج التجارة الأندلسية في هذا الركن من الأندلس، وكانت أيضاً مركزاً من مراكز الجهاد والغزو البحري، تجهز فيها الحملات البحرية المجاهدة، المتجولة في مياه البحر الأبيض الغربية والوسطى، وكانت تسمى "قرطاجنة الخلفاء".

وسقطت قرطاجنة في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٤٣ م (٦٤٠ هـ) في نفس الوقت الذي سقطت فيه مرسية، وكان فاتحها فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس فرناندو، ولكن المسلمين استعادوها وبقيت في أيديهم عصوراً آخر، ثم استردها النصارى نهائياً في سنة ١٢٧٦ م، على يد خليمي الأول ملك أراجون.

\* \* \*

على أن قرطاجنة مع أهميتها البحرية والعسكرية التاريخية، تخلو من المعالم الأثرية



الأندلسية الهامة. ولم يلفت نظرنا فيها سوى الحصن المسمى "بحصن الأندلسيين" "Castillo de los Moros" أو معسكر سبيون، وهو يقع على ربوة عالية في نهاية المدينة من الشمال، وفي مواجهة الجبل الذي يحمي الميناء، وهو عبارة عن محيط من الأسوار القوية في مجموعتين متصلتين مربعيتين، ومن حولهما أنقاض أسوار قديمة، ويسكن في السطح الأسفل للربوة جماعة من العجوز. ولم نلق لهذا الطلل الضخم على تاريخ محقق، ولا يدلى بصلة للعهد الإسلامي وللمسلمين سوى اسمه، وإن كان اسمه الآخر وهو "معسكر سبيون" يدلى بصلة بالعصر الروماني، وسبيون هو القائد الروماني الذي انتصر آخر الأمر على القرطاجنيين.

قرطاجنة. حصن الأندلسيين



قرطاجنة. منظر الميناء تحميها الجبل



قرطاجنة. حصن "لاكسيبيسون"



ويوجد بقرطاجنة حصن آخر يسمى "حصن كنسبسيون" "C. de la Concepción"، وهو يقع على ربوة عالية في منتصف الطريق الضخم، الذي يشقها من الميناء إلى الشمال. أما كنيسة قرطاجنة العظمى أو الكثرائية، فالمعروف من تاريخها أنها ترجع إلى العصر المسيحي، ومن المحقق أنها حولت إلى مسجد عند فتح العرب للمدينة، ثم أعيدت كنيسة عند استرداد النصارى للمدينة. وهذه الكثرائية اليوم هي بناء خرب؛ لأنها أحرقت أيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة، وهي تقع فوق ربوة عالية في أحد الدروب القريبة من الميناء، وهي صغيرة الحجم ولا تدلى أطلالها بأية مزايا فنية. وقد زرنا متحف قرطاجنة الأثري، وهو يحتوي على مجموعة نفيسة من القطع الرومانية، ولكننا لم نعثر فيه على أية قطع أو نقوش أندلسية. وبالرغم من الطابع الأوروبي الحديث الذي يغلب على مظاهر قرطاجنة، فإنها تحتوي على بعض أحياء قديمة الطراز، ذات دروب ضيقة صاعدة، ونعتقد أن المدينة الأندلسية القديمة، كانت تشغل بالأخص موقع الأحياء القريبة من البحر.

الكتاب الثالث

**مملكة غرناطة وما إليها**

## ١ - غرناطة

### Granada

كانت غرناطة "Granada"، ومعناها بالإسبانية "الزمنة" وهي شعارها التاريخي، الذي مازال مثلاً على باب قصبة الحمراء الرئيسي، في شكل ثلاث رموز صخرية كبيرة - كانت آخر القواعد الأندلسية الذهبية، التي توج سقوطها ظفر إسبانيا النهائي، باسترداد أرضها القديمة، والقضاء على دولة الإسلام في الأندلس، وقد سقطت بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكين، فرديناند وإسabella في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ - ٢ يناير سنة ١٤٩٢، وهي نفس السنة التي اكتشف فيها كولومبوس العالم الجديد.

وقد مضى على سقوط غرناطة في يد إسبانيا النصرانية، إلى اليوم أربعة قرون ونصف، ولكنها مازالت بالزعم من تحولها إلى مدينة أوربية حديثة، تحتفظ أكثر من أية قاعدة أندلسية أخرى، ببقية حسنة من خططها ومعالمها وآثارها الأندلسية. وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها كانت آخر القواعد الأندلسية الذهبية، وإلى كون السياسة الإسبانية، رأت أن تبقى على بعض هذه الآثار الأندلسية، لا من أجل قيمتها التاريخية والأثرية فقط، ولكن بالأخص لكي تبقى على مر العصور تذكراً خالداً لظفرها.

ولغرناطة منزلة خاصة في نفوس الإسبان وفي التاريخ الإسباني، فهي إلى كونها خاتمة الفتح المظفرة التي توجت حروب الاسترداد الإسبانية "La Reconquista" تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية، ويعتبر سقوطها في أيدي الإسبان، فاتحة عصر إسبانيا الذهبية. ومن ثم فقد اتخذت غرناطة، مثوى لهدى لفتحها الملكين الكاثوليكين، ونالت حظوة من رعاية ملوك إسبانيا اللاحقين، وفي مقدمتهم الإمبراطور شارلكان، الذي أسس جامعها الشهيرة.

وقد زرت غرناطة ثماني مرات متواليات. وتجولت كثيراً في جنباتها وأحيائها وضواحيها، ووقفت طويلاً أمام صروحها الأندلسية الباقية وأطلالها الدارسة، وصروحها النصرانية، التي حلت مكان صروحها الإسلامية الذهبية. وتقصيت معالمها الأندلسية القديمة، من خلال خططها الحديثة، ووقفت على كثير من طبائع أهلها وتقاليدهم، مما يمت إلى تقاليد شعبها الأندلسي المغلوب بصلات وثيقة. ورأيت بعد هذه الدراسة الشاملة، أن أقدم إلى القارئ صورة واضحة من خططها ومعالمها ومظاهرها الحديثة، وصوراً مما تبقى من معالمها

وآثارها الأندلسية، لكي يستطيع أولئك الذين يشجعهم تاريخ الأندلس، وقصة سقوطها النهائي، أن يستعرضوا أدوار هذه الماسة في جوها الحقيقي، وفي المواطن التي اقترنت بسيرها.

\* \* \*

غرناطة هي اليوم ولاية ومدينة، أما ولاية غرناطة الحديثة، فتشمل مساحة قدرها خمسة آلاف ميل مربع، وتحدها من الشمال ولايات قرطبة وجيان والبسيط، والبحر من الجنوب، ومن الشرق ولايتا ألمرية ومرسية، ومن الغرب ولاية مالقة، وتحترقها وتظللها جبال سيرا نفادا (جبل الثلج)، ويزروها نهر الوادي الكبير، وفرعه نهر شنيل، وكذلك نهر "ريو جراندي" الصغير. وجوها حار ولا سيما في الواديان المنخفضة، وباردة في التلال، وترتبتها خصبة جداً، ولا سيما في الغرب والجنوب، وفي شرقها تمتد سهول واسعة معظمها جرداء، ويبلغ سكان الولاية كلها أكثر من ثمانمائة ألف نسمة. وتضم من المدن عدا غرناطة، بسطة، وأشكر، ووادي آش، وسنتافي (شنتفي)، ولوشة، وحسن اللوز، ومونتي فريو، والحامة، وأجيجر، وأرحة، والمنكب، وشلوبانية، ومتريل.

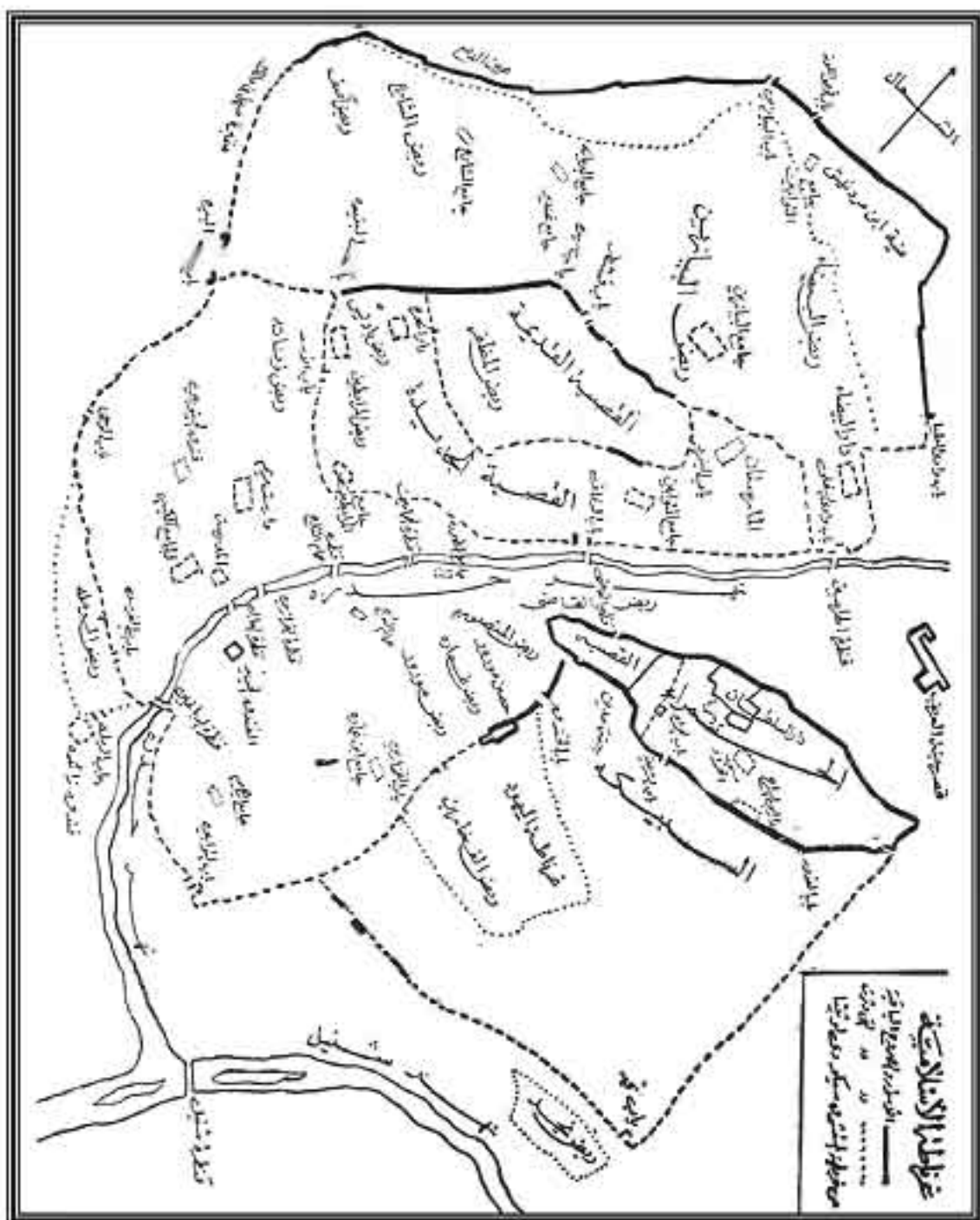
ومدينة غرناطة هي عاصمة الولاية. وهي تقع في واد عميق، يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبال سيرا نفادا، وتظللها الأكام العالية من الشمال والجنوب. ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادي الكبير، وهو ينبع من جبال سيرا نفادا، ويخترق فرعه المسمى نهر حدره المدينة من الوسط. وإلى يمينه يقع حي البيزازين ومعظم المدينة الحديثة، وتقع قصبة الحمراء، في الناحية الأخرى. ثم يلتقي بشنيل في جنوب المدينة. وقد كان شنيل وفرعه حدره أيام المسلمين يفيضان بالماء، ولا سيما في الصيف حين تنوب الثلوج، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تزخر بالحدائق الغناء. أما اليوم فقد جف مجرى شنيل، وأفقرت ضفافه، وقلمما يجري فيه الماء. وأما فرعه حدره، فيخترق المدينة من الشرق، من سفح التل الذي تقع عليه الحمراء، ويتصل بشنيل عند قنطرة شنيل في جنوب المدينة؛ وهو يكاد يختفي اليوم، ولم يبق من مجراه داخل المدينة سوى جزء صغير، تشرف عليه ربي الحمراء، وعلى ضفافه بقايا قناطر وسواقٍ قديمة. وأما جزؤه الذي كان يخترق وسط المدينة، فقد غُطى اليوم، بشارعها الرئيسي الأوسط، المسمى شارع الملكين الكاثوليكين، وامتداده من الميدان الكبير المسمى "Puerta Real" (الباب الملكي) حتى قنطرة شنيل.

وتشمل غرناطة الحديثة ثلاثة أقسام إدارية كبيرة، هي انتكروبيلا، وغرناطة، والبيزازين. ويشمل الأول أحياءها الواقعة في الجنوب الغربي والتي يحيط بها نهر حدره، ويقع حي البيزازين أو ربض البيزازين في شمالها الشرقي، ويليه حي غرناطة في الشمال الغربي.

وقد كانت غرناطة وما زالت إلى اليوم تجمع بين الزراعة والصناعة، وتزرع في مرجها وبساتينها الخضراء، الحبوب والكرام والخضر بوفرة، وبها مصنع كبير للبارود، ومن بين صناعاتها الصلب والحديد، والزنك والزيوت، والدانتلا الجميلة والخمر والسكر. ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الصناعات يرجع إلى أصل موريسكي، ويحتفظ بكثير من أصوله وطرقه القديمة. وقد كانت غرناطة الإسلامية، وهي التي تقوم اليوم على نفس خططها غرناطة الحديثة، تشمل على عدد كبير من الأحياء. فتقع الحمراء دار الملك في جنوبها الشرقي، ويلها بسيط السبيكة، ثم الحي المعروف بغرناطة اليهود، وهو المقول بأنه أصل غرناطة، وربض الفخارين، وربض قمارش، وربض المنصور، وهذه تؤلف نصفها الجنوبي. ولما نصفها الشمالي فكان يشغله ربض البيضاء، وربض البيازين، والقصبة القديمة، وربض المرابطين، وبضعة أرباض أخرى.

أما اليوم فقد اختلفت معظم خطط غرناطة الإسلامية، وقامت على أنقاضها مدينة أوربية حديثة. ولم تبق من منشآتها ومعالمها القديمة سوى بقية يسيرة، تجتمع بالأخص في قسمها الشرقي حيث تربض الحمراء فوق هضبتها العالية. بيد أن السائح المتأمل، يشعر حينما يسرح البصر في جنباتها، أنها تتشح بطابع خاص من التحفظ والنبل، وأن معالمها الأندلسية، تكاد تطالعه من وراء خططها المحدثه، هذا فضلاً عما بقي من أحيائها الأندلسية القديمة، التي ما زالت تحتفظ بدروبها الضيقة، ومنازلها ومشرقياتها الأندلسية.





خريطة غرناطة الإسلامية

وتشمل غرناطة الحديثة عدة شوارع فسيحة، وميادين شاسعة، ويخترقها من قلبها شارعها التجاري الرئيسي المسمى شارع الملكين الكاثوليكين "Calle de los Reyes Católicos"، ويبدأ من الميدان الجديد "Plaza Nueva"، الذي يتفرع منه مرتفع بني عمارة "Cuesta de Gomeres" المفضي إلى مضبة الحمراء، وينتهي من الناحية الأخرى بميدان الباب الملكي "Puerta Real". ومن هذا الميدان يمتد جنوباً طريقان شاسعان متوازيان تفصلهما الحدائق، هما طريق شليل "Carreta del Genil" وطريق حدره "Acera de Darro". وتقع على جانبي شارع الملكين الكاثوليكين أهم أحياء غرناطة، ومنها ميدان باب الرملة "Plaza Bibrambla" لشهر ميادين غرناطة القديمة، والقيسرية القديمة بدروبها الضيقة، ومتاجرها التي مازالت تحمل الطابع الشرقي، والمدرسة الإسلامية القديمة. ويمكن من الميدان الجديد شارع غرناطة القديم على ضفة نهر حدره، إلى حي البيازين، ثم بعد ذلك إلى خارج المدينة حيث يفضي إلى حي "العجر" ثم إلى نير ساكرومونت،

ويخرج من منتصف شارع الملكين الكاثوليكين، شارع كولون الكبير "Gran Via Colón" أفخم وأحدث شوارع غرناطة الحديثة، ثم يتصل بشارع فخم آخر هو شارع سوتيلو "Avenida Sotelo"، الذي ينتهي إلى محطة السكة الحديدية. ويقع على جانبه ميدان مسرح الثيران "Plaza de Toros"، وعلى مقربة منه يقع ميدان باب البيرة "Puerta de Elvira"، وميدان النصر "Paseo del Triunfo".

وتشرف غرناطة من ناحية الجنوب الشرقي، على بسيط خصب، هو المرج الشهير أو الفحص "La Vega"، وقد كان أيام الدولة الإسلامية قطعة من الجنان، تقص بالزروع اليانعة والحدائق الغناء، وكان مرتع النزهة الشائعة أيام الربيع وليالي الصيف. أما اليوم فقد زالت معالمه ومغايه اليانعة، وإنك لتسرح البصر فيه، من مشارف قصر الحمراء العالية، فلا ترى من بسائطه الخضراء سوى القليل، وقد حفت بها أو تخللتها الرقاع الجرداء.

وتشرف على غرناطة من الشمال الغربي جبال سييرا نفادا الشامخة (وبالعربية جبل شُتير أو جبل الثلج)، ويصلها بالمدينة ترام كهربائي، يقطع في شعب الجبال نحو عشرين كيلومتراً، وهي شعب وعرة تظللها قمم عالية. وبها مساقط مياه كبيرة تستخدم لتوليد الكهرباء، وفي سفح الجبال توجد مزارع خضراء؛ وتوجد في بطونها محلات وقرى صغيرة. وتغطي الأشجار الخضراء رقاعاً كثيرة، من المنحدرات الصخرية. ولا تخلو أعماق الجبال رغم وعورتها، من الزروع والكروم والأشجار البرية العالية، وفي أسفلها يسير مجرى شليل نحو منابعه.

ويبلغ سكان مدينة غرناطة اليوم مائة وثلاثين ألف نسمة. وقد كانت أيام الدولة الإسلامية أكبر رقعة، وأوفر عمرانًا وسكانًا، وقد بلغ سكانها في ظل الدولة النصرانية أكثر من مائتي ألف نسمة، منهم كثير من اليهود والقشتاليين والجنوبيين والبنادقة، الذين يشتغلون بالتجارة والأعمال المالية. ولما ضعفت مملكة غرناطة، وأخذت أطرافها تسقط في أيدي الإسبان، وهرع المسلمون إلى العاصمة الإسلامية من كل صوب، زاد سكان غرناطة، حتى غدا في أواخر عهدها الإسلامي زهاء نصف مليون، وكان في مقنورها يومئذ، أن تجهز وحدها للقتال من سكانها نحو مائة ألف مقاتل. ولما سقطت غرناطة في أيدي الإسبان، وغادرها عشرات الألوف من أهلها المسلمين إلى المغرب، كان عدد سكانها نحو مائتي ألف، ثم تضاعف سكانها تبعًا بالهجرة والتشريد، وأقنت سياسة التصدير والاضطهاد المستمر كثيرًا منهم. ثم نفى سكانها المورييسكيون أو العرب المنتصرون بعد ذلك، وأقمرت العاصمة الإسلامية القديمة تبعًا، حتى هبط سكانها في القرن الثامن عشر إلى عشرين ألف نسمة. وفي أوائل القرن التاسع عشر بلغ سكانها نحو خمسين ألفًا، ثم زادوا تبعًا حتى بلغوا في أوائل هذا القرن ثمانين ألفًا، وبلغوا وفق إحصاء سنة ١٩٢٠ مائة ألف وثلاثة آلاف، وهم يبلغون اليوم مائة وثلاثين ألفًا.

وتمتاز غرناطة بكثرة منشآتها العلمية والفنية والاجتماعية. وقد كانت أيام الدولة الإسلامية، أعظم مركز للعلم والعرفان في الغرب الإسلامي. وقد حرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت، مركز العلوم في جنوبي إسبانيا، فأنشئت جامعة غرناطة في سنة ١٥٣١ في عصر الإمبراطور شارلكان، وروعى في إنشائها، أن تغدو مصدر التنقيف العقلي والديني، للشعب الأندلسي المنتصر، وأن يقضى على البقية الباقية، من تراث الأندلس الفكري، وأن تتوطد روح العصر الجديد في ظل السيادة النصرانية، وبارك المشروع البابا كليمنت السابع، وأصدر مرسومًا بإنشاء الجامعة الجديدة، على أن تكون على غرار الجامعات النصرانية العريقة في بولونيا وباريس وشلمنقة. وبدأت جامعة غرناطة بدراسة اللاهوت والفنون والطب والقانون، وسيطر رجال الدين على إدارتها والتكريس فيها، في عصورها الأولى. وأصبحت في عهد فيليب الثاني بهزة عنيفة، من جراء ثورة المورييسكيين، وسادها الركود مدى حين. ولما عاد الهدوء إلى غرناطة، عاد إليها الانتعاش، وتوالت عليها هبات القادرين، وتوطدت أحوالها، واستطاعت منذ أوائل القرن التاسع عشر أن تنهض قدمًا، وأن تتحرر من نفوذ الكنيسة نوعًا، وأن تحرز قسطًا من الاستقلال. وتضم الجامعة اليوم خمس كليات، هي كليات "الفلسفة والأدب" و"العلوم" و"الحقوق" و"الطب" و"الصيدلية". وتقوم في بناء الجامعة القديم الذي أسس أيام شارلكان كليات الحقوق والعلوم،

وإدارة الجامعة، وقسم النشر والمكتبة العامة، وهي مكتبة قيمة تضم عددًا كبيرًا من الكتب، التي ظهرت حتى القرن الثامن عشر. وتقوم كلية الآداب في بناء جديد خاص بها، وكذا كلية الطب. ولكل كلية مكتبة خاصة بها، ويعنى قسم النشر بنشر البحوث والكتب والمجلة الجامعية، وبالجامعة فرع للمجلس الأعلى للبحوث.

ويلحق بكلية الآداب معهدان هامين، هما "معهد تاريخ الملكين الكاثوليكين" "Seminario de Historia de los Reyes Católicos"، وقد أنشئ في سنة ١٩٤٣، للعناية بتدريس هذه الفترة الهامة من تاريخ إسبانيا، ودراسة حياة هذين الملكين، اللذين يعتبران مؤسسي عظمة إسبانيا، وأحداث عصرهما ومؤثراته، دراسة وافية. والثاني هو مدرسة الدراسات العربية بغرناطة "Escuela de Estudios Arabes de Granada"، وتعنى بدراسة الحضارة الإسبانية الإسلامية، واللغة والآداب العربية، وكانت تعنى أيضًا بإعداد الموظفين الإسبان الذين يعملون بالمنطقة الخليفية من مراكش<sup>(١)</sup>. وهي تعمل بالتعاون مع مدرسة "ميجيل آسن" للدراسات العربية بمديرد، ويصدران معًا "مجلة الأندلس" - "Al Andalus"، وتقوم هذه المدرسة في بناء أندلسي قديم بحي البيازين يسمى "Casa del Chapiz"، وعلى مقربة منه منزل آخر، خصص لإقامة الطلبة المغاربة اللذين يتلقون الدراسة بغرناطة.

ويقع بناء الجامعة القديم في وسط غرناطة في الميدان المسمى باسمها، وقد أنشئت إلى جوارها كنيسة جميلة الطراز، على غرار الجامعات الإسبانية، التي تقوم الكنيسة داخلها أو بجوارها. وفي وسط الميدان تمثال حديث الصنع للإمبراطور شارلكن.

وتقوم في غرناطة إلى جانب جامعتها العريقة، مدارس عديدة أولية وثانوية، ومعاهد دينية. وبها أيضًا عدة متاحف هامة، في مقدمتها متحف الحمراء، والمتحف الأثري (الأركيولوجي)، وهما يضمان لوحات وزخارف عربية كثيرة، ونقائر وتحف أندلسية عديدة، ومتحف البلدية، والمتحف المسمى "Casa de los Tiros" وسوف نعود إلى ذكرها، كما أنها تضم مستشفيات ودورًا خيرية عديدة.

<sup>(١)</sup> هي منطقة الحماية الإسبانية سابقًا. وقد اعتزلت إسبانيا باستقلال مراكش ووحدتها الإقليمية منذ إبريل ١٩٥٦، وأصبحت المنطقة الخليفية لسابقة جزءًا لا يتجزأ من المغرب الموحد.

## معالمها وآثارها الأندلسية الباقية

إن حمراء غرناطة هي بلا ريب أعظم الآثار الأندلسية الباقية، وهي مازالت كما كانت منذ عصور، تشرف بأبراجها وقبابها المنيفة من هضبتها العالية، على المدينة الإسلامية القديمة من ركنها الجنوبي الشرقي، فتسبح عليها آيات من الروعة والجلال، وإلى يمين الحمراء، وعلى مقربة منها، يقوم قصر جنة العريف بأروقته الأنيقة وخمائله المزهرة، ونوافيره الفضية الساحرة.

ولن نتحدث هنا عن الحمراء ولا جنة العريف، وقد تحدثنا عن كل منهما فيما بعد، في فصل خاص.

ولنما نتحدث هنا بادئ ذي بدء، عن معالم غرناطة القديمة، التي مازالت رغم أحداث الزمن، تسفر عن طابعها وملامحها الأندلسية الواضحة.

## حي البيازين

ولا ريب أن حي البيازين "Albaiafn"، وهو ما يزال إلى اليوم أكبر أحياء غرناطة، هو أكثر أحيائها احتفاظاً بطابعه الأندلسي، بل لا نبالغ إذا قلنا إن هذا الحي، ما زال محتفظاً بسائر خططه ودروبه الأندلسية الضيقة، لم يطرأ عليها سوى تحول ضئيل.

ويقع حي البيازين في شمال شرقي غرناطة، تجاه هضبة الحمراء، ويفصله عنها نهر حدره، ويمتد صاعدًا على سفح التلال حتى أسوار المدينة القديمة، وشوارعه ضيقة متقاطعة، ومازال كثير من منازلها محتفظاً بطرازه الأندلسي، وقد شاهدنا الكثير من هذه المنازل، وهي تمتاز بأفنياتها الداخلية، ونوافذها العربية المطلة عليها، وشاهدنا بالأخص في بداية أحد الشوارع، حمامًا كبيرًا على الطراز العربي، ما يزال بأعمدته وحناياه وقبابه ذات الكوكب النجمية - في حالة جيدة، كما شاهدنا منزلًا أندلسيًا مازال يحتفظ بنوافذه ونقوشه وزخارفه العربية كاملة، وقد نقشت على مشارفه وحافاته، عبارة (الحمد لله على نعمة الإسلام)، مكررة في سائر مواضعه، وهو اليوم مركز لأحد أقسام البوليس.





غرناطة. باب فحص اللوز داخل حي البيلازين

وفي حي البيلازين ثلاثة من أبواب غرناطة الإسلامية. مازالت قائمة بعقودها العربية. وهي باب البيلازين "Puerta de Albaicín"، ويقع في نهايته في داخل السور القديم، وباب فحص اللوز أو فحص اللوزة "Arco, Puerta de Fajalauza"، وباب الزيادة "Puerta de las Pesas"، وكلاهما ذو عقدين. ويقعان داخل الحي. ويقع الباب الأخير في ميدان أو رحبة باب الزيادة.

وقد حُول المسجدان الكبيران، اللذان كنّا بحى البيلازين أيام المسلمين، إلى كنيسيتين، فبنيت كنيسة سان سالڤادور "San Salvador" على أنقاض المسجد الجامع، ومازالت في مؤخرتها ثمة بقية من أسوار الجمع، وعدة من بوائكه، وجزء من صحنه. وبنيت كنيسة سان خوسى "San Jose" (سنة ١٥٢٥ م) على أنقاض مسجد المرابطيين، وقد كان من أقدم مساجد غرناطة (وكان موقعه بحى القصبة الملاصقة لحي البيلازين)، وتقع الكنيسة في نفس الشارع المسمى باسمها ومازالت منارة المسجد القديم قائمة، وقد حولت إلى برج لأجراس الكنيسة.

وكذلك حُول مسجد ثالث في البيلازين هو مسجد التائبين، إلى كنيسة سميت سان خول دي لوس ريس "San Juan de los Reyes"، وهي مازالت تحتفظ بمنارة الجامع كما كانت، وفقط أضيف إليها برج الأجراس، وهذه المنارة من عصر الموحدين، مربعة الشكل، على طراز منارة المنصور في إشبيلية (لأخيراً) ويصعد إليها بمنحدر متدرج. وأسمت كنيسة سان لويس "San Luis" القديمة، الواقعة على مقربة من باب فحص اللوز، أيضاً على موقع مسجد قديم.

ويمتد حي البيازين على الربوة القائم عليها، شمالاً حتى الأسوار القديمة، وفي نهايته



مما يلي الأسوار. توجد مسالك ودروب ضيقة على المنحدر، يسكنها قوم من العجر، يعيشون في أكواح وكهوف بدائية، تنبعث منها روائح منفرة. وهؤلاء العجر يؤلفون أقلية كبيرة في غرناطة، ويشغلون، فضلاً عن مؤخرة البيازين، معظم أجزاء الطريق الطويل، الممتد من غرناطة إلى نير ساكروموني، ولكن مساكنهم في هذه البقعة أفضل، وظروفهم المعيشية أرقى، ويشغل الكثير منهم بالعزف والرقص، ولهم براعة خاصة في تأدية الرقصة الأندلسية الشهيرة المعروفة بالثامبرا "La Zambra"، وأصلها العربي "الزمر".

غرناطة. بقية من عقود جامع البيازين

وقد كان حي البيازين أيام غرناطة الإسلامية، من أكبر وأهم أحيائها، وكان منزل عدد كبير من الأسر الغنية ذات العصبية، وفيه نشبت الثورة غير مرة ضد سلاطين غرناطة، ومنه بدأ الزحف غير مرة على قصبة الحمراء دار الملك. فلما استولى الإسبان على غرناطة، غادرتها الأسر الشريفة وعلية القوم، وأقفر حي البيازين من كثير من سكانه القدماء، وسكنته الطبقات الدنيا. بيد أنه لبث بعد التنصير، أعظم الأحياء الموريسكية في غرناطة، ولم يفقد تقاليده القديمة في تحريك الجموع، والتمرد على كل ظلم واستبداد. وفيه أضرمت الشرارة الأولى، في ثورة الموريسكيين الجارفة، التي نشبت ضد الإسبان في سنة ١٥٦٧، أيام فيليب الثاني، وكان لها أعظم شأن في تطور السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين، والاتجاه إلى نفيهم النهائي من إسبانيا.

واليوم يغزو حي البيازين منزل الطبقات المتوسطة والمتواضعة، ولكنه مع ذلك مازال محتفظاً بسمعته التاريخية القديمة، ومازال يعتبر من أحياء المدينة الهامة.

## ميدان باب الرملة

ويسمى بالإسبانية "Bibrambla" وقد كان أعظم ميادين غرناطة الإسلامية، وكانت تعقد به الحفلات القومية العامة، ولا سيما حفلات الفروسية. وهو يقع على مقربة من الكاتدرائية وراء شارع الملكين الكاثوليكين، من ناحيته التي تتصل بميدان الباب الملكي. وما يزال إلى اليوم من أكبر ميادين غرناطة، وفي وسطه نافورة كبيرة مزدوجة، في أعلاها تمثال لأحد القديسين، ومن حولها ساحة كبيرة مغطاة بالرخام، وعلى جانبيها المقاهي ومظلات بائعات الزهر وغيره. ويتفرع منه عدة شوارع مازالت تحمل لسماء أندلسية، مثل شارع "Zacatin" (السقاطين) وشارع "Boabdil" (أبى عبد الله)، وعلى مقربة منه شارع الفندق "Alhondiga".

## القيصرية

وفي مواجهة باب الرملة من الجهة الغربية، تقع القيسرية "Alcaicerfa" الشهيرة، وقد كانت سوق غرناطة الممتاز. ومازالت إلى اليوم بدروبها الضيقة، وحوانيتها المتلاصقة، التي تزخر بالبضائع الحريرية، والتحف المعدنية الدقيقة، وغيرها من مختلف السلع المختارة، تحمل نفس طرازها الأندلسي القديم. وقد أحرقت القيسرية الأندلسية القديمة، التي كانت تقوم في نفس الموقع، في سنة ١٨٤٣، ثم أعيد تخطيطها وبنائها، على نفس نظامها القديم تقريباً. وكانت للقيصرية القديمة عدة أبواب كبيرة، تحول دون مرور الخيل والعربات إليها، ثم تغلق لحفظها في المساء، ولم يبق من هذه الأبواب اليوم سوى بابين أو ثلاثة. وتتصل القيسرية بشارع كولون بדרך ضيق، يمر بالكاتدرائية الكبرى والمدرسة القديمة.

## الكنيسة العظمى

وعلى مقربة من ميدان باب الرملة والقيصرية تقع الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى. وقد بنيت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع، وفقاً لسياسة الأحرار الإسبان، التي قضت بأن يحول المسجد الجامع في كل مدينة أندلسية مفتوحة، إلى كنيسة جامعة أو كاتدرائية. وهي كنيسة ضخمة رائعة ذات قبة عظيمة. وقد بنيت تخليداً لذكرى الملكين الكاثوليكين فرديناند وإسبيللا فاتحي غرناطة، وكذا قد أنشأ في هذا الموقع مصلى ملكياً في سنة ١٥٠٥، وهو الذي مازال قائماً بجوارها. وبُديء ببناء الكاتدرائية سنة ١٥٢٩، في عهد الإمبراطور شارل كل. وافتتحت للعبادة سنة ١٥٦١، ولكن لم يتم بنائها إلا في سنة ١٧٠٣. وتحت قبتها مدفن فرديناند وإسبيللا، وهو عبارة عن نافوسين كبيرين من الرخام، تحتهما قبو أودع فيه تابوتا الملكين

الكاثوليكين، الملكة على اليمين والملك على اليسار، وإلى جوارهما من اليمين تابوت ابنتهما يوحنا، وإلى اليسار تابوت لفيليب الجميل.

وفي مواجهة القبر هيكل عظيم به تماثيل صغيرة للرسول، وعلى جانبي الهيكل صور بارزة من صنع القرن السادس عشر، ظهرت في إحداها صور نساء موريسكيات، يرتدين أثوابًا طويلة وقد وضعن الحجاب، والقس يباركهن بالماء المقدس. وظهرت في أخرى صور لموريسكيين يرتدون الملابس العربية، وعلى رؤوسهم شبه العمامة، وتمثل هذان الصورتان مناظر التنصير بالجملة.

وتوجد صورتان أخريان، إحداهما تمثل خروج لبي عبد الله آخر ملوك الأندلس سائرًا ومن ورائه فرسه، ومعه مفاتيح الحمراء، ليسلمها إلى قاهره الملك فرديناند. وظهر في الصورة الأخرى فرديناند وإيسابيلا، ومن ورائهما الفرسان النصاري.

وعند مدخل المدفن، يوجد معرض تاريخي لمخلفات الملكين الكاثوليكين، به صندوق زجاجي يحتوي على تاج إيسابيلا وصولجان الملك وسيفه، وصندوق صغير يحتوي على حلي الملكة وأثراها، ومن ذلك الإنجيل الذي كانت تقرأ فيه. وعرضت لثواب لفرديناند الكاثوليكي، ولثواب أخرى لأكابر الأحرار في هذا العصر، كما عرضت الأعلام التي استعملت في حرب غرناطة الأخيرة، وهي حمراء مزركشة بخطوط عريضة مقصبة.

### المدرسة والخان والمنازل الأندلسية

ومازل موقع مدرسة غرناطة القديمة، قائمًا في الدرب الضيق المحاذي لشارع الملكين الكاثوليكين، تجاه المدفن الملكي. ولكن بناءها القديم أزيل منذ أوائل القرن الثامن عشر، وأقيمت البادية مكانه بناء جديدًا. ولم يبق من البناء القديم، سوى الجناح الذي يحتوي على المحراب. وقد نزع لوحات ونقوش عربية كثيرة من المدرسة، ونقلت إلى مختلف المتاحف. ويحتفظ متحف غرناطة الأركيولوجي بعدد من هذه اللوحات، ومنها عدة قطع رخامية يتكون منها بعض ما جاء في لوحة إنشاء هذه المدرسة، ويجري نصبها كما يلي:

"أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله لاستقامة ونورًا، وأدامها في علوم الدين على الأيام، أمير المسلمين أظله الله بعونه، العلي الشهير الكريم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف بن العلي الكريم الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدس الأرضي أمير المسلمين وناصر الدين لبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر كافي الله في الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتم (ذلك) في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة".



وقد كانت هذه المدرسة أو الجامعة، من مفاخر غرناطة الإسلامية، وقد أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج في سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م)، حسبما جاء في النص المتقدم، وكانت تسمى بالمدرسة النصرية، أو الجامعة النصرية.

ولما الخان أو الفندق فيقع في درب ضيق، شرقي شارع الملكين الكاثوليكين هو "C. Mariana Pineda"، الواقع على مقربة من دار البريد الحالية. وهو عبارة عن بناء عربي قديم ذي باب معقود ضخم، قد نُقِشت في عقده بالكوفية سورة (قل هو الله أحد)، ونُقش على الجائين عبارة "الملك الدائم العز القائم" مكررة. ونُقش في جاني المداخلين "يا تقى يا ألى أنت الرجاء أنت الولي، فيا للنبي المرسل اختم بخير عملي". ومن داخل هذا الباب دهليز، يفضي إلى فناء واسع مربع الشكل، ضلعه نحو ثلاثين مترًا، وبه قاعات عديدة، وفي أعلاه جناح آخر، تتقدمه فوق عقد الباب قاعة ذات مشرفة عربية كبيرة.

وقد اختلف في أصل هذا البناء. والمرجح أنه أنشئ في أواخر عهد الدولة النصرية، ليكون فندقًا أو خانًا، يؤمه التجار الواردون، وكان يسمى يومئذ الفندق الجديد "Alhóndiga Guedida"، ثم استعمل بعد ذلك مخزنًا للفحم، ومن ثم كان اسمه الذي يعرف به اليوم وهو دار الفحم "Casa del Carbón" وكان حتى العهد الحديث ملكًا لبعض الأفراد. ولكني علمت أنه يلحق اليوم بإدارة قصر الحمراء.

وهناك أيضًا بناء أندلسي قديم يقع في شارع "Pavaneras"، ويطلق عليه اسم "Casa de los Tiros" (دار الرماية)، وهو صرح كبير في حالة جيدة من الحفظ، ويبدو من سلمه العريض، ولبهائه الشاسعة الجميلة، أنه كان قصرًا لأحد الكبراء، وهو يستعمل اليوم متحفًا، تعرض به طائفة من الصور التاريخية، ويتخذ مركزًا لمكتب السياحة الحكومي.

هذا وتوجد في غرناطة إلى اليوم في مختلف أحيائها غير حي البيازين، منازل كثيرة تحتفظ بأصلها العربي أو الموريسكي أو ببقية منه. ومنها كثير ما يزال يحتفظ بفنائه الأندلسي، ومشرفياته العربية، وقد رأينا الكثير منها. وما زال الطراز الأندلسي والموريسكي، يبدو في كثير من أحياء غرناطة المحدثنة، وبنوع أخص في أحيائها القديمة، الواقعة في جنوبها الشرقي، ما بين الحمراء وحدائق طريق شنيل.





غرناطة، واجهة المعصلي الملكي



غرناطة، واجهة الكنيسة العظمى



ضريح فرديناند وإسabella داخل الكنيسة العظمى

## الأبواب والأسوار

كان لغرناطة الإسلامية عشرون باباً، لم يبق منها اليوم سوى القليل، وقد أشرنا إلى أبوابها الثلاثة، التي مازالت قائمة في حي البيازين، وهي باب البيازين وباب فحصى اللوز وباب الزيادة. وتوجد ثمة بضعة أبواب أخرى ما تزال في حالة جيدة، أهمها باب البيرة "Puerto de Elvira" الواقع في شمال غربي المدينة، وهو يقع اليوم على مقربة من ساحة الثيران، وقد بقي هيكله كاملاً على ارتفاع نحو اثني عشر متراً، وإلى جانبه بقية من السور القديم، وفي أعلاه مشارف عربية، وليست عليه أية نقوش أو كتابة. ومنه يبدأ شارع البيرة، الذي مازال يحمل اسمه العربي "C. de Elvira".



غرناطة. باب البيرة

ويسير بحذاء شارع كولون الكبير حتى يصل إلى الميدان الجديد "P. Nueva". ثم باب البنييدة، وهو يقع على مقربة من باب البيرة وفي شرقيّه، ثم باب سيده، وهو شرقي باب البنييدة، وكلها تقع على خط الأسوار الشمالية القديمة. وهذا عدا أبواب قصبة الحمراء، وهي عدة، وقد ذكرناها في موضعها.

ولما أسوار غرناطة الإسلامية، فقد بقيت منها أجزاء كبيرة، وبالأخص في الجهة الشمالية الغربية حيث تمتد نحو كيلو متر، وتتقطع قبل باب البيرة بقليل؛ وكذلك بقيت أجزاء كبيرة من الأسوار الشرقية، وهي تَرى على مد البصر من أعلى ربوة الحمراء. وقد طغنا بهذه الأسوار، وهي متينة كثيفة، وهي صفان؛ داخلية وخارجية. وتدل بقاياها على متانة التحصينات الغرناطية القديمة.

## قصر شنيل

ومن الآثار الأندلسية الباقية بمدينة غرناطة، بقية الصرح المسمى "قصر شنيل" "Alcázar Genil"، وهو يقع خارج المدينة على الضفة اليسرى من نهر شنيل، في بقعة خضراء منعزلة تسمى ضاحية "أرميليا" "Armilla"، أو حدائق الملكة. وهو بناء أو بالحري بقية بناء ذي باب عربي معقود، على رأسه رقعة نُقش عليها "ولا غالب إلا الله"، ونُقش في عقد المنخل ما يأتي:

يا نُقْتي يا أُملي أنت الرجاء أنت الولي  
فيا للنبى المرسلى لختم بخير عملي

ويُفضى هذا المنخل إلى بهو مربع، به أربعة عقود جميلة، في كل جانب عقدان، وله قبة عالية مزينة بالمقرنصات، على مثل زخارف قبة بهو بنى سراج بقصر الحمراء، ويبلغ ارتفاع القبة نحو اثني عشر مترًا. وقد نُقشت على جوانب البهو العبارة الآتية في رقاع عدة "عز لمولانا السلطان" مكررة حول المربع، ونُقشت كذلك في الحزام الأعلى، ونُقش في الحزام الذي يليه هذه العبارة مكررة "الحمد لله على نعمة الإسلام"، كما نُقشت هذه العبارة في جوانب العقود الأربعة، ونُقش في الحزام الأخير حول المربع "ولا غالب إلا الله" مكررة كذلك. ونُقش في دوائر مختلفة هذه العبارات "من حسن كلامه وعز إكرامه" "عز لمولانا السلطان" "الملك العادل المرابط".

وتتسم واجهة هذا الأثر وبهوه، بطابع مؤثر من الجمال والنبيل، مما يدل على أنه كان صرحًا ملوكيًا ذا شأن. والحقيقة أنه بقية من قصر شنيل الذي أنشأه الأمير الموحيدي السيد إسحق بن الخليفة أبي يعقوب يوسف في سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) خارج غرناطة، على مقربة من نهر شنيل، حسبما يروي لنا صاحب كتاب "الحلل الموشية"، وحسبما جاء أيضًا في كتاب "الإحاطة" لابن الخطيب<sup>(١)</sup>، وقد كان يسمى عندئذ "قصر السيد". وقد غلب عليه هذا الاسم أيام مملكة غرناطة، وكان يستعمله ملوك بني نصر قصرًا للضيافة. وفيه أقام "الإفئنت" فيليب أخو الملك ألفونسو العاشر، حينما ثار عليه، والتجأ مع نفر من الفرسان النصراني، إلى سلطان غرناطة، محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه، وذلك في سنة ١٢٧٠ م.

ولما قنطرة شنيل فتقع على نهر شنيل عند ملتقاء بفرعه حدره في نهاية الشارع الكبير المسمى طريق حدره Acera de Darro، وهي من أشهر القناطر الأندلسية، وقد بنيت فوق خمسة عقود على مثل القناطر الرومانية، وبقيت على أصلها الأندلسي، حتى أضرب بها الفيضان العرم في أوائل القرن السابع عشر، فجدها الإسبان، ولكن على طرازها الأصلي. وما زالت إلى اليوم تحمل اسمها الأندلسي القديم "قنطرة شنيل" "Puente de Genil".

(١) "الحلل الموشية في الأخبار المراكشية" وهو لمؤلف مجهول (طبع تونس) ص ١٢٦. وراجع كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" (لقاهرة ١٩٥٦) ص ١٢٥ و ٣٢٤ و ٥٦١ حيث يجري ذكر هذا القصر.





عقود قصر شنييل



غرناطة. واجهة قصر شنييل



غرناطة. فناء منزل أندلسي قديم



غرناطة. عقد مدخل الفندق أو فناء الفحم

## متاحف الآثار والصور

وتوجد في غرناطة عدة متاحف أثرية هامة، في مقدمتها متحف الحمراء، وهو قائم في عدة أبناء علوية، واقعة عند مدخل قصر الحمراء، في مواجهة قصر شاركان، ويحتوي على طائفة كبيرة من القطع واللوحات الأثرية، معظمها من مخلفات قصر الحمراء، وبعضها من مخلفات قصر جنة العريف، وقد شاهدنا من بينها الأشياء الآتية:

١- لوحة رخامية كبيرة، في حجم باب متوسط، نصفها الأعلى بيضاوي، ونصفها الأسفل مستطيل، وقد سجل فيها إنشاء المارستان (المستشفى) النصرى، على يد السلطان الغنى بالله، وهذا نصها:

"الحمد لله، أمر ببناء هذا المارستان، رحمة وسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقربة نافعة إن شاء الله لرب العالمين، وخذ حسنة ناطقة باللسان المبين، وأجرى صدقته على مر الأعوام وتوالي السنين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، المولى الإمام، السلطان الهمام، الكبير الشهير، الطاهر الظاهر، أسعد قومه دولة، وأمضاهم في سبيل الله صولة، صاحب الفتوح، والصنع الممنوح، والصدر المشروح، المؤيد بالملائكة والروح، ناصر السنة، كهف الملة، أمير المسلمين الغنى بالله، أبو عبد الله محمد ابن المولى الكبير الشهير، السلطان الجليل، الرفيع المجاهد العادل الحافل، السعيد الشهيد المقدس، أمير المسلمين أبي الحجاج ابن المولى السلطان الجليل الشهير الكبير، المعظم المنصور، هازم المشركين، وقامع الكفرة المعتدين، السعيد الشهيد أبي الوليد بن نصر الأنصاري الخزرجي، أنجح الله في مرضاته أعماله، وبلغه من فضله العميم، وثوابه الجسيم آماله، فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام، واختص بها طراز فخر على عائق حلة الجهاد، وقصد وجه الله بابتغاء الأجر، والله ذو الفضل العظيم، وقدم نوراً يسعى بين يديه ومن خلفه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وكان ابتداء بنائه في العشر الوسط من شهر المحرم، من عام سبعة وستين وسبعمائة، وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه، في العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعمائة، والله لا يضيع أجر العاملين، ولا يخيب سعي المحسنين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وآله وأصحابه أجمعين".

والمعروف من تاريخ هذا المارستان، أنه كان قائماً على الضفة اليمنى لنهر حدره، وقد هدم في القرن الماضي فقط، وعملت له قبل هدمه رسوم وخطط ولوحات كاملة<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> راجع مقالاً عن هذا المارستان وتاريخه في مجلة الأندلس: Al - Andalus (1943), p. 482.



- ٢- لوحتين كبيرتين من المرمر، طول كل منها نحو مترين وعرضها ٦٠ سنتيمتراً، وقد نقشت على حافتها زخارف عربية بديعة، وشعر بني نصر "ولا غالب إلا الله".
  - ٣- صحن لفورة كبيرة، وبه بقية من شطاء مرمرى أخضر، يبلغ قطره نحو متر ونصف.
  - ٤- خمس لوحات خشبية مستطيلة، أصلها من مخلفات فناء الأسود، وعليها زخارف عربية بديعة، منها ثلاث في حجم ١,٣٠ × ٠,٣٥ متراً، واثنان في حجم ١,٦٠ × ٠,٥٠ متراً، وقد سقطت من حافة البهو الخشبية.
  - ٥- لوحة خشبية من قصر جنة العريف، وعليها نقوش وزخارف بديعة، وعبارة "ولا غالب إلا الله".
  - ٦- لوحة خشبية مذهبة أخذت من قصر جنة العريف، وتتسب لأسرة (بنيفش) Los Venegas، الذين تتصروا عقب سقوط غرناطة، وعليها خمس رموزات هي شعر غرناطة النصرانية، وشعر بنيغش، وقد نقش فوقها هذه العبارة اللاتينية Cris Viacit، ومعناها "المسيح هو الغالب"، وقد أريد بها على ما يظهر، أن تعارض شعر بني نصر "ولا غالب إلا الله"، وفوقها باللاتينية Servire Dio Regnares، ومعناها "خدمة الله هي الكفاح". وهي لوحة ذات مغزى عميق.
  - ٧- جرة (زلة) كبيرة زرقاء من الخزف الفاخر، عليها نقوش رائعة وآيات قرآنية، وتعتبر من أروع نماذج هذه الصناعة الخزفية، التي امتازت بها الأندلس المسلمة. وطائفة كبيرة أخرى من اللوحات والزخارف، ومن قطع الفسيفساء الملون (المزايك)، ومعظمها من صنع موريسكي.
- وأما المتحف الأثري (الأركيولوجي)، فيقع في واجهة حي البيازين، على طريق ساكرومونت، في منزل قديم هو منزل آل ثفرا Zafra الذين كان عميدهم فرناندو دي ثفرا سكرتيراً للملكين الكاثوليكين، واشترك في وضع معاهدة التسليم.
- وهو يحتوي على طائفة كبيرة من اللوحات الخشبية والزخامية والأقواس، وقطع عديدة من أبواب وشبابيك عربية، ومنها عدة لوحات زخامية من مدرسة غرناطة من بينها بضع قطع من لوحة إنشائها على يد السلطان يوسف أبي الحجاج، وفيها أن إنشائها قد تم في المحرم سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م)، وباقيها آيات قرآنية. كما توجد قطع زخرفية عديدة تمثل نماذج الزخارف الإسلامية في غرناطة، وغيرها من مدن الأندلس، في عصرها الأخير<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> وقد نشر الأستاذ ليفي بروكسال في كتابه Inscriptions Arabes d'Espagne صور كثير من اللوحات الموجودة في هذين المتاحف.

وإلى جانب هذين المتحفين الهامين، يوجد متحف ثالث للصور، هو القلّام في الدار المعروفة باسم Casa de los Tiros "دار الرماية"، وهي دار أندلسية قديمة، واقعة في شارع Pavaneras، وتحتوي على عدة أبهاء عرضت بها طائفة من الصور، من بينها عدد من الصور التاريخية، التي كانت تحفظ من قبل بمتحف جنة العريف. وكان قصر جنة العريف، على مثل قصر الحمراء، يضم متحفاً في الطابق الأعلى منه، في الجناح المعروف بجناح الملكية إيسابيلا، ويحتوي هذا المتحف على مجموعة تاريخية من الصور، منها صورتان للملكين الكاثوليكين، وصورتان لأبي عبد الله آخر ملوك الأندلس كلاًهما لمصور مجهول، وإحدهما توجد بالمتحف منذ عهد بعيد، ويشك في أنها صورته، ويقال إنها صورة للمتوكل ابن هود، والأخرى أهديت إلى المتحف، من أسرة "فرنانديث جيرار" الغرناطية، وقد كانت تحتفظ بها من أجيال، وسيف أبي عبد الله، وصورة يحيى النيار بطل المرية، وشجرة نسب لملوك سرقسطة وغرناطة، وصور آل بنيغش الذين عاشوا حيناً في القصر، وكان قصر جنة العريف ومحتوياته، ملكاً خاصاً لأسرة إسبانية إيطالية هي أسرة Durazzo Pellivinci ففي سنة ١٩٢١ تفتت هذه الأسرة مع السلطات المسؤولة، على تسليم القصر إلى الحكومة الإسبانية، واحتفظت بمعظم محتويات المتحف المذكور من ثلاث وصور، ونقلتها إلى إيطاليا، وكان منها فيما يظهر صورة أبي عبد الله، وعلى أية حال فإنه لا يوجد اليوم في متحف دار



متحف الحمراء، زلعة خزفية رائعة الزخرف

الرماية" بغرناطة، من محتويات جنة العريف السابقة، سوى صورتَي الملكين الكاثوليكين، وصورة أبي عبد الله المهداة من أسرة "فرنانديث جيرار" وهي صورة حجمها ٤٠ × ٢٧ سنتيمتراً، وفيها صورة نصفية لأبي عبد الله، ويبدو فيها وعلى رأسه تاج، وفي عنقه سلسلة، هي عنوان أسرته؛ لأنها صورت أثناء أن كان في أسر الملكين الكاثوليكين بقرطبة بين سنتي ١٤٨٣ - ١٤٨٥ م<sup>(١)</sup>، وصورة لسيد أسرة بنيغش الأندلسية المنتصرة Los Venegas المسمى سيدي يحيى، أو الدوق بيدور دي جرانادا فنيجاس، وهي كبيرة الحجم، وفيها يبدو بملابس عسكرية قشتالية مزركشة، وتبدو على محياه مسحة المسلمين، وقد أمسك سيفه بيده.

<sup>(١)</sup> نشرنا صورتَي أبي عبد الله الأولى في فاتحة الكتاب، والثانية في مجموعة الحمراء بعد ص ٢٠٨.

وأخيراً يوجد متحف للبلدية، عرضت فيه بعض الصور، ومنها صورة كبيرة حديثة للمصور Paradillo (سنة ١٨٨٢)، عُرض فيها منظر خيالي لتسليم غرناطة، وفيه يبدو أبو عبد الله ركباً جواده، ومن ورائه بعض جند معتمين، وقد ارتدى عباءة سوداء، وأمسك بيده مفتاح المدينة. وأمامه في الناحية الأخرى الملك فرديناند ركباً جواده، وإلى جانبه الملكة إيسابيلا فوق جوادها. تحف بهما طائفة من السادة والجند النصاري. وعناية السلطات في غرناطة بأمر المتاحف، ترجع إلى نفس الفكرة التاريخية، وهي الحرص على جمع سائر الآثار والتحف، التي تتعلق بعصر الفتح والاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الأندلسية.

### وصف الغزال لغرناطة

وقد ترك لنا الغزال الفاسي، الذي زار إسبانيا في سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) سفيراً من قبل سلطان المغرب المنصور بالله أبي عبد الله، إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، وتجول في قواعد الأندلس الداهية - وصفاً لمدينة غرناطة وآثارها، يقول فيه: إنها تقع على مقربة من واد منبسط فيه أجنة من الزيتون والكروم وجميع الفاكهة، وبساتين عظيمة، مما يدل على أن مرج غرناطة، كان ما يزال حتى ذلك العصر محتفظاً بخصبه ونضرتة، ثم يقول، إنه رآها تخالف سائر المدن الإسبانية التي زارها في بنين دورها وشوارعها، وأنها مازالت على حالها التي كانت عليه في الإسلام، وهي أقرب المدن شبهاً بفاس، في بنائها وجريان الأودية بجدرانها، ثم القناطر المضروبة عليها، وما اشتملت عليه الديار من الخصاص والتزييج والدرابيز من اللوح المستكيرة بمباحات الطبقة الثائية، المشرفة على صحن الدار، والبيوت والغرف والسقوف والأبواب، كل ذلك مشاكل لمدينة فاس.

ثم يذكر لنا الغزال أنه توجد بغرناطة عدة مساجد صارت كنائس، ولها قباب، وفي صحنونها أنشئت المصليات النصرانية، ويفيض في وصف "الجامع" الذي به مقابر ملوكهم، ووصف قبته العظمى، وما بها من تصاوير وصلبان (وهو يقصد بلا ريب الكنزاثية أو الكنيسة العظمى التي بها قبر فرديناند وإيسابيلا)، بيد أنه يقول لنا إنه رأى بالمدينة في نفس الوقت، بعض المساجد التي بقيت على بنائها الإسلامي.

ويصف الغزال بعد ذلك وادي شنيل، وما يحتويه من الحدائق والمنتزهات والمقاعد الكبيرة، وما يمتاز به من كونه منتزه أهل غرناطة، ومسرح لسمارهم في الليالي الصافية<sup>(١)</sup>. ويبدو من أوصاف الغزال، أن غرناطة كانت ما تزال حتى أواخر القرن الثامن عشر، تحتفظ بكثير من خططها ومظاهرها الأندلسية. والواقع أن معظم التغييرات والإصلاحات الحديثة، التي طرأت على خططها ومعالمها، قد وقعت منذ أوائل القرن التاسع عشر، أي بعد العصر الذي يتحدث عنه الغزال بنحو نصف قرن.

<sup>(١)</sup> رحلة الغزال لسالفة لنذكر ص ٨١ - ٨٣.

## قصر الحمراء

### Alhambra

إن أول ما تضطرم به مخيلتك، حينما تصل إلى مدينة غرناطة، هو أن ترى درة الأثر الأندلسية الفريدة - قصر الحمراء، وهو الذي حرف الإسبان اسمه، فأصبح يعرف في العالم الغربي باسم Alhambra.

وقصر الحمراء لا يرى من داخل المدينة لأول وهلة، ولكنك تستطيع متى جئت إلى الميدان الجديد Plaza Nueva، وسرت في طريق نهر "حدره" Carrera de Darro، أن ترى إلى يمينك أبراج الحمراء مشرفة من هضبتها العالية، على مجرى النهر القديم الذي غطى معظمه الآن.

ومن الميدان الجديد، يسير المرء في طريق صاعدة تسمى "مرتفع بني شمارة" C. de Gomeres، حتى باب القصة الأول المسمى "باب الرمان" Puerta de Granadas، ومنه تدخل هضبة الحمراء.

وباب الرمان ليس من أبواب الحمراء الأندلسية، ولكن بُني في عهد الإمبراطور شارلكان على طراز عصر الإحياء. وهو عبارة عن عقد حجري ضخيم، يقوم طرفاه على عمودين كبيرين، وقد نصبت في أعلاه ثلاث رموزات على هيئة مثلث. وكان يسمى في البداية "باب بني شمارة"، ولكن سُمي فيما بعد باسمه الحالي وهو "باب الرمان"، وهو شعار غرناطة المشتق من اسمها.

وتبدو من وراء باب الرمان شابة رائعة، تسحرك بالتجارها الباسقة، وخريز الماء المتدفق في جوتبها، وشدة البلبلة التي تملأ أعصابها. وتتفصح أمامك ثلاثة طرق عريضة، يفضى أولها وهو الأيمن إلى "الأبراج الحمراء"، والأوسط إلى قصر "جنة العريف"، والثالث وهو الأيسر يفضى إلى "باب الشريعة" أول أبواب الحمراء.

والطريق المفضى إلى باب الشريعة، طريق صاعد مجهد، صفت على جانبيه المقاعد الحجرية، وقد أنشئ في ناحيته اليسرى قبيل الباب بقليل، حوض مستطيل مزخرف نقشت فوقه صور لبعض الأساطير اليونانية، وهو يرجع إلى عصر الإمبراطور شارلكان.





غرناطة. باب الرمان مدخل الحمراء الرئيسي



الحمراء. ميدان باب الشريعة عند نهاية الطريق الصاعد



ويجب أن نذكر أولاً، أن هذه الغلبة الفخمة، وطرقها العريضة الرائعة هي من عمل الإسبان، ولم تكن موجودة أيام المسلمين، بل كانت هذه الرقعة الشاسعة التي تشغلها الآن، أرضاً براراً في أسفل الحمراء، كانت تسمى في ذلك العصر "بالسيكة"، وهو اسم يتردد كثيراً في أخبار مملكة غرناطة، ولا سيما في عصرها الأخير.

وفي منتصف هذا الطريق الصاعد، يوجد ميدان صغير يطل عليه "باب الشريعة"، وهو أشهر أبواب الحمراء، وهو اليوم منخلها الرئيسي. وقد كان هذا الباب كما يدل عليه اسمه مجازاً لذوي المظالم، وفي الساحة التي تليه يجلس السلطان أو نائبه للفصل في المظالم في يوم معين، جرياً على تقاليد خلفاء الأندلس وملوكها السابقين.

ويبلغ ارتفاع باب الشريعة نحو خمسة عشر متراً، وقد صنع عقده المزخرف على مثل حدود الجواد، ونقش على قوسه سطران، كتب فيهما بخط أندلسي متشابك، اسم منشئه وتاريخ إنشائه على النحو الآتي:

"أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة، بعد الله به شريعة الإسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافي الله في الإسلام صناعته الزاكية وتقبل أعماله الجهادية، فتمسك ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمل الصالحة الباقية".

ويوافق هذا التاريخ "٧٤٩ هـ" سنة ١٣٤٨ م، والسلطان يوسف أبو الحجاج المشار إليه، هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة، وقد حكم من سنة ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م، وهو الذي شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء.

ووراء باب الشريعة مجز معقود، به في الناحية اليمنى محراب وضع فيه تمثال للعدراء، وفي نهايته مصلى أقيم به هيكل، وقد صنعت به لوحة رخامية تشير فيها إلى حصار غرناطة، وتسليمها للملكين الكاثوليكين في ٢ يناير سنة ١٤٩٢.



الحمراء. باب الشراب



الحمراء. باب الشريعة



الحمراء. برج الحراسة أعظم أبراج القصبة

ويلى ذلك درب صغير يتجه غرباً، وقد أقيمت على جانبيه الأيمن بضعة حوانيت لبيع الصور والتحف الغرناطية. ثم يتجه شمالاً، وفي نهايته من الناحية اليسرى، يوجد باب معقود أطلق عليه اسم "باب النبيذ" أو باب "الثرب" Puerta del Vino، وكان أيام المسلمين يسمى باب غرناطة أو باب الحمراء، ولذا نعرف سبب تسميته بهذا الاسم.

وفي شمل هذا الدرب الصاعد، يطالعك ميدان شاسع أطلق عليه الإسبان اسم "ميدان الأجباب" Plaza de los Aljibes. ومنه ترى لأول مرة أهم مجموعة من الصروح والأماكن الأثرية التي تضمها قصبة الحمراء.

فإلى يمينك ترى القصر الذي أنشأه الإمبراطور شارلكان، في جنوب قصر الحمراء، وإلى يسارك ترى الساحة التي يطلق عليها اسم "القصبة" أو الحصن، وفي نهايتها البرج الضخم الذي يسمى "برج الحراسة" Torre de la Vela، وهو من أعظم أبراج الحمراء، وهو يشرف عاليًا على مرج غرناطة كله. وهذا البرج هو الذي اختاره الإسبان عند دخولهم لرفع الصليب، وما يزال هذا الصليب الذي وضع في أعلاه يوم دخول الإسبان غرناطة قائمًا في مكانه، وهو صليب خشبي كبير وضع في الزاوية الشمالية.

وأمامك ترى جانبًا من قصر الحمراء، وهو الذي يسميه الإسبان "القصر العربي" Palacio Arabe.

\* \* \*

أجل هذا هو قصر الحمراء.

هذا هو قبلة الرواد من سائر أنحاء الأرض، وهذا هو خاتمة المطاف لرواد إسبانيا ورواد الأندلس.

أجل هنا كانت ثمة مملكة، وكان ثمة ملك وعرش. وبين جدران هذا القصر، كان يقم سلاطين مملكة غرناطة الإسلامية آخر الممالك الأندلسية، وهنا كان رجال هذه الأندلس الأخيرة، يواجهون مصائر شعب عظيم مسلم. أجل كانت الحمراء معقل مملكة إسلامية عظيمة، استمر تاريخها بدوي في الأفق، زهاء مائتي عام، وعنوان مدنية إسلامية زاهرة، تركت آثارها الخالدة في الربوع التي تألفت فيها، ثم كانت الحمراء بعد ذلك قبرًا لهذه المملكة وهذه المدنية. وفي بعض لبهاء الحمراء وقع أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس ووزراؤه، معاهدة تسليم غرناطة والحمراء، وحكموا بذلك على دولتهم بالمحو، وعلى أمتهم بالغناء.

وبين هذه الجدران الصامتة، التي يكاد الأسى يرسم على زخارفها العربية، ونقوشها الإسلامية، يضطرم الخيال بهذه الفكر وأمثالها، بل يكاد الذمغ يغالبك ولنت تجوس خلال هذه

الأبهاء الملوكية الفخمة، وتقرأ في كل ركن منها تلك العبارة الموسية، التي لبثت شعار بني نصر ملوك غرناطة حتى انتهاء دولتهم:

"ولا غالب إلا الله"

ولا بد لنا قبل أن نجوز إلى داخل هذا القصر الملكي، الذي يضم تاريخ مملكة بأسرها، أن نقول كلمة عن تاريخه.

إن قصر الحمراء لم يكن سوى جزء صغير فقط، من مدينة الحمراء أو كما تسميها الرواية الإسلامية "قصة الحمراء". وكانت القصة تشمل عادة قصر الحاكم والقلعة أو القلاع التي تحميها، ودور الوزراء والحاشية، وأحياناً تنمو هذه المجموعة حتى تغدو قاعدة ملوكية محصنة. وكان هذا شأن الزهراء، التي أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر، في أواسط القرن الرابع الهجري، وكذا كان شأن مدينة الزاهرة، التي أنشأها المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور) عقب إنشاء الزهراء في سنة ٣٦٨ هـ. وعلى هذا المنوال نشأت الحمراء، ونمت وتطورت، حتى أصبحت مدينة ملوكية حقة.

ويرجع قيام الحمراء إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). فإن الرواية الأندلسية تشير إلى قلعة تسمى قلعة الحمراء، بنيت فوق الهضبة الواقعة على ضفة نهر حذرة اليسرى، وكان لها شأن أيام الحروب الأهلية، التي اضطرت في منطقة غرناطة، بين العرب والبربر والمولدين في هذا العصر. ولما تولى باديس بن حبوس زعيم البربر حكم غرناطة، على إثر قيام دول الطوائف في أوائل القرن الخامس، أنشأ سوراً منيعاً حول الهضبة التي تقع عليها قلعة الحمراء، وأنشأ داخله قصراً ومركزاً لحكومته، وسميت بالقصة الحمراء، وغدت هذه القلعة معقل غرناطة الرئيسي.

ولما غلب محمد بن الأحمر النصري على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) اتخذ مركزه في "القصة"، وأنشأ داخل أسوارها قصره المحصن الذي أطلق عليه اسم الحمراء القديم، واتخذة قاعدة للملك، وجلب إليه الماء من نهر حذرة، وأنشأ حوله عدة أبراج منيعة، منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة T. de la Vela الذي سبقت الإشارة إليه، وبنيت حوله سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة. ومن المرجح أنه بنى مسكنه الخاص في الجنوب الغربي من الحصن، أعني في نفس المكان الذي يقوم عليه اليوم قصر الإمبراطور شارلكن، وسميت القصة الجديدة "بالحمراء"، جرياً على اسمها القديم، الذي هو أصل التسمية. ومن الخطأ أن يقال إن إطلاق اسم "الحمراء" عليها، يرجع إلى اسم منشئها "ابن الأحمر" أو أنه يرجع إلى لون الحجر الأحمر الذي بنيت به الأسوار الخارجية؛ ذلك لأنه ثبت أن هذا اللون الأحمر الذي تبدو به الأسوار، يرجع إلى العصر الحديث، وأنه من صنع الإسبان.



وفي أواخر القرن السابع الهجري، أنشأ محمد بن محمد بن الأحمر ثلثي سلاطين غرناطة، الملقب بالغالب بالله، الحصن الجديد والقصر الملكي، وأنشأ ولده محمد إلى جوار القصر مسجدًا، هو الذي تحتل موقعه اليوم كنيسة "سانتا ماريا". ثم جاء السلطان أبو الوليد إسماعيل، فزاد في القصر وفي تجميله. بيد أن الحمراء تدين بفخامتها وروعيتها بالأخص إلى ولده السلطان يوسف أبي الحجاج، المالك الشاعر والفنان الموهوب، فهو الذي بنى معظم الأجنحة والأبهاء الملوكية. التي مازالت تسبغ على الحمراء روعتها الخالدة، وهو الذي أهدى عليها روائع الفن والزخرف، وبنى باب الشريعة الشاهق الذي سبقت الإشارة إليه.

وتقع مدينة الحمراء فوق هضبة مرتفعة، يبلغ طولها ٧٣٦ مترًا، وعرضها نحو مائتي متر، وبحيط بها سور ضخيم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة. ويتخلل السور عدة أبراج وأبواب بقي معظمها إلى اليوم. وأهم أبراجه الباقية، هي برج الحراسة الواقع في الطرف الغربي من الهضبة، وهو الجزء الذي مازال يسمى إلى اليوم "بالقصة"، وبرج قصارش Torre de Comares، الواقع فوق قاعة السفراء التي سيأتي ذكرها، وبرج المتزين T. del Peinador، وبرج العقائل T. de las Damas، وبرج الأكل T. de los Picos، وبرج الأسيرة T. de la Cautiva، وبرج الأميرات T. de las Infantas، وهذه الستة الأخيرة تقع كلها في شمال الهضبة، وتطل على غرناطة والمرج La Vega. وبرج الماء T. del Agua، وهو يقع في طرف الهضبة الشرقي، وبرج الرعوس T. de las Gabezas، وهو يقع في جنوب الهضبة. ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأسماء هي من وضع الإسبان. وأما أهم أبواب الحمراء الباقية، فهي باب الغدور Puerta de las Pozas، وباب الطباق السبع Puerta de Siete Suelos، وبرجه المسمى بهذا الاسم، وهو الباب الذي تقول الرواية إن أبا عبد الله آخر ملوك الأندلس استقبل فيه الفاتحين يوم التسليم وطلب أن يُبنى مكانه حتى لا يجوزة إسبان بعده، وقد نزل الإسبان عند هذه الرغبة وبُني الباب، وهو يبدو اليوم مغلقًا ببذله القديم. وباب الشريعة الذي سبقت الإشارة إليه. وكلاهما يقع في جنوبي الهضبة. وباب السلاح Puerta de las Armas الواقع في شمال القصبة على مقربة من برج الحراسة، وباب النبيذ الذي سبقت الإشارة إليه وهو داخل الأسوار.





وتقع بعد "القصبه" في الطرف الغربي من الهضبة، قلعة قديمة تسمى "حصن الأبراج الحمراء" Castillo de Torres bermejas.

وموقع هضبة الحمراء ذو جمال طبيعي نادر، فهي تشرف من الشمال والغرب من موقعها المنيع الشاهق، على مدينة غرناطة، وعلى فحوصها أو مرجها الشهير La Vega وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرا نفاذا Sierra Nevada، التي تعرف في الرواية الأندلسية بجبل شلير أو جبل الثلج، وهي أقرب ما يكون إلى أحياء المدينة من جانبها الشمالي الغربي، إذ تشرف من عل على مجرى نهر حدره وعلى حي البيازين.

\* \* \*

ولنعد الآن إلى قصر الحمراء.

إن قصر الحمراء، أو بالحري ما تبقى منه، هو أعظم وأروع الآثار الأندلسية الباقية، كما أنه يعتبر من أروع الآثار الإسلامية، التي لبقت عليها حوادث الزمن، وهو يبدو بعقوده وسقوفه ذات الزخارف البديعة، وأعمدته الرخامية الرشيقة، وأناقته المتناهية، من أجمل ما تقع عليه العين من الصروح الأثرية؛ وهو مشرق منير بغمرة الضوء والهواء. بيد أنه مما يسترعى النظر أن هذا الإشراق، تطبعه لمحة من الأسى والكآبة، يحس بها المتأمل في جنباته الصامتة، وكأنه إنما يرتد في حمرة وأسى إلى عهد السيادة والعزة، أيام أن كان قاعدة الملك لمملكة عظيمة.

ويطلق الإسبان على قصر الحمراء، اسم القصر العربي Palacio Arabe ويجوز الزائر إليه من مدخل متواضع، يقع في مواجهة قصر الإمبراطور شارلكان، وتقع إلى يمين ويسار هذا المدخل عدة لبهاء عليها، يشغلها "متحف الحمراء".

ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين: الأول، جناح قمارش الذي يضم قاعة السفراء وبرج قمارش الذي يعلوها؛ وجناح الأسود الذي يتوسطه فناء الأسود. وسوف نتناول تباعاً كل جزء من أجزاء القصر بالوصف، ثم نورد ما رسم على جدرانه من نقوش.

## فناء الريحان

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر، وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة Patio de Alberca، أو فناء الريحان Patio de los Arrayanes. وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف، تتوسطه بركة من الماء، تظللها أشجار الريحان، وهو يستقي منها اسمه الحالي. والظاهر أن هذه الأشجار كانت تزرع من قديم على حافة الماء في هذا الفناء. وقد نقشت في زوايا فناء الريحان العبارة الآتية: "النصر والتمكين، والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين".

والآية الآتية: "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم".

ونقشت على الإفريز الرخامي الأوسط لهذا الفناء، قصيدة من اثني عشر بيتاً ركيكة، وبها كثير من الأغلاط. ويرجع ذلك كما سنرى، إلى أن كثيرًا من نقوش الحمراء الحالية هي من صنع محدث، نقلت بالرسم عن النقوش القديمة، تحت إشراف الأتريين الإسبان، وتسربت إليها عند النقل أغلاط كثيرة. وهذا مطلع القصيدة المشار إليها:

تبارك من ولاك أمر عباده      فلولى بك الإسلام فضلاً وأنعماً  
فكم بلدة للكفر صبحت أهلها      وأمسيت في أعمارهم متحكماً

ومنها عن يمين الباب الشمالي المفضي إلى البهو المجاور:

ولو خير الإسلام فيما يريده      لما اختار إلا أن تعيش وتسلمنا  
لقد لاحت أنوار الجلال ببابك      يفتخر منها الندى بشراً وأنسما  
وتلك آثارها في كل مكرمة      أبدى ولوضح بذراً إذا انتظما

وعن يسار الباب:

فيا ابن العلي والحلم والبأس والندى      ومن فاق آفاق النجوم إذا انتما  
طلعن بأفق المليك رحمة      ليجلو ما قد كان بالظلم أظلمنا  
فأمنت حتى الغصن من نفحة الصبا      وأرهبت حتى النجوم في كبد السما  
فإن رعثت زهر النجوم فخيفة      وإن سال حصن البان شكرك يممنا

وقد نقشت فوق الأبيات المذكورة وتحتها عبارة "ولا غالب إلا الله" باستمرار.

وفي النهاية الجنوبية لهذا البهو يوجد باب عربي ضخم، هدمت الأبنية التي كانت من ورائه، ولم تبق منها سوى بقية خربة؛ وتوجد في هذه الأطلال بعض النقوش، منها "ولا غالب إلا الله" عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله. ويظن أن هذه الأطلال هي بقية الجناح

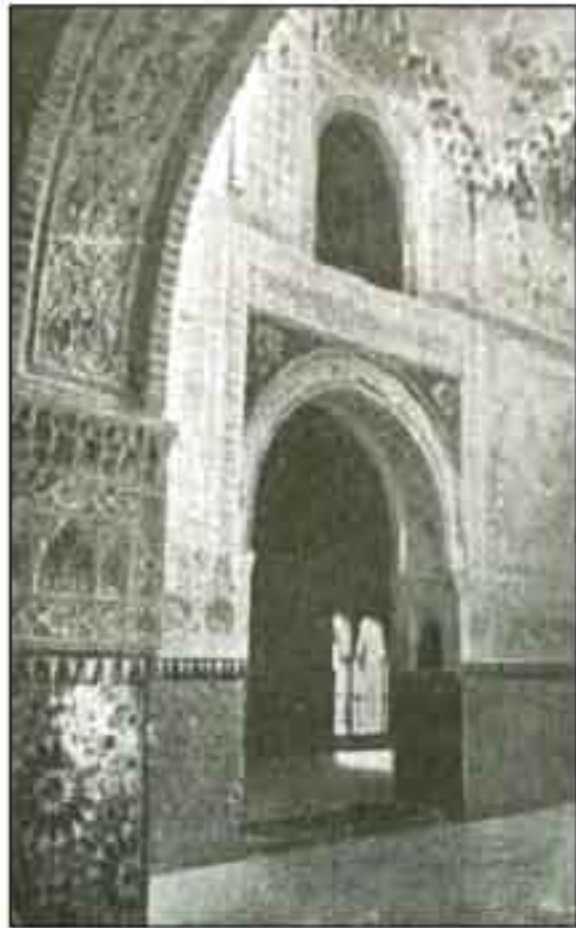
السلطاني الخاص، وهو الذي هدمه الإمبراطور شارلكن فيما بعد، ليفتح مكاناً لقصره الذي  
ابتناء إلى جوار الحمراء.

ويفضى باب فناء الرياحان الشمالي، إلى بهو صغير يسمى بهو البركة، به قبلة زينب  
بنفوش جميلة، وقد نقش على جانبها الأيمن ما يلي:

أنا محلاة عروس	ذات حسن وكمال
فلنظر الإبريق تعرف	فضل صدقي في مقال
واعتبر تاجي تجده	مشبهًا تاج الهلال
وابن نصر شمس فاك	في ضياء وجمال
دام في رفعة شأن	أمننا وقت الزوال
وعلى جانب القبلة الأيسر ما يلي:	
وأنا فخر الصلاة	سمت سمت السعادة
تحسب الإبريق فيها	قايمًا يفضي عبادة
كلما تفرغ منها	وجفت فيها الإصادة
وبمولاي ابن نصر	شرف الله عبادة
قد نماء سيد الخز	رج سعد ابن عبادة



الحمراء، ساحة البركة (لو فناء الريحان)



الحمراء، قاعة الأختين



## بهو السفراء

ويغضى هذا البهو الذي يلي فناء الرياح، من الناحية الشمالية، إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء، وهو البهو المسمى بهو قمارش أو بهو السفراء Salón de Embajadores. وبهو قمارش هو أعظم أبهاء الحمراء، من حيث سعته وارتفاع قبة الشاهقة. وهو عبارة عن مستطيل مساحته نحو ثمانية عشر مترًا في أحد عشر، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرين مترًا، وقد حفر زخارفها على شكل النجوم، وزخرفت الجدران على نفس الطراز، وفي هذا البهو كان يعقد مجلس العرش. ويعلو بهو السفراء برج قمارش، وهو مستطيل في مثل مساحته.

وقد بدأ بإنشاء قصر قمارش السلطان أبو الوليد إسماعيل في أوائل القرن الثامن الهجري، وأكمّله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج، فأنشأ برج قمارش وبهو، وأنشأ جناح الحمامات السفلى القريب منه. وأنشأ ولده محمد الغني بالله بهو البركة الذي سبق وصفه، كما أنشأ قصر السباح الذي نصّفه بعد.

وأروع ما في بهو قمارش زخارف قبة، التي لبثت محتفظة بنقوشها الأصلية. أما نقوش الجدران، فإنها مع جمالها، ليست إلا تجديدًا مقلدًا لنقوشها القديمة، فلم به الفنانون الإسبان. وقد نقشت في عقد باب بهو السفراء العبارات الآتية: "الحمد لله على نعمة الإسلام" "عز لمولانا أبو الحجاج عز نصره".

ونقشت الأبيات الآتية في جانب العقد الأيمن بعد عبارة "الحمد لله":

ففت الحسن بحليتي وبناج	وهوت إلى الشهب في الأبراج
يبدو إلاء الماء في كعابد	في قبلة المحراب قام يناج
ضمنت على مر الزمان مكارمي	ذي الأولم وحاجة المحتاج
فكأنني استقرت آثار الندى	من كف مولانا أبي الحجاج
لا زال بدرًا في سماء لا يحا	ما لاح بدر في الظلام الداج

ونقشت الأبيات الآتية على جانب العقد الأيسر بعد عبارة "الحمد لله":

رقمت أنامل صالعي ذي حاجي	من بعد ما نظمت جواهر تاج
وحكيت كرمي العروس وزنته	أني ضمننت سعادة الأزواج
من جاعني يشكو الظما فموردي	صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأنني قوس الغمام إذا بدا	والشمس مولانا أبو الحجاج
لا زال محروس المهابة ما غدا	بيت الإله مثابة الحجاج

ونقش في الدائرة العليا للبهو، العبارة الآتية مكررة باستمرار "عز لمولانا السلطان أبي الحجاج".

ونقشت في أسفل مدار القبة بحروف بيضاء نص صورة تبارك كلها، ولولها ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ، الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

ونهايتها: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

ونقرأ في جدار المشرفية، وهو الجدار الشمالي للبهو هذه العبارة منقوشة في أعلاه: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين نصره الله" مكررة مراراً، ثم نقرأ كذلك هذه العبارة في الدوائر العليا لجدران البهو مكررة: "عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبي الحجاج عز نصره".

ونقش في محيط البهو بكثرة ظاهرة شعار بني نصر: "ولا غالب إلا الله".

ونقشت الأبيات الآتية في إحدى فجوات القبة السفلى:

تحبيك من حين تصبح أو تمشي	ثغور المنى واليمن والسعد والألس
هي القبة العليا ونحن بذاتها	ولكن لى التفضيل والعز في جنسى
جوارح كنت القلب لا شك بينها	وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس
وإن كان لشكالى بروج سمائها	ففى عدا ما بينها شرف النفس
كسمانى مولاي المؤيد يوسف	ملابس فخر واصطناع بلا لبس
وصيرنى كرسى ملك فأيدت	علاه بحق النور والعرش والكرسى

ونقشت في الفجوات الأخرى مقابل هذه الأبيات العبارة الآتية "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين أيد الله أمره وعز نصره".

\* \* \*

ويغضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو، وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو. وليس لهذا الفناء أهمية لثرية تذكر، فهو من صنع الإسبان.

والى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية، وهو عبارة عن عدة حمامات رخامية تتخللها أبهاء صغيرة. وما زالت بها أماكن الأحواض ظاهرة، وكذلك أماكن المولير والصنابير. ولا يخلو هذا الجناح أيضاً من بعض النقوش، فمنها عبارة "ولا غالب إلا الله" و"الله عدة لكل شدة" و"النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين".

وفي نهاية هذا الجناح من الداخل نقش في فجوة صغيرة من الرخام قصيدة من ستة أبيات أولها:

أعجب شيء حادث لو قديم      مريض الأسد بيت النعيم  
وأخرها:  
من كلبي الحجاج سلطاناً      لازال في نصر وفتح عظيم

### قاعة الأختين

وتقع شرقي فناء البركة قاعة الأختين، وتصل إليها من باب الفناء الشرقي، من رواق طويل مظلم. وقد سميت بهذا الاسم - قاعة الأختين Sala de las dos Hermanas - لأن أرضها تحتوي على قطعتين متساويتين من الرخام فربنتين في ضخامة الحجم، وقد نقش عند مدخلها بالكوفية "ولا غالب إلا الله" مكررة، ونقشت هذه العبارة أيضاً حول جدرانها في أسفل وأعلى، ونقش تحتها هذه الأبيات وهي مقبسة من قصيدة الوزير ابن زمرك الشهيرة في وصف الحمراء وهي:

ثبتت له خنس الثريا معبده<sup>(١)</sup>      ويصبح معتل النوليم رواقها  
فبين يدي مولاي قامت لخدمة<sup>(٢)</sup>      ومن خدم الأعلى استفاد المعاليها  
وكم من قسي في ذراه ترفعت      على عمد بالنور باتت حوالها  
به المرمر المجلو قد شف نوره      فيجلو من الظلماء ما كان داجيا<sup>(٣)</sup>

وكذلك نقش على الجدران هذه العبارة مكررة: "النصر والتمكين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين".

(١) في نقوش هذه القصيدة تحريق، ويورد للمفري هذه الشطرة كالآتي: "ثبتت لهم كف الثريا معبده".

(٢) وصحة الشطرة وفقاً للمفري "فبين يدي مثواك قامت لخدمة".

(٣) راجع قصيدة ابن زمرك بأكملها في نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٧٠٥ - ٧٠٩.

## فناء الأسود

وتتقضى قاعة الأختين من بابها الجنوبي، إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء، ونعني فناء الأسود أو بهو الأسود وما إليه.

وقد قام بإنشاء هذا القصر أو هذا الجناح، الذي يسبق على الحمراء أكبر قسط من الروعة والفخامة والبهاء، السلطان محمد الغني بالله الذي تولى العرش في سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) وتوفي سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م)، والذي مازل اسمه مثلاً في مواضع كثيرة من هذا الجناح.

ويعتبر فناء الأسود أو كورة السباح "Patio de los Leones"، بطلازة المصقول، وقبابه المضلعة، وأعمدته الرشيقة، وزخارفه البديعة، ونافورته الفريدة التي تحملها الأسود، أروع أجنحة الحمراء، وأوفرها رواء وسحرًا، وهو عبارة عن فناء مستطيل مكشوف طوله خمسة وثلاثون مترًا وعرضه عشرون، تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود، تحملها مائة وأربعة وعشرون عمودًا من الرخام الأبيض، صغيرة الحجم، متناهية في الجمال والرشاقة، وعليها أربع قباب مضلعة، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل، ثلثان منها تتقابلان شرقًا وغربًا، والأخريان تتقابلان شمالًا وجنوبًا، وهي متمثلة الصنع والزخرف كأنها روائع، ويحمل كل منها عدد متمثل من الأعمدة.

وفي وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة، وهي عبارة عن نافورة ماء، يحمل حوضها المرمري المستدير الضخم اثنا عشر أسطوانة صفت على شكل دائرة، ونحلت من الرخام الأبيض الذي لاسر بمضى الزمن، وهي ليست بارعة المطابقة، ولكن تبدو عليها مخالب التوثب والشجاعة.



الحمراء، جانب من عقود فناء الأسود

وتوجد في فناء الأسود، طائفة من النقوش التي كتبت بالخط النسخ أو الكوفي الجميل، على الجدران والأعمدة والنافورة تفصلها فيما يلي:

نقش شعز بنى نصر "ولا غالب إلا الله" بالنسخ والكوفي، في الجانب القبلي وراء الأعمدة، وفوق رأس كل عمود من الأعمدة التي تحمل القبة، وكذلك على رءوس جميع العُمد الأخرى.



الحمراء. قبة فناء الأسود الوسطى المواجهة للنافورة

ونقشت العبارة الآتية على كل عمود ثانٍ: "عز لمولانا لسلطان أبي عبد الله الغني بالله".

ونقش على الأعمدة التي تحمل القبة المواجهة -أي القبة البحرية- "ولا غالب إلا الله".

"ولا غالب إلا الله". ونقش على رءوس الأعمدة في المجموعتين الأخريين "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله".

ونقش في الداخل، وراء القبة، في صدر البهو الصغير الذي يلحق بالفناء من الناحية البحرية العبارات الآتية: "أبو عبد الله أمير المسلمين"، "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المسلمين"، "ولا غالب إلا الله".



ونقش على رءوس مجاميع الأعمدة التي تزيد عن اثنين ما يأتي: "عز لمولانا السلطان العادل المجاهد أبي عبد الله الغني بالله".

والى جانب هذه الأدعية، التي تشيد بذكرى منشي هذا الفناء، قد نقشت قصيدة رائعة، فوق دائرة صحن النافورة التي تحملها الأسود، تضم اثني عشر بيتاً، وهي من نظم الوزير ابن زمرك، ومنها أبيات وردت في قصيدته في وصف الحمراء، وهذا نصها:

تبارك من أعطى الإمام محمداً	مغاني زانت بالجمال المعاني
وإلا فهذا الروض فيه بدائع	لبي الله أن يلقي لها الحسن ثانياً
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها	تحلى بمرفض الجمال النواصي
يذوب لجين سال بين جواهر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بهامد	فلم ندر لنا منهما كان جاريا
ألم تر أن الماء يجري بصفحتها	ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه	وغص بذك الدمع إذ خاف وثيا
وهل هي في التحقيق غير شمامة	تفيض إلى الأساد منها السواقيا
وقد أثبتت كف الخليفة إذ مدت	تفيض إلى لسد الجهد الأيادي
فيا من رأى الأسد وهي روابض	عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لا عن كلاله	ترك جلال يستخف الزواصيا
عليك سلام الله فسلم مخلداً	تجدد أعيناً وتبلى أعادي

### قاعة بني سراج

وفي منتصف الناحية الجنوبية من بهو الأسود، يوجد مدخل قاعة بني سراج "Sala de los Abencerrajes"، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة، التي لعبت دوراً كبيراً في حوانث غرناطة الأخيرة، ويقول البعض إن اسم الأسرة هو "بنو السراج" وليس بني سراج. وهذه القاعة عمار عن مستطيل مساحته نحو اثني عشر متراً في ثمانية، شطبت أرضه بالرخام المرمري، وفوقه قبة عالية، مضلعة الدائرة، وفي جوانبها كوات صغيرة هي التي تمتد القاعة بالضوء، وفي كلا الجانبين الأيمن والأيسر عقد عربي بنيع، وقد زين عقد الباب وهو من الخشب المعقود، بزخارف عربية جميلة، وحفرت في داخل دائرة القبة مقرنصات مثلية، ليست هي زخارفها الأصلية، بل هي من صنع الإسبان، وترجع إلى القرن الثامن عشر. وقد نقشت في دائرة القبة الوسطى عبارة: "ولا غالب إلا الله" بالنسخ والكوفي، ونقش في دائرتين في الجهتين اليمنى واليسرى، هذا البيت وهو من نظم ابن زمرك:

فتحسبها الأفلاك دارت قسيها      تظل عمود الصباح إذ لاح باديها  
ونُقش في جدار الصدر في مواجهة الداخل هذان البيتان:  
تبيت له خنس الثريا معبدة      ويصبح معتل النولسيم رواقيا  
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به      ولم تك في أفق السماء جواريا  
وهما أيضا من نظم ابن زمرك.

وفي وسط قاعة بني سراج، حوض نافورة مرمرية مستدير، وفي قاعه بعض بقع  
داكنة ثابتة، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء أسرة بني سراج، الذين دبر لهم السلطان  
كمينا، واستخرجهم إلى الحمراء، ودبر مقتلهم في هذه القاعة واحدا إثر الآخر.  
وقد كان لهذه القاعة منذ آخر مواجه لمدخلها، فسد الإسبان بالبناء.

### قاعة الملوك

وفي الناحية الشرقية لفناء الأسود، مدخل القاعة التي تسمى قاعة الملوك "Sala de los Reyes" أو قاعدة العدل، ومدخلها عقد بديع مثلث الجوانب. وبها ثلاث عقود أو حنايا.  
رسمت في سقف الحنية الوسطى منها، صور عشرة سادة مسلمين يلبسون العمام، ويجلسون  
على وسائد، ولهم لحى، وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة. ويرى بعض الباحثين، أن هذه صور  
ملوك غرناطة العشرة، الذين سبقوا أبي عبد الله في تولي العرش، أولهم محمد الغني بالله،  
وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله.  
ونقشت في سقف الحنيتين الأخرين، صور فرسان ومناظر فروسية، ومناظر صيد  
يطارد فيها دب وخنزير.

ويرى فريق من الأثريين، أن المرجح في شأن هذه الرسوم أنها من صنع بعض  
الفنانين النصراني، وقد رسمت قبل سقوط غرناطة، في القرن الخامس عشر.

### منظرة اللندراخا

وفي شمال فناء الأسود، وشمال قاعة الأختين، يقع البهو المسمى منظرة اللندراخا  
"Mirador de Lindaraja". وقد اختلف في تفسير هذا الاسم. ويرى بعض المستشرقين  
الإسبان، أنه في الأصل تحريف لثلاث كلمات عربية هي "عين دار عائشة"، وأن عائشة هذه  
كانت من ملكات غرناطة في القرن الرابع عشر الميلادي، (وهي غير عائشة الشهيرة والسدة  
أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس) وأن كلمة عين، هنا تعني "النافذة". وهذه القاعة هي عبارة  
عن بهو صغير مصلع، يفضى إليه رواق ذو نافذتين، ومخله عقد بديع الزخرف، وله نافذة

ذات عقدتين في أعلى، وعقدتين آخرين على الجانبين، وهي تطل على الفناء المجاور، والذي يحمل نفس الاسم، وهو عبارة عن فناء سفلي، تبلغ مساحته نحو عشرة أمتار في ثمانية، وبه نافورة وبضع أشجار، ويطلق عليه اسم "فناء اللندراخا".

وفي عقد المدخل فجوتان نقشت بينهما عبارة "ولا غالب إلا الله"، ونقشت في كل منهما أربعة أبيات تبدأ اليمنى منها بهذين البيتين:

كل صنع أهدي إلى جماله	وحبائي بهلاؤه وكماله
من رأيي يظنني كألتي	تخطب الإبريق تبغي أن تناله
وتبدأ الأربعة اليسرى بهذا البيت:	
لست وحدي قد أطلع الروض مني	عجباً لم تر العيون مثاله
ونقش تحت الأبيات المشر إليها ما يلي:	

"عز لمولانا السلطان أبي عبد الله ابن مولانا السلطان أبو الحجاج".

ونقشت حول النافذتين اللتين بالرواق، قصيدة من اثني عشر بيتاً، تبدأ من النافذة اليمنى وهذا مطلعها:

وجلد بها برد الهواء نسيمها	فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية	نقش عنها الشهب في الأفق الأهلا

ونقش في العقد الأعلى للنافذة الأمامية بالكوفية ما يلي: "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله، أيد الله أمره وأدام سعده" وغيرها من الأدعية المماثلة. وتدل هذه النقوش على أن هذه المنظرة قد أنشئت في أواخر القرن الرابع عشر في عصر السلطان محمد الغني بالله، (١٣٥٤ - ١٣٩١ م).

ونقش على صحن نافورة فناء اللندراخا قصيدة من تسعة عشر بيتاً هذا مطلعها:

أنا حقاً فلك الماء هذا	للأنام ظاهراً لم يحجب
لجنة عظيمة ساحلها	من يدع المرممر المنتخب

ومن المعروف أن فناء اللندراخا، قد أنشئ أيام الإمبراطور شارلكان، وأن صحن النافورة فقط، هو الذي يرجع إلى صنع أندلسي.

## متزين الملكة

وهناك رواق بين قاعة الأختين وبين منظرة النذرلخا، به باب يقضي إلى ساحة مستطيلة، لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية، ولكنها أنشئت أيام الإمبراطور شارلكن. وفي هذه الساحة بابان صغيران، يقضي كلاهما إلى الطبقة العليا، التي تقع فوق جناح الحمامات السفلى. ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يقضي إلى "متزين الملكة" "Peinador de la Reina"، وهو عبارة عن جناح علوي صغير، يقع في نهاية الطرف الشمالي للحمراء. تحت البرج المسمى برج "المتزين" "Torre de Peinador"، وهو برج يرجع إلى عصر السلطان يوسف أبي الحجاج. ويحتوي متزين الملكة على بهو صغير منخفض السقف. وقد أنشئ في القرن السادس عشر، أعني بعد سقوط غرناطة بعصره، ورسمت على جدرانه صور وزخارف نصرانية، من ريش بعض أكابر الفنانين الإسبان في هذا العصر. وتطل شرفة المتزين على مدينة غرناطة وعلى مرجها، ويبدو منظر المدينة من هذا الارتفاع الشاهق ساحراً رائعاً.



الحمراء، منظرة الملكة وبرج قمارش، وفي أسفل حي البيلازين

ومما هو جدير بالذكر، أن الجناح المجاور لساحة الإمبراطور شارلكن من الجنوب، والذي يقع فوق جناح الحمامات، وهو مكون من عدة غرف، يحمل لوحة رخامية تذكارية، تفيد أنه كان مقاماً للكاتب والمؤرخ الأمريكي واشنطن إيرفينج وذلك في سنة ١٨٢٩، وقد اشتهر بكتابه "فتح غرناطة" و"قصص الحمراء"، وترجم كلاهما إلى الإسبانية<sup>(١)</sup>.

## الزاوية والروضة

وقد زرت في بعض جولاتي بقصر الحمراء، برفقه الأستاذ سبستيان لومبريرو، وكيل متحف الحمراء، ناحية صخرية مهجورة من القصر تقع في غربيه، ولا تفتح للزائرين العاديين، وهي تتم بأثارها عن أنها كانت زاوية أو مصلًى، ففيها مكان ميضأة ومجاريها، وقاعدة مثلثة صغيرة فيما يظهر. والظاهر أن هذا الجناح، المحتوي على زاوية ومصلًى صغير، كان مخصصاً لقراء الحضرة، أو مخصصاً لصلاة الحشم؛ لأنه يلي القصر مباشرة. وزرت خرائب "الروضة" أو مدفن ملوك بني نصر، ملوك غرناطة، وهي واقعة خارج القصر، في جنوب شرقي فناء السباح، وعلى مقربة من كنيسة سانتا ماريا، التي بنيت فوق موقع مسجد الحمراء؛ ورأيت بها آثار القبور السلطانية، في ثلاثة مواضع، كل منها يحتوي على عدة لحود، وذكر لي الأستاذ لومبريرو أن الحفريات في هذه المنطقة، أسفرت عن العثور على هيكل عظمي واحد رد إلى مكانه.



الحمراء. كنيسة

سانتا ماريا وهي مكان مسجد الحمراء

والظاهر أن السر في عدم العثور على رفات ملوك بني نصر، يرجع كما يقال، إلى أن لها عبد الله آخر ملوك الأندلس، حمل عند تسليم غرناطة، فيما حمل من المتاع، بقايا آباءه وأجداده، لتدفن في منطقة البشرات، التي تقرر انتقاله إليها، ولا يُعلم إذا كان بعد ذلك قد حملها معه إلى فاس، حينما غادر إسبانيا نهائياً إلى المغرب، أم أنها قد بقيت حيث ووريت في أرض البشرات. وقد وجدت في الروضة عدة شواهد رخامية لقبور ملوك غرناطة، ولكنها ضاعت جميعاً. ويورد لنا ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة"، نصوص النعي المنقوش على بعض منها، وقد كتب معظمها بأسلوب بليغ مؤثر يفيض توجعاً ولى (١).

(١) راجع كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" ج ١ (لغاهرة ١٩٥٦) ص ٤٠١ و ٥٤٩ و ٥٦٢، وج ٢ ص ٦٦ حيث يورد لنصوص هذه النقوش. وراجع أيضاً الأستاذ ليفي بروفيسال Inscriptions Arabes d'Espagne ص ١٤٥ - ١٥٣ حيث ينقل هذه النصوص.



## المسجد والكنيسة

وكان مسجد الحمراء يقع في وسط الهضبة، جنوبي الروضة، في نفس المكان الذي تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا، وقد أمر بإنشائه السلطان محمد المخلوع، المعروف بمحمد الثالث ملك غرناطة (سنة ١٣٠٢ - ١٣٠٩ م)، أنشاء على أمدح طراز، وزوده بالعمد والزخارف والثريات الفخمة، فكان على صغر مساحته، من أفخم مساجد غرناطة<sup>(١)</sup>. ولما احتل الإسبان غرناطة، تركوا المسجد على حاله عصراً، بعد أن أقاموا فيه هيكلاً ولتعمود كنيسة، ثم هدم في سنة ١٥٧٦، في عصر فيليب الثاني ولد الإمبراطور شارلكان، وأقيمت مكانه الكنيسة التي سميت باسم "كنيسة سانتا ماريا" وقد بنيت على شكل صليب لاتيني. وهي ذات برج شاهق يعلو كل صروح الحمراء. ولم يبق من أثر مسجد الحمراء القديم، سوى مصباح برونزي بديع الزخرف، يحفظ الآن بمتحف مدريد الوطني.

## نقوش الأبراج

وقد سبق أن أشرنا إلى ما بقي من أبراج قصبة الحمراء. ونزيد هنا أن البرج الذي يسمى اليوم ببرج الأسيرة Torre de la Cautiva، توجد به نقوش وأبيات شعرية كثيرة، تشيد بأهمية هذا البرج وحصانته، وتدل في نفس الوقت على أن الذي أنشاء هو السلطان يوسف أبو الحجاج. وكذلك يوجد في البرج الذي يليه من ناحية الشرق، وهو برج الأميرات T. de las Infantas، نقوش بالدعاء للسلطان أبي عبد الله المستغني بالله وهو على الأغلب السلطان محمد الغني بالله.

ومما هو جدير بالذكر أن معظم الأسماء التي تطلق على أبراج القصبة، كمعظم الأسماء التي تطلق على أبراج الحمراء وأقنيثها، هي من ابتكار الإسبان، ولا يطابق منها الأسماء الأصلية سوى القليل.

(١) أثار ابن الخطيب إلى إنشاء هذا المسجد في الصفحة ٥٠، وفي الإحاطة ج ١ ص ٥٥٤



أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس  
عن الصورة المحفوظة بمتحف دار الرمانيّة Casa de los Tiros بقرطاجنة



الحمراء. تفاصيل من زخارف بهو السقراء (بهو فمارش)



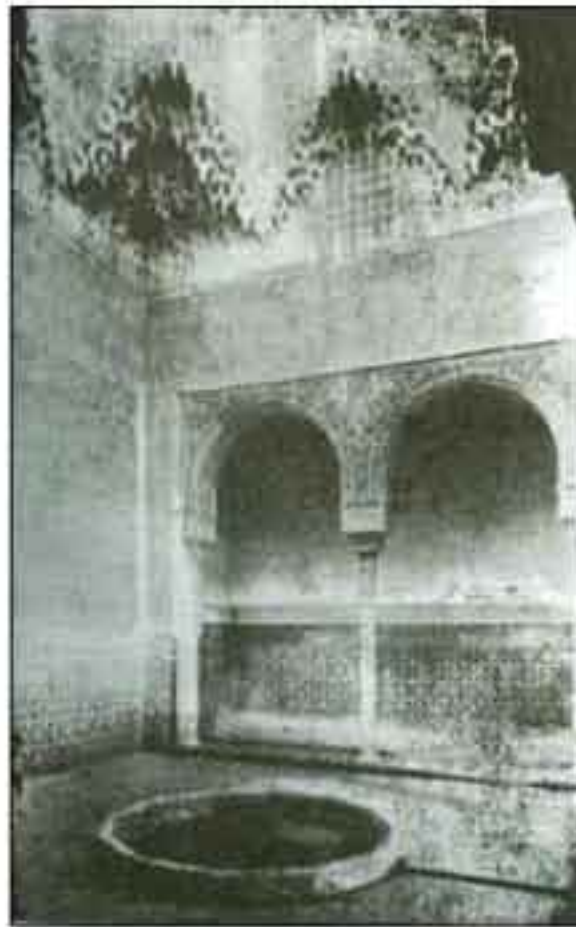
الحمراء. منظر عام لقناة الأسود وشاهورته



الحمراء. بهو الرياحان (بهو البركة) وبرج قلارش



الحمراء. منخل بهو السفراء أو بهو قمارش



الحمراء. بهو بني سراج



## قصر الإمبراطور شارلكان

لقد أصيب تراث الأندلس الأثري، على يد الإمبراطور كارلوس الخامس أو شارلكان بمحن جمّة، فهو الذي جنى على جامع قرطبة بتصريحه بإقامة الهيكل الكبير، الذي أصاب الجامع بكثير من المسخ والتشويه، وهو الذي هدم جزءاً كبيراً من قصر الحمراء ليفتح مكاناً لقصره، وأنشأ في الحمراء بعض الأبنية الدخيلة حسبما فصلنا فيما تقدم.

وهدم شارلكان، وفقاً لأرجح الفروض، الجزء الجنوبي الشرقي من قصر الحمراء، وهو الذي كان يلي فناء البركة، ويستعمل حسبما يرى كثير من الباحثين مقاماً شتوياً لملوك غرناطة، وذلك لكي يقيم مكانه قصرًا جديدًا، وهو الذي مازال يقوم حتى اليوم بجوار قصر الحمراء.

وقد أنشئ قصر شارلكان في سنة ١٥٢٧، وبُني على الطراز الروماني، فوق مربع يبلغ ضلعه ثلاثة وستين مترًا، وبه من الداخل ساحة كبيرة مستديرة، تطل عليها أروقة القصر العليا فوق دائرة من القُمد، وهو يبدو على العموم في شكل المسرح الروماني القديم. وقد زينت واجهته برسوم رومانية ويونانية.

وقد حجب قصر شارلكان واجهة الحمراء الجنوبية الغربية، وهو اليوم في حالة شبه خربة. وفي بعض أبعائه العليا توجد "محفوفات الحمراء".

وكان عمل شارلكان في التجني على صرح الحمراء، حافزاً للملك فيليپ الخامس (١٧٠١ - ١٧٤٦)، على القيام بحملة تخريب وتشويه جديدة لهذا الصرح الإسلامي الفريد، فعمل على مسخ طرازه العربي، واستبدل الزخارف العربية في معظم الغرف بزخارف إيطالية، وأتم تشويبه بإقامة حواجز سنت المنافذ والطرق بين مختلف أقسامه، وأفقته كثيرًا من جماله وحسن نظامه.

وفضلاً عن هذا التجني المنظم على قصر الحمراء، فإن الحكومة الإسبانية قد تركته عسراً في زوايا الإهمال، وأسلمته إلى العفاء والتخريب، ولم تعن بإصلاحه أو ترميمه في البداية، سوى مرة واحدة في أواسط القرن السادس عشر. وفي سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق، تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور فأصابها بأضرار كبيرة. ومنذ القرن السابع عشر تغلب على الحمراء مظاهر الخراب، ويسودها النسيان والوحشة، وفي سنة ١٨٠٢ -

أيام الغزو النابوليوني لإسبانيا - نسف الفرنسيون بعض أبراجها، ولم ينج القصر إلا بأعجوبة. ولم تنق الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل، إلا في أوسط القرن التاسع عشر، حيث عنيت بإصلاح الحمراء وترميمها. واستمرت أعمال الترميم والإصلاح زهاء نصف قرن، أولاً تحت إشراف المستشرق والعلامة الأثري رافيل كونسيرراس، ثم بعض الأثريين الآخرين. وبسبب الحمراء اليوم في ثوبها المجدد، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة في معظم الأبناء، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة، ولكن بتخللها أخطاء النقل في موطن كثيرة.

وقد أثارت هذه السياسة الغاشمة، نحو ترك الأندلس الأثري سخط العلماء الإسبان أنفسهم، ونشر العلامة الأثري الأستاذ جومث مورينو الكبير في سنة ١٨٧٤، كتاباً عنوانه "الأثار والصروح الفنية التي فقدتها غرناطة في قرن" <sup>(١)</sup> ذكر فيه عدداً كبيراً من الصروح والأثار الغرناطية الفنية، التي هُدمت أو شُوّهت، بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة، وأشار من بعده كارديناس في أوائل هذا القرن في بعض بحوثه، إلى أبنية موريسكية كثيرة، هُدمت في حي البيازين وغيره من الأحياء الغرناطية، وإلى أنه قد اكتُشف تحت هذه الأبنية، كثير من القبور الإسلامية، والأواني الأندلسية واللوحات الخشبية التي تحمل نقوشاً عربية، ونوه بما بلغته سياسة الهدم والإتلاف للصروح الأثرية من حدود مروعة <sup>(٢)</sup>.

ولكن الحمراء مازالت، بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال، تعتبر أعظم الأثار الأندلسية الباقية، وهي اليوم علم على غرناطة، تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة في سائر الأفاق، ويهرع إليها الزوار من كل صوب، ليصعدوا إلى هضبة الحمراء، وليقضوا لحظات في تأمل صرحها الرائع.

---

Gomez Moreno: Monumentos y Obras de Arte que ha perdido Granada en lo que <sup>(١)</sup>  
va de Siglo (Madrid 1874).

Antonio Almagro Cardenas: Los Monumentos Granadinos (1911). <sup>(٢)</sup>

## قصر جنة العريف

### Generalife

في ركن منعزل، وفوق ربوة مستقلة عالية، تقع في شمل شرقي قصبة الحمراء، يقوم صرح أندلسي آخر، هو قصر جنة العريف الذي يعرفه الإسبان باسم "Generalife".

وتصل إلى قصر جنة العريف من طريق طويلة صاعدة تظللها الأشجار الباسقة، ثم تجوز إلى أخرى تظللها أشجار السرو المتلاصقة، وتقطع في الطريقين من الحمراء إلى قصر جنة العريف زهاء ستمائة متر.

ويشرف قصر جنة العريف من ربوته العالية، على صروح قصبة الحمراء وتبدو من ورائه آكام جبال سيبيرا نقادا الشاهقة ظليلة كالغمام. وهو عبارة عن صرح أنيق المنظر، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى، بما أنشأه الملوك الإسبان فوقها من أبنية دخيلة، وتجوز إليه من مدخل بسيط متواضع، وقد نُقِشت سورة الفتح، على لوحة خشبية كبيرة، تحيط بالجزء الأعلى من رواق المدخل.

ويفضى هذا المدخل إلى ساحة فسيحة، يبلغ طولها خمسين متراً، وعرضها ثلاثة عشر، وعلى جانبيها رواقان ضيقان طويلان، وفي وسطها بركة ماء، وفي جميع جوانبها نوافير رشيقة، وقد عُرِست حولها الرياحين والزهور الساحرة.

وفي صدر هذه الساحة، مدخل ذو ثلاثة عقود عربية جميلة الزخرف، وقد نُقِشت في مربعاتها القصيدة الآتية:

قصر بديع الحسن والإحسان	لاحت عليه جلالة السلطان
راقت محاسنه وأشرق نوره	وهمت سحائب جوده الهتان
رقمت يد الإبداع في أرجائه	وشيا كمثال أزاهر البستان
فكل مجلسه العروس تبرجت	عند الزلف بحسنها الفتان
وكفاه من شرف رفيع القدر أن	نال اعتناء خليفة الرحمن
خير الملوك أبو الوليد المنتقى	من نخبة الأملاك من قحطان
المقتدي بالطاهرين جدوده	أنصار خير الخلق من عدنان
لحقته منه غاية قد جددت	منه جمال مصانع ومبان
في عام نصر الدين والفتح الذي	هو بالحقيقة آية الإيمان
لازال معنواً بسعد خالد	في نور إرشاد وظل أمان

كما نقشت آية الكرسي في الجزء الأعلى من هذا العقد.

ويبدو من نص هذه القصيدة، أن قصر جنة العريف قد جدد وزين على يد السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة، الذي حكم من سنة ١٣١٤ إلى سنة ١٣٢٥ م. ومعنى ذلك أن القصر قد أنشئ في تاريخ سابق. والمرجح أنه أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر.

ويغضى هذا المنخل إلى بهو كبير، يماثل البهو الذي يقع بجوار المنخل.

وتوجد ثمة نقوش عديدة متفرقة، فوق أعمدة العقود، وفي عقود النوافذ، وفوق الجدران، وفي دوائر صغيرة منها:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله"	"ولا غالب إلا الله"
"العز القائم الملك الدائم لله"	"العظمة المتصلة"
"الحمد لله على نعمة الإسلام"	"الملك لله وحده"

وهذه الطبقة السفلى من قصر جنة العريف، تكون وحدها الصرح الأندلسي. ولكن الملكة إيسابيلا الكاثوليكية، قامت عقب افتتاح غرناطة، بإنشاء طبقة عليا فوق البناء العربي، تتكون أيضاً من رواقين طويلين، ومن جناحين متقابلين، لها أسقف مضلعة. وكان الجناح الشمالي، الذي يقع فوق بهو الصدر، يضم من قبل متحفاً فيه عدة صور تاريخية لبعض ملوك قشتالة والملكين الكاثوليكين، وصورة يقال إنها صورة أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس، وأخرى لزعيم آل بنيغش Los Venegas، وهي الأسرة الأندلسية التي تنصرت عقب سقوط غرناطة، وسكنت قصر جنة العريف حيناً. وقد استمر هذا المتحف قائماً حتى سنة ١٩٢١، ونقلت بعض محتوياته إلى متحف آخر في داخل غرناطة، واختفى البعض الآخر، وحملته الأسرة التي كانت تملك القصر معها إلى إيطاليا، حسبما فصلنا ذلك في كلامنا عن متاحف غرناطة.



الحمراء. واجهة قصر جنة العريف



البهو الداخلي بقصر جنة العريف





الحمراء. عقود البهو الداخلي بجنة العريف

ويغلب الخراب على الطابق الأعلى، وقد نزع نوافذه، ولكن الصرح الأندلسي،  
ما زال بالرغم من هذا التشويه، يبدو بطرازه الإسلامي ساحراً رائعاً، ويزيد في هذا السحر، ما  
يتخلل القصر وما يحيط به، من الأشجار والخمائل المزهرة البديعة.  
وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو، مصيفاً أو منتزهاً لسلطين غرناطة، يؤمنه  
للاستجمام والراحة، والاستمتاع بجمال موقعه، وروعة المناظر الطبيعية التي تحيط به.

## ٢ - وادي آش Guadix

تقع مدينة وادي آش التي تسمى بالإسبانية "Guadix"، في شمال شرقي غرناطة على قيد ستين كيلو متراً منها، وفوق منحدر ربوة صخرة عالية، تمتد من الناحية الأخرى، على ضفة نهر "وادي آش"، وهو فرع صغير من نهر الوادي الكبير، وتظلها من ورائها الأكام العالية. ويصل بينها وبين غرناطة طريق جبلي وعرة، يبدأ منخفضاً أمام وادي آش في بسيط أخضر، وبين الحقول والحدائق النضرة، وغابات الزيتون هنا وهناك. ثم يرتفع تدريجياً حتى تبدو غرناطة من ورائه في بطن الوادي، ولما يخترق هذا الطريق بسائط، ولكن تظلله التلال والمرتفعات الصخرية الوعرة، ولا ترى فيه سوى بعض القرى الجبلية الفقراء.

ولقد كان لوادي آش في مأساة سقوط الأندلس الأخير شأن يذكر، فقد كانت من بعد غرناطة، مقر مملكة الأمير محمد بن سعد أخي السلطان أبي الحسن، وعم أبي عبد الله، وهو المعروف بمولاي "الزحل"، وكان الزحل يحكم منها جنوب الأندلس؛ فلما توالى سقوط قواعده، ولما سقطت مملكة ثغر الأندلس الأول، ثم بسطة، في يد العدو، اضطر مولاي الزحل، بعد أن استنفد كل وسائل المقاومة الباسلة، أن ينزل على حكم الظروف القاهرة، وأن يسلم مدينة وادي آش إلى الإسبان، وكان ذلك في شهر صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير سنة ١٤٩٠ م) أعزى قبل تسليم غرناطة بعامين.

وما زالت وادي آش تبدو في منعها القديمة، فهي تقع من الشرق على نهر وادي آش، ومن الغرب على صخرة منبوعة عالية تشرف على واديهما الأخضر، وتبدو من بعده جبال سيرا نفادا الشاهقة، على قيد اثني عشر كيلو متراً منها، وما زالت أبراج قلعتها القديمة المسمدة "بالقصة" "Alcazaba"، تدلي بما كانت عليه من قوة وحصانة، أيام الصراع الأخير بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة.

ومظاهر وادي آش مزيج بين القديم والحديث، وقسمها القديم هو الواقع في السهل في أسفل الربوة، وأما قسمها الآخر الواقع فوق الربوة، فيشمل معظم أحيائها الحديثة، وفيه تقع الكثرائية على حافة المرتفع مشرفة على السهل، كما تقع مبانيها الرسمية، وشوارعها في هذا القسم حديثة فسيحة، ويشقها شارع طويل واسع تظلله الأشجار، وبها متاجر وألواق حسنة، وتبدو خططها على وجه العموم في شكل صليب كبير، يمتد طرفاه الشرقي والغربي بين النهر

والسهل. وكان سكان المدينة في سنة ١٩٢٠ يبلغون أكثر من ستة عشر ألف نسمة، وهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثين ألفاً، وكانت أيام المسلمين تضم أضعاف هذا العدد.

ووادي أش مدينة زراعية صناعية معاً، ومحاصيلها القمح والذرة والخضر، وبها من المعادن الحديد والنحاس، ومن مصنوعات السكر والخمور والأبسطة، وهي من مراكز الثقافة الدينية في شرقي الأندلس، إذ يوجد بها معهد ديني كبير "Seminario"، وتصدر بها صحيفة يومية، وصحف أخرى أسبوعية.

وأهم آثارها الأندلسية الباقية هي "القصبة" أو القلعة القديمة، وهي تقع في غربها فوق الربوة، بجوار معهدها الديني، الذي يتصل بناؤه بها بقنطرة خاصة. وهي عبارة عن بقايا قلعة أندلسية عالية، بها برج كبير، وبرجان صغيران في قبالتها، يتصلان بسور ذي مشارف عربية، كما يوجد برج رابع في زاوية منعزلة منها. وقد رمت أطلالها وزالت ألوانها القديمة بالطلاء الحديث، وأقيم فوق البرج الكبير تمثال قديس، ولا توجد بهذه الأطلال أية نقوش عربية، والظاهر أنها اختفت تحت أعمال الترميم والطلاء.

أما الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) فتقع في وسط المدينة، بين قسميها الأعلى والأسفل، على حافة الربوة، وتشرف على المرج الأخضر من عل، وقد بنيت فوق موقع المسجد الجامع القديم، ويرجع بناؤها الحالي إلى القرن السابع عشر، وبرجها مربع متوسط الارتفاع، يرى من السهل على بعد مسافة كبيرة، وتبدو فيه ملامح من طراز منارة المسجد القديم. وفي أسفل الربوة، وعلى مقربة من الكنيسة، تقع أطلال قديمة يظن أنها بقايا برج أندلسي.

وموقع القصبة هو أعلى مكان في الربوة، وتشرف أبراجها على المدينة كلها، وكانت القلعة فيما يبدو أعلى بناء فيها أيام المسلمين.

وقد تجولت في أنحاء المدينة، ولمحت مساحة ضئيلة، من الطابع الأندلسي، تبدو في بعض دروبها المتواضعة. وقيل إنه يوجد ثمة بها بعض منازل ما يزال داخلها على الطراز الأندلسي، وبها بعض البقايا الأندلسية، ولكني لم أستطع أن أرى شيئاً منها.



وادي آش. إطلال بناء أندلسي



وادي آش. بعض أبراج القصة الأندلسية



وادي آش.  
الكنيسة العظمى

### ٣ - مكلين

#### Moclin

أتيت لي، وأنا بمدينة غرناطة للمرة الثامنة<sup>(١)</sup>، أن أزور منطقة الحصون الغرناطية القديمة، التي اشتهرت أيام الدولة الإسلامية بمناعتها، والتي لعبت دوراً كبيراً في المعركة الأخيرة، التي انتهت بسقوط غرناطة، وانتهاء دولة الإسلام في الأندلس.

ومن أشهر حصون هذه المنطقة وأثارها الأندلسية الباقية حصن مكلين، وهو يقع في منطقة جبلية وعرة، على قيد اثنين وثلاثين كيلو متراً من شمال غربي غرناطة، ويوصل إليه عن طريق بلدة بنوط Pinos - Puente، التي تبعد عن غرناطة نحو عشرة كيلو مترات، وقد شاهدت في بلدة بنوط، القنطرة الأندلسية القديمة، وهي قائمة فوق نهر كوبيلاس الصغير، وهي صغيرة ذات عقدين قويين من الحجر. واخترقت من بنوط إلى مكلين طريقاً جبلياً صاعداً، تحف بها الجبال الشاهقة أحياناً، والوديان السحيقة أحياناً أخرى، وكلما اقتربنا من مكلين، كلما ازدادت المنطقة وحشة ووعورة، وبدأت آكام الجبال شاهقة مجللة بالثلوج.

ويقع حصن مكلين على ربوة هرمية عالية جداً، في نهاية سلسلة من الجبال، وتُشرف من ارتفاعها الشاهق على سائر الوحد والبساتن المجاورة، وفي أسفل الهضبة توجد غابات الزيتون، وتري أمامك نحو الشمال، عن بعد، قلعة يحصها Alcála la Real، على ربوتها العالية يظللها الغمام، وتري إلى الجنوب آكام جبل الثلج Sierra Nevada، تجللها الثلوج الكثيفة، والمنطقة كلها عبارة عن هضاب وعرة، تظللها الجبال الشاهقة، والرقاع الخضراء بها قليلة.

وفي أسفل الحصن تقع قرية مكلين، وهي عبارة عن محلة صغيرة مستطيلة، تمتد في سفح الربوة نحو ثمانمائة متر، وعرضها نحو مائتين، يخترقها شارع واحد طويل، ولا يعدو سكانها ألف نفس، وأمامها الوادي والهضبة.

<sup>(١)</sup> كان ذلك في أواخر شهر يناير سنة ١٩٦٠.





مكلين. جانب آخر من أطلال الحصن



مكلين. أطلال الحصن مشرفة على القرية



مكلين. أحد أبراج الحصن الكبرى



مكلين. الكنيسة القائمة فوق مشارف الحصن

الحصن: وتبدو أطلال الحصن رائعة من فوق الربوة العالية، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الأطلال المفردة من الأسوار والأبراج والبوارج، ترتفع عن مستوى الهضبة نحو أربع مائة متر، وتقع متدرجة على منحدر صخري وعز، وهي طبقان، تعلو إحداهما الأخرى، وعلى منحدر الطبقة السفلى تقوم كنيسة هي كنيسة القرية الوحيدة. وهي كنيسة صغيرة جميلة ذات ثلاثة عقود متقبلة، وهي تقع في صدر الحصن، وتبدو واجهتها البيضاء من بعد، وقد علمت من القس الشاب المتولي أمرها، أنها بنيت على هذا الارتفاع وفوق هذا المنحدر، لكي تحتل موقع مسجد القصبه القديم. والواقع، وهو ما يتصل بوجود الكنيسة في هذا الموقع القفر الوعر، أن فناء الطبقة العليا من الحصن، وهي تقع على ارتفاع شاهق، قد حولت إلى مقبرة للقرية، وأنشئت بها قبور ومصلات عديدة. وتطل أطلال الحصن من الناحية الأخرى على منحدر سحيق يصل إلى الوادي. وقد بقي من أبراجه نصفين برجين في الطبقة السفلى، وتدل بقايا الأبراج المتناثرة، على أنه كان يضم اثني عشر برجاً، وقد بقيت من الأسوار السفلى قطع عديدة، ومنها في الناحية الأخرى قطعة كبيرة، مازالت تحتفظ بساريتها.

وقد لعب حصن مكين في حرب غرناطة الأخيرة دوراً بارزاً، وكان من أمتع خطوط الدفاع الشمالية الغرناطية. وفي شهر شعبان سنة ٨٩٠ هـ (يوليه سنة ١٤٨٥ م)، نشبت تحت أسواره معركة شديدة بين المسلمين بقيادة الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل، وكان يومئذ ملك غرناطة، وبين جيش مهاجم من القشتاليين بقيادة الكونت دي قبره، فهزم القشتاليون وردوا بخسارة فائحة. وفي شهر جمادى الثانية من العام التالي، ٨٩١ هـ، سار فرديناند (فرناندو) الخامس ملك قشتالة إلى حصن إليورة فاستولى عليه، ثم قصد إلى حصن مكين، وضرب حوله الحصار، ورماء بالأنفاط بشدة (والأنفاط هي المدافع البدائية)، فتلمت أسواره، وهدمت أبراجه، واضطر المدافعون عنه من المسلمين إلى تسليمه بالأمان، والخروج بأسلحتهم وأمتعتهم إلى غرناطة (يوليه سنة ١٤٨٦ م) <sup>(١)</sup> ومازالت آثار تلم الأسوار والأبراج بفعل الأنفاط، ترى حتى اليوم ماثلة في أطلال حصن مكين.

<sup>(١)</sup> راجع كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ص ٢٠. وكتامي "نهاية الأندلس" الطبعة الثانية ص

## ٤ - جيان

### Jaén

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة لم أين جيان  
(أبو الطيب الرندي في مرثية الأندلس)

تقع مدينة جيان في قلب الأندلس المسلمة القديمة، في بقعة لبثت لأندلسية دهرًا، وتقع في جنوبى البسيط الممتد من ضفة الوادي الكبير، وتكثر في شمالها، فيما بينها وبين النهر، الرقاع الخصبة وغابات الزيتون، وتحدها التلال العالية من الجنوب الشرقي ومن الغرب، حيث يقع حصنها الضخم فوق ربوة عالية، تشرف عليها. ومدينة جيان الحديثة هي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم، وهي مدينة كبيرة يبلغ سكانها نحو سبعين ألفًا من الأنفس، وتقوم فوق رقعة مترامية، يقع قسمها القديم في الجنوب، في ذيل المدينة الحديثة، وتتوسطه الكنترائية، وهي تقوم كما هو معلوم فوق موقع المسجد الجامع القديم. وإلى جوار هذا الجزء نفسه تقع الشوارع الضيقة الصاعدة متجهة نحو الحصن أو القسبة، يلي هذا القسم أحياء المدينة الحديثة، التي تحتل الوادي العميق الذي تحده التلال المتقدمة الذكر، وجيان من المدن الأندلسية القديمة التي مازالت تحتفظ بطابع خاص من ملامحها الأندلسية، ويرسم هذا الطابع بوضوح في خططها وشوارعها، وطراز منازلها.

وقد كانت جيان أيام الدولة الإسلامية من أعظم قواعد الأندلس الوسطى، وتشيد الرواية الإسلامية بأهميتها وعمرانها وحصانة قصبتها<sup>(١)</sup>. وقد لعبت في تاريخ الأندلس أدوارًا ملحوظة، وكانت أيام الطوائف، أحيانًا من أعمال مملكة غرناطة، وأونة من أعمال مملكة ألمرية، وأخرى من أعمال مملكة إشبيلية. ولما انهارت الدول الإسلامية في الأندلس، عقب انهيار سلطان الموحدين، وقامت مملكة غرناطة في الجنوب تضم ما بقي من أنقاض الأندلس الكبرى، كانت جيان من القواعد التي دخلت في حوزة المملكة الإسلامية الجديدة، ولكنها لبثت هي وما حولها من البلاد هدفًا لهجمات النصارى المستمرة. واضطر محمد بن الأحمر سلطان غرناطة أخيرًا أن ينزل عنها فيما نزل من البلاد إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة، وذلك في معاهدة الصلح التي عقدت بينهما في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م). ودخل القشتاليون جيان، واستولوا عليها في العام التالي - سنة ١٢٤٦ م - هي وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار،

(١) راجع الروض المعطر ص ٧٠ و٧١.

وغيرها من بلاد هذه المنطقة. بيد أن جيان لبثت بعد ذلك عصرًا باعتبارها مدينة من مدن الحدود بين مملكتي قشتالة وغرناطة، وهدفًا لغزوات الجيوش الغرناطية، وقد اقتحمها مرارًا.

### المعالم الأثرية

وأهم معالم جيان الأثرية، هو بلا ريب الحصن أو القسبة الأندلسية، وتشييد الرواية كما تقدم بذكر قسبة جيان وحصلتها، وموقع القسبة ذاته فوق الزبوة العالية التي تشرف على المدينة، وما تبقى من الأسوار والأبراج والأطلال الضخمة، تؤيد هذه الحقيقة، وتمت هذه الأطلال فوق الزبوة من الناحية الغربية محاذية لمعظم رقعة المدينة، وتسمى باسمها الإسباني، "حصن سانتا كاتالينا" Castillo de Sta Catalina، وقد أوضحت لنا سبب هذه التسمية القديمة، الفقرة الآتية التي نقلت بالإسبانية فوق لوحة ثبتت على يمين أحد العقود الداخلية للحصن، وهذا نصها:

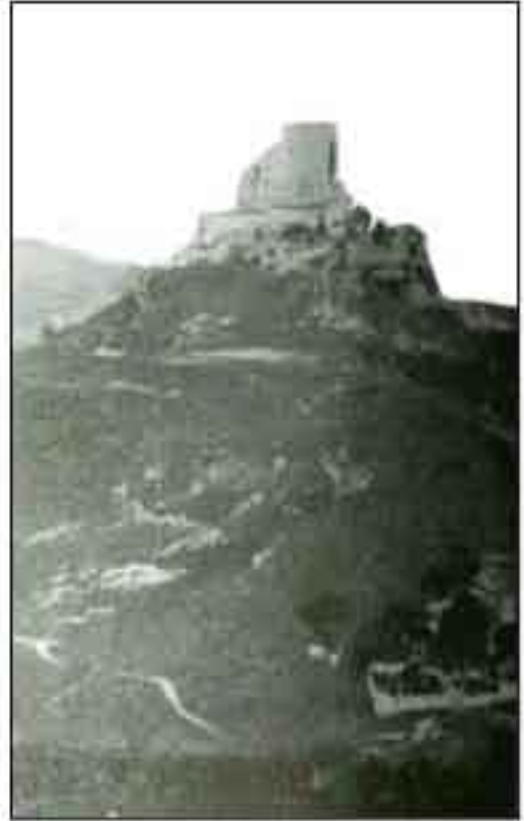
"Segun tradición el XXV de Noviembre de MCCXLVI, dia de Santa Catalina, Alahmar rey de Granada entregó este Castillo a Fernando III el Santo Quedando desde este Dia proclamada la Santa Patrona de Jaén".

ومعناه "أنه وفقًا للرواية المتواترة، في يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٢٤٦، وهو يوم القديسة كاتالينا، سلم ابن الأحمر ملك غرناطة هذا الحصن إلى فرناندو الثالث المقدس، وأضحت من ذلك اليوم تعتبر القديسة حامية مدينة جيان".

ويذكرنا موقع قسبة جيان، وأطلالها الضخمة المترامية، بأطلال القصب الأندلسية الشهيرة في ألمرية ومالقة، وتشتمل هذه الأطلال على مجموعة كبيرة من الأبراج الضخمة، والعقود المنبوعة، بيد أن ما أدخل على القسبة الأندلسية من التغيير والإضافة على يد الملوك الإسبان، قد أضاع الكثير من معالمها القديمة.



جيان. البرج الأعظم بالقصبة



جيان. أطلال القصبة الأندلسية  
المسماة الآن حصن سائتا كاتالونيا



جيان. الحمامات العربية



ويقع برج القصبه الأعظم وسط هذه الأطلال، وهو مربع الشكل، ويبلغ ضلعه في العرض نحو خمسة عشر مترًا وارتفاعه نحو ثلاثين، وفي أسفله مثلث من العقود الضخمة، تستند إلى دعامة سميكه، وتقوم فوق البرج قبة عظيمة ذات دائرتين متقاطعتين، وفي كل جانب منه نافذة عظيمة، وتعلوها قبة أخرى أقل ارتفاعًا، ثم يلي ذلك السطح والمشارف، وتبلغ المساحة التي تعلوها القبة نحو اثني عشر مترًا في مثلها، ويوجد وراء هذا البرج فناء شاسع به مجموعة من أطلال الأسوار، وعقود وأبراج صغيرة، وإلى شرقيه برج آخر أصغر منه، يتصل به بممر خاص.

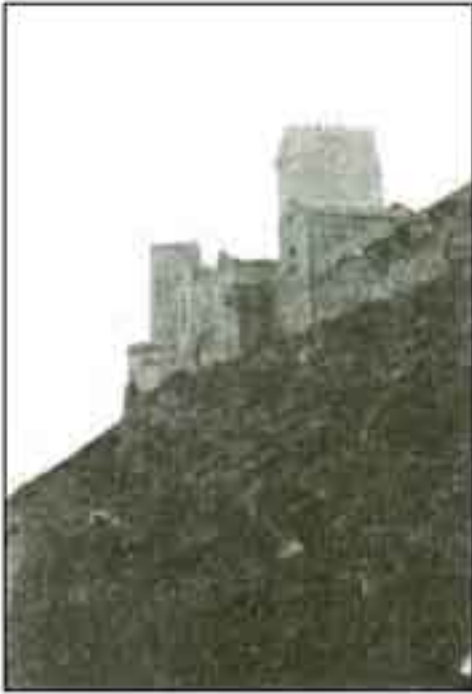
ويستند الحصن من وراء إلى صخرة منيعة من الأحجار الزرقاء الصلدة، وينتهي عند الجنوب ببرج صغير ذي عقد، وأمامه ساحة في أسفلها طبق من ثلاث غرف يبدو أنه كان يستعمل سجنًا.

وهنا في هذه الساحة، تقع العين على طلل أندلسي مؤثر، هو بقايا مصلى عربية قديمة، تعلوها قبة صغيرة، ومدخلها عقد عربي، وجوانبها الثلاثة، ثلاثة عقود، والظاهر أنها كانت مصلى خاصة لحاكم القصبه.

وفي نهاية الحصن من الجنوب تقوم سارية ثبت فوقها صليب كبير أبيض يطل على المدينة.

الكثرائية: هي صرح ضخمة ذو واجهة رائعة، وتحتوي على برجين عظيمين متماثلين، وهي تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وكان فرناندو الثالث على أثر دخوله مدينة جيان في سنة ١٢٤٦ م، قد حول الجامع في الحال إلى كنيسة، ثم هُدم بعد ذلك، وأقيمت في مكانه الكنيسة الحالية، وقد أقيمت على طراز عصر الإحياء، وهي شاسعة من الداخل، تقوم على صفيين عظيمين، من العقود الضخمة العالية، وقد زينت بتمائيل وزخارف فخمة، وزودت بمجموعة ثمينة من الصور الدينية، موزعة في حظائر هياكلها، وتقوم كثرائية جيان في ميدان شاسع، وأمامها شبكة من الدروب الضيقة، وقيامها مكان المسجد الجامع يحدد موقع المدينة الأندلسية القديمة.

ويوجد إلى مقربة من الكثرائية، العقد المسمى "عقد سان لورنزو" وهو عقد يبلغ عمقه نحو عشرة أمتار، وقد أحيط بسياج قوي من البناء، وهو يمتاز بمتانته ومناعته، وقيل لنا إنه يرجع إلى أصل أندلسي. وقيل أيضًا إنه مدجني الأصل والطراز، وإلى جانبه بناء يحتوي على قبر الملك فرناندو الرابع.



جيان، جانب من أبراج القصبية



جيان، المصلى العربي داخل القصبية



جيان، واجهة الكنيسة العظمى (الكثولائية)

الحمامات العربية: وقد شاهدنا في القسم القديم من المدينة، وهو الذي يتميز بدروبه الضيقة، أثرين: أحدهما أندلسي الأصل، والثاني يتسم بمسحة أندلسية قوية. فأما الأول فهو



"الحمامات العربية" Baffios Arabes، وهي تقع داخل البناء المسمى "ملجأ العجزة" وهي عبارة عن قبو شاسع ذي عقود متعددة قائمة في صفين، وفي بعض قباب هذه العقود، نوافذ نجمية، مما قد يدل بأنها كانت بالفعل حمامات. بيد أنه ينوح لنا أن هذا الوصف إنما هو وصف خاطئ، وأن هذه العقود إنما هي على الأرجح عقود مصلى أو مسجد صغير. يؤكد ذلك أنه مازالت تقوم في أسفلها حظيرة "الميضأة". وفي الرواية المتواترة أن هذا البناء الذي يحتوي على هذه العقود هو بقية من بيوت الملوك الأندلسيين، وأنه يرجع إلى سنة ١٥٠٥ م، بيد أنه يبدو لنا من عقود ساحته ومن نوافذه، أنه بناء مسيحي على الأرجح، أو أنه قد عدل إلى هذا الطراز.

جيان. كنيسة سانتا مجدالينا وبرجها الموريسكي

ولما الأثر الثاني، فهو كنيسة "سانتا مجدالينا"، وهي أقدم كنائس جيان، وهي كنيسة صغيرة ساذجة، تقع في الطرف الآخر من المدينة بجوار الحمامات العربية، وهي تقوم من الداخل على صفين من عقود ثلاثة، ويغلب عليها الطابع العربي الموريسكي، وقد بُني برجها الخارجي على طراز المذارة الموحدية، وهي ترجع إلى القرن الثالث عشر.

المعالم الأخرى: وهناك في جيان كنيستآن أخريان، أولهما كنيسة "سان أدفونسو"، وهي كنيسة صغيرة قديمة، قد بنيت على طراز القوطي، وتمتاز بروائها وفخامة مظهرها، ويقال إنها قد بنيت على موقع أحد المساجد القديمة.

والثانية هي كنيسة "سان أندريس"، وهي داخل المدينة القديمة، في أحد شوارعها الضيقة، وهي صغيرة، وقد بنيت عقودها القليلة على طراز مسجدي.

## ٥ - بياسة وأبدة

Baeza – úbeda

تضم ولاية جيل، وإلى الشمال الشرقي من مدينة جيل، مدينتين أندلسيتين قديمتين هما بياسة وأبدة، يبعدن عن جيل نحو خمسين كيلو متراً، وتفصلهما مسافة يسيرة.

لأولاهما مدينة بياسة، والثانية مدينة أبدة، وهي تبعد عن بياسة نحو عشرة كيلومترات. وهذه المنطقة التي تقع في وسطها المدينتان الأندلسيتان، يغلب عليها السهل المنبسط، وتمتد سهولها إلى مسافات بعيدة، ثم تظللها التلال في النهاية، ومعظم رقاعها خضراء منزرعة، وقد كانت وقت اختراقنا لها في قلب الشتاء، تغطيها طبقة خفيفة من الجليد، ومما يجدر ذكره أن هذا القطاع، يتصل من الشمال بولاية "لامنشا" التي تكثر في سهولها الكروم الأرضية، فإذا ما تركت سهول "لامنشا" ونفدت إلى ولاية جيل، تغيرت الطبيعة، وظهرت الوهاد والهضاب، وإن لم تكن وعرة، ثم تبدأ غابات الزيتون، وحقول القمح الخضراء، وتمتد هذه الرقاع الخصبة إلى مسافات بعيدة.

وقد كانت بياسة من مدن هذا القطاع الذي يفصل بين الأندلس الشرقية والوسطى، وسقطت في أيدي النصارى لأول مرة في سنة ١١٤٦ م، ولكن المسلمين استردوها، ثم تبادلها الفريقان بعد ذلك غير مرة، وأخيراً استولى عليها فرناندو الثالث في سنة ١٢٢٧ م، وضمت بذلك نهائياً إلى مملكة قشتالة، وحاول المسلمون استردادها في سنة ١٣٢٤ م في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة، وحاصروها حتى سلمت، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، وحاصروها مرة أخرى في سنة ١٤٠٧ م، ولكن دون جدوى.

وتقع بياسة في بسيط من الأرض على الطريق الممتد من لينارس إلى أبدة، وهي مدينة متوسطة، مستطيلة الرقعة، ذات شوارع طويلة، وعليها مساحة حديثة، ويبلغ سكانها نحو خمسة عشر ألف نفس، وليست بها أية آثار أندلسية. وتقع مدينة أبدة على مسافة قليلة من بياسة، وتفصلهما هضبة تختلف بين السهل والوعر، وتظللها التلال من ناحية الشمال، وتكثر بها غابات الزيتون، وتقع بها في الطريق إلى أبدة أربع قرى هي "تريس أوليفاريس" Tres Olivares و"كارينا" Carena، و"روس" Rus، و"يدرا" La Yedra، ويربط هذه المحلات حتى أبدة ترم كهربائي متواضع. وقبيل أبدة، يزداد البسيط من الأرض وتكثر غابات الزيتون والرقاع الخصبة كثرة ظاهرة.



لِدة. اطلال القصبة الأندلسية وفي ناحيتها اليمنى باب غرناطة



لِدة. باب غرناطة وهو بابها الباقي دخل أسوار القصبة



وقد سقطت لُدة في أيدي النصارى في عصر مبكر، في سنة ١٢١٢ م، عقب موقعة العقاب التي هُزم فيها الموحدون هزيمة شديدة، وتضعفت من بعدها قوى إسبانيا المسلمة، وساد بها الاضطراب والفوضى.

ولُدة مدينة كبيرة تخترقها شوارع طويلة واسعة، تجتمع صاعدة إلى الربوة الوسطى التي يحتلها وسط المدينة، ومنها تتساب الشوارع منخفضة إلى أطرافها، وتجمع خططها ومبانيها بين القديم والحديث، ويبلغ سكانها نحو أربعين ألف نفس.

وتقع لُدة على ارتفاع كبير عن سطح البحر، جنوبي سلسلة من الجبال الواقعة على ضفة الوادي الكبير، وتهب عليها رياح باردة، تجعلها في الشتاء "لُرد مدينة أندلسية". وقد قاسينا فيها روعة بردها القارس عند زيارتنا لها في قلب الشتاء في منتصف شهر يناير.

هذا وما زالت لُدة تضم بعض الآثار الأندلسية الهامة، وهي تتمثل في بقية من أسوارها الأندلسية، وفي عقدين، أو بابين من أبوابها القديمة.

الأسوار الأندلسية: وتقع بقايا الأسوار الأندلسية على مقربة من الكنيسة العظمى، في نهاية المدينة، وهي بقية كبيرة يبلغ طولها نحو ثمانين مترًا، وارتفاعها خمسة عشر أو أكثر في بعض أجزائها، وفي وسطها عضادة قوية عالية، وفي طرفها الأيمن عقد يسمى "باب غرناطة"، وقد كان هذا فيما يبدو هو نهاية المدينة الأندلسية، ويقع من وراء هذه الأسوار عدد من الدروب الصخرية الصلدة. ولما لب غرناطة هذا فهو عقد عتيق منخفض نوعًا يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة وعمقه أربعة كذلك، وإلى يمينه توجد بقية صغيرة أخرى من الأسوار.

عقد روسال Puerta del Rosal: على أن عقد روسال هو أهم آثار لُدة الأندلسية. ويقع هذا العقد في الناحية الأخرى من المدينة وهي الناحية الجنوبية، وتوجد في جانبه، وفوقه بقية أسوار أندلسية منيعة، وهو عقد مزدوج، بين منخله وعقده الداخلي، نحو مترين ونصف، وهو يفضي إلى درب صاعد ضيق ويبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار، وتساعه أربعة، وفي منتصف كل من ناحيته، عضادة تقوم على عمود رفيع، وفي أعلى منخله عقد معلق، يبدو عليه القدم والمنعة، ويقع هذا الطلل كله فوق مرتفع صغير يسمى "مرتفع الرحمة"، Cuesta de la Merced، ومن وراء العقد تقوم قطعة كبيرة من الأسوار عمل في أسفلها "هيكل" صغير.



أبذة. كنيسة سانتا ماريا (الكنيسة العظمى)



أبذة. العقد العربي المسمى باب روسال

وتمتد من يسار العقد، بضعة أزقة صغيرة تنحدر إلى واد صغير يقع في شرق المدينة، وتقوم في طرفه الآخر ربوة عالية بنيت فوقها بعض المساكن.

الكنيسة العظمى: وتسمى كنيسة سانتا ماريا، وهي تقع في نهاية المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية، فوق ربوة صغيرة، وأمامها ميدان كبير، وهي قديمة ثم جددت، وفي داخلها يقوم دير قوطي؛ ويبدو كذلك وفقاً للقاعدة التاريخية الماثورة، أنها تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وإلى مقربة منها، تقوم بقية الأسوار العربية التي سبق ذكرها.

وفي أبدة كنائس تاريخية أخرى مثل كنيسة "سان باولو"، وعدة صروح أثرية نصرانية.

## ٦ - لورقة وبسطة

### Lorca – Baza

تقع بين مرسية وغرناطة ثلاث مدن، لها في تاريخ الأندلس شأن يذكر، هي لورقة "Lorca"، وبسطة "Baza" ووادي آش "Guadix"، وهي تقع على مسافات متقاربة، فبين مرسية ولورقة نحو ستين كيلو متراً، وبين لورقة وبسطة ثمانين، وبين بسطة ووادي آش ستين، وبينها وبين غرناطة مثل هذه المسافة.

فأما لورقة فهي مدينة كبيرة عتيقة الطراز، تقع على سفح مرتفع تشرف عليه قلعة قديمة، ربما كانت القصبه الأندلسية، ويشقها من الوسط فرع لنهر شقورة، وتحيط بها الجبال من الغرب، وتتخللها الحدائق الباسقة والنخيل المثمر، وقسمها القديم تتخلله شوارع ودروب ضيقة، تتم عن طرازها الأندلسي. ولكن قسمها الحديث نشقه شوارع عريضة، ومبانيها منخفضة وأغلبها ذات طابقين أو ثلاثة، وسكانها خليط بين الحضار والريف، ويلبها من الجنوب بسيط أخضر من الحدائق والمروج. ومما يلفت النظر عدا كثرة النخيل بها، أن أشجار النين الشوكي المعروف بمصر، تنمو بها وبالمنطقة المحيطة بها بكثرة ظاهرة.

وكانت لورقة في العهد الإسلامي قلعة مدينة مرسية، فيما ينشأ من حروب بين المسلمين والنصارى. وقد سقطت في أيدي النصارى عقب سقوط مرسية في منتصف القرن الثالث عشر.

ولورقة اليوم بلد زراعي وبها صناعات بسيطة، ويبلغ سكانها زهاء ثمانين ألف نفس. وتليها مدينة بسطة التي تفصلها عن لورقة سهول شاسعة جرداء. وتقع بسطة في أعماق واد منخفض، في منطقة جبال سيرا نغادا، وهي من أعمال ولاية غرناطة، وتشرف عليها من الشمال الغربي آكام عالية. وهي مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني، وقد لبثت في أيدي المسلمين طوال الدولة الإسلامية، ولم تسقط في أيدي النصارى إلا في سنة ١٤٨٩ م، وبعد دفاع مجيد خلده صحف العصر. وكانت أيام مملكة غرناطة من قواعد الزاهرة، وسكانها يبلغون زهاء خمسين ألف نفس. أما اليوم فإن بسطة مدينة صغيرة، يشقها شارع طويل على ضفتيه المنازل البيضاء ذات الطابقين والثلاثة، ولا يعدو سكانها عشرين ألف نسمة. وهي بلد زراعي وبها صناعة الخزف والكتن.

وما زال الطابع الأندلسي يبدو في مظاهر بسطة، وكنيستها الرئيسية المسماة "سان ماسمو" "San Máximo" تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وكان هذا المسجد قد بُني على موقع كنيسة قوطية قديمة، وكذلك كنيستها الأخرى المسماة Annonciación de Nía Senoia كانت مسجداً حوله الملك الكاثوليكيان إلى كنيسة.

وما زالت توجد في بسطة بقية من أسوارها الأندلسية القديمة، وكذلك يوجد بها حمامان عربيان، أحدهما قديم، والآخر - وهو ذو أربعة عقود - يرجع إلى العصر الغرناطي المتأخر. وتوجد في خارج بسطة الحدائق الغناء مترامية الأطراف، حتى تصل إلى الجبال. ومعظم بقاعها الخارجية يغص بأشجار الزيتون، ويخرج منها طريق طويل تحف به الأشجار الباسقة هو طريق غرناطة. وبسطة هي بداية ولاية غرناطة الحديثة.



## ٧- لوثة

### Loja

تقع لوثة غربي غرناطة، على الطريق الممك إليها من إشبيلية، وعلى بعد خمسة وخمسين كيلو متراً منها. وهي مدينة متوسطة الحجم، ذات شوارع كبيرة، ويقوم بعض مباتيها فوق ربوة صخرية عالية، ويقوم البعض الآخر في منخفض الوادي، ويخترقها نهر شليل من الشمال، ويقع على مقربة منها بعد قليل من الأرض الصخرية والنتال، بسيط كبير من المزارع والحدائق الغناء، يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها، وتليها أشجار الزيتون.

وبلغ سكان لوثة حسب إحصاء سنة ١٩٢٠، اثني عشر ألفاً، وهم يبلغون اليوم نحو عشرين ألفاً.

وقد سقطت لوثة في أيدي الإسبان، خلال حرب غرناطة الأخيرة في شهر مايو سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ)، بعد دفاع مجيد استمر في صحف ذلك العصر. وكان فرديناند الكاثوليكي قد هاجمها قبل ذلك بأربعة أعوام، في سنة ١٤٨٢ م، وكانت تدافع عنها حامية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة القائد الباسل الشيخ علي العطار، فخرجت لمقاتلة النصراري وردتهم بخسائر فادحة. وكانت أيام الدولة الإسلامية من المدن الزاهرة في مملكة غرناطة، وبها ولد مؤرخ الأندلس وسياسيها الكبير، الوزير لسان الدين بن الخطيب في سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م).

وتتخذ خطط المدينة شكل صليب، وتقع لكتدرائية أو الكنيسة العظمى في وسطها، ويخترقها من الوسط شارعها الكبير، المسمى بعضه شارع الجنرال فرانكو، وباقيه شارع الدوق بلنسية.

ولم يبق في لوثة اليوم من آثارها الأندلسية القديمة، سوى أطلال القصة القديمة أو القلعة، وما تزال تقوم في باطنها بقايا بناء يظن أنه كان مسجداً، وهي عبارة عن ثلاثة عقود على صفين، وليست بها أية نقوش أو كتابات، وقد غدت طلاً دارساً يغمره الخراب والعفاء. ويسمى هذا المكان "بالحب" "Aljibe"، وتقول الأسطورة المحلية، إنه يحتوي على كنز للمسلمين. وإلى جانب هذه الأطلال، يقوم بناء خرب كبير ذو فناء أندلسي قديم، يقطنه بعض السكان الفقراء، ويحتوي على طابقين في كل منهما عدة غرف ولهاة، والمظنون أنه من مرافق القصة الأندلسية القديمة.



لوشة. أطلال القسبة الأندلسية

وتقوم الكنيسة الكبرى في وسط المدينة، على مقربة من أطلال القسبة، وفوق موقع المسجد القديم، وتسمى كنيسة "التجسيد" "Encarnación". وكانت القسبة تضم القلعة والقصر والمسجد الجامع. وهي متوسطة الحجم، وقد أحرقها أيام الحرب الأهلية ثم جددت، ولها برج عال يشرف على سائر جنبات المدينة.

وقد طفت بأرجاء لوشة، والذكريات تغمر ذهني، فألفيتها مدينة مشرقة عامرة، تتجه أحيائها من طرفيها إلى الربوة العالية، وتتجه أحيائها الوسطى إلى بطن الوادي، وأحيائها الجانبية ضيقة الدروب والمسالك على الطريقة الأندلسية، وشارعها الرئيسي طويل فسيح، وبه كثير من المتاجر والمقاهي والفنادق.

ولوشة على وجه العموم مدينة راقية مثقفة، وبها صناعات الزيوت والنشا والمنتجات الجلدية. وزرت كنيسة القديس جبريل "San Gabrael"، وهي أيضاً من أقدم كنائس لوشة، وقد بنيت عقب سقوطها في أيدي النصاري بقليل، فوق موقع أحد المساجد القديمة، فألفيتها في قلب أحد الأحياء الجانبية، وتبدو جدرانها القديمة عتيقة جداً، ولكن معظمها قد جدد شأن الكنيسة العظمى.

ورأيت في دار البلدية صورة زيتية كبيرة محدثة، تمثل تسليم مدينة لوشة أيام حرب غرناطة، إلى الملك فرديناند الكاثوليكي، وزعيمها المسلم (وهو بطلها المدافع عنها الأمير محمد بن علي) راعع أمامه، ومن ورائه بعض الجند المسلمين بعمائمهم، بيد أن هذه المناظر ليست بالطبع إلا من وحي الخيال، كما رأيت بها صورتين كبيرتين قديمتين تمثلان المدينة ومبانيها في هذا العصر.

ولم أظفر بأية آثار أو معلومات، تدل على موقع بيت ابن لوشة العظيم ووزيرها العبقري ابن الخطيب.

## ٨ - أرشدونة Archidona

إن الوصول إلى أرشدونة من الأمور الصعبة. ذلك أن البسائط الخضراء الممتدة من غرناطة نحو الجنوب الغربي، والتي تظلها الأكام العالية، تنتهي جنوب غربي لوشة، بمجموعة من الهضاب الوعرة. وهناك تقع مدينة أرشدونة. وأرشدونة ذات موقع صعب يأخذ البصر بمناحته ووعورته، فهي تقع في بطن وادٍ سحيق تحيط به الجبال من كل ناحية، ولا يرى منها خارج السهل سوى أسطح منازلها ولبراج كنائسها، وهي تحتل من فجوة الوادي العميق رقعة مستكيرة في البداية، ثم مستطيلة بعد ذلك، تمتد إلى الداخل نحو كيلومترين، فوق ربوة صاعدة تنتهي بتل عال، تقع فوقه أطلال الحصن الكبير أو القصبه الأندلسية القديمة.

ويشق أرشدونة من الوسط شارعها الرئيسي الطويل حتى نهايتها، ويمتد إلى جانبيه شارعان محاذيان ضيقان، وتخترقها شوارع جانبية عديدة، وهي في مجموعها كبيرة الرقعة، يقع في وسطها ميدانها الكبير القديم ذو العقود Plaza Mayot، ومنازلها بيضاء معظمها من طبقة أو اثنتين، ويغلب عليها الطابع الأندلسي على نسق مدينة إسجة.

وكانت أرشدونة أيام النوبة الإسلامية، من القواعد الجنوبية الحصينة، وكان لها شأن أيام الفتنة الكبرى، حيث كانت من قواعد عمر بن حفصون زعيم ثورة المولدين في الجنوب، وتبدلت مراراً خلال الوقائع التي نشبت بين الأمير وجند النور.

ولبثت أرشدونة من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية، ولم تسقط في أيدي القشتاليين إلا في حرب غرناطة الأخيرة حينما سقطت مالقة في يد فرديناند الخامس في سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) وسقطت في أثرها سائر القواعد القريبة منها.

المعالم الأثرية: وأهم معالم أرشدونة الأثرية هي بالطبع بقايا الحصن أو القصبه الأندلسية. وهي تبدو في نهاية المدينة فوق ربوة عالية جداً. وتقع هذه الأطلال فوق صخرة وعرة، وهي عبارة عن أسوار القصبه الخارجية، تتخللها ثمانى بؤلك من بؤلك أبراجها، وبذل منظر هذه الأطلال وطراز بنائها، على أنها كانت لحصن في غاية المناعة، كذلك يبدو من واجهة الحصن، وهي تبلغ نحو مائة وخمسين متراً، وما يتراعى وراءها من بقايا أطلاله، أنه كان يشغل مساحة عظيمة، ولبرز ما بلغت النظر موقعه الفريد فوق الربوة العالية المشرفة على المدينة إشرافاً تاماً، يجعلها تحت سيطرته المطلقة، وقد أشار صاحب الروض المعطار إلى هذا الحصن في حديثه عن أرشدونة<sup>(١)</sup>.

(١) الروض المعطار - صفة جزيرة الأندلس - ص ١٢.



لرشدونة، منظر عام للعديثة ومن ورائها الجبل الذي تقع عليه أطلال القسبة



لرشدونة، أطلال القسبة وأمامها معبد "عزراء الرحمة"

الكنيسة فوق الربوة؛ هذا وقد بنيت في بطن السور، فيما بين الأبراج الوسطى كنيسة أو معبد صغير يسمى "معبد عذراء الرحمة"<sup>(١)</sup>، وهو عبارة عن بناء أبيض يبدو للناظر فوق الربوة، على مسافة بعيدة. وأهم ما يلفت النظر في داخل هذا المعبد، أنه يحتوي على بضعة عقود عربية. وقد علمت من الدكتور راميلو R. C. Ramilo، وهو طبيب شاب يعني بدراسة تاريخ أرشدونة وخططها، أن هذا المعبد قد أقيم فوق أنقاض جامع القصبه، وأدخلت ضمنه العقود الباقية من الجامع، فأصبح على هذا النمط نصفه كنيسة. والنصف الآخر جامع.

وعلمت من جهة أخرى أن أهل أرشدونة، يحتفظون بكثير من التقاليد الأندلسية، وأنه يوجد بها حتى اليوم شارع يحمل اسمًا عربيًا هو شارع "المحلى" Almohalla، وهو من أقدم شوارعها.

الكنيسة العظمى: وتقع الكنيسة العظمى في وسط المدينة، وهي كنيسة صغيرة مجددة البناء، ولكن موقعها وسط المدينة، يحمل على الظن بأنها على الأرجح، تحتل موقع جامع أرشدونة القديم.

---

<sup>(١)</sup> Ermita de la Virgen de Gracia.





لشدةونة. عقود المعبد العربية وهي من بقايا جامع القصبة



لشدةونة. هيكل المعبد وقد أقيم داخل عقود الجامع

## ٩ - مالقة

### Málaga

مالقة هي اليوم عاصمة الولاية الإسبانية التي تسمى بهذا الاسم، وهي أعظم وأهم ثغور إسبانيا الجنوبية، ويبلغ سكانها ثلاثمائة ألف نسمة.

وترجع مالقة إلى أصول رومانية وفينيقية. وقد كانت أيام الدولة الإسلامية من أقدم وأهم الثغور الأندلسية، وقد احتفظت بطابعها الإسلامي الخالص حتى نهاية مملكة غرناطة، وسقطت في يد الإسبان في شهر أغسطس سنة ١٤٨٧ م (شعبان سنة ٨٩٢ هـ) بعد دفاع مجيد سجلته صحف ذلك العصر.

ولكن مالقة تبدو اليوم مدينة أوروبية حديثة بكل معاني الكلمة، وهي تقع على البحر الأبيض المتوسط في واد عميق، تظله المرتفعات من الناحية الشمالية، ومن وراء الوادي منطقة وعرة كلها جرداء، والسهل فيها قليل.

وهي مدينة عظيمة مترامية الرقعة، ذات شوارع وميادين فسيحة، يظللها النخيل والأشجار الباسقة، ويخترقها نهر "وادي المدينة" "Guadamedina"، ولكن مجراه يبقى جافاً لا ماء فيه معظم أشهر السنة.

ولشهر شوارعها "الأميدا" "Almeda"، ذو الأشجار العتيقة الضخمة، وهو يشق المدينة على مقربة من الميناء، وتتفرع منه على الجانبين معظم شوارع المدينة التجارية، وفي مقدمتها شارع المركز دي لاريوس "C. del M. de Larrios" الذي يضم أعظم المتاجر والمقاهي والفنادق؛ ومن أجمل شوارعها الشارع الفسيح الذي يحاذي الميناء، ويقوم على جانبيه صفان من النخيل والأشجار الباسقة.

وتمتد المدينة جميلة مشرفة على البحر بضعة كيلومترات، وإلى شرقها تمتد سلسلة من القرى الجميلة على شاطئ البحر، في رقعة ضيقة تحدها الجبال من الناحية الأخرى، وهي رقعة خضراء في معظمها، وبها جداول ومزارع يائنة.

وتقوم غابات النخيل الجميلة في مشارف مالقة من ناحية البحر.

ومالقة مركز صناعي وتجاري هام، وتصدر المصنوعات الحديدية، والرصاص والقصدير وزيت الزيتون والنبذ، والفواكه ولا سيما العنب والتين واللوز. وقد اشتهرت كذلك بمنتجاتها الجميلة من الفخار والخزف الملون، وهي صناعة تحرص على ازدهارها منذ العصر الإسلامي.

ولا تحتفظ مملكة اليوم بشيء من طابعها الأندلسي القديم. ولكنها مازالت تحتفظ بطائفة هامة من الأثر والمعالم الأندلسية.

القصبة: وأهم هذه الآثار الأندلسية قصبة مملكة الإسلامية، وهي طلل ضخمة حصين يقع على منحدر صخري قريب من البحر، ويشرف على منتزه مملكة الكبير الواقع على مقربة من الميناء. ولقصبة مملكة تاريخ طويل حافل، وأطلالها الحالية ترجع إلى عهود مختلفة، وقد كان بنو حمود، حينما أقاموا ملكهم بمملكة في أوائل القرن الخامس الهجري، هم أول من عني بتجديد قصبة مملكة، واهتم منهم بالأخص بذلك حسن بن يحيى بن حمود، المستنصر، الذي ولي العرش في سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م). وكانت القصبة عندئذ تضم قصر الأمير.



مملكة. واجهة القصبة، وقد ظهرت فيها الكنيسة العظمى

على أن قصبة مملكة تدين بضخامتها ومنعتها بالأخص لبديس بن حبوس ملك غرناطة البربري أيام الطوائف، فقد انتزع باديس مملكة من الحمويين في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م)، وجند قصبة مملكة، تجديداً شاملاً، ووسع منشأتها حتى غدت من أعظم القصور الأندلسية، ويحدثنا حفيده الأمير عبد الله بن بلقين عن ذلك في مذكراته حيث يقول مشيراً إلى جده باديس:

"وبنى قصبتها (أي قصبة مملكة) بنياناً لم يقدر عليه أحد في زمانه، وأعدّها عدة للمهمات، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه وزاد عليه. وكان الذي يتوقع من كلب سلاطين الأندلس، وتفاقم عليه لذلك أن يتحصن فيها ما استطاع، وإلا فيجوز منها إلى عنوة بني عمه بأهله ونخائره" (١).

(١) كتاب "التبيان" أو مذكرات الأمير عبد الله المنشور بعناية الأستاذ ليفي بروقتال (لقاهرة) ص ٤٣.

وقد توالى على قصبة مالقة من ذلك العهد تغييرات وتجديدات كثيرة، وجدت وأصلحت غير مرة على يد سلاطين غرناطة، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر، وخلال القرن الرابع عشر، ولبثت طوال عهدها من أكبر وأمنع القصبات الأندلسية. ومما هو جدير بالذكر أنها كانت عند حصار مالقة الأخير، على يد الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٧ م، تضم أكثر من خمسة عشر ألف من المقاتلة وغيرهم، وقد لبثت في الدفاع عن المدينة في هذا الحصار خير البلاء.

والآن تشغل قصبة مالقة رقعة شاسعة تكل على سابق ضخماتها، كما تكل بوعورتها ومئذنة أسوارها وخرائبها على سابق منعتها، وتمثل هذه الأطلال الباقية عهودًا وطرقات مختلفة، ولا يوجد اليوم من أبنيتها القديمة ليلم باديس، سوى بقية تقع في ناحيتها الشمالية، أما سائر مبانيها الواقعة في الناحيتين الشرقية والجنوبية فكلها لاحقة لهذا العهد، ويوجد في منخلها عدة أبواب ذات عقود عربية، ومنها الباب المعروف "بقوس المسيح" Arco del Cristo، وهو ذو عقدتين، ويرجع إلى القرن الحادي عشر، وقد أقيم في صدره هيكل للعدراء.

وقد أسفرت أعمال الحفر والتنظيف التي أجريت بقصبة مالقة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٦، عن الكشف عن مجموعة جديدة من الأبنية التي يرجع بعضها إلى العصر الحمودي، والبعض الآخر إلى العصر الغرناطي؛ وتقع هذه المباني في الجزء الأعلى من القصبة، وهو القائم بين الأسوار والأبراج، وهي تضم مجموعتين: الأولى تقع بعد باب المنخل مباشرة، وهي التي يطلق عليها منذ الاسترداد النصراني Cuartos de Granada (الأجنحة الغرناطية)، وهو حسبما يبدو قصر القصبة، وينقسم إلى ثلاثة ألباء. والثانية وهي الواقعة في الناحية الشرقية، هي عبارة عن أبنية سكنية وبها حمامات، وكان يفصل القصر عن الأسوار والأبراج طريق عريض، وتدل مباني المجموعة الأولى وزخارفها على أنها ترجع إلى العهد الغرناطي، إلى أواخر القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر، وأنه قد استعملت في إقامتها بعض أنقاض أبنية باديس التي أقيمت في القرن الحادي عشر. ويوجد إلى جانب هذه المجموعة متحف صغير به طائفة من الأواني الخزفية الأندلسية، التي اشتهرت بصنعها مالقة، وبعض قطع زخرفية عليها كتابات عربية، وهي مما وجد بين الأنقاض.



مائدة. مظهر عام لواجهة المباني الداخلية للنقبة  
وفي ليسرها عقود ترجع إلى عصر بني حمود



مائدة. أطلال حصن جبل فارة



مائدة. جبل فارة وفي أعلاه أطلال الحصن



وقد احتفظت قصبة مالقة، بعد سقوطها في أيدي النصارى، عصرًا بجنيتها وروائها، ولبت قصرها زهاء قرنين، مقامًا ملكيًا، يؤمه الملوك والحكام الإسبان لرؤية موقعه على البحر، بيد أنها أهملت منذ القرن الثامن عشر، وأخذ العفاء يدب إليها شيئًا فشيئًا، حتى شملها الخراب، ولم يكن بها في أواخر هذا القرن سوى بعض مباني قائمة وسط أطلالها العديدة يسكنها بعض الفقراء، واستمر الخراب يعمها، حتى صارت في أوائل هذا القرن أطلالًا وركامًا دارسة، إلى أن تداركتها أعمال الحفر الأخيرة، فكشفت عن بعض معالمها ومجسديها القديمة.

وتحتفظ القصبة ببعض أبراجها القديمة، وهي تدلى بما كانت عليه أيام المسلمين من القوة والحصانة.

والخلاصة أن قصبة مالقة كانت أيام المسلمين صرحًا من أعظم الصروح الدفاعية وكان لها عندئذ اثنا عشر بابًا، ومائة وعشرة أبراج كبيرة عدا الصغيرة. وكان بها قصر للأمير ومساكن للحاشية وحديقة عظيمة، تفضي إلى مجموعة من الحمامات. وكان بها مسجد. والواقع أن ما تبقى منها اليوم لا يعدو أن يكون بقية من الأطلال الدارسة لهذا الصرح العظيم القديم<sup>(١)</sup>.

حصن جبل فارة وبالإسبانية "Gibralfaro": وهو صرح دفاعي إسلامي آخر، يقع على ربوة عالية تشرف على البحر، على مسافة صغيرة من القصبة، ويفصله عنها رقعة خضراء، ويربطه بها طريق مسور، وما زال هذا الصرح يحتفظ بكثير من مسحة عربية، وهو أكثر جدة واحتفاظًا بهيكله من القصبة، ويدخل إليه من باب سفلي ذي عقد كبير، يليه فناء مربع ذو عقود، وله مدخل آخر من فوق الربوة يؤدي إلى أروقة العليا، وفي صحنه الأسفل حديقة وعقود عديدة، وأسوار خارجية مبنية بالآجر الأحمر، ومن حوله طائفة من الأروقة التي تليها الأسوار. وما زال برجه الرئيسي قائمًا، ويسمى بالبرج الأبيض "Torre Blanca"، ويحتوي على عدة عقود ومخادع، وواجهته مستكيرة، ويشرف على المدينة من ارتفاع شاهق. وأمام الحصن من الناحية الأخرى منحدر الجبل، وممراته الجانبية من هذه الناحية متماثلة، وتنحدر تدريجيًا إلى أسفل. وتبدو من تحته مدينة مالقة، في شكل نجمة ذات زوايا، ومنازلها بيضاء ما بين الحصن والجبل.

<sup>(١)</sup> راجع مقالاً قيمًا عن تاريخ قصبة مالقة وخواصها الأثرية للعلامة المرحوم الأستاذ توريس باليس في



قصة مائقة. العقود الفرناطية والمداخل الجنوبي للفناء المكتشف حديثاً



مائقة. باب السوق الأندلسي



مائقة. "باب قوس المسيح" داخل القصة

ويشغل الحصن رقعة واسعة. وقد لاحظنا أن مشارف أسواره قد بنيت على نمط  
مشارف أسوار الحمراء ولبراجها.

وقد استُهر حصن جبل فارة، أيام حصار النصارى الأخير، بمواقفه الدفاعية الباسلة،  
وكانت تحتله فرقة من جنود غمارة، أهلك في الدفاع بلاء حسناً، وصمدت حتى آخر لحظة،  
وأنزلت بالنصارى خسائر فادحة.

ويبدو أصل هذا الحصن القديم غامضاً، ويرجعه بعض الأثريين في الأصل إلى عصر  
الفيثقيين، والبعض الآخر إلى العصر اليوناني، ولكن الذي لا ريب فيه أنه أصلح وُجد على  
يد المسلمين غير مرة، كعادتهم في شأن الصروح الدفاعية القديمة. ويرى بعض الباحثين أنه  
جُدد لأول مرة، على يد المسلمين، في عصر عبد الرحمن الداخل الأموي، في أواخر القرن  
الثاني الهجري، ونحن نعرف فوق ذلك أنه قد أصلح في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي،  
على يد محمد بن الأحمر الثاني سلطان غرناطة، ثم قام السلطان يوسف أبو الحجاج (١٣٣٣ -  
١٣٥٤ م) بعد ذلك بتجديده، وإعادة بنائه على أكمل وجه، وهو ما يشير إليه ابن الخطيب  
في قوله "وفي أيامه بنى الحصن السامي الذروة، المنبئ عن القدرة، في الجبل المتصل بقصبة  
مالقة، فعظم به الفخر، وجل الذكر"<sup>(١)</sup>.

وكانت لحصن جبل فارة أيام المسلمين أربعة أبواب كبيرة في سوره الأسفل، يفضي  
أحدها إلى القصبة، وكانت به آبار كثيرة للماء.

سوق مالقة: ويوجد ثمة بمالقة أثر إسلامي آخر ذو أهمية خاصة، وهو السوق القديم، الذي  
مازل يحتل موضعه منذ العصر الإسلامي، وهو يقع اليوم في وسط المدينة، وهو عبارة عن ساحة  
مربعة واسعة، مخصصة لبيع البقول والأسماك، والطيور وغيرها، ومازل هذا السوق يحتفظ بهبه  
الأندلسي القديم كاملاً، وفي حالة جيدة، وهو بلب مرتفع ذو عقدتين، وعلى جوانبه العليا زخارف  
وكتابات عربية، يتخللها شعار بني نصر ملوك غرناطة "ولا غالب إلا الله".

الكنيسة العظمى: وتقع كنيسة مالقة العظمى (الكثريّة) على مقربة من القصبة؛ وقد  
بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع القديم، الذي حُوّل عقب دخول الملكين الكاثوليكين المدينة  
إلى كنيسة.

ثم أقيمت مكائها (الكثريّة) الحالية، وهي ترجع إلى أوائل القرن السادس عشر،  
وهي كنيسة ضخمة عالية القباب، ولها واجهات فخمة شاهقة، ويغلب عليها طراز عهد الإحياء  
الإسباني.

(١) للمحة تيدرية (القاهرة) ص ٩٦.



فصية مألقة. عقد المدخل (البورتكو) للقضاء الجنوبي

ومن صروح مالقة ذات الصلة بعهدا الإسلامى، كنيسة "المسماة" "مسيح النصر" "Cristo de la Victoria"، وهي ترجع إلى أواخر عهدا الإسلامى، وكانت قائمة وقت حصارها الأخير فى سنة ١٤٨٧ م.

وكنيسة سانتياجو (سنت ياقب)، وقد أسسها الملك الكاثوليكيان فى سنة ١٤٩٠ م؛ واتخذ برجها من منارة مسجد قديم، كانت قائمة عند سفح القسبة. وكنيسة "سيدة النصر" "Nuestra Sra. De la Victoria"، وقد بنيت فوق المكان الذي ضربت فيه الخيام الملكية وقت الحصار.

ومما هو جدير بالذكر أن كنيسة سان دومنجو، التي تقع فى وسط المدينة على مقربة من نهر "وادي المدينة"، قد بنيت من الداخل على طراز المسجد، بعقود عربية متقابلة. والمعروف من تاريخها أنها بنيت فى الواقع، فوق أنقاض أحد مساجد مالقة القديمة، وأكثر من ذلك أن بابها يتجه نحو الجنوب الشرقى، مما يدل على أنه أقيم مكان القبة القديمة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

والخلاصة أن مالقة تبدو فى مجموعها مدينة عصرية محدثة الخطط، ويسبغ عليها موقعها على البحر، كما تسبغ عليها شوارعها الظليلة، ومنتزهاتها الفخاء، حلة خلافة من الجمل والسكر.



على أنه ليس من الصعب أن نتلمس فى هذه المجموعة الضخمة من الخطط العصرية، بعض مواقع المدينة الأندلسية القديمة. والواقع أن جانباً من خطط المدينة القديمة يتجمع حول موقع حصن جبل فارة، على مقربة من القسبة، وفي أسفلها وحول موقع الكنيسة العظمى، التي تحتل مكان المسجد الجامع القديم. ففي هذه المنطقة مازالت تقوم شبكة من الدروب الضيقة الملتوية، تقوم عليها منازل متواضعة، ذات طابق أو طابقين، ومواقعها فيما يرجع تمت بأوثق صلة، إلى جانب من خطط مالقة الإسلامية. وتقع هذه المنطقة من مالقة القديمة فى جنوب شرقى المدينة.

مالقة: الكنيسة العظمى

<sup>(١)</sup> لفت نظري إلى هذه الكنيسة وخواصها الأثرية، صديقي السيور خوان تمبوري J. Tembory وهو أحد سعاة مالقة المشتغلين بالآثار الإسلامية.



هذا وتوجد في بعض بلاد ولاية مالقة، طائفة من الآثار الأندلسية التي مررنا بها  
مروراً عابراً، ونذكر منها على سبيل المثال:

١- يوجد في قرية "الشرو" "El Chorro"، الواقعة على مقربة من بلدة بيشتر، كنيسة  
أندلسية قديمة، هي الكنيسة التي أنشأها عمر بن حفصون زعيم المولدين وكبير  
الخوارج الأندلسيين، في أواخر القرن الثالث الهجري، حينما ارتد عن الإسلام  
واعتنق النصرانية.

٢- يوجد في قرية قرطمة "Cártama" الواقعة غربى مالقة، حصن عربي صغير،  
وكذلك يوجد حصن عربي آخر في بلدة "ألورة" "Alora"، الواقعة شمال غربى  
مالقة.



بلش مالقة. كنيسة سانتا ماريا



ألورة (مالقة). بقايا الحصن الأندلسي



قرطمة (مالقة). الحصن الأندلسي

## ١٠ - بلش مالقة

### Vélez Málaga

ليست "بلش مالقة" اليوم سوى مدينة صغيرة، لا يجاوز سكانها ثلاثين ألفاً من الأنفس، وليست لها أهمية خاصة. بيد أنها كانت أيام مملكة غرناطة الإسلامية، من أهم وأمنع قواعدها الجنوبية، وكانت فوق ذلك موطن كثير من العلماء والأدباء، الذين اشتهروا في القرن الثامن الهجري. وقد اشتهرت في قصة سقوط الأندلس بدفاعها المجيد، وسقطت في أيدي القشتاليين في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (أبريل سنة ١٤٨٧ م).

وتقع بلش شرقي مالقة، على قيد ثلاثين كيلو متراً منها، وتبعد عن البحر خمسة كيلومترات، حيث تقع بلدة "توري دلمر" "Torre de Mar"، وهي مصيفها القريب منها. وبلش مدينة بيضاء مشرقة ساحرة، وشوارعها طويلة تغص بالمناجر والحركة ويمتد شارعها الرئيسي زهاء كيلومترين، وهي تقع في بسيط أخضر تحده الجبال من ناحية، ومن ناحية أخرى تحده الربوة العالية، التي تقع عليها أنقاض القلعة القديمة، وتقع كنيسة القديمة المسماة "سانتا ماريا" في أسفل الربوة في نهاية البلدة وهي أقدم كنائسها، وتقع كنيسة الثانية المسماة "سان خوان" في طرفها الآخر، ومن المرجح جداً أن تكون كلتا الكنيستين قائمة على موقع مسجد قديم.

وقد شهدنا في الشارع الصاعد إلى كنيسة "سانتا ماريا"، عقداً عربياً قديماً، يفضي إلى شارع آخر، ولكن ليست به نقوش أو زخارف تنبئ عن قيمته الأثرية. بيد أنه يبدو بطرازه وقدمه، أنه من عقود المدينة الأندلسية القديمة. والواقع أن الشوارع الصخرية الصاعدة المؤدية من بعدد إلى الربوة، وهي شوارع ملتوية ضيقة ذات منازل متواضعة، تبدو كأنها تقوم فوق أنقاض بعض الأحياء الأندلسية القديمة المتواضعة، التي كانت تقوم عادة تحت أسوار القسبة القديمة.

وقد كانت القسبة أو القلعة الأندلسية القديمة، تقوم بلاربب فوق هذه الربوة العالية التي تشرف على المدينة، بيد أنه لم يبق منها اليوم إلا بقية جدار وأنقاض ليست لها أهمية أثرية، إلا ما كان من دلالتها على موقع القسبة الذاهبة.

ولا توجد في بلش أية آثار أندلسية أو متحف أو غيره مما يشاهد ويزار. بيد أن المتأمل لموقعها من فوق الزبوة وفي حوى الجبال، يدرك ما كانت عليه أيام المسلمين من أهمية دفاعية، ويدرك أنها كانت حقاً جناح مالقة الأيمن.

ومما هو جدير بالذكر، أنه توجد في الطريق بين مالقة وبلش أبراج صغيرة عديدة قديمة، بعضها يقوم على شاطئ البحر، والبعض الآخر يقوم فوق التلال، ولعلها كانت مراكز للمراقبة في القرن السادس عشر، أيام غارات المجاهدين المسلمين من الترك والمغاربة، على الشواطئ الإسبانية الجنوبية، انتقاماً للموريسكيين.

## ١١ - مَرَبَلَة

### Marbella

مربلّة من ثغور شاطئ إسبانيا الجنوبي المسمى "بِساحل الشمس" Costa del Sol نظراً لصحو منطقته، وصفاء جوده، وسطوح شمس، وهو يمتد من إشبونة حتى مَرَبِل شرقاً، ويتوسطه ثغر مالقة، وهو عبارة عن سلسلة من الهضاب التي تتخللها بعض الرقاع الخضراء، وفيها بعض الحقول الخصبة، وبعض الحدائق المتفرقة، ومن وراء الهضاب والربى تقوم إلى الشمال، جبال عالية قائمة، ويمتد الشاطئ منخفضاً تظله مياه البحر الزرقاء الداكنة.

وتقع مربلّة على قيد ستين كيلو متراً غربى مالقة، والطريق إليها من مالقة تحف به في البداية رقاع خضراء منبسطة، ثم ينحرف بعد ذلك نحو البحر، وتظله هضاب ومرتفعات وجبال عالية. ومربلّة بلد صغير مشرق، مستطيل الرقعة، يقع مباشرة على البحر، فوق سفح جبل عال، وتتخلله الحدائق وغابات الزيتون، ويعتبر بشواطئه الساحرة على مياه البحر المتوسط من المصايف الجميلة، ويعتبر كذلك بدفنه وشمسه أيام الشتاء من المشاتي المرغوبة، على نمط ثغور هذا الشاطئ كله، وقد أعدت جميعاً لتكون مشاتي ومصايف، بشواطئها وفنادقها ومتنزهاتها.

وكانت مربلّة أيام الرومان تسمى Maro Polis، ثم أطلق عليها المسلمون اسم "مربلّة"، ولبثت مربلّة من ثغور مملكة غرناطة الإسلامية، حتى أخذت قواعد هذه المملكة تسقط تباعاً في أيدي القشتاليين، وكان سقوطها في أيدي الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٨ م، عقب سقوط ثغر مالقة.

ولم يبق في مربلّة من معالمها الأندلسية سوى أطلال متناثرة من حصنها القديم، الذي يوصف بأنه من أقدم الحصون الأندلسية، وينسب بناؤه إلى القرن الرابع الهجري، وتقع هذه الأطلال داخل المدينة، وبين المساكن، وقد بنيت في ساحته الكبرى مدرسة، وبقيت من أطلاله واجهة ساريتها الكبرى، وتخل كثير من أطلاله في الأبنية الحديثة المجاورة، وتمتد هذه الأطلال إلى مسافة كبيرة، ومنها قطع كثيرة من الأسوار، تقع داخل الأزقة المجاورة، وهي كلها ضيقة، يبدو عليها طابع القدم. وإلى مقربة من أطلال الحصن، تقع الكنيسة العظمى، وهو ما يرجح أنها بنيت على موقع الجامع القريب من الحصن أو جاسع القصبه نفسه.



## سهيل

وإلى شرقي مربلة، تقع بلدة سهيل، على قيد ثلاثين كيلو مترًا منها، وهي التي تسمى اليوم بالإسبانية Fuengirola. وكان اسمها الروماني Selitane، فغيره المسلمون إلى "سهيل"، إذ كان يزعم أهل هذه الناحية أن النجم المسمى سهيلًا، يرى من أعلى الجبل المجاور لها، ويسمونها صاحب الروض المعطر "مرسى سهيل" <sup>(١)</sup>.

وسهيل أو "فونخرولا"، بلد كبير يقع على البحر مباشرة، فوق سفح الجبال المجاورة، على قيد ثلاثين كيلو مترًا غربي مالقة، ويمتد من الشاطئ إلى مسافة كبيرة، وإلى شرقها تقع بلدة صغيرة تسمى "بني المدينة" Beni Almedina، مما يحمل على الاعتقاد في أصلها العربي.

وإلى غربها تقع أطلال حصن أندلسي كبير، لم يبق منه اليوم، سوى أسواره الخارجية، وهي عبارة عن حظيرة مستنسة الأضلاع، يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثين مترًا، وفي إحدى أضلاعها نوافذ تعلوها الساريات الصغيرة، وهو يقوم على ربوة عالية، تقع على نحو كيلو متر من البلدة، وتشرف على البحر، ويبلغ ارتفاع الأسوار نحو عشرة أمتار، ومازل به برجان خربان، يرتفع كل منهما نحو ستة عشر مترًا، وليست به عقود أو سلامح عربية واضحة.

والمعروف من تاريخ هذا الحصن، أنه بُني في عهد عبد الرحمن بن الحكم، في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، واستمر قائمًا حتى انتهت دولة الإسلام في الأندلس، ثم عدل بناؤه أيام الإمبراطور شارلكن، فالطل القائم اليوم، إنما هو طلل هذا الحصن المعدل البناء.

ونجد آخر إشارة في الرواية الإسلامية لهذا الحصن، في رحلة ابن بطوطة، فهو يشير إليه، في حديثه عن رحلته إلى مالقة، ويقول لنا إنه سافر من مربلة، وهي بلدية حسنة خصبة، وقصد إلى حصن الرابطة المعروف بحصن سهيل، وقضى به الليل مع قائده، ثم سار من الغد إلى مالقة <sup>(٢)</sup>.

وفي حصن سهيل، كان مولد العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلي، وذلك في سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م).

<sup>(١)</sup> لروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٨٠.

<sup>(٢)</sup> رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٦.

## ١٢ - المنكب

### Almunecar

إن الطريق من مالقة إلى المنكب وشلوبانية، هي أيضاً طريق ألمرية، وهي طريق ضيقة ملتوية، صاعدة ومنخفضة، تجري على مقربة من البحر، في كنف هضاب ومرتفعات صخرية، تظللها من آن لآخر أشجار ونخيل وشجيرات زيتون، ويبلغ من اتواء الطريق أحياناً أن تتعاقب متدرجة في طبقتين أو ثلاث، وتعلو بذلك عن سطح البحر أربعين أو خمسين متراً، وتبعد المنكب تسعين كيلو متراً عن شرقي مالقة، ولؤل البلاد الكبيرة في هذا الاتجاه هي بلدة "نرخا" Nerja ومن بعدها تخرق الطريق الجبال باستمرار حتى المنكب.

وتقع المنكب على خليجين مقوسين متجاورين في البحر، وهي تغز جميل مشرق، وتحجبها الجبال من الناحيتين الشرقية والشمالية، ولها شاطئ طويل على البحر، تكثر فيه الخلجان الصغيرة، ويبدو حصنها المنيع في وسطها قائماً فوق ربوة عالية.

هبطت إلى المنكب في عصر يوم الميلاد<sup>(١)</sup>، وما كنت ألقى نظرة فاحصة على مواقع هذا الثغر الصغير، الذي يحتضن خلجانه، وتحجبه الجبال من ظهره، حتى ذكرت قصة عبد الرحمن بن معاوية، أو عبد الرحمن الداخل، وأدركت لماذا اختار هذا الأمير المغامر، أن ينزل في ثغر المنكب، ليجوز منه إلى داخل شبه الجزيرة، وأنه إنما اختاره لحصانته الطبيعية من البر والبحر.

قال صاحب الروض المعطار: "وبهذا المرسى (أي المنكب) خرج الإمام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس، وذلك في ربيع الأول من سنة ١٣٨، وابتلو مرسى المنكب، مدينة حسنة متوسطة، كثيرة مصايد السمك، وبها فواكه جمة"<sup>(٢)</sup>.

وهذا الوصف مازال ينطبق على "المنكب"، فهي مدينة جميلة متوسطة، تضم من السكان ثلاثة عشر ألف نفس، وتقع أحيائها الأمامية الحديثة على بسيط صغير يمتد على الشاطئ، وتقع معظم أحيائها القديمة على سطح الربوة، التي يقع الحصن في طرفها الجنوبي، والكنيسة العظمى في طرفها الشمالي، والجبال من وراء ذلك تشرف عليها، وقد رأينا حين طوافنا بالمدينة نخلاً مثمراً، في هذا الوقت من الشتاء.

(١) في يوم ٢٥ ديسمبر من سنة ١٩٥٩.

(٢) لروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٨٦.



المنكب. منظر عام للمنكب وثغرها



المنكب. أطلال الحصن المشرف على البحر

حصن المنكب؛ وأهم معالم المنكب الأثرية، هي أطلال حصنها الأندلسي، وهو الذي يشير إليه صاحب الروض المعطر بقوله: "وعليه (أي مرسى المنكب) حصن كبير لا يرام". والواقع أن هذه الأطلال المتناثرة، تدل بوعورتها على مناعته القديمة، وهو يبدو كثير الضلوع والمنحنيات، وله لسان يمتد من أسفل حتى شاطئ البحر، وقد حول هذا الحصن الدارس إلى مقبرة تدفن فيها أموات المدينة، وحولت أسواره من الداخل إلى طاقات (نيشات) صغيرة للمواطنين، توضع فيها الأشياء المقدسة واللوحات التذكارية. وفي داخله كنيسة صغيرة، ويدخل إليه من ممر تشرف عليه بقية عقد عربي، وللحصن طبق سفلي آخر تحيط به الأسوار المشرفة على البحر مباشرة، وقد أقيمت المباني بجوار الأطلال المتناثرة من كل ناحية، وهي تدلي في مجموعها، وبمسافاتها المتباعدة، بأن الحصن كان يشغل مساحة كبيرة.

ويرى الناظر من أعلى الحصن، على بعد، أثرين آخرين، هما برجان يرجعان إلى أصل عربي، وهما البرج المسمى Torre del Monje (برج الراهب)، وهو يقوم على لسان داخل في البحر، وبرج آخر يقع في ناحية الشرق، ويشرف على الشاطئ أيضاً.

والواقع أنه توجد على طول الشاطئ الممتد من مألقة إلى المنكب أبراج كثيرة مستكيرة، تقع على مسافات متباعدة، ومنها ما يرجع إلى أصل أندلسي، والظاهر أن معظمها أقيم فيما بعد، في أوائل القرن السادس عشر، حينما بدأت غارات المجاهدين المسلمين البحرية على الشواطئ الإسبانية.

وتقوم وراء الحصن من الجهة الشمالية، ربوة عليها دروب ومسالك ضيقة متصاعدة، يبدو أنها تقوم على خطط المدينة الأندلسية القديمة. أما أحياء المدينة الحديثة، فتقوم حسبما تقدم على شاطئ البحر، ومنها منازل وفنادق جميلة أعدت للمصيف.

الكنيسة العظمى؛ وتقع الكنيسة العظمى، في شمالي المدينة، قبالة الحصن، على مسافة نحو أربع مائة متر، وهي كبيرة وقديمة، بنيت على الطراز القوطي، ومن المرجح أنها أقيمت على موقع المسجد الجامع القديم.

وفي المنكب عقود قطرة رومانية قديمة، تقع خلف المدينة في الشمال.

وقد سقطت المنكب في أيدي القشتاليين في شهر المحرم سنة ٨٩٥ هـ، الموافق شهر ديسمبر سنة ١٤٨٩ م.

### ١٣ - شلوبانية

#### Salobreña

تقع شلوبانية أو شلوبينية على مسافة أربعة عشر كيلو مترًا شرقي المنكب، وهي بلدة صغيرة جميلة، تقع على ربوة مستطيلة متصاعدة، تمتد على شاطئ البحر، وتحيط بها الجبال من الشمال والغرب، ويخترقها من أولها إلى آخرها طريق طويل؛ وأمامها ربوة أخرى بارزة في البحر عليها بعض الأحياء الحديثة. ومنازلها جميعًا بيضاء، وسقوفها من القرميد الأحمر.

وحصن شلوبانية هو أهم آثارها الأندلسية الباقية، وهو يقع في وسط المدينة على منحدر صخري وعز، مشرف على البحر، ومنخله عقد مزدوج تلوه قبة معقودة، وأسواره سميكة عرضها نحو ثلاثة أمتار، وهي ما تزال تحمل سواربها العربية القديمة وقد أصلحت، وفي داخله في مواجهة البحر، عقد ومنخل جانبي آخر يفضي إلى وسط الحصن، وقد بقي من أبراجه برج كبير ارتفاعه نحو ثمانية أمتار في مثلها، وقد أصلح وجدد، وتوجد في وسطه أساسات بناء قديم آخر، ربما كانت لمنزل الحاكم. وهو يشرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق، ويبدو من مجموعة أطلاله، أنها أطلال القسبة القديمة، وأن القسبة كانت تشغل مساحة شاسعة، وتتصل بأسوار المدينة العامة.

الكنيسة العظمى: وتقع الكنيسة العظمى، على مقربة من الحصن، فوق الربوة المشرفة على البحر، وهي صغيرة الحجم، وبرجها مربع عال يبلغ ارتفاعه نحو خمسة وعشرين مترًا، وهو ذو طرز عربي تقريبًا، على مثل طرز المنارة الموحدية (لأخير الدا)، وهي تحتل بلا ريب موقع الجامع القديم.

وقد سقطت شلوبانية في يد الملكين الكاثوليكين، في نفس الوقت الذي سقطت فيه المنكب، أعنى في سنة ١٤٨٩ م.

وإلى شلوبانية ينسب إمام النحو الأندلسي أبو علي الشلوبين المتوفى بإشبيلية سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م).





شلوبانية. منظر عام للبلدة وقد ظهر في أعلاها الحصن



شلوبانية. الكنيسة العظمى

## ١٤ - متريل

### Motril

وإلى شرقي شلوبانية، تقع مدينة متريل على بُعد ستة كيلو مترات منها، وهي مدينة كبيرة تطلّ على الجبال شرقاً وشمالاً، وتبعد قليلاً عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

وكانت متريل من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية، سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٩ م؛ وكانت لها أسوار ذات بابين، وبها ثلاثة مساجد، فلما تغلب عليها النصارى، هجرها سكانها المسلمون إلى المغرب في سنة ١٥٠٧ م، وغلّب في سكانها الموريسكيون (أو العرب المنتصرون). وكانت خلال القرن السادس عشر عرضة لغارات المجاهدين البحرية، التي قادها أمير البحر التركي خير الدين عسراء، ومن بعده زعماء المجاهدين من المغاربة والموريسكيين.

ولا توجد في متريل آثار أندلسية ظاهرة، ولكن كنيسة المسمّاة La Virgen de la Cabeza (عذراء الرأس) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بذكرى أندلسية مؤثرة؛ ذلك أنها تقوم فوق ربوة تقع في وسط المدينة ومن حولها المزارع والتلال في السهل، وتُشرف على البحر، وكان يحتل هذه الربوة من قبل حصن أو قصر إسلامي، كانت تعيش فيه الملكة عائشة الحرة، والدة السلطان أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة، فلما سقطت متريل في أيدي القشتاليين في سنة ١٤٨٩ م، أمر الملك الكاثوليكيان بهدم هذا الحصن، وأقيمت فوق موقعه الكنيسة المذكورة. واستمرت هذه الكنيسة قائمة مدى عصور، حتى خربت أيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة، ثم أعيد بناؤها في نفس المكان، وربما على نفس طرازها القديم، بيد أنه لا يوجد في البناء الجديد شيء من آثار البناء القديم.

## ١٥ - ألمرية

### Almeria

تعتبر ألمرية من أجمل الثغور والمدن الإسبانية، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وهي مدينة كبيرة مستطيلة الشكل، تمتد قاعدتها الكبيرة من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط، ويقال إن اسمها مشتق من كلمتين عربيتين هما "مرآة البحر".

وألمرية مدينة أنيقة مشرفة، يشقها من الوسط شارع عظيم، تحف به الأشجار الباسقة من الجانبين، ويسمى اليوم "متنزه الجنرال الأعظم" "Paseo del Generalísimo" وكان من قبل يسمى "شارع الأمير" "Avenida del Principe"، وتقع فيه معظم المتاجر والمقاهي والفنادق الكبيرة، وتتفرع منه على الجانبين شوارع كثيرة. وأحياء المدينة كبيرة مشعبة، وهي على العموم أكثر تساعاً ورونقاً ونظافة من غيرها من المدن الإسبانية المماثلة. وشوارع المدينة كلها مرصوفة بادية النظافة، وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة، وكثير من منازلها في الأحياء الداخلية ذو طابق واحد.

ويصل داخل المدينة بالميناء طريق طويل، يشقه متنزه ضيق غرست على جانبيه أشجار النخيل، وصفت المقاعد، وهو من أجمل الطرق التي شيدناها في المدن الإسبانية. ويبلغ سكان ألمرية اليوم زهاء ستين ألف نسمة، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفولاذ.

وتصل إلى ألمرية من غرناطة بالقطار عن طريق وادي آش، خلال وهاد وتلال وعرة جرداء. وقبل ألمرية بقليل تقوم بلدة "غدر" "Gador"، وهي تقع في واد عميق أخضر، به زروع نصرة وحدائق يرتقال غناء، وتليها بلدة "Benabadux" وأصل اسمها عربي هو بنو عبوس، وهي تقع في بسيط أخضر وبها نخيل كثير وحدائق، ثم بلدة بجانة "Pechina" ذات الأصل الأندلسي العربي. وقبل ألمرية تكثر البساتن الخضراء والنخيل، تحدها الجبال من ناحية، والبحر من الناحية الأخرى.

وكانت ألمرية في العهد الإسلامي من أهم ثغور الأندلس الجنوبية، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر ميناءها وأرصفها في سنة ٩٥٥ م. وكانت أيام الطوائف قاعدة مملكة صغيرة زاهرة أولاً في ظل الفتيين العامريين خيران ثم زهير (١١٠٤ - ١١٣٨ م)، ثم بعد ذلك في ظل بني صُعادح (١٠٤١ - ١٠٩١ م). ثم كانت أيام مملكة غرناطة، فضلاً عن أهميتها

## ١٥ - ألمرية

### Almeria

تعتبر ألمرية من أجمل الثغور والمدن الإسبانية، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وهي مدينة كبيرة مستطيلة الشكل، تمتد قاعدتها الكبيرة من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط، ويقال إن اسمها مشتق من كلمتين عربيتين هما "مرآة البحر".

وألمرية مدينة أنيقة مشرفة، يشقها من الوسط شارع عظيم، تحف به الأشجار الباسقة من الجانبين، ويسمى اليوم "متنزه الجنرال الأعظم" "Paseo del Generalísimo" وكان من قبل يسمى "شارع الأمير" "Avenida del Principe"، وتقع فيه معظم المتاجر والمقاهي والفنادق الكبيرة، وتتفرع منه على الجانبين شوارع كثيرة. وأحياء المدينة كبيرة مشعبة، وهي على العموم أكثر تساعاً ورونقاً ونظافة من غيرها من المدن الإسبانية المماثلة. وشوارع المدينة كلها مرصوفة بادية النظافة، وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة، وكثير من منازلها في الأحياء الداخلية ذو طابق واحد.

ويصل داخل المدينة بالميناء طريق طويل، يشقه متنزه ضيق غرست على جانبيه أشجار النخيل، وصفت المقاعد، وهو من أجمل الطرق التي شيدناها في المدن الإسبانية. ويبلغ سكان ألمرية اليوم زهاء ستين ألف نسمة، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفولاذ.

وتصل إلى ألمرية من غرناطة بالقطار عن طريق وادي آش، خلال وهاد وتلال وعرة جرداء. وقبل ألمرية بقليل تقوم بلدة "غادر" "Gador"، وهي تقع في واد عميق أخضر، به زروع نصرة وحدائق يرتقال غناء، وتليها بلدة "Benabadux" وأصل اسمها عربي هو بنو عبوس، وهي تقع في بسيط أخضر وبها نخيل كثير وحدائق، ثم بلدة بجانة "Pechina" ذات الأصل الأندلسي العربي. وقبل ألمرية تكثر البساتن الخضراء والنخيل، تحدها الجبال من ناحية، والبحر من الناحية الأخرى.

وكانت ألمرية في العهد الإسلامي من أهم ثغور الأندلس الجنوبية، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر ميناءها وأرصفها في سنة ٩٥٥ م. وكانت أيام الطوائف قاعدة مملكة صغيرة زاهرة أولاً في ظل الفتيين العامريين خيران ثم زهير (١١٠٤ - ١١٣٨ م)، ثم بعد ذلك في ظل بني صُعادح (١٠٤١ - ١٠٩١ م). ثم كانت أيام مملكة غرناطة، فضلاً عن أهميتها



المرية. منظر عام لحدائق القصة وسورها الخارجية



المرية. منظر الميناء، وقد اشرفت عليها اطلال القصة



والى جانب هذه المجموعة الكبيرة من أطلال القسبة، توجد مجموعة أخرى أصغر منها، وتقع فى شمالها على ربوة عالية منفصلة عنها، وبها خمسة أبراج صغيرة، وقد نصب على قاعدة أمامية فيها تمثال للقديس كرسطوبال.

ولسوار القسبة فى حالة جيدة من الحفظ، وتبدو مشارفها جميعاً متصلة منسقة، وقد أجريت فى الأطلال كلها أعمال تجديد أسبغت عليها رونقاً ورواء.

ويقع وراء هذه المجموعة الكبيرة من الأطلال من الناحية الشمالية، بقية من أبراج ولسوار سفلية، تصل بينها وبين القسم الآخر المواجه لها، مما يدل على أن القسمين كانا متصلين فى الماضى، ولأنهما كانا يؤلفان معاً جبهة دفاعية منيعة.

ولم نجد بالأسوار أو الأبراج أية زخارف أو نقوش عربية، والظاهر أنها محيت بمضى الزمن، ومن جراء أعمال التجديد والإصلاح، التى قامت بها السلطات الإسبانية.

وقد أقيما من أعلى القسبة على ألمرية الجميلة نظرة طويلة، فإذا بها تبدو بشوارعها المنسقة ومنازلها الجميلة الوضاعة فى شكل بيضاوي، ومن وراء ضلعها الكبير بسيط أخضر، يليه البحر بمياهه الزرقاء الهائلة. ويقع الميناء فى مواجهة القسبة، ومن وراء الخليج المستطيل الذى تمتد على شاطئه المدينة من ناحية الشرق، تبدو سلسلة من التلال القائمة، والحق إنه كان منظرًا بالغ الروعة.

\* \* \*

ولم يفتنا أن نזור كندرائية ألمرية، وهى تقع فى وسط المدينة، بين شبكة من الدروب الضيقة، وهى مثل معظم الكنائس المماثلة قد بنيت على النمط القوطى، وليست بها خوص تاريخية أو أثرية مميزة. والمرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد ألمرية الجامع، جرياً على القاعدة التقليدية التى اتبعتها إسبانيا النصرانية فى سائر مدن الأندلس.



أنبرية. منظر عام لواجهة القسبة الأندلسية  
(قسبة خيرن العامري) وقد ظهرت بها الأبراج والمشارف الباقية

بيد أنه يقال من جهة أخرى إن كنيسة سان خوان، وهي إحدى كنائس المريّة القديمة، هي التي بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع. ويقول الأستاذ جومث مورينو تأييداً لهذا الفرض إنه توجد في هذه الكنيسة آثار بناء سابق، يرجع إلى أوائل القرن الحادي عشر، وهو الوقت الذي جدد فيه خيران العامري المسجد<sup>(١)</sup>.



وهناك في نهاية المدينة على طريق سالقة، يقوم طلل قديم دارس، فوق ربوة عالية تطل على البحر، ويطلق عليه اسم حصن سان تلمو "Castillo de San Telmo" ويقولون إنه من آثار المسلمين. وقد صعدنا إلى أعلى الربوة رغم ارتفاعها الشاق ووعورة مسالكها، لنفحص هذا الطلل، فإذا به عبارة عن أسوار قديمة مربعة بينها فراخ، ولا يدل منظرها أو بناؤها على أية أهمية أو خاصة لثرية.

المريّة، الكنتريالية أو الكنيسة العظمى

<sup>(١)</sup> Góñez – Moreno: Ibid, p. 266.

## ١٦- رندة

### Ronda

تقع مدينة رندة غربي مالقة، تفصل بينهما منطقة تمتاز بوعورتها، وكثرة جبالها وأكامها، وقلة بمائطها، ووديانها القفرة السحيقة، وهي تكاد تخلو من الرقاع الخضراء، إلا بعض شجرات الزيتون المتناثرة هنا وهناك، وتبدو البساط قبل رندة بقليل، ولكنها بمائط صفراء، تتخللها في نفس الوقت منحدرات مدرجة، وكلها مغطاة بأشجار الزيتون، وليست بها أية زروع أخرى،

وقد كانت رندة من أهم القواعد الأندلسية الثالثة، ثم كانت بعد ذلك من أهم مدن مملكة غرناطة الإسلامية، وكانت معقلًا حصينًا يحمي مالقة من الغرب. فلما سقطت رندة في يد القشتاليين، في جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ (أبريل سنة ١٤٨٥ م) بعد حصار قصير، أصبح الطريق ممهدًا لاستيلاء النصارى على مالقة، وقد سقطت فعلاً في أيديهم بعد أمد قصير في شعبان سنة ٨٩٢ هـ (أغسطس سنة ١٤٨٧ م).

وتتمتع رندة بموقع طبيعي رائع، فهي تقع فوق منطقة من الزبي المرتفعة، تحيط بها الوديان السحيقة والأكام العالية، تتخللها قليل من البساط، التي تنمو بها زروع ضئيلة، ويشقها من وسطها نهر وادي لبين "Guadalebin"، في مجرى عميق ينساب إلى بطن الوادي السحيق، وعليه قناطر ثلاث: الرومانية والعربية والحديثة. وقد وصف الرحالة ابن بطوطة مدينة رندة حينما زار الأندلس سنة ١٣٥٠ م بقوله: "وهي من أمتع معقل المسلمين وأجملها وصفًا"<sup>(١)</sup>.

وتتخذ رندة طابعًا خاصًا، فهي مدينة يغلب عليها القدم والبساطة، وتحتفظ بكثير من طابعها وخططها الأندلسية القديمة، فمعظم دروبها ضيق متعرج، ومعظم منازلها منخفضة ذو طابق أو طابقين، ويحتوي على الأفنية الداخلية ذات الأشجار، والمزينة "بالموزيك" الأندلسي عند المنخل، ولا يبدو فيها سوى القليل من المنازل الحديثة العالية.

ورندة مدينة متوسطة الحجم، مشرقة الطالع بالرغم من قدم طابعها، يشقها من الشمال إلى الجنوب شارع طويل جدًا، يسمى في نصفه الأول بشارع "Paz de la Virgen"، ثم يسمى بعد ذلك بشارع "Armiñan". وهذا الشارع هو قلب المدينة وفيه المتاجر والمقاهي،

<sup>(١)</sup> رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٥.

ويقع في منتصفه مسرح الثيران، وهو أقدم مسرح من نوعه أُنشئ في إسبانيا، وكان إنشاؤه سنة ١٧٨٤، ويمتاز بمنخله المعقود ذي الزخارف الشبيهة بالمدجنية، ويقع بعده بقليل متنزّه المدينة وهو يشرف من علٍ على الوادي السحيق، الذي يحد المدينة من الغرب وله مشرفيات بارزة مشبكة بالقضبان الحديدية، تسمى الوسطى منها "منظرة الملكين الكاثوليكين".

ويتفرع من هذا الشارع الرئيسي شوارع جانبية عديدة، لا سيما في الناحية اليسرى حيث تمتد الشوارع صاعدة طويلة، أما الناحية اليمنى، فتمتد نحو الوادي العميق بضعة شوارع قصيرة، وأهم الشوارع الجانبية اليسرى هو شارع "La Vela" التجاري، وهو شارع ضيق يغص بالمتاجر ويمتد نحو كيلو متر، ويبلغ سكان رنדה أكثر من ثلاثين ألفاً.

### المعالم والآثار الأندلسية

وما زالت رنדה فضلاً عن طابعها الأندلسي، تحتفظ بطائفة هامة من الآثار الأندلسية. وفي مقدمة هذه الآثار أطلال قصبة رنדה الشهيرة، وهي تقع فوق ربوة عالية تطل على الوادي السحيق، الذي يقع جنوب غربي المدينة وتظله الأكم العالية. ولم يبق اليوم من هذه الأطلال، سوى جزء من السور، وثلاث بوابات ضخمة، وبقيت أبراج دارسة. وفي أسفل هذه المجموعة من الأطلال، يقع عقد باب من أبواب القسبة. وقد كان موقع قصبة رنדה فيما يبدو وعراً جذاً، والظاهر أنها كانت تمتد إلى مسافة كبيرة على حافة الهاوية، وقد ذكر لي الأستاذ الأب رمباو مدير معهد السليمان الديني، القريب من هذه الأطلال، أن أسوار المدينة القديمة كانت تمتد من القسبة، وأن هذا المعهد قد بُني فوق أنقاض فناء القسبة، وما زال يسمى حتى اليوم "الحصن" "El Castillo" تنويهاً بموقعه القديم.

وتقع الكنيسة العظمى المسماة "Sta Maria la Mayor" في طرف المدينة الجنوبي، على مقربة من الحصن، وهي أقدم كنائسها، وقد بُني نصفها القديم وهو الذي به الهيكل، في أواخر القرن الخامس عشر، فوق موقع جامع رنדה القديم، وأدمج في بناء هذا القسم من أطلال الجامع أربع قباب عربية صغيرة، ركبت في سقف الكنيسة، وهي ظاهرة وحيدة الطراز. أما القسم الآخر من الكنيسة فهو حديث.

والظاهر أن المدينة الأندلسية القديمة، كانت تقوم حول الكنيسة العظمى. مبتدئة من جانب القسبة حتى منزل المركيز دي سالبتييرا الذي يجيء ذكره، وحتى القنطرة العربية المجاورة له، وأن أسوار رنדה القديمة كانت تحيط بهذا القسم من المدينة. أما القسم الحديث من المدينة فهو الممتد من عند مدخلها حتى القنطرة الحديثة.





رندة. القنطرة العربية على نهر وادي لبين

القنطرة العربية: وهي على صغرها من أهم الأثر الأندلسية الباقية، وهي صخرية منيعة، تقوم على النهر في منخفض عميق، عند مدخل المدينة الغربي، وفي أضيق جزء من مجراه، وهي ذات عقد واحد رائع بالغ الارتفاع، والنهر يمر من تحتها بين صخور وعرة شاهقة. وتقع على مقربة منها القنطرة الأخرى المسماة "القنطرة الجديدة"، في وسط المدينة، في امتداد الشارع الرئيسي، وهي ذات عقدين كبيرين، وقد أنشئت في أواخر القرن الثامن عشر.

الحمامات العربية: وهي أطلال دارسة من حمامات أندلسية قديمة، تقع في طرف رندة الجنوبي، على مقربة من الكنيسة العظمى، في بسيط منخفض، وهي عبارة عن أربعة عقود متقابلة في صفين، يظلها سقف مقبب ذو ثلاث بؤثك، وتتخلله كوات النور المعروفة، وإلى جانبها مكان البركة، التي كانت تمد الحمامات بالماء، وتحتها الأسراب التي تستعمل للتصفية، وقد أضحي هذا الأثر في حالة خراب، يخشى أن تؤدي إلى انهياره في المستقبل القريب؛ لأنه يقع في ملك خاص ولا يعنى بصيانته أحد.

وقد رأينا إلى جانب هذا الطلل عدة أحجار وأنقاض أثرية، بينها لوحة خشبية طويلة كُتب عليها ما يأتي: "لا إله إلا الله. يا أيها المجلس. الحمد لله فإنك الطالع".

المنارة: تقع هذه المنارة البتيمة، في نهاية المدينة قبيل الكنيسة العظمى بقليل في ميدان صغير، وهي مربعة الشكل، تقوم فوق الأرض مباشرة بين منزلين صغيرين، ويبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر متراً فقط، ويوجد في وسطها في كل جانب من جوانبها الأربعة كوتل، وقد سدت الكوت في جانبيين، وبقيت في الجانبين الآخرين نكل على أصلها الإسلامي، وعلى

صفتها كمئذنة لمسجد صغير، وقد حُول المسجد فيما بعد إلى كنيسة، واتخذت المئذنة برجًا للأجراس، ثم دمت الكنيسة، وبقي البرج أو المئذنة القديمة. والظاهر أنها ترجع إلى عصر الموحدين، إذ هي تشبه طراز مآذن عصرهم. ومما يجدر ذكره أن جزأها الأعلى هو الذي عُزِلَ وحُوِّلَ إلى برج للأجراس، وبقي جزؤها الأسفل على بنائه الإسلامي.

قصر الأمير أبي مالك: هو أثر أندلسي مغربي رائع، مازالت خواصه ونقوشه الإسلامية، باقية في أروع مظاهرها. وهو يعرف في رندة أيضًا باسم "منزل خيجانتي" "Casa del Gigante"، وهو اسم الأسرة التي تملكه. ويقع هذا المنزل في طرف المدينة الجنوبي، على مقربة من الكنيسة العظمى، في بعض الدروب الضيقة، وله فناء أندلسي رائع يزدان أحد جوانبه بستة عقود عربية، وقد زينت رعوس أعمدتها بالزخارف العربية الجميلة، وفي بعض حناياه عقود رخامية، وعقود نوافذ صغيرة بها زخارف وكتابات عربية، وتوجد بجوار الفناء قاعة نوم أندلسية، ذات سقف خشبي مطعم بالمقرنصات الجميلة، وفيها عقدان كبيران متقابلان قد غُصَّتا بالزخارف والكتابات العربية، كذلك يوجد في أعلى جانبي القاعة كثير من النقوش الرخامية المنقطة، ومعظم هذه الكتابات آيات قرآنية وأدعية ونحبات.

ويوجد في وسط الفناء حوض ماء قديم مربع الشكل. وبالمنزل بئر يمدد بالماء.

وينسب هذا المنزل للأمير أبي مالك ولد السلطان أبي الحسن المريني. ونحن نعرف أن ابن الأحمر ملك غرناطة، نزل عن مدينة رندة وحصونها إلى بني مرين ملوك المغرب، في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ثمًا لعونهم إياه ضد القشتاليين، وبقيت في أيديهم حينًا. وقد أقام الأمير أبو مالك برندة فترة من الوقت، والظاهر أنه أنشأ قصره المشار إليه في هذا الحين، واتخذة مقرًا لإقامته.

ويرى بعض الأثريين من جهة أخرى، أن هذا المنزل كان ملكًا لأحد أكبر المغاربة ثم استولى عليه بعد الفتح النصراني، بعض الحكام النصارى، وتعاقب في الملكية من بعده أعيان القشتاليين<sup>(١)</sup>.



رندة. المنارة العربية



رندة. بقايا الحمامات العربية



رندة. باب المغائر من أبواب رندة الإسلامية

منزل الملك العربي: هذا المنزل حديث النشأة، فخم، بُني على طراز شبه عربي، وهو يسمى منزل مندراجون "Mondragón"، ولا ندري لماذا سمي أيضاً بمنزل الملك العربي "Casa del Rey Moro"، لأنه بحدثة عهده لا يمكن أن يمت بصلة إلى العصر الإسلامي. بيد أنه يوجد خلفه سلم حجري محيق يتكون من ٣٦٥ درجة، وينزل إلى النهر الواقع وراء المنزل، وهذا السلم قديم العهد، يرجع فيما يبدو إلى عصر بني مرين في رندة؛ لأن الملك العربي الذي ينسب المكنى إليه، ربما كان أيضاً الأمير أبو مالك المريني. وقد أحيط اكتشاف هذا السلم بقصص ولساطير مغرقة. وربما كان تفسير نسبة هذا المنزل للأمير المسلم، أنه بُني على أنقاض قصر إسلامي سابق.

منزل المركز سالبيرا: ويقع بعد منزل الملك العربي بقليل على مقربة من النهر، وهو قصر فخم ذو فناء أندلسي، تزيينه من جوائبه الأربع عقود أندلسية بديعة.

باب المقابر Puerta de Almocobar: ويقع في حي سان فرانسكو، في طرف المدينة الجنوبي الشرقي، على مقربة من الكنيسة العظمى، وهو ذو أربع عقود عربية، ويوصف بأنه أحد الأبواب الثلاثة الرئيسية، التي كانت مدخل رندة في العهد الإسلامي.

وقد رأينا قبيل رندة وعلى مقربة منها في الطريق إلى شريش، طلالاً كبيراً يتكون من عقود عديدة. والظاهر أنه كان قنطرة رومانية قديمة.



## ١٧ - مدينة طريف

### Tarifa

كانت طريف أو جزيرة طريف، أول بقعة إسبانية وطنتها أقدام الغزاة المسلمين، ففي سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) عبرت حملة إسلامية صغيرة جهازها والى إفريقية موسى بن نصير، البحر من سبتة بقيادة طريف بن مالك، أحد الضباط البربر، ونزلت بالبقعة المقابلة في اتجاه الغرب، في شبه الجزيرة الإسبانية، وهي التي سميت باسم قائد الحملة جزيرة طريف.

وتقع جزيرة طريف أو مدينة طريف، فوق لسان منبسطة أخضر، يمتد في البحر في جنوب غربي المثلث الإسباني، وتقع قبالتها الجزيرة الخضراء في الناحية الشرقية، وتفصل بين الجزيرة الخضراء وطريف، سلسلة من التلال المتصلة، تتخللها بعض الوديان الصغيرة المنخفضة، وهي بقعة جرداء لا تبدو فيها سوى بعض النباتات والحشائش البرية، وترتفع هذه الهضبة تدريجياً حتى تعلو سطح البحر، ثم تنخفض بعد ذلك على مقربة من طريف، وتبدو فيها أشجار الزيتون تغطي بعض البساتين والمرتفعات.

وطريف من المدن الأندلسية النادرة. وقد كانت أيام الدولة الإسلامية، مثل جبل طارق والجزيرة، ذات أهمية بحرية خاصة، ومركزاً لنزول الجيوش المغربية العبرة، وقاعدة من قواعد الوصول بين المغرب والأندلس، وقد لبثت حتى أواخر الدولة الإسلامية تحتفظ بأهميتها الحربية، وسقطت في يد النصارى في سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) في عهد ملكهم سانشو الشجاع، ولم يستطع المسلمون، رغم تكرار المحاولة، أن يستردوها منهم بعد ذلك.

وهي مدينة صغيرة جميلة تبدو بيضاء مشرقة، على خليج مستدير في البحر، وتكاد تحيط بها مياه البحر إلا من ناحية واحدة تحدها الجبال، وتستطيع أن ترى من شاطئها جبال المغرب الواقعة ما بين سبتة وطنجة. ويلوح لنا أن المدينة الأندلسية القديمة، كانت تقع تحت أسوار حصنها الذي ما يزال قائماً في شرقها، بينه وبين الكنيسة القديمة، التي أصبحت اليوم طلاً دارساً، وتقع كنيسة الرئيسة الأخرى وهي كنيسة سان ماتيو في وسطها، وتخترق المدينة من الوسط عدة شوارع قصيرة ظليلة. وتخترقها من أطرافها دروب ضيقة متعرجة، ومنزلها منخفضة ذات طابق أو طابقين، ويقع شارعها الرئيسي خارجها، ويمر من تحت "باب شريش" "Puerta de Jerez"، وهو باب أندلسي قديم، ذو ثلاثة عقود داخلية، وقد أصلح وغيّرت بعض معالمه العربية، ووضعت عليه لوحة هذا نصها:

"Muy noble muy léal y heroica ciudad de Tarifa ganaba a los



Moros Sancho IV El Bravo en 21 Septiembre de 1292"

"إن مدينة طريف وافرة النبل، وافرة الولاء والبسالة، قد انتزعتها من المسلمين سانشو الرابع "الشجاع" في ٢١ سبتمبر سنة ١٢٩٢".

وإلى ما قبل نصف قرن فقط، كانت الأسوار الأندلسية التي تحيط بمدينة طريف ما تزال كلها قائمة، ولكنها زالت اليوم ولم يبق منها سوى بضعة أجزاء، تمتد إلى يسار باب شريش، ومنها قطعة صغيرة بها عدة كوى، يليها قطعة كبيرة يبلغ طولها نحو خمسين مترًا، وهي ممتدة نحو الداخل في اتجاه الحصن، حيث يكاد يبدو اتصالهما القديم. وتؤلف هذه البقية من الأسوار مع الحصن مجموعة كبيرة من الأطلال الأندلسية. كذلك توجد إلى يمين باب شريش، قطعة أخرى من الأسوار القديمة تتصل بمتنزه المدينة.

وتتفرع من باب شريش إلى داخل المدينة، شبكة من الدروب الضيقة الصاعدة هنا وهناك، وهي تمتاز بطابعها ومنازلها الأندلسية الطراز. ويبلغ سكان طريف زهاء خمسة عشر ألفًا.

## الحصن

والأثر الأندلسي البارز في طريف هو الحصن، وهو فيما يرجح بقية القسبة الأندلسية القديمة، يدل على ذلك موقعه المنيع المشرف على المدينة، والذي يحميه البحر من خلفه. والظاهر من أوصاف الغزال أن القسبة الأندلسية، كانت وقت زيارته لمدينة طريف في سنة ١٧٦٥، كاملة الهيكل والأبراج، فهو يقول في وصفها:

"ولما وصلنا القسبة، وجدناها باقية على ما تركها المسلمون رحمهم الله، لها من الأبراج ثمانية عشر، وقدر ارتفاع السور والأبراج عشر قلمات، وفيما بين البرج والذي يليه في نفس السور آجر مزدوج مرقوم، لمعانه عند مقابلته للشمس كالمرآة، وقدر مساحة الزليخ المذكور، أربعة أدرج طولاً وعرضاً، وبناء هذه القسبة من الحجر المنجور الشبيه بالرخام، وبأعلى بابها رخامة مكتوب عليها بخط كوفي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً، أمر عبد الله عبد الرحمن الداخل أمير المؤمنين...." وما بعده فمحمو<sup>(١)</sup>.

أما اليوم فلمن حصن طريف عبارة عن قلعة صغيرة، مازالت في حالة جيدة من الحفظ. وهو يقع على البحر، وله فناء كبيران، ويدخل إليه من باب ذي عقد عربي، وبعد الفناء الأول يدخل إليه من بابين متواليين معقودين، وقد زالت سائر أبراجه العليا، ولم تبق منها سوى آثارها ومواقعها، ويتصل الحصن من جانبه الخلفي بأطلال أسوار المدينة القديمة.

(١) رحلة لغزال ص ١٦.

وتوجد في حصن طريف لوحة رخامية عربية مثبتة في عقد بابه الداخلى مكسورة ومصححة، وقد كادت تُمحي نقوشها الكوفية القديمة، وقد جاء فيها ما يأتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين  
أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطل الله (بقائه) ببنيان هذا البرج فتم (بعون الله) في  
شهر صفر من سنة تسع وأربعين وثلاث مائة على يدي وزيره عبد الرحمن بن خير مولاه".  
والظاهر أن الغزال قد وهم في قراءة هذا النص، أو أنه قرأ لوحة أخرى لا توجد اليوم.

ويستعمل الحصن اليوم مركزاً عسكرياً، وتشغله فرقة من الجنود الإسبان.

وتقع أمام حصن طريف في البحر، جزيرة صخرية صغيرة محصنة يربطها بالمدينة  
جسر ضيق.



طريف. باب شريش، وهو مدخل المدينة



طريف. منظر عام لبقايا الحصن الأندلسي

## ١٨ - الجزيرة الخضراء

### Algeciras

كانت الجزيرة الخضراء حينما عبر المسلمون إلى الأندلس، محلة رومانية دارسة، فجدها المسلمون وأنشئوا بها مدينة زاهرة، استمرت قروناً في مقدمة الثغور الجنوبية، وزادت أهميتها في أواخر عصر الدولة الإسلامية؛ لأنها كانت إلى جانب جبل طارق وطريف، قاعدة للاتصال بين المغرب والأندلس.

وسقطت الجزيرة الخضراء في يد القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤٢ م)، عقب معركة "سالادو" الشهيرة، التي هزمت فيها جيوش المغرب والأندلس، بقيادة السلطان أبي الحسن المريني والسلطان يوسف أبي الحجاج. واستولى ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة على الجزيرة الخضراء وخربها، وحول مسجد الجامع إلى كنيسة، سميت كنيسة "Sta. Maria de las Palmas" (الكنيسة مريم ذات النخيل)، وهي التي شُدت فيما بعد كنترائية. ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين استعملوا في هذه الموقعة، ما يسمى في تاريخ الأندلس "بالأنفاط"، وهي آلات تقذف النار والحديد، ويقال إن الأندلسيين كانوا قد توصلوا يومئذ إلى اكتشاف البارود، وأن الأنفاط لم تكن سوى نوع من المدافع البدائية.

ولاستمرت الجزيرة الخضراء أطلالاً خربة، حتى أعاد الإسبان بناءها في سنة ١٧٦٠، في عهد الملك كارلوس الثالث. وهذا هو السر في أن الجزيرة الخضراء، تبدو مدينة نصرانية حديثة لا صلة لها بالعهد الإسلامي، وليس فيها آثار أندلسية أو غيرها. وقد بنيت كنيستها العظمى "Iglesia Mayor" على موقع الكنترائية القديمة، وبنيت على طراز الجامع، ذات عقود عربية، وهي تقع على ربوة في الجانب الأيسر من المدينة. والظاهر أن المدينة الإسلامية القديمة كانت تقع حول هذه الربوة، حيث تحتل الكنيسة العظمى موقع المسجد الجامع.

ومدينة الجزيرة ثغر كبير، يقع على خليج داخلي مستدير، تجاه جبل طارق، التي لا تبعد عنها بالبحر أكثر من ستة أميال، وتقع من ورائها سلسلة من التلال، في سفوحها بسيط أخضر، ينمو فيه القمح وشجرات الزيتون، وشوارعها صاعدة نحو الربوة، ومنازلها بيضاء على الأغلب، وميادينها صغيرة تقوم فيها أشجار النخيل. وأمامها في الخليج جزيرة صغيرة بها عدد من الأبنية، ويربطها بها جسر كبير.

وتقع الميناء شمال المدينة، وهي ميناء متوسطة ترسو بها السفن الكبيرة. وتربط الجزيرة خطوط بحرية منتظمة بتغور المغرب الشمالية، ولا سيما سبتة وطنجة، وهي معبر إسبانيا المفضل إلى المغرب.

ويبلغ سكان الجزيرة مثل طريف زهاء خمسة عشر ألفاً.

ويصل الجزيرة بتغر قانس طريق سيارات معبد، يمر بطريف ثم يخترق بسائط الفرنتير، في الناحية الأخرى من المثلث الإسباني، ماراً ببلدة فخر الفرنتير، ثم بشكلانا، ثم بسان فرناندو، وهو خلال ذلك يخترق بسائط خضراء تتخللها التلال من آن لآخر، وتتخللها مزارع القمح وغابات الزيتون. ومنذ سان فرناندو تبدو منطقة شاسعة غنية بالملاحات العظيمة حتى تغر قانس.

## ١٩ - جبل طارق

### Gibraltar

لم تكن جبل طارق أول بقعة من شبه جزيرة الإسبانية نزلها المسلمون، وإن كانت أول بقعة نزلها الجيش الإسلامي الفاتح. أما أول بقعة إسبانية نزلها المسلمون فهي جزيرة طريف، أو مدينة طريف الإسبانية، التي تقع جنوبي ثغر الجزيرة في الطرف الغربي لمضيق جبل طارق، والتي سبق الحديث عنها.

وإنك لتستطيع أن ترى صخرة طارق، من شاطئ ثغر سبتة الإفريقي، تراها كالغمام القائم، يعترض البسيط الأزرق الشاسع من مياه البحر الأبيض المتوسط، فإذا صوبت نحوها البصر من الجزيرة الخضراء، وهي التي تقع مقابلها في الطرف الآخر من الخليج، فإنك ترى أمامك أروع منظر يمكن تصويره.

ترى صخرة طارق رابضة في البحر، جاثمة على شكل أسد عظيم، رأسه نحو الأرض الإسبانية، وذيله نحو البحر، وتراها عابسة مروعة تحت أشعة الشمس الساطعة، كأنها تذكر كل من يرنو إليها بقوتها ومنعتها التي لا تقهر.

وقد كان من الطبيعي أن تكون جبل طارق، معبر الغزاة المسلمين إلى الأرض الأوروبية، فهي أول بقعة تراها العين من الشاطئ الإفريقي، وهي بموقعها الصلد، ومرفئها المنيع، تعتبر قاعدة برية وبحرية من الطراز الأول.

عبر طارق بن زياد فاتح الأندلس، بجيشه من سبتة إلى الصخرة المقابلة في شهر رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م)، فسميت الصخرة الوعرة الهائلة باسمه جبل طارق، ومازالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم، محرفاً بالإفريقية "Gibraltar".

وقد كانت صخرة طارق قبل أن يعبر إليها الغزاة المسلمون، وقبل أن يطلق عليها اسم الفاتح المسلم، تعرف في الجغرافية القديمة بجبل كالبي "Mons Calpe" وتسمى مع جبل أتيل المقابل لها في الساحل الإفريقي، بأعمدة هرقل، وكان الأقدمون يعتبرونها نهاية العالم من الغرب، ويجاريهم بعض الجغرافيين المسلمين في ذلك، فيسمى ما وراء جبل طارق من مياه المحيط، ببحر الظلمات، ويعتبرونه منطقة شامضة لا نهاية لها.





وقد لعب جبل طارق في تاريخ الأندلس دوراً عظيماً، وكان دائماً معبر الجيوش الإسلامية، من المغرب إلى شبه الجزيرة الإسبانية، وكان يعتبر مفتاحها من الجنوب، ولم يكن جبل طارق أيام الدولة الإسلامية، سوى قاعدة عسكرية برية وبحرية، وقد أنشأ بها المسلمون منذ عصر الفتح حصناً عظيماً فوق سطح الصخرة الأوسط من ناحيتها الشمالية الغربية، ولسواراً ضخمة كانت تسمى أسوار العرب، وفي أواخر سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) عبر إليها عبد المؤمن بن علي أعظم خلفاء الموحدين، وذلك على أثر استرداده لشعر المهديّة من الفرنج، وافتتاحه لسلطان قواعد إفريقية (تونس)، وكان الخليفة قد أرسل خلال حملته المذكورة، في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ، كتاباً إلى ولده السيد أبي سعيد والي غرناطة، بأن يقوم ببناء "مدينة كبرى" بجبل طارق، تكون "منزلاً للأمير عند إجازته العسكرة"، وكتب في نفس الوقت إلى ولده السيد أبي يعقوب والي إشبيلية، بأن يستفر جميع العرفاء والفيلة من كل ضرب، ومن جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين لهذا الغرض. ونسب لوضع خطط المدينة الجديدة، والإشراف على بنائها، عدة من أكابر المهندسين مثل الحاج يعيش المالحى، وأبي إسحق بزّاز بن محمد، وتولى النظر على أعمال البناء العريف أحمد بن باسة الإشبيلي. قال ابن صاحب الصلاة: "ولبتدعوا البناء في الموضع الذي وقع الجميع عليه، والاتفاق من نواحيه بسيف البحر مما يلاصقه ويليه... وأحكم البنّاعون فيه بناء من القصور المشيدة والأنبار، واخترعوا في أسسها طيقناً وحنايا لتعتدل بها الأرض، مبنية بالحجر المنجور والجيار، بما هو عجب من الآثار... واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح، في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل، بين البحر المحقق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعازل التي لا يتمكن لطمع فيه طمع...". واستمر العمل شهوراً

بهمة مضاعفة، حتى تم بناء المدينة الجديدة في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (ديسمبر ١١٦٠ م)، ولبتى بها جامع وقصر للخليفة، ودور لأبنائه وحاشيته، وغرست الحدائق على طولها حذاء البحر، وجلب إليها الماء العذب، وجدد الحصن والأسوار القديمة، وعنى بتحصين الصخرة أكمل غاية، وسمى الجبل بأمر الخليفة، جبل الفتح أو مدينة الفتح. ولما كمل بناء المدينة، في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ، عبر إليها الخليفة عبد المؤمن من ثغر سبتة. ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطئ لرؤية موكبهم في ذلك اليوم المشهود. وأقام الخليفة بجبل طارق، أو بجبل الفتح، شهرين يتلقى وفود الأعيان والعلماء والأكابر من أهل الأندلس، وأشباه الموحدين من السادة والقادة والحفاظ والطلاب والجند، ولشد الشعراء قصائدهم بين يديه<sup>(١)</sup>، وكانت فترة إقامته بالجبل من أيام الأندلس المشهودة.

ولبت جبل طارق بعد ذلك أحقاباً أخرى، قاعدة الوصل بين الأندلس والمغرب، تعبر إليه الجيوش المغربية لنصرة الأندلس كلما دهمها الخطر. ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي، تتوالى حملات إسبانيا النصرانية لافتح هذا المعقل العظيم، ويتفانى المسلمون في الدفاع عنه، لشعورهم بأهميته وخطورة موقعه بالنسبة لسلامتهم. وفي سنة ١٣١٠ م استولى القشتاليون لأول مرة على جبل طارق. ثم استرده الأندلسيون بمعاونة السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب في سنة ١٣٣٣ م.

---

<sup>(١)</sup> لورد لنا ابن صاحب الصلاة، وقد كان من شهود هذا الحفل، وصفاً ضافياً لمقدم عبد المؤمن إلى جبل طارق، وحضور الوفود لديه، وقصائد التي ألغيت بين يديه. (مخطوط لمن بالإماسة لوحة ١١ وما بعدها). وراجع في ذلك "الحلل الموشية" ص ١١٨، والإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ١٦٠ (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٢٣ و ٢٢٤، وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٢١.



وجدد السلطان أبو الحسن الحصن ودار الصناعة والأسوار، ثم جدها ولده السلطان أبو عثمان، واستمر جبل طارق في يد المسلمين بعد ذلك زهاء قرن وثلاث.

وفي سنة ١٤٦٢ م، استولى الإسبان أخيراً على جبل طارق، وكان فقده ضربة شديدة للأندلس، وكان من مميزات سقوطها الأخير.

وبقي جبل طارق من ذلك التاريخ بيد الإسبان، حتى استولى عليه الإنجليز والهولنديون خلال حرب "ورثة العرش الإسباني" في سنة ١٧٠٤، ثم ضمته إنجلترا إلى أملاك التاج، وما زالت تقبض عليه حتى اليوم بيد من حديد. ولم تتجح محاولات إسبانيا ليأمن قوتها في استرداده، وكانت أشهر محاولة قامت بها في ذلك السبيل سنة ١٧٧٩، حيث استمر حصارها للصخرة زهاء أربعة أعوام، ولكنها أخفقت في النهاية، ولم تقع من ذلك التاريخ أية محاولة ذات شأن لاسترداد جبل طارق، وهو اليوم بوضعه الحالي مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني، يعين له حاكم من قبل التاج.

وليس جبل طارق سوى لسان صخري وعرة، ممتد من طرف إسبانيا الجنوبي في البحر زهاء ثلاثة أميال، ويتراوح عرضه بين ربع ميل وثلاثة أرباع الميل، ويبلغ ارتفاعه من الجنوب نحو أربع مائة قدم، ومن الوسط نحو ألف قدم، ومن الشمال نحو ألف ومائتي قدم. وكما أنه يمكن الوصول إليه من البحر، فكذلك يوصل إليه من البر الإسباني بالسيارة من الجزيرة، في طريق بدیع تظلل الأشجار الباسقة، يمتد على الخليج تجاه الصخرة، وتحف به الجبال من الناحية الأخرى، في سفوحها المزوج البانعة، ويمر ببلدة لوس باربوس "Los Barrios"، ثم ببلدة سان روكي "San Roque"، وينتهي بمدينة "لالنيا" "La Linea" نهاية الأرض الإسبانية.

ومتى جزت مدينة لالنيا، وهي مدينة متوسطة الحجم، مشرقة، مستطيلة الرقعة، ألفت نفسك تجاه الصخرة الهائلة من ناحيتها الشمالية، تفصلها عن لالنيا شقة حرام، تمتد بجوار الصخرة نحو سبعمائة متر، ويبلغ عرضها نحو أربع مائة متر. ثم تبدأ بعد ذلك الحدود الإنجليزية، وتسير بك السيارة بضع مئات أخرى من الأمتار. وعن يمينك ساحة المطار، يليها لسان طرا نحو أربع مائة متر، يمتد داخل البحر، ويحمي أرصفة الميناء والرصيف التجاري، ثم الرصيف الشمالي، ثم الرصيف المنفصل، يليه الرصيف الجديد أو الرصيف الجنوبي، وكلها ضخمة تأوي أعظم السفن. وبعد اجتياز هذه المسافة القصيرة، تجد نفسك إزاء مدينة جبل طارق.



جبل طارق، منظر الصخرة كما يبدو من البر الإسباني المواجه



مدينة جبل طارق في أسفل الصخرة والميناء



أجل مدينة جبل طارق. ذلك أن الإنجليز قد أنشؤوا مدينة حقة، في السفح الممتد غربي الصخرة، مدينة حديثة بكل معاني الكلمة، تمتد من المطار في شكل قوس مفتوح، يلاصق الصخرة ويشرف على البحر، حتى الجسر الجنوبي بطول يبلغ نحو ثلاثمائة متر، ويخترق هذه الرقعة شارع طويل واحد يسمى "الشارع الرئيسي" "Main Street"، وهو شارع مشرق نظيف يغص بالمناجر والمقاهي، ويخزر بالبضائع والحركة، ويتفرع من هذا الشارع الرئيسي على الجانبين، عدة شوارع قصيرة أو أزقة "Lanes"، تسمى كلها بأسماء إنجليزية مثل "College L Bell. L., Parliament L., Market L." إلى غير ذلك، وتقع معظم دوائر الحكومة مما يلي البحر، وينتهي هذا الشارع الطويل بالأبواب الجنوبية "South Gates"، وهي عبارة عن أربعة عقود، منها ثلثان صغيران قديمان، وقد جُدا في أواخر القرن الماضي حسبما رقم عليهما، والآخران حديثان، ويتصل الأولان بجزء من السور القديم الذي يسمى "السور الأندلسي"، ومن ورثتهما قاعدة من الأسوار القوية كتب عليها "الدعامة الجنوبية" "S. Bastion" (سنة ١٥٤٠)، وهذه يرجع تاريخها إلى عصر الإمبراطور شارلكن.

ويمتد الطريق بعد ذلك زهاء ميل آخر، وينتهي بالحوض الجاف و"النفار"، وهذا الطريق عريض تقوم على جانبيه المباني الضخمة، والعمارات المشاهقة، في سفح الصخرة، وتقع في بدايته الحدائق والمنتزهات المسماة "ألameda" "Almeda" وجانب المدينة الذي يلي البحر، يزخر بالمخازن والمصانع، والمهام البحرية الضخمة، والمراكز والإدارات العسكرية، والخلاصة أن مدينة جبل طارق تبدو بالرغم من ضيق رقعتها المستطيلة، بتخطيطها البديع، وشوارعها المنسقة المغطاة بالمكدام، وأحيائها ومنتديتها الأنيقة المشرقة، كأحسن ما تبدو المدينة الأوروبية الرائقة.

ولا توجد في الناحية الشرقية من الصخرة، سوى محلة صغيرة تسمى "كاتلان باي" "Catalan Bay".

ويبلغ سكان جبل طارق اليوم ثلاثين ألفاً منهم الحامية وعددها سبعة آلاف، والباقي من السكان المدنيين، وهؤلاء خليط من الإسبان سكان جبل طارق الأصليين، ومن المالطيين والجنوبيين، وقليل من الإنجليز، وبعض العناصر الأخرى. والإسبان في جبل طارق أرقى من مواطنيهم وأوفر تمدناً ورخاء، ولكنهم يتكلمون إسبانية رديئة، كما يتكلمون إنجليزية رديئة، هذا ولا بد لنا من أن نسجل هنا ما لاحظناه من أن هذا الشعب الخليط من سكان جبل طارق، يبدو بالرغم من مظاهره التمدنية، شعباً خشناً نزقاً، قليل الرقة والمجاملة، وهو ما يلاحظ عادة في المرتزقة من سكان الموانئ.

والى جانب سكان جبل طارق المقيمين، يفد على المدينة كل يوم نحو خمسة عشر ألفاً من الإسبان، ممن يبيعون مختلف المؤن والسلع، وممن يعملون في الميناء والأحواض، ثم يعودون في المساء إلى الأرض الإسبانية.

### الآثار الأندلسية

ولا يخلو جبل طارق من الأثر الأندلسية الباقية، فهناك بقايا الحصن الأندلسي أو القصر الأندلسي أو المقربي "Moorish Castle"، وهو عبارة عن قلعة حصينة، تقوم فوق ربوة عالية تقع على مقربة من الطرف الشمالي الغربي للصخرة، ومن تحتها مراديب وعقود عربية، ويستعمل جناحها الأسفل سجنًا مدنيًا، ويشرف طلل برجها الرئيسي على ساحة السجن في ارتفاع شاهق، ويدل تخطيط القلعة وحافتها، على أنها قد ترجع إلى عصر الموحدين، حيث ابتنى خليفهم عبد المؤمن بن علي بالصخرة حصنًا تقدم، قلعة وقصرًا، بيد أن بعض الأثريين يرى أن بناء هذه القلعة يشبه طراز التحصينات الغرناطية ولأنها قد أنشئت فيما يبدو في عصر السلطان يوسف أبي الحجاج، في النصف الأول من القرن الرابع عشر<sup>(١)</sup>. والمرجح أيضًا أن يكون هذا البناء، قد أقيم على بناء أنقاض القسبة الأندلسية القديمة، التي أقيمت منذ عصر الفتح. وتنحدر أطلال القلعة إلى أسفل لتتصل بأطلال أخرى، يبدو أنها برج حرس أو ما يشبهه.



جبل طارق. بعض عقود الحمامات الغرناطية (القرن الرابع عشر)

<sup>(١)</sup> هذا رأي الأستاذ توريس باليس في مقال له عن جبل طارق ونشأتها وتاريخها. راجع مجلة: Al-

ويشرف القصر الأندلسي من عل، على صفوف متعاقبة من المباني المتدرجة فوق سفح الصخرة، والتي تتصل في النهاية بميدان "Casement"، وهو أكبر ميادين جبل طارق، ومن ورائه يرتفع جانب الصخرة العليا التي تحد الجبل من الشمال.

ويوجد أثر أندلسي آخر لا يقل أهمية عن الحصن وهو الحمامات العربية. وتقع هذه الحمامات تحت بناء متحف جبل طارق، وهي عبارة عن صفين من العقود العربية، يتكون كل منهما من ثلاثة عقود، وتجمعها قبة منخفضة. وهذا الطلل في حالة طيبة من الحفظ، ولكن ليست به أية نقوش. وترى مجرى المياه محفوراً في الوسط والجانب الأيمن، وإلى جانب البناء المعقود، يوجد بهوان كبيران، ربما كانا يستعملان لتجهيز الماء الحار والبارد، ولحدهما ذو سقف يتخلله كوات معقودة.

وتقوم عقود هذا البناء على أعمدة رومانية فيما يظهر، يدل على ذلك خلوها من النقوش العربية. وقد وصف هذا الأثر في الرقعة الخاصة به، أنه يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي. ولكن الأستاذ توريس بالباس يرى بالعكس أن هذه الحمامات من طراز غرناطي يشبه طراز حمامات الحمراء، ولأنها ترجع إلى نفس العصر الذي أنشئت فيه التحصينات، أي إلى عصر السلطان يوسف أبي الحجاج<sup>(١)</sup>.

(١) الأستاذ توريس بالباس في مقاله السابق لذكر.



جبل طارق. منظر الحصن الأندلسي من أعلى الصخرة



إحدى واجهات الحصن الأندلسي



مدخل الحصن الأندلسي

ولما عن الأسوار الأندلسية القديمة، فقد رأيت أنه مازل ثمة قطعة من الأسوار تتصل بالأبواب الجنوبية، وتسمى بالبور الأندلسي أو المغربي، وهذه التسمية دليل على أصلها العربي. ويمتد هذا البور من وسط الصخرة منحدرًا على سفحها حتى الأبواب الجنوبية في اتجاه البحر، في قطع وأطلال متصلة، ويخترقه الطريق الرئيسي الذي يشق وسط الصخرة من الجنوب إلى الشمال.

وقد كانت توجد في سفح الصخرة الغربي، على مقربة من البحر لبوار أخرى هدمت ولم يبق لها اليوم أثر، ولكن يدل على موقعها الأبواب التي تسمى "أبواب الماء" "Water Gates"، وهذه تقع وراء الميدان الكبير المسمى ميدان "كاسمنت" "Casement"، وهي عبارة عن صقين من عقود ثلاثة، بينهما مسافة ٤٠ مترًا، وكان الصف الأول منها يطل فيما مضى على الماء قبل امتداد الرقعة اليابسة، ويسمى لذلك لبواب الماء، وهذه الأبواب العربية القديمة تعين مكان البور الغربي. ثم خربت هذه الأبواب بمضى الزمن فأزيلت، وأُشيدت مكانها الأبواب الحالية، وسميت لبواب "كاسمنت" باسم الميدان الذي يقع وراءها.

ويقع هذا الميدان الذي تؤدي إليه لبواب الماء في الشمال الغربي للصخرة، مدينة جبل طارق الحقيقي، وقد سجل الإنجليز في لوحاتها التذكارية، أنها بنيت على موقع "أبواب الماء القديم"، كما عينوا مكان الأسوار الأندلسية القديمة، بتسمية الطريق الذي يجري مكانها، وهو الذي يحاذي البحر والميناء، "بطريق خط البور" "Line Wall Road".

## معالم أخرى

ويوجد في جبل طارق متحف في البهاء الذي يقوم فوق الحمامات العربية، وهو عبارة عن متحف حربي محض، به نموذج بنيع للصخرة وخططها، ونماذج من السلاح التي لها علاقة بتاريخ جبل طارق، ولا سيما نماذج السلاح التي استعملت في الحصار الكبير سنة ١٧٨٣، وطائفة من الوثائق التاريخية الهامة التي تتعلق بهذا الحصار، من أوامر عسكرية وتقارير للقادة وغيرها. ومن المدهش أن يضم المتحف "موميائين" مصريتين، قيل لنا إنهما سقطتا من إحدى السفن التي كانت قادمة من مصر إلى إنجلترا.

ومن أروع ما رأيناه في الصخرة المغار العظيم الذي يوجد في وسطها، وهو مغار طبيعي عميق واسع الجنبات رائع الشكل قد نُير بالكهرباء.





جبل طارق. الحصن الأندلسي وفي أسفله المدينة والعيناء من الناحية الغربية

وفي بطن الصخرة توجد خزانات المياه العظيمة التي أنشئت في سنة ١٩٠١، لتمد مدينة جبل طارق بالماء العذب طوال العام، وهي خزانات عديدة ضخمة تصب فيها مياه الأمطار التي تجتمع في نهيرات صغيرة تفيض إليها، ويوزع الماء بواسطة المواسير الضخمة في شعب المدينة، وهو عمل عظيم يكفى المدينة كل مؤنتها من الماء.

\* \* \*

وبعد، فقد بسطنا القول نوعاً في جبل طارق، وخرجنا عن الحد الذي رسمناه في الكلام على المعالم الأندلسية. والواقع أن جبل طارق، إلى جانب الدور العظيم الذي لعبته في تاريخ إسبانيا المسلمة، وفي الوصل بين قوى الإسلام في المغرب والأندلس، مازالت تعتبر في عصرنا من أعظم المعقل البحرية. وهي تسيطر على المضيق المسمى باسمها، والذي هو مدخل البحر الأبيض المتوسط من جهة المحيط. ومرفؤها يصلح لإيواء أعظم السفن الحربية والمنية، وهي مازالت بالرغم مما طرأ على الخطط البحرية والعسكرية، من جراء تطورات الحرب العالمية الثانية، تعتبر من أهم وأمنع المواقع البحرية في خط المواصلات الإمبراطورية البريطانية. وبالرغم مما أبدته إسبانيا في الأعوام الأخيرة من رغبة ملحة في استرداد جبل طارق، فإنه يلوح أن السياسة البريطانية لم تبد أقل استعداداً للتنازل عن هذا المعقل البحري العظيم، الذي تسيطر باحتلاله إلى جانب مملكة على مياه البحر الأبيض المتوسط.

## ٢٠ - شريش الفرنتيره

### Jerez de la Frontera

إن طريق السيارة هو سبيل الاتصال الوحيد المباشر، بين جانبي المثلث الإسباني، ومن ثم فقد غادرنا رنדה بالسيارة إلى بلدة شريش الفرنتيره، في الجانب الآخر من المثلث، ولتتيح لنا خلال الرحلة أن نخترق تلك البساتن، التي كانت مسرحاً لمعركة شذونة الفاصلة بين العرب والقوط، والتي انتهت بفتح المسلمين لإسبانيا.

وهي منطقة وعرة المسالك، معظمها هضاب وتلال وجبال متصلة، قليلة البساتن والخضرة، قليلة السكان. وأهم بلادها الواقعة على هذا الطريق هي الجدران "Algodorales"، وهي بلدة صغيرة ذات مساكن منخفضة على الطراز الأندلسي، ثم بلدة قليا مرتين "Villa Martin"، ثم برنش "Bernos"، ثم أركش "Arcos" الواقعة على نهر وادي لكه، وهي من البلاد الأندلسية القديمة.

ومنذ منتصف الطريق تكثر الخضرة والمزارع المتدرجة، وتري الكروم وغابات الزيتون، ثم تكثر البساتن شيئاً فشيئاً تنمو بها المحاصيل المختلفة، ومن بينها رقاغ صغيرة من القطن.

ومنى جزت إلى النصف الآخر من المثلث، وهو أرض الفرنتيره التي تنتهي بشاطئ المحيط الأطلنطي، رأيت معظمها من البساتن الخضراء، ولا سيما بعد أركش. والأرض في هذه المنطقة سوداء التربة، وتزرع في معظمها الحبوب من القمح والذرة، ويوجد بها القطن على منوال مزارعه في بلنسية، وتقل فيها غابات الزيتون، وقبيل شريش تزداد البساتن البائعة، تغطيها المحاصيل المختلفة، والأشجار الباسقة، وحدائق الفاكهة وأشجار النخيل، وتبدو الطبيعة الخضراء في أروع حللها.

وشريش مدينة كبيرة عظيمة الحركة، تقع على مقربة من مصب نهر وادي لكه في المحيط الأطلنطي، وسكانها يزيدون على مائة ألف، وتشتهر بنوع خاص بكرومها البائعة، ونبيذها الذائع الصيت. وهي تبدو مشرقة منيرة كثيرة الأتول بالليل، وشوارعها طويلة واسعة، وبها عدة ميادين كبيرة تظللها الأشجار والنخيل مما يطلق عليه Alameda (المكان الظليل). وأهم ميادينها ميدان الملكين الكاثوليكين الذي تقوم في جوانبه أشجار النخيل، وتغطي الحدائق الصغيرة المزهرة، وفي وسطه أثر الجنرال دي رقييرا، ومن حوله نوافير ماء بديعة تضاء

بالليل، وينبثق الماء من عشرات الصنابير، والجنرال دي رقييرا من أبناء شريش، وقد كان من أعظم مؤسسي النظام الحاضر في إسبانيا، ولهذا تعتبر شريش من معاقل هذا النظام. وتتفرع من ميدان الملكين الكاثوليكين، عدة شوارع كبيرة رئيسية، منها شارع "لارجا" C. Larga، وهو شارع المقاهي والمتاجر، وشارع فرانكو، وشارع قانس المؤدي إلى "القصر" وغيرها.

وشريش مترامية الرقعة، وتقع أحيائها القديمة ذات الدروب الضيقة، وراء الميدان، والشوارع الكبرى، وهي تبدو على العموم حديثة الطابع، ولا تبدو على أحيائها وأبنيتها أية مسحة أندلسية. بيد أنه مما يلفت النظر أنه ما تزال بها عدة كبيرة من الأحياء والمنازل الأرسنقراطية الفخمة، التي تستحق اهتمام السائح. بيد أنها مغلقة دون الزيارة، وقد رأينا بها منزل المركز دومنيك، وفيه ساحة أندلسية بدية.

والظاهر أنه ما تزال ثمة في شريش بقية من المجتمع الأرسنقراطي القديم، ففي شوارع المدينة الكبيرة تجد كثيرًا من القصور والمنازل الأرسنقراطية ذات الطراز الأندلسي، والأفنية الواسعة، والأبواب المزدوجة، تقف أمامها العربات الضخمة ذات الخيل المطهمة، والحشم ذوي الأنواب الخاصة، مما يذكرنا بما كانت عليه الأرسنقراطية الإسبانية في ظل الملوكية، في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي.

وتشتهر شريش بجيدها الأصلية الرشيفة، التي تمت بأوثق الصلة إلى الأرومة العربية.

### المعالم الأثرية

وليس في شريش كثير من الآثار الأندلسية، ومع ذلك فإن القليل الذي تضمنه منها يمتاز بطرافته وأهميته التاريخية والأثرية.

القصر: وأعظم هذه الآثار الباقية هو "القصر" El Alcázar، وهو صرح ضخم يقع في ميدان شاسع على الطريق المؤدي إلى قانس، وقد أحيط بالأشجار والحدائق الصغيرة، وفوق مدخله برجان كبيران متماثلان. ثم يلي البرج الأيسر منهما برجان آخران كبيران، ومن بعدهما برج صغير ومشارف متدرجة، وفي داخل فناءه الكبير يقوم قصر ضخم حديث الطراز، هو ملك الأسرة التي تملك البناء كله.

ومن الواضح أن مدخل هذا الصرح وأبراجه الخارجية، هي وحدها التي تمتاز بقيمتها الأثرية. بيد أن الذي يلفت النظر حقًا، هو الكنيسة الصغيرة التي تقع داخل القصر، فإن هذه الكنيسة أو المصلى، هي في الواقع مسجد صغير مازال يحتفظ بطابعه وعقوده القديمة. وقد كان فيما يبدو مسجد القصر الخاص، وينقسم هذا المصلى إلى قسمين، القسم الكبير وبه أربعة

عقود، قد سد فيما بينها بالبناء ثم ينفذ منه إلى قسم أصغر، وفي هذا القسم أربعة عقود متعاقبة، وتقوم فوق القسم الكبير قبة عربية كبيرة، ذات ثمانية أضلاع.

وقد وضعت في صدر هذا المصلى لوحة رخامية، رأينا أن نثبت ما نقش عليها من عبارات تاريخية ذات مغزى وهي:

"Capilla Real de Santa Maria de Alcázar, antigua Mesquita Arabe.  
Fué dedicada al divino culto en 1264 por el Rey Alfonso X El Sabio.  
Honorada la memoria de este monarca ha sido restaurada en 1827 por  
Salvador Diez."

ومعناها "المصلى الملكية للقديسة مريم ذات القصر، وقد كانت مسجداً عربياً قديماً، فحولته للعبادة الإلهية في سنة ١٢٦٤ الملك ألفونسو العاشر، الملقب بالعالم، وتخليداً لذكرى هذا الملك أجري تجديداتها في سنة ١٨٢٧ على يد سلفادور ديث".

والسنة التي سجلت في اللوحة تحويل هذا المسجد إلى كنيسة، وهي سنة ١٢٦٤، هي السنة التي سقطت فيها شريش في أيدي النصارى، بقيادة ملكهم ألفونسو العالم، وكان ذلك في نهاية عصر الموحدين بالأندلس. وقد حاول ملك المغرب السلطان أبو يوسف المريني استردادها، وضرب حولها الحصار سنة ١٢٨٤، ولكن النصارى استطاعوا إنقاذها بقيادة ملكهم سانشو الملقب بالشجاع ولد ألفونسو العالم.

وأمام هذا المصلى الأثري، فناء صغير به عقد عربي، عمل مدخلاً للقصر الحديث.

ومن الصعب أن نحدد تاريخ بناء هذا الصرح، الذي توالى عليه التغييرات حتى لم يبق من أبنيته القديمة سوى بعض الأبراج، والظاهر أنه يرجع إلى القرن الحادي عشر، أعني إلى أوائل عصر الموحدين، وكان في الأصل حصناً، كما نل على ذلك أبراجه، وموقعه في طرف المدينة في إحدى مواقعها الدفاعية.

الكنيسة العظمى: (الكتدرائية) وهي تعرف باسم la Colegiata، وتقع على مقربة من القصر في الطرف الجنوبي الغربي للمدينة، وفي ميدان شاسع فوق ربوة مرتفعة. وهي مضلعة الشكل بنيت عقودها على الطراز اليوناني الروماني، ولها واجهة عظيمة، وتبدو من الداخل بالغة الروعة والفخامة. ومما يلفت النظر في طرازها، أن قبتها الكبرى قد صنعت على شكل قبة المسجد، وأن برج أجراسها منفصل عنها، وقائم على مقربة منها، وقد صنع على شكل منارة الجامع، وعلى طراز "لاخير الدا" برج أجراس كتدرائية إشبيلية الشهيرة، وأطلق عليه اسم "سان سالفادور". وكان في الأصل من مباني الكتدرائية القديمة، التي أقيمت فوق موقع جامع شريش القديم، والتي حلت مكانها الكتدرائية الحالية. وفي هذا البرج من الداخل زخارف من الطراز الأندلسي، عملت فيه بعد فتح النصارى للمدينة.



هذا وتوجد في شريش عدة كنائس أثرية أخرى، مثل كنيسة سان دونزيو التي أنشئت في سنة ١٢٦٥ حينما دخل ألفونسو العالم المدينة، وهي ذات طراز متجني (إسلامي نصراني)، وكنيسة سانتياجو (سنت ياقب) وهي ترجع أيضاً إلى أواخر القرن الثالث عشر، وسان ماتيو، وسان ميغل، وكنيسة حنا لبي الفوارس، وكنيسة الرحمة La Merced، وهي أيضاً من أقدم كنائس شريش، وقد شيدت عقب استرداد النصارى للمدينة من المسلمين بأعوام قليلة. وفيما خلال ذلك فإنه لا توجد ثمة مميزات خاصة لهذه الكنائس، وربما كان منها ما شيد فوق مواقع المساجد الإسلامية.

ومما يلفت النظر أن موقع الكنيسة العظمى، تحيط به الأحياء القديمة والدروب الضيقة، فإذا أضفنا إلى ذلك كونها بنيت فوق موقع المسجد الجامع، أمكننا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية القديمة. ومن الملاحظ بوجه عام أن معظم كنائس شريش القديمة، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى، وفيما بينها تمتد شبكة الدروب الضيقة، فإذا افترضنا أن معظم هذه الكنائس قد أنشئ فوق أنقاض المساجد القديمة، فإن موقع شريش الأندلسية، كان يشغل الجانب الغربي الجنوبي من المدينة الحديثة، وهو الذي يضم القصر وسائر الكنائس الأثرية.



شريش. الكنيسة العظمى (الكولخياتا) وبرجها المنفصل



شريش. عقد عربي داخل القصر



شريش. بعض أبراج القصر وسورده

## ٢١ - قادس

### Cádiz

إن منطقة "الفرنثيره" La Frontera، التي تمتد جنوبى شريش مما يلى شاطئ المحيط، هي عبارة عن بسائط تتخللها التلال المنخفضة، وتبدو هذه الظاهرة بوجه خاص على ضفتى نهر وادي لكه. بيد أن هذه البسائط ليست وافرة الخصب، ولم نر فيها ثمرًا لحقائق الفاكهة أو غلات الزيتون، التي تكثر شمل هذه المنطقة. وأغلب ما نراه العين فيها شجيرات الحلفاء والحشائش البرية. وعند بلدة "الثغر الملكي" Puerto Real على مقربة من قادس، تبدو أشجار الفاكهة والنخيل في منطقة صغيرة، ثم تليها منطقة كبيرة تغص بالمستنقعات والملاحات الكبيرة، التي تتسرب إليها المياه من المحيط، وتستمر كذلك حتى تقترب من قادس.

وقادس هي ثغر بحري هام، يقع على لسان سمك في مياه المحيط، وله مرفأ ببضاي كبير ترسو فيه بعض سفن الأسطول الإسباني. هذا عدا ما يقصده من السفن التجارية. والمدينة مشرقة على الهواء، طويلة الرقعة، تخرقها طائفة من الشوارع المتوازية الضيقة، وبها عدة ميادين كبيرة ظلية، ويبلغ سكانها اليوم زهاء خمسة وسبعين ألف نسمة. ويبدو النخيل بكثرة في شوارعها وميادينها، فيسبغ عليها رواء وجمالاً، والنخيل ظاهرة واضحة في سائر مدن إسبانيا الجنوبية.

وتتشح قادس بثوب أوروبى حديث محض، ولا تكاد تبدو عليها أية لمحة من ملامح المدن الإسبانية الأخرى ذات الطابع الأندلسي، إلا فيما يبدو لدى بعض أحيائها الداخلية المتواضعة من ضيق الدروب والتواها، ومن مشارف منازلها الأندلسية واستواء سقوفها.

وتضم قادس على نمط باقي المدن الإسبانية، عدة من الكنائس الجميلة، وفي مقدمتها الكنيسة العظمى، وهي تعتبر من حيث الحجم والقامة من كنائس إسبانيا الكبرى. وقد أقيمت في القرن السابع عشر على أنقاض الكثرائية القديمة التي أنشأها الملك ألفونسو العاشر عقب افتتاحه للمدينة من المسلمين. وعلى هذا فمن المحقق أن تكون قائمة على موقع المسجد الجامع القديم وفقاً للقاعدة الماثورة، وهي تقع على مقربة من البحر وظهرها إليه. كذلك ترجع معظم كنائس قادس إلى قرن أو قرنين ليس غير.

كذلك تضم قادس عدة من الحصون، وهي قائمة كلها في ناحيتها الشرقية. وقيل لنا إن منها ما يرجع إلى العصر الأندلسي، ولكننا لم نلاحظ فيما شاهدناه منها ما يحمل على هذا الاعتقاد.



قانس، الكنيسة العظمى

وهناك أثر آخر ينسب أيضاً إلى أصل أندلسي، وهو المسمى باب تييرا Puerta Tierra، وهو صرح ضخم يقع خارج المدينة على مقربة من البحر، ويتكون من قاعدتين كبيرتين من الأبنية الحجرية، إحداهما من ناحية البحر والأخرى قبالتها، وبينهما عقدان كبيران منخفضان، وكل منهما يستند إلى عقود ثلاثة، وفي الوسط يقوم برج يبلغ ارتفاعه نحو اثني عشر متراً. وليس في هذا الصرح سواء من حيث الشكل أو الطرز ما يدل بأصله الأندلسي، وربما كان قد أقيم على أنقاض طلل يرجع إلى العصر الإسلامي، أو على أنقاض جزء من السور القديم.

ويوجد في متحف قانس الأركيولوجي، مجموعة من النفود الأندلسية ترجع إلى عصر الإمارة والخلافة الأموية، وعصر الموحدين. كما أنه يضم عدة لوحات خشبية بها كتابات عربية حملت إليه من ثغر سبتة، من أنقاض مسجدها القديم.

وقد سقطت قانس في يد الغنطاليين، في عهد الملك ألفونسو العاشر في سنة ١٢٦٢ م.

## الكتاب الرابع

# نافار وقشتالة القديمة



## تمهيد

عزينا فيما تقدم، من فصول هذا الكتاب، بوصف القواعد والمدن التي لبثت عصوراً طويلة، قواعد ومدناً أندلسية إسلامية حقّة، ووصف ما أبقت عليه يد الدهر بها من الصروح والآثار، والذكرات الأندلسية الباقية.

وقد رأينا إلى جانب ذلك أن نعني بوصف البقاع والمدن الإسبانية، التي لم يطل أمد بقائها في ظل الحكم الإسلامي، ولستردّها النصارى في عصر مبكر، مثل بلد الوليد، وأبلّة، وسمورة، وشقوبية، أو التي لم يحكمها المسلمون، وإنما كانت خلال العصور الأولى عرضة لفتوحهم، أو مهبطاً لحملاتهم الغازية، ويدخل في ذلك عدة من المدن الإسبانية النصرانية المحضة، التي يفتنر اسمها مع ذلك بتاريخ الأندلس من آن لآخر.

وسنرى أنه يوجد في معظم هذه المدن - حتى النصرانية الخالصة منها - بعض الآثار والذكرات الأندلسية الهامة، التي تحتفظ بها متاحفها، أو التي تمثّل في بعض الصروح الأثرية، التي تأثرت بروح الفن الأندلسي وطرازه، من قصور وكنائس وغيرها، ولعب الفن المدجّن، الأندلسي النصراني، أكبر دور في تكييفها. وسنرى في بعض الأحيان أن هذه المدن الإسبانية النصرانية، تملك من تراث الآثار الأندلسية ثروات رائعة. لا تملك القواعد الأندلسية الذاهبة شيئاً منها.

وسوف نتبع في ذكر هذه المدن، التقسيم الجغرافي الإسباني، ونجمعها بحسب مواقعها في قطاعين: الأول: ناغار وقشتالة القديمة، وهو هذا الكتاب الرابع، الذي نفتتحه بهذه الكلمة، والثاني، هو ليون وجليقية والأسترياس.

## ١ - بنبلونة

### Pamplona

بنبلونة هي عاصمة ولاية نافار أو نبرة أو بلاد البشكنس، كما تسمى في السورايخ الغربية. وكانت نافار منذ الفتح الإسلامي لإسبانيا، من لشد الولايات الإسبانية مقاومة للمسلمين. ولما قامت مملكة نافار النصرانية في تلك الجهة، منذ أوائل القرن التاسع الميلادي، غزاها المسلمون مراراً، ودخلوا عاصمتها بنبلونة غير مرة في القرنين التاسع والعاشر. ولكن هذه المملكة الصغيرة، كانت دائماً تدافع عن استقلالها بمنتهى البسالة، سواء ضد المسلمين أو ضد جيرانيها من النصارى.

وبالرغم من أن نافار لم تخضع للحكم الإسلامي، فإنها قد تأثرت إلى حد كبير بمجاورتها للمسلمين، ولا سيما عندما كانت في القرنين التاسع والعاشر، ترتبط في معظم الأحيان برابط التحالف والمصاهرة، مع الثوار المسلمين في الولايات الشمالية، أمثال التجيبين وبنى قسي وغيرهم.

وتقع بنبلونة على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً من مدريد، على الضفة اليمنى لأحد أفرع نهر إيبرو، وهي مدينة جميلة ذات شوارع فضيحة مستقيمة، وميادين شاسعة، أهمها الميدان المسمى "ميدان أمير فيانا" P. del Principe de Viana، وميدان كاستياليا P. de Castilla، وهو ميدان كبير مربع ذو عقود قوطية، وبه عدة من المقاهي الكبيرة، وتُشرف عليه دار البلدية والمسرح، ويتصل به شارع بنبلونة الفصح المسمى "متنزه بلنسية" Paseo de Valencia، وهو جميل تظله الأشجار الباسقة. وهو ملتقى الجماهير ومتنزههم في الأمسية الصافية. ومباني بنبلونة جميلة عالية، وهي على العموم من أكثر المدن الإسبانية بسمة وإشراقاً، ويبلغ سكانها اليوم سبعين ألف نسمة.

ويشتغل أهل بنبلونة بالزراعة والصناعة، ومن منتجاتها الأقمشة والصلبون والورق والحديد. وبنبلونة مركز ثقافي هام، وبها معهد ديني كبير ومدارس كثيرة. وبها مسرح كبير لمصارعة الثيران، بُني كالمعتد على الطراز العربي. وبها مساح للعبة "البيلوت" Pelota التي يشتهر بها أهل نافار، والتي يقال إنها من أصل أندلسي.

## تحفة أندلسية

وليس في نوافر آثار أندلسية لأنها لم تخضع لحكم المسلمين كما رأينا. ولكن كنيسة بنبلونة العظمى تحتفظ بتحفة أندلسية ذات أهمية فنية خاصة. وكانت هذه التحفة في الواقع هي مقصدي الأول من زيارة بنبلونة.

وترجع كندراثة بنبلونة إلى أواخر القرن الرابع عشر. أنشأها سانشو الثالث الملقب بسانشو النبيل في سنة ١٣٩٧ م، فوق أنقاض كنيسة رومانية قديمة، لم يبق منها اليوم سوى ركن صغير من "المقنس"، ودفن بها سانشو وزوجه، ثم جددت في القرن الثامن عشر، وبنيت واجهتها الكبرى الحالية.

أما التحفة الأندلسية التي أشرنا إليها، فهي عبارة عن صندوق خشبي جميل مطعم بالعاج، يبلغ طوله نحو أربعين سنتيمتراً، وارتفاعه عشرين، وسطحه شبه منحرف مربع الجوانب، وقد رُسم على واجهته الظاهرة صورة شيخ وحوله طفلان، وتحتة وعلان صغيران، ورسم في الناحية اليسرى صورة سيدتين، وفي الوسط صورة ثلاثة أشخاص ينفضون في المزمار.



ونقشت حول الصندوق في شريطه الأوسط هذه الكلمات بخط كوفي متداخل:

"بسم الله بركة من الله، وغبطة وسرور وبلوغ  
أمل، في صالح عمل، وإفصاح أجل، للحاجب سيف  
الدولة عبد الملك بن المنصور وفقه الله. مما أمر  
بعمله على يد الفتى نمير بن محمد العامري مملوكة  
سنة خمس وتسعين وثلاث مائة."

بنبلونة: نموذج من صور الصندوق الأندلسي  
المحفوظ بالكنيسة العظمى

وقد حفظت هذه التحفة الفنية الفريدة، في قاعة خاصة في نهاية الكنيسة. وعُلقت عليها  
للتعريف بها لوحة كتب عليها ما يأتي:

Arqueta HISPANO Árabe considerada como primera pieza  
artística en España. Año 1005 A. D.

ومعناه "صندوق إسباني عربي يعتبر قطعة فنية من الطراز الأول في إسبانيا

سنة ١٠٠٥ م."

وعلمت من القس الذي صحبني أثناء الزيارة، أن هذا الصندوق كان في الأصل من الغنائم التي ظفر بها ملك نفلر في حروبه مع المسلمين، ثم أودع في دير من الأديار في أراجون القديمة، يسمى دير "ليري" Leire، وفي القرن التاسع عشر أهدى أباء هذا الدير الصندوق إلى كنيسة بنبلونة<sup>(١)</sup>.

ويوجد أيضاً إلى جانب هذا الصندوق، قطعة صغيرة من القماش حجمها نحو ٢٥ سم في ٨، وقد نقشت عليها حروف عربية لا تقرأ، والظاهر أنها من صنع المدجنين.

\* \* \*

وقد عثرت في محفوظات بنبلونة بدار البادية، على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة في شهر أبريل سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م)، وهي وثيقة تعامل وتعاقد، تدلى بحقائق ذات شأن، في حياة المدجنين في مملكة أراجون.

---

<sup>(١)</sup> نشرنا صورة هذا الصندوق ضمن المجموعة الخاصة بصور الكتاب الرابع.

## ٢ - برغش

### Burgos

لم تكن مدينة برجوس، التي تسمى في الجغرافية العربية "برغش" موجودة وقت الفتح الإسلامي لإسبانيا، ولكنها أنشئت لأول مرة في عهد ملك قشتالة ألفونسو الثالث (٨٦٦ - ٩١٠م)، وكان في مكانها عدة قرى وضياح يغير عليها المسلمون من آن لآخر، فأنشأ ألفونسو حولها سورًا ولبنى قلعة لحمايتها من غارات المسلمين، وكان هذا موك مدينة برجوس، التي عُدت فيما بعد عاصمة قشتالة القديمة، ثم أصبحت اليوم من أجمل المدن الإسبانية التاريخية.

وتقع برجوس على منحدر مجموعة من التلال، تمتد نحو السهل الأخضر، ويخترقها من نهائيتها الجنوبية نهر "الانتون"، أحد فروع نهر دويره (دورو)، وهي مدينة كبيرة فخمة تحتفظ بكثير من طابعها الأثري، وتخترقها عدة من الشوارع الفسيحة، أطولها وأجملها شارعها المحاذي للنهر، والمسمى "متنزه الجزيرة" Paseo de la Isla، وهو شارع عريض تظله الأشجار الباسقة، وتمتد في وسطه الحدائق الغناء. وميدانها الكبير المسمى Plaza Mayor، يقع وسطها وتظله عقود قوطية، ويقع على مقربة منه ميدان الكنيسة العظمى، وبليه في الأهمية ميدان سان دومنغو كثمان. وفي برجوس مباني كثيرة فخمة، وعدة كنائس وأديرة وقصور تاريخية. والحركة فيها شديدة متواصلة. ولكن أحياءها القديمة ذات شوارع ودروب ضيقة كباقي المدن القشتالية. وهي على العموم مدينة جميلة أخاذة، ولكنها ليست مشرقة مثل بنبلونة.

ويبلغ سكان برجوس وفق إحصاء سنة ١٩٤٧، ٧٨,٩٠٠ نسمة.

وإذا لم تكن ثمة في برجوس آثار أندلسية مباشرة، لأنها لم تخضع لحكم المسلمين، فإنها تحتوي مع ذلك على بعض الآثار والتحف الهامة، التي تتعلق بتاريخ الأندلس، ومن ثم كان مقصدنا إليها.

ولنبدأ بذكر كنيسة العظمى (الكاتدرائية)، وهي من أفخم وأعظم كنائس إسبانيا. ويرجع إنشاؤها إلى سنة ١٢٢١ م، في عصر فرناندو الثالث ملك قشتالة، واستمر البناء فيها حتى سنة ١٥٦٧ م. وهي بناء رائع فخم، ويعتبر أعظم أثر على الطراز القوطي في إسبانيا كلها، وهي تقع في وسط المدينة، وتطل عليها في عظمة وجلال، ويُرَى جمالها وفنها البديع عن بعد. وفي أحد أجنحتها توجد قاعة للكنوز، تغص بالصلبان والآنية والأيقونات الذهبية، وعلى جدرانها عدد من بسط جوبلان الفاخرة تمثل مناظر دينية بدية.





برغش، الكنيسة العظمى

ويوجد تحت قبعتها العظمى أثر تخليدي  
للسيد الكمبيادور El Cid Campeador، وزوجه  
خمينا. وهذا الأثر عبارة عن لوحة رخامية كبيرة  
سوداء طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران، وقد  
نقش عليها ما يأتي باللاتينية والإسبانية:

Roderigus Didaci Campidoctor  
MXCIX Anno Valentiae Mottuus  
A todos alcanã Odora  
Por el que en Buen or nacio

+

Eximina Uxoreius  
Didaci Comit̃is Oveensis  
Regali Genere Nata

والسيد الكمبيادور (وبالعربية الكنييطور) هو ردريجو دي بيفار، الفارس القشتالي  
الشهير، وأصله من مدينة برجوس، وقد حارب المسلمين في أواخر حياته واستطاع أن يقنّح  
بلنسية في سنة ١٠٩٤ م، وأن يحكمها بضعة أعوام، ثم توفي بها سنة ١٠٩٩ م، وهو يدافع  
عنها ضد المرابطين حينما حاولوا استردادها، ودافعت عنها من بعده زوجه خمينا دي أوفيدو  
مدى عامين، ثم غادرت المدينة حاملة رفات زوجها، واسترد المرابطون المدينة من النصارى  
في سنة ١١٠٢ م<sup>(١)</sup>.

وكذلك يوجد في برجوس أثر آخر للسيد، يعين مكان المنزل الذي كانت تقيم فيه  
أسرته، وهو عبارة عن ثلاث لوحات قائمة فوق قاعدة، وقد كتب على إحدى اللوحات  
بالإسبانية "أن السيد ولد في سنة ١٠٢٦ م، وتوفي في بلنسية. وأن هذا الأثر قد عمل في سنة  
١٧٨٤ في عهد الملك كارلوس الثالث"، ويسمى هذا الأثر "موقع منزل السيد" Solar del Cid.  
وعلى مقربة من هذا الأثر الذي يقع في أطراف برجوس، يوجد باب على الطراز  
العربي ذو عقود ثلاثة، هو باب سان مرتين Arco de San Martin.

<sup>(١)</sup> ويوجد قبر السيد بنير سان بيدرو ببلدة كاردنيا لغربية من برجوس.

## الدير الملكي

وتوجد في الدير الملكي المسمى: Real Monasterio de las Huelgas تحف أثرية أندلسية تثير ذكريات محزنة.

ويقع هذا الدير في مشارف برجوس على مقربة من "متنزه الجزيرة"، على قيد نحو كيلو مترين من المدينة، وهو بناء حصين يرجع إلى القرن الثاني عشر، وقد بُني ليكون مصيفاً لملوك قشتالة، ثم حُول بعد ذلك إلى دير وضريح ملكي. وفي فناءه الكبير، توجد إلى جانب البناء الرئيسي واجهة من العقود العربية، ومنها عقد على جانبه عدة من العمد يضارع عقود المسجد، وقد نقشَت عليها نقوش مدجنية لا تقرأ. وكان هذا الدير قبل إنشاء قصر الإسكوريال ومدفنه الملكي في القرن السادس عشر، يستعمل مدفنًا لملوك قشتالة، وتوجد بالفعل في أرواقه عدة توابيت حجرية، مدفون بها عدة من الملوك والأمراء الإسبان.

ويبدو أثر الفن الأندلسي والفن المدجني، في أبنية الدير وزخارفه بوضوح، فقد صنعت جوانب صحنه الداخلي من عقود عربية، وفي سقف أحد أرواقه الداخلية نقوش مدجنية، تتخللها كتابات كوفية ونقوش عربية، وفي قبة هيكله الرئيسي توجد زخارف وكتابات عربية، استطعنا أن نقرأ منها "بسم الله"، والظاهر أن العرفاء والصناع المدجنين، كانوا ينقلون رسوم الآيات القرآنية والعبارة العربية، دون أن يفقهوا شيئاً من معانيها، وعلى أنها رسوم وزخارف فقط. ومن ثم فلما نجد في كثير من الكنائس والأديار الإسبانية التي يغلب عليها الفن المدجني، بعض الآيات القرآنية، التي أدرجت في نقوشها بصورة مشوهة.



ومما يلتفت النظر أن باب المصلى، قد صنع على طراز عربي مذهش، وزين بمقرنصات خشبية على شكل نجوم داخل حظائر مسبعة الأضلاع. ويرى الأستاذ جومث مورينو أنه يرجع إلى القرن الحادي عشر أو إلى أوائل القرن الثاني عشر، وأنه أندلسي الأصل والصناعة، وربما أخذ من مقصورة أو منبر أحد المساجد، ونقل إلى قشتالة كغنيمة ثمينة، ثم لودعه ألفونسو الثامن ديرة الذي أنشأ<sup>(١)</sup>.

برغش. الدير الملكي وعقوده الخارجية

على أن أهم ما يسترعى النظر بين محتويات هذا الدير، هو العلم الإسلامي الكبير

G. Moreno: El Arte Arabe - Espanol hasta los Almohades (Ars, Hispaniae, Vol. <sup>(١)</sup>

الذي علق في واجهة إحدى قاعاته الداخلية، وكتب تحته للتعريف ما يأتي:  
"Trofeo conquistado al enemigo en la Batalla de las Navas de Tolosa"  
ومعناه "غنيمة انتزعت من العدو في موقعة هضاب تولوسه".

والموقعة المشار إليها في هذا التعريف، هي الموقعة الشهيرة التي تعرف في التواريخ الإسلامية بموقعة العقاب أو حصن العقاب، والتي وقعت في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) بين الموحدين، وجيوش إسبانيا النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن، في هضاب تولوسه على مقربة من بلباسه، وهُزم فيها الموحدون هزيمة شنيعة.

أما هذا العلم الذي كان بين غنائم النصاري في الموقعة، فهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ مترًا، وعرضها ٢,٢٠ مترًا، وبها في الوسط دائرة كبيرة صفراء، يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة. وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة. ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة، أحزمة بُنية، نقش عليها آيات قرآنية بخط أزرق، وفي ذيلها دوائر نقش فيها أدعية مختلفة.

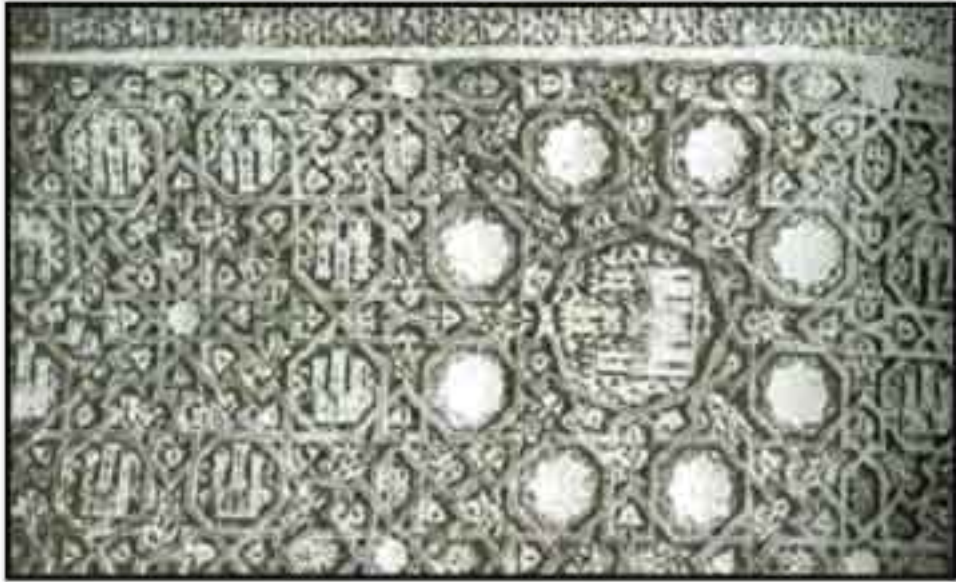
وقد كتب في أعلى العلم في شريط بنى بالأزرق ما يأتي:  
"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله عليه وسلم"  
وكتب تحته في الشريط الذي فوق المربع ما يأتي:  
"يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم".  
وكتب في الشريط الذي على يمين المربع ما يأتي:  
"تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم".  
وفي الشريط الذي على يساره تكملة الآية:  
"لكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات".  
وفي الشريط الذي في أسفله هذه التكملة:

"تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك...".  
ولما في دوائر الذيل فقد نقشت الأدعية الآتية على التوالي، بخطوط زرقاء على رقعة بيضاء:  
"العافية العافية. الغبطة المتصلة. السلامة الدائمة. العافية البركة. العافية الباقية. السلامة الدائمة. العافية الباقية"<sup>(١)</sup>.

وتوجد في أحد أروقة الدير صورة زيتية كبيرة، تمثل موقعة العقاب المذكورة وهزيمة الموحدين فيها.

(١) وقفنا طويلاً أمام هذه التحفة الأتينية المعززة نقرأ خطوطها المغربية بصعوبة. وراجع في وصفها ونقوشها أيضاً: R. Amader de los Ríos: Trofeos militares de la Reconquista الذي سبقت الإشارة إليه. وقد نشرنا صورة هذا العلم في المجموعة الخاصة بصور الكتب الرابع.





برغش (الدير الملكي).  
زخارف مدجنية من المقرنصات الخشبية في سقف اليهود الرئيسي



متحف برغش. عقد من الرخام ذو نقوش مدجنية

وقد علق إلى جانبي هذا العلم الموحدى الكبير، علمان تركيان صغيران، أحدهما من الترك فى معركة لپانتو البحرية الشهيرة، التى وقعت فى المياه اليونانية فى سنة ١٥٧١ م، وهزمت فيها الأساطيل التركية، أمام الأساطيل النصرانية المتحدة. ويوجد فى متحف الدير قطعة من القماش المغطى بالحزير، وعليها كتابة عربية ظاهرة فيها الكلمات الآتية:

للك والسلام الأعلى، وعليها تاريخ مارس سنة ١٣٣٣ م.

### فى متحف برجوس

وفى متحف مدينة برجوس عدة تحف أندلسية أثرية، أولها صندوق من الخشب المطعم على مثل صندوق كنترائية بنبلونة، طوله ٣٠ سنتيمتراً وعرضه ١٥، وغطاؤه شبه منحرف، وعليه كتابة عربية من الجانبين القصيرين، وقد جاء فى دليل هذا المتحف أنه صنع فى قونقة فى سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م). وذكر المستشرق أمادور دي لوس ريوس فى كتابه الذى سبقته الإشارة إليه أن المنقوش على الصندوق هو ما يأتى:

"باقية لصاحبه أطل الله بقاءه مما عمل بمدينة قو (نكة) (سنة) سبع عشر وأربع مائة عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله".

لكننا بالتأمل الدقيق فى كتابات هذا الصندوق، لم نستطع أن نقرأ فيها شيئاً من العبارات المتقدمة.

وقد نقشت على الصندوق، صور وعول وجياد وسباح، وفى أحد جانبيه القصيرين صور نساء نصرانيات، رسمت فيما يبدو بريشة بعض المصورين النصارى. ويرى المستشرق أمادور دي لوس ريوس، أن هذا الصندوق، وقد أتى به فى الأصل من أحد الأديار، إنما هو تحفة زائفة<sup>(١)</sup>.

والأثر الأندلسى الثالى فى متحف برجوس، عبارة عن صندوق خشبى به من الجانبين سلاطين من الخزف السمنى، فى كل ناحية خمس منها، وقد جاء فى الدليل، أنها صنعت برسم "عبد الرحمن أمير المؤمنين". بيد أننا لم نجد عليها أثراً لأية عبارة مكتوبة، وقد يرجع ذلك إلى أن مادونه المستشرق أمادور دي لوس ريوس عن هذه الآثار فى دليل المتحف وفى كتابه، قد دُون منذ أكثر من ستين عاماً، طرأت خلالها على هذه التحف بعض التغييرات. ويوجد أيضاً فى متحف برجوس بعض عقود رخامية من صنع المدجنين عليها نقوش عربية غير واضحة الكلمات، وإنما هى رسوم منقولة فقط.



### ٣ - بلد الوليد

#### Valladolid

كانت بلد الوليد أو بالإسبانية "فاليادوليد"، من القواعد الأندلسية الشمالية التي استردها النصارى منذ أوائل القرن العاشر، ولم تمكث تحت حكم المسلمين أكثر من قرنين.

واسمها ينم عن أصله الأندلسي، ولكن ليس من المعروف إن كان لها قبل الفتح تاريخ، يرجع بها إلى العهد القوطي أو الروماني، أم أنها أنشئت عند الفتح على أطلال محلة أو قاعدة قديمة، وأسبغ عليها ذلك الاسم العربي "بلد الوليد" الذي حرفه الإسبان إلى وضعه الحالي "فاليادوليد".

وعلى أية حال فإن بلد الوليد، لم تلعب دوراً كبيراً في تاريخ الأندلس المسلمة، وليست بها اليوم أية آثار أندلسية.

وبلد الوليد مدينة مشرقة من أجمل المدن الإسبانية، وهي اليوم تحمل طابعاً أوروبياً لا مراء فيه، وبها شوارع عريضة جميلة، ومتنزهات مخاء، وميادين شاسعة وأعظم شوارعها، هو "متنزه ثورليا" Paseo Zorrilla، المسمى باسم شاعرها الكبير "خوسيه ثورليا"، وشارعها التجاري الزاخر شارع سالتياجو. وأجمل ميادينها "ميدان ثورليا" والميدان الكبير Plaza Mayor، وهو ميدان تاريخي تشرف عليه دار البلدية، وعدة صروح تاريخية قديمة.

أما من الناحية الأثرية، فإنه توجد في بلد الوليد عدة من الكنائس الأثرية القديمة، وفي مقدمتها لكنائس التي أنشئت في أواخر القرن السادس عشر، وبناء الجامعة التي ترجع إلى القرن الثالث عشر، ومتحف النحت الوطني، الذي يغص بالتماثيل والصور الدينية، وهو يقوم في صرح قديم كان في الأصل معهداً دينياً، وفي هذا الصرح بالأخص يبدو أثر الفن الأندلسي واضحاً. فهو يشتمل على ساحة سفلى أقيمت على جوانبها عقود عربية، وتشرف عليها من الدور الأعلى أروقة ذات عقود مدجنية زينت بزخارف دينية دقيقة، وبعض أسقف أبياء المتحف، مزينة بزخارف مدجنية مذهبة، وكذلك سقف السلم العربي العريض مزخرف على الطراز المدجني، وبالجملة فإن هذا البناء، ينم بعقوده وزخارفه الجميلة عن طابع أندلسي واضح.

وإذا لم يكن ثمة في بلد الوليد ما نصفه من الآثار الأندلسية، فإنها تحتفظ بأثرين قوميين جليلين يتصلان بعالم الأدب.

أولهما، المنزل الذي عاش فيه كاتب إسبانيا الأشهر ميغل ثرقاتنس، مؤلف "القصة الخالدة" "دون كيخوتي" Don Quijote حيناً من الدهر، وهو عبارة عن منزل صغير متواضع ذي طابقين، يقع في درب صغير مغلق يسمى شارع راسترو Calle Rastro، ونوافذه مشبكة بالقضبان العريضة. ويوجد في الطابق الأول منه، بعض مقاعد وموائد من طراز العصر (أوائل القرن السابع عشر) وورقة مخطوطة بخط ثرقاتنس وتوقيعه. وخطاب موجه منه إلى الملك فيليب الثالث. وكذلك صورة فوتوغرافية مأخوذة عن الطبعة الأولى من قصة "دون كيخوتي"، التي صدرت لأول مرة في سنة ١٦٠٥ م.

والثاني، هو المنزل الذي ولد فيه الشاعر خوسيه ثورليا J. Zorilla، وهو من أعظم شعراء إسبانيا في العصر الحديث، وهو يقع في درب صغير على مقربة من كنيسة سان بابلو في نهاية المدينة، وقد كتب عليه ما يُلَى تحت صورة من الجص للشاعر "هذا ولد الشاعر الكبير دون خوسيه ثورليا في سنة ١٨١٧"، ويحتوي المنزل على متحف للشاعر، حفظت به بعض الأثاث والرياش وبعض مخطوطاته، وتوجد به قاعة عمله ومكتبته.

وقد لعبت بلد الوليد دوراً ملحوظاً في تاريخ قشتالة الحديث، وكانت منزل البلاط في فترات كثيرة. وفي أوائل القرن الخامس عشر، جعلت عاصمة مملكة قشتالة، وفيها عقد زواج فرديناند وإسبيللا الذي أدى إلى اتحاد إسبانيا النصرانية (١٤٦٩ م). وفيها توفي كرسطوف كولومبوس مكتشف العالم الجديد (١٥٠٦ م)، وولد فيليب الثاني (١٥٢٧ م).

### حصن شنت منكش Simancas

على أنه إذا كانت بلد الوليد تخلو من الآثار الأندلسية، فإنه توجد على مقربة منها بلدة صغيرة. تضم أثراً أندلسياً قديماً، وله صلة وثيقة بالتاريخ الأندلسي، ثم بتاريخ إسبانيا الحديث. تلك هي بلدة شنت منكش أو شنت ماركش الصغيرة، وهي بالإسبانية بلدة Simancas، التي تضم الحصن الشهير الذي يحمل نفس هذا الاسم.

وتقع شنت منكش أو "سيمانكا" جنوبي شرقي بلد الوليد، على قيد عشرة كيلومترات منها، في واد عميق أخضر يقع على ضفة نهر بسوجرا أحد أفرع نهر دويرة. وهي عبارة عن محلة صغيرة تحتوي على عدد قليل من المساكن، بيد أنها تشتهر بالأخص بحصنها الشهير، الذي يقع في وسطها فوق ربوة مرتفعة، ويرجع حصن شنت منكش أو حصن سيمانكا إلى القرن التاسع الميلادي، وقد أنشأه المسلمون، ولبث في أيديهم إلى نحو منتصف القرن العاشر. وعلى مقربة من شنت منكش، فيما بينها وبين سمورة، كان مسرح الموقعة الشهيرة التي وقعت بين عبد الرحمن الناصر، وراميرو الثاني ملك ليون في سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ).

والتي هُزم فيها المسلمون هزيمة شديدة، وتعرف هذه الموقعة في الرواية الإسلامية بموقعة الخندق Alhandega.

وقد نالت على حصن شنت منكلش بعد وقوعه في يد النصارى، تغييرات وتعديلات كثيرة. وهو يبدو في شكله الحالي، قلعة حصينة بنيت من الصخر الصلب، وبها عدة أبراج منيعة، وتحتوي على أربعة طوابق في كل منها عدة غرف صخرية. وكان هذا الحصن يستعمل خلال العصور الوسطى سجنًا من سجون الدولة، ثم كان بعد ذلك من معازل ديوان التحقيق (Inquisición)، واستعمل منذ أوائل القرن السادس عشر دارًا للمحفوظات الإسبانية. وهو ما يزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة، التي تضم مجموعات عديدة من أهم وأفضل الوثائق، التاريخية والدبلوماسية والقضائية. ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة. وتشمل هذه المحفوظات الغنية أربعة وأربعين غرفة. ويطلق عليها اسم "دار المحفوظات العامة بسيمانكا" Archivo general de Simancas، وهي تستقبل العلماء والباحثين من سائر أنحاء العالم. وقد أتيح لنا زيارتها والعمل فيها غير مرة، لقينا خلالها من القائمين بأمرها، أجمل ترحاب ومعاونة.



صندوق عاجي لعبد الملك المنصور (٣٩٥ هـ)  
محفوظ بكنيسة بنبلوثة العظمى



لوحة أندلسية من الخزف العذهب (الزليخ)،  
محفوظة بمتحف بلنسية دي دون خوان بويريد





عباءة أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس، المحفوظة بمتحف مدريد العربي





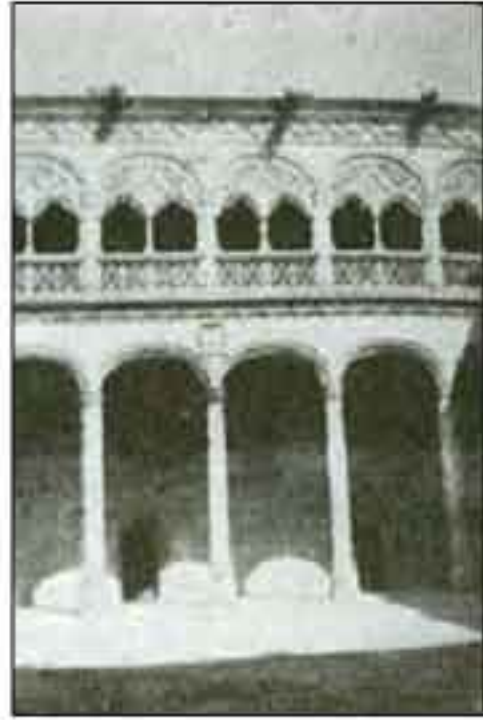
سيف علي العطار بطل لوشة، المحفوظ بمتحف مدريد العربي



علم الموحدين الذي غنمه الإسبان في موقعة العقاب (١٢١٢ م)  
وهو محفوظ بالدير الملكي بمدينة برغش



بلد الوليد، واجهة منزل شرفانسن



بلد الوليد، عقود المتحف



شنت منكن (سيمانقا)، القلعة الأندلسية القديمة وهي اليوم دل المحفوظات الإسبانية العامة

## ٤ - شقوبية Segovia

تعتبر شقوبية أو بالإسبانية سجووية من مدن إسبانيا الأثرية العريقة.

والواقع أن شقوبية تبدو للسائح المتجول، مدينة قديمة تحمل طابع العصور الوسطى، بل العصور الغليرة، ويكفي أن تلقى نظرة على قنطرتها الرومانية الهائلة القائمة في وسطها، لتترك لك في مدينة يرجع تاريخها على الأقل إلى العصر الروماني.

وهي تقع شمال غربي مدريد على قيد تسعين كيلو متراً منها، في سفح جبال وادي الزملة (جوادارما)، وتمتد أمامها بسائط خضراء يانعة، تنتج مختلف المحاصيل ولا سيما الحبوب، وتحف بها الجبال. وأهم صناعات شقوبية الدقيق والورق والخزف. ويبلغ سكانها زهاء خمسة وعشرين ألف نسمة. وهي هادئة الحركة، يشقها من الوسط حتى ميدان القنطرة الرومانية شارع طويل ضيق، ثم يمتد من هذا الميدان شارعها التجاري حتى ميدانها الرئيسي، الذي تشرف عليه دار البلدية، ويقع على مقربة من كنيسة العظمى. وشوارع شقوبية ودروبها صخرية منحدر. ومنازلها عتيقة الطراز قائمة اللون، وكل مظاهرها تدل على بطابعها القديم.

وكانت شقوبية من أوائل المدن الأندلسية الشمالية التي استولى عليها النصارى، وقد سقطت في أيديهم في عصر عبد الرحمن الأموي حوالي سنة ٧٥٧ م. واتخذت طابعها القشتالي في عصر مبكر، فهي في الواقع من أعرق مدن قشتالة القديمة.

وبالرغم من أن شقوبية لم تمكث طويلاً تحت حكم المسلمين، فإنها مازالت تحتوي على بعض الآثار الأندلسية. وأهم هذه الآثار هي بقايا الأسوار العربية القديمة، التي مازالت قائمة إلى جانب القنطرة الرومانية تشرف عالية على الميدان، وقد كادت تحجبها المنازل الحديثة الملاصقة لها. ويصعد إليها بواسطة سلم حجري عريض.





شقوبية. القنطرة الرومانية الكبرى



شقوبية. عقد سان لادريس



شقوبية. بقية من الأسوار الأندلسية



وتمتد القنطرة الرومانية الشهيرة من عند بقية الأسوار العربية. وهي أثر هائل من أعظم آثار العصر القديم. وتمتد على ضلعين كبيرين يبلغ طولهما أكثر من كيلو متر. ويتكون كل من الضلعين من عقود هائلة من الحجر الصلد، تبدأ من الأسوار على عقدتين فوق بعضهما يبلغ ارتفاعهما نحو ٣٥ مترًا. ويستمر الصف مزدوجًا مدرجًا في الانخفاض حتى ينتهي إلى عقد واحد. ثم يعود في الضلع التالي فيبدأ عاليًا بعقده الموحد، ويتضاءل في الارتفاع تدريجيًا ويمتد على طول ستمائة متر تقريبًا.

وقد شيدت هذه القنطرة العظيمة في عصر الإمبراطور تراجان الروماني، في القرن الأول بعد الميلاد، وكانت تقوم بوظيفتها في نقل ماء النهر (وهو نهر فريو فرع نهر دويسرة) عبر الجبال إلى المدينة خلال مختلف العصور، واستمرت تقوم بمهمتها إلى أواخر القرن الماضي. ولكنها اليوم تغدو أثرًا مهجورًا لا عمل له.

وتقع الكنيسة العظمى أو الكثرائية، فوق صخرة عالية على مقربة من الميدان الكبير، وتمتد هذه الصخرة منحدرًا حتى موقع "القصر". وكثرائية شقوبية ضخمة رائعة من الداخل. وقد بنيت في أواخر القرن السادس عشر على الطراز القوطي. ويمتد "مقدسها" خلال رواقين كبيرين. وبها معرض للمخطوطات المقدسة من الأناجيل والأناشيد الكنسية، وكذلك تعرض بعض الوثائق القشتالية في بهو المحفوظات. وبها متحف يقدم طائفة من التحف الدينية المذهبة والصور التاريخية، ومجموعة من السجاد الفاخر من صنع جوبلان، وقد صور عليه تاريخ ملكة تدمير نقلًا عن المصور "روبنس".

وقد لفت نظرنا في هذا المتحف قطعة رخامية، هي عبارة عن رأس عمود مزخرف مقرنص وعليه كتابة عربية قرأنا منها:

بسم الله والحمد لله

نعمة شاملة

أطال الله بقاء مما أمر بعمله..

سنة تسع وأربعين وثلاثمائة والحمد لله.

ويفضى من الكثرائية إلى "القصر" طريق صخري ضيق منحدر. ويقع القصر Alcázar فوق صخرة وعرة تجثم في أعماق هاوية مخيفة، وهو يتخذ شكل قلعة منيعة ذات برج ضخمة، يبلغ ارتفاعه منذ مرساه في الهاوية إلى قمته نحو مائة متر. ولا بد أنه يمت بصلة ما إلى صرح أندلسي قديم مثل القصبة أو القصر إذا اعتبرنا دلالة الاسم. ولعله قد بني فوق أنقاض هذا الصرح الأندلسي القديم أو فوق موقعه. والمعروف من تاريخه أنه بني في القرن الثالث عشر. وجدد في القرن الرابع عشر. وكان من الصروح الملكية القديمة، التي كانت

تستعمل للإقامة المؤقتة، ويعقد به البلاط من آن لآخر، وهو يحتوي بالفعل على بهو ملكي وقاعة للعرش، ومما يلفت النظر أن قاعة العرش لها سقف عربي، بزخارف مقرنصة على شكل قبة عربية، تحفها نقوش مدجنية، والمقول إنها صنعت على مثل زخارف قصر الجعفرية بسرقطة، وقد زينت أبهاء "القصر" بطائفة من الصور التاريخية.



شقوبية. منظر عام للقصر والربوة القائم عليها

ويقع على مقربة من الكنيسة العظمى في أسفل الصخرة، عقد قديم منيع ذو طراز عربي، يسمى باب سان أندريس، وإلى جانبه الأيمن بقية من أسوار قديمة، بيد أننا لم نستطع أن نقف على العصر الذي بُني فيه، ولم نعرف إن كان يرجع إلى العصر الأندلسي، أم أنه من إنشاء العصر القشتالي.

وفي شقوبية ساحة لمصارعة الثيران.

## ٥ - آبله

### Avila

كانت آبله، مثل شقوبية، من أوائل المدن الأندلسية التي استردها النصارى. وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الأموي حول سنة ٧٥٧ م.

وهي مدينة صغيرة تقع في شمال غربي مدريد، على قيد ثمانين كيلو متراً، وبينها وبين شقوبية مسافة صغيرة، ويربطها بمadrid قطار كهربائي. ويبلغ سكانها خمسة عشر ألف نسمة.

وآبله ضيقة الرقعة، يشقها شارع طويل يبلغ نحو كيلو مترين. وهي مدينة هادئة جميلة المظهر، وبها أسواق حسنة. وأعظم آثارها الظاهرة هي بقية أسوارها الضخمة التي مازالت تحيط بقسمها الغربي، وهي أسوار منيعة عالية يبلغ طولها نحو نصف كيلو متر، وبها عند كبير من الأبراج، وعدة أبواب مازالت كلها في حالة جيدة. ويبدو من منظر هذه الأسوار، وطرزها أنها ترجع إلى العصر الروماني، ولكن يبدو كذلك في كثير من أجزائها، أن العرب قاموا بإصلاحها والزيادة فيها.

وفي آبله عدة كنائس أثرية في مقدمتها الكنيسة العظمى، وهي بناء ضخم أقيم على الطراز القوطي، ولها واجهة فخمة، وبها من الداخل زخارف وهياكل بديعة. ويرجع إنشاؤها إلى القرن الثالث عشر. وتليها في الأهمية كنيسة سان بشتي، وهي أيضاً جميلة فخمة وبها متحف صغير.

ومن آثار آبله الأندلسية القصر Alcázar، وهو عبارة عن حصن قديم حوّل منذ عهد بعيد إلى ثكنة عسكرية.

وهناك رأي فيما يتعلق بمسجد آبله القديم، وهو أن موقعه لم يُشغل ببناء الكنيسة العظمى وفقاً لسياسة إسبانيا النصرانية، التي اتبعتها في سائر مدن الأندلس، ولكن ظهر من البحوث الحديثة أن موقع هذا المسجد، يقوم اليوم مكانه دير سانتا ماريا دي جراتيا Monasterio de Sta. Maria de Gracia، الذي يشغله الرهبان الأوغسطينيات، يدل على ذلك كتابة وجدت على قطعة من الخشب، وكذلك مذكرة قديمة كتبها أحد رؤساء هذا الدير في

القرن السابع عشر. بيد أنه من الصعب أن نعرف متى كان هذا المسجد قائماً ومتى هدم، إذ إنه من أقدم المساجد الأندلسية <sup>(١)</sup>.



آلة. جانب من الأسوار الرومانية وقد ظهرت في نهايته الكنيسة العظمى

---

<sup>(١)</sup> يراجع في ذلك بحث المستشرق F. Gonzalez عن آله "مسجد آله القديم" Antigua Mezquita de Avilla منشور في مجلة أكاديمية التاريخ الملكية Boletín de la Real Academia de la Historia (T. XIV, 1869)

## ٦- وادي الحجاره

### Guadalajara

هي مدينة أندلسية قديمة، كانت أيام المسلمين تعتبر من المراكز الأمامية للغزوات الإسلامية في نافار وقشتالة؛ وهي تقع على نهر هنارس شمال شرقي مدريد وعلى قيد خمسين كيلو مترًا منها، وبينها وبين العاصمة الإسبانية منطقة خضراء تتخللها بعض التلال، وتغطيها غابات الزيتون والحقول اليناعة.

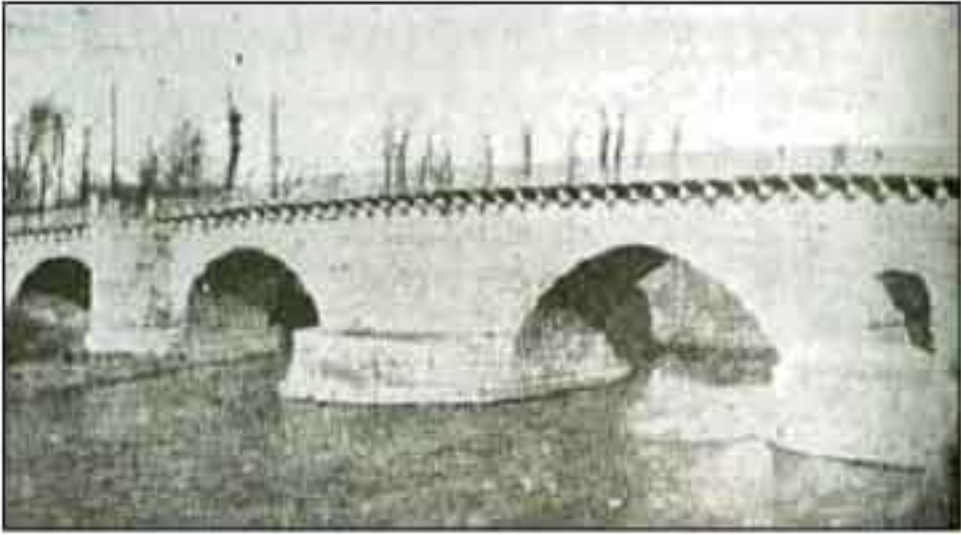
وقد لبثت وادي الحجاره تحت حكم المسلمين زهاء ثلاثة قرون ونصف، وسقطت في أيدي القشتاليين عقب سقوط طليطلة في سنة ١٠٨٥ م، وكان الذي استولى عليها هو القائد ألفرانتيس أو ألبرهانس Alvar Fañez زميل السيد الكنييطور El Cid، ثم ضمت بعد ذلك إلى مملكة قشتالة، وحاول المسلمون استعادتها في سنة ١١٩٦ م، فلم يفلحوا.

وتبدو مدينة وادي الحجاره، إلى جانب مناظرها الطبيعية الجميلة، مدينة قديمة الطراز، وهي طويلة الرقعة قليلة العرض، يشقها شارع طويل جدًا هو شارع القائد الأعظم، وهو شارعها الرئيسي وفيه المتاجر والمقاهي، وتنتفخ منه سائر أحياء المدينة على الجانبين في عرض قليل، وتضم المدينة من السكان اثني عشر ألفًا، ويلاحظ أن الدروب الواقعة في طرف المدينة هي دروب ضيقة وصاعدة، تحمل طراز العصور الوسطى.

ولا توجد في وادي الحجاره آثار أندلسية بارزة، اللهم إلا بقية أسوار قديمة تقع على مقربة من الكنيسة العظمى، وفوقها بناء مربع عال يظهر أنه برج قديم وفي أعلاه عقود نافذة، ويسمى "برج العلمين"، وقيل لنا إنه يرجع إلى عهد المسلمين.

وتسمى الكنيسة العظمى كنيسة "سانتا ماريّا"، وهي صغيرة الحجم ذات عقود كعقود الجامع، وترجع إلى القرن الخامس عشر، وهي بسيطة قليلة الزخارف، وفيها تُحفظ صورة قديمة للعدراء، كان ألفونسو السادس ملك قشتالة يحملها معه في حروبه ضد المسلمين، في أواخر القرن الحادي عشر. وظاهر من موقع الكنيسة أنها ربما كانت تحتل موقع الجامع القديم.





وادي الحجارة. القنطرة العربية على نهر هشارس  
(القرن العاشر إلى الحادي عشر)



وادي الحجارة. برج العلمين وبقية الأسوار الأندلسية

وتقع كنيسة سان فرنسكو في طرف البلدة على ربوة مرتفعة، على مقربة من الكنيسة العظمى، ويقال إنها ترجع إلى عهد المسلمين، وربما كانت تقوم أيضًا فوق موقع أحد المساجد.

ويوجد إلى يمار هذه الكنيسة بناء هو عبارة عن برجين مستديرين بينهما سور طوله نحو ثمانين مترًا، ويعرف هذا البناء بـ"أبراج" "ألفرانييس" فاتح المدينة، وربما كان النصارى قد أنشئوها فوق أنقاض القسبة العربية القديمة، يرجح ذلك الفرض موقعها في نهاية المدينة، وفي طرف الربوة المطلّة على الوادي.

كذلك توجد كنيسة القديس نيقولا، وهي كنيسة صغيرة ذات عقود وقبة على طراز الجامع، وهي تقع في وسط المدينة.

ويوجد في وادي الحجارّة صرحان كبيران يرجعان إلى القرن الخامس عشر، من طراز منجني يسمى أحدهما "قصر مندوسا".

كما توجد القنطرة العربية القديمة فوق نهر هنارس، وقد بقي من عقودها الأربعة عقدان من عهدها الإسلامي.

ويبدو من تأمل الدروب والأحياء التي تقع حول الكنيسة العظمى، أن المدينة الأندلسية كانت تقوم فوق هذه الرقعة، صاعدة نحو الربوة التي تقع عليها كنيسة سان فرنسكو في طرف المدينة، وممتدة من الناحية الأخرى حتى القنطرة.

## ٧ - مدريد

### Madrid

إن مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة ليست من العواصم القديمة. ولم تكن مدينة أندلسية، ولكنها مدينة باسمها وموقعها من الناحية التاريخية إلى بلدة أندلسية صغيرة، أنشأها المسلمون في أواسط القرن التاسع الميلادي، هي "مجريط" Magerit أو كما ينطقها الإسبان مخريط.

وكانت مجريط محلة صغيرة، أمر بإنشائها الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس (٨٥٢ - ٨٦٦ م)، حوالي سنة ٨٦٠ م. واختطت فوق سطح جبل وادي الرملة Guadaramma شمالي طليطلة، وجنوب غربي وادي الحجارة، في منطقة الحصون الدفاعية، وبُنيت بها قلعة منيعة، مشرفة على الضفة اليمنى لنهر منشارس، أحد أفرع التاجه. لتعاون في رد غارات النصارى. من ناحية الثغر الأعلى، كما أقيم بها مسجد جامع، وقامت حولها بلدة إسلامية صغيرة.

ويذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون "مجريط". ويصفونها بأنها مدينة صغيرة وقلعة منيعة، ويصفون حصن مجريط بأنه من "الحصون الجليّة"<sup>(١)</sup>.

وكانت أهمية مجريط في عهدها الإسلامي تنحصر قبل كل شيء في قيمتها الدفاعية. ومع ذلك فقد كانت مجريط في ذلك العهد بلدة زاهرة، وكانت موطناً لبعض علماء الثغر الأوسط، ومنهم المحدث سعيد بن سالم الثغري المتوفى سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م). وكذلك ينتسب إليها العلامة الفلكي الأندلسي، أبو القاسم مسلمة المجريطي القرطبي المتوفى في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م).

ولبثت مجريط زهاء قرنين ونصف قاعدة دفاعية أمامية، تؤدي دورها الهلم في الحروب التي تنشب بين المسلمين والنصارى في منطقة وادي الحجارة، وكانت في أواخر عهدها الإسلامي من أعمال مملكة طليطلة، أيام بني ذي النون، وكانت محور كثير من المعارك التي دارت في ذلك الوقت بين المأمون بن ذي النون ملك طليطلة، وبين ألفونسو السادس ملك قشتالة، وانتهت آخر الأمر بسقوطها في يد ألفونسو السادس في سنة ٤٧٦ هـ.

<sup>(١)</sup> راجع معجم ياقوت تحت كلمة (مجريط)، وكذلك الروض المعطر (صفة جزيرة الأندلس) من ١٧٩ - ١٨٠.

(١٠٨٣ م)، قبيل استيلائه على طليطلة بنحو عامين، وقد هدم مسجدها الجامع، وبنيت فوق موقعه كنيسة عرفت فيما بعد بكنيسة سيدة المدينة Nuestra Sra. De Almedina.

ثم اتخذ بعض ملوك قشتالة من هذه المحلة مركزاً للصيد والتنزه، وذلك لجمال موقعها، وطيب هوائها، وأقام الملك هنري الرابع مكان القلعة الإسلامية القديمة Alcázar قصرًا للصيد، وجاء الإمبراطور شارلكان فعنى بتوسيعه وتجميله، وكان ينزل فيه من آن لآخر، واشتهرت مجريط وسهلها المسمى "البارود"، يومئذ بأنها أجمل منتجع للصيد والتنزه، وأخيرًا جاء ولده الملك فيليب الثاني فتخذ مقرًا لبلاطه، وذلك أثناء قيامه بإنشاء قصره العظيم "الإسكوريال" Escorial في بقعة تقع على مقربة من مدريد، وكان ذلك في سنة ١٥٦١ م. ومن ذلك التاريخ تغدو مجريط، أو مدريد وفق اسمها الحديث الذي تطور إليه الاسم القديم، مقر البلاط ومقر الحكومة، وتغدو عاصمة لإسبانيا.

وهكذا ولدت مدريد العاصمة الإسبانية، واستقرت مكان أمها العربية الأندلسية مجريط، وهي تغدو اليوم بشوارعها وميادينها الفسيحة، وصروحها الفخمة العديدة، من أجمل العواصم الأوروبية. وقد خلفت الملوكية في مدريد ومن حولها كثيرًا من الصروح والمنشآت الباذخة التي تضيء عليها مسحة ساحرة من الروعة والجلال.

ويعنى أولو الأمر عناية خاصة برواء العاصمة الإسبانية وتجميلها. ويعتبر شارع "جران بيا" Gran Vía، أو "خوسيه أنتونيو" أعظم شوارعها التجارية والاجتماعية؛ ففيه أشهر المتاجر والفنادق والمسارح والمقاهي ودور الأعمال، وفي نهايته من ناحية "ميدان إسبانيا" يقع "صرح إسبانيا"، وكان إلى أعوام قلائل أعظم وأعلى بناء في العاصمة الإسبانية، ويحتوي على ست وثلاثين طبقة<sup>(١)</sup>، وأمامه الحدائق التي يتوسطها نثر الكاتب الإسباني الأشهر "ميجيل ثرقتنس". ويلي "الجران بيا" في الأهمية شارع "مايور" (الشارع الكبير) الذي تقع من ورثه مدريد القديمة بأحيائها العتيقة وشوارعها الضيقة، وشارع "الكالا" Alcála (القلعة) وكلاهما يتفرع من ميدان "باب الشمس" P. del Sol في اتجاهين متقابلين. وهذا الميدان القديم الذي تقع دار البلدية في أحد جانبيه، يكاد يكون قلب مدريد النابض الذي يوزع مجمل الحركة على شوارعها الكبرى، ويتفرع منه عدة شوارع أخرى صاعدة كلها، من ناحية نحو "الجران بيا"، وعدة أخرى من الناحية الأخرى صاعدة كلها نحو أحياء مدريد الشعبية. وشارع "الكالا" هو شارع البنوك وبعض الوزارات، ويمتد حتى حدائق الرتيرو، ثم ينحرف بعدها إلى مسافة طويلة. وحدائق الرتيرو El Retiro هذه تفتخر بها مدريد أعظم الحدائق الأوروبية، وقد تفضل حدائق فرساي روعة واتساعًا، ويمتد قبيل الرتيرو، بهذا الكالا، شارع آخر من شوارع

(١) وقد قام في الأعوام الأخيرة أمام "صرح إسبانيا" صرح جديد آخر أعلى منه بعدة طبقات.

مدريد الكبرى هو شارع سرائو، بيد أن أعظم وأطول شوارع مدريد، ولبدعها تخطيطاً هو طريق "كاستيلانا" Castellana الذي يشق العاصمة الإسبانية من الوسط، وتقوم في وسطه المتنزهات المستطيلة الرحبة، وتتخلله عدة ميادين فخمة ذات نوافير تاريخية بديعة. وأهم هذه الميادين وأجملها ميدان ثيليس Cibeles الذي يقع في منتصفه، والذي تُشرف عليه دار البريد العامة بأبراجها القوطية الرشيقة، وهي من أجمل صروح مدريد الحديثة. ومن أعظم وأشهر صروح مدريد قصر المشرق "أوريثي" وهو مقر رئيس الدولة، والقصر الملكي السابق (قصر بارنو)، ومتحف البرادو الشهير، والمتحف الأركيولوجي، والمكتبة الوطنية، ودار البرلمان (الكورتيس)، ومسرح مصارعة (الثيران) (الكورينا)، والجامعة الجديدة، وكثير غيرها.

ويقع القصر الملكي السابق Palacio Real في غربي المدينة، فوق مرتفع يشرف على نهر منثارس، وقد بنى في أواخر القرن الثامن عشر، على موقع قلعة مجربط الإسلامية القديمة، مكان قصر الصيد السابق.

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن العاصمة الإسبانية لذاتها، ولا أن نصف خططها ومنشأتها، ولكننا نريد فقط أن نتحدث عما تحتويه متاحفها من الذخائر التي تتعلق بتاريخ الأندلس وحضارتها.

ففي متحف مدريد الحربي، الواقع على مقربة من متحف البرادو، توجد قاعة صغيرة خصصت لبعض الآثار الأندلسية. وتكاد تنحصر هذه الآثار في قطع ثلاث، ترتبط كلها بمأساة سقوط الأندلس.

١- وأولى هذه القطع صورة مكبرة لإقرار بالعربية، كتبه أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بخطه، بالموافقة على نصوص آخر معاهدة للتسليم، عقدها مع الملك فرديناندو الكاثوليكي وزوجه الملكة إيسابيلا فاتحي مملكة غرناطة، وأمضاء بتوقيعه (محمد بن علي بن نصر) وبصمه بخاتمه. وتاريخ هذه الوثيقة المؤثرة هو ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ (الموافق ٧ أغسطس سنة ١٤٩٣ م) وبلى هذا القبول ترجمته بالقشتالية (الإسبانية).

وهذا هو نص الإقرار المذكور: "الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافي أنا الأمير محمد بن علي بن نصر خديمكم وصلاتي من مقامكم العلي العقيد وفيها جميع الفصول الذي عقدها عنى وبكم التقديم من خديمي القائد أبو القاسم المليخ، وصلت بخط يدكم الكريمة عليها وبطابعكم العزيز كيف هيت مذكورة بهذا الذي تصلكم، وإني نوفي ونحلف أني رضيت بها بكلام الوفا مثل خديم جيد، وتري هذا خط يدي وطابعي أرقبته عليها لتظهر صحة قولي، ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعين وثمانمائة، أنا



كاتبه محمد بن علي بن نصر رضىت وقبلت جميع ما في هذا المکتوب الثابت وتقبل بيدي إلى أضيافي السلطان والسلطانة مذلى هنا كما".

وتنص هذه المعاهدة التي مهرها أبو عبد الله بقبوله المتقدم، على تعهده بأن يغادر الأندلس بصورة نهائية، وأن يعبر إلى المغرب في موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣، وأن يتنازل عن سائر ضياعه في أندلس وغيرها بالبيع للملكين الكاثوليكين، نظير ثمن إجمالي قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشالي (كاستليانو). وقد كتبت المعاهدة المشار إليها باللغة القشتالية، وهي محفوظة بذو المحفوظات العامة في سيمانكا<sup>(١)</sup>.

٢- وإلى يمين هذا الإقرار الملىء بالعبر المؤلمة، تعرض العبادة الملوكية التي تنسب إلى أبي عبد الله، وهي عبادة نصفية من المخمل أرجوانية اللون، وعليها نقوش عربية جميلة بيضاء. وقد كتب تحتها أنها عبادة أبي عبد الله Capa de Boabdil، وأنها أهديت إلى المتحف من أسرة المركزية ماريانا دل كارمن بيرث Doña Carmen Perez Vanidas y Berry.

وإذا صح حقيقة أنها عبادة أبي عبد الله، فأغلب الظن أنها أخذت منه في معركة حصن اللسانة، التي وقعت بين المسلمين والنصارى في إبريل سنة ١٤٨٣، قبل سقوط غرناطة بعدة أعوام، وقاد فيها قوات المسلمين أبو عبد الله وهو يومئذ سلطان غرناطة الفتى، وقد أسر فيها أبو عبد الله، وقضى في أسره في بلاط الملكين الكاثوليكين زهاء ثلاثة أعوام. وربما أخذ منه سلاحه وثيابه الملكية يومئذ، عنواناً لظفر النصرى وتذكراً من هذا الأسير الملكي الكبير.

٣- وثالثة هذه التحف، سيف أندلسي ضخم بمقبض ثمين مموه بالذهب، ومزقوم بأنه سيف علي العطار Aliatar.

وهذا السيف هو تذكاري بطولة أندلسية خالدة، فقد كان صاحبه الأمير علي العطار قائداً بطلاً، من أبطال الصراع الأخير بين المسلمين والنصارى، وكان يرتبط بملك غرناطة السلطان أبي عبد الله برباط المصاهرة، إذ كان السلطان متزوجاً بابنته الحناء مريم. وقد أبدى علي العطار بسالة نادرة في الدفاع عن مدينة لوشة، التي كان قائداً لحاميتها حينما هاجمها النصارى في يولييه سنة ١٤٨٢. وكان يومئذ في الثمانين من عمره، ولكنه كان بالرغم

(١) حصلنا أثناء بحوثنا في قلعة سيمانكا (شنت مكش) على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة. وقد نشرنا محتوياتها في كتابنا "نهاية الأندلس" (طبعة الثانية) ص ٢٦٢ و ٢٦٣.

من شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان الأندلس، وقد أخذ هذا السيف منه في معركة اللسان التي خاضها ضد النصاري مع أبي عبد الله وأسر معه فيها<sup>(١)</sup>. وإلى جانب هذه الذخائر الثلاث، يوجد أيضاً في المتحف الحربي ذراعان يعلّان أنهما كانا لأبي عبد الله، كما توجد مجموعة من قطع النقد الأندلسية، ترجع إلى عصور عبد الرحمن الناصر، والزهراني، والمستنصر، والمنصور.

### متحف بلنسية دي دون خوان

يضم هذا المتحف الصغير الواقع في شارع فرثوني، والذي يضمه بناء عربي أنيق، مجموعة ثمينة جداً من اللوحات والشواهد الرخامية الأندلسية، والزخارف العربية، والأواني الخزفية الأندلسية والمنجنية، وقطع البسط الأندلسية، وهي تشغل معظم قاعاته. ومن الأسف أنه لا يوجد لهذا المتحف دليل مفصل شامل يقوم بالتعريف عن محتوياته، ولم توضع على محتوياته بيانات إيضاحية، وقد أنفقنا في البحث فيه ساعات طويلة نستقري ذخائر الأندلسية، وإليك بعض ما لفت نظرنا من هذه المحتويات:

١ - عدة لوحات رخامية من شواهد قبور، مختلفة الأحجام والتواريخ، قد صيغ معظمها في أساليب متشابهة، وافتتح معظمها بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، هذا قبر... إلخ<sup>(٢)</sup>.

بيد أنه قد لفت نظرنا منها شاهدان كتب كلاهما بأسلوب مختلف أولهما، لوحة رخامية حجمها ١,٥٠ × ٠,٢٣ مترًا، وقد نقش فيها ما يأتي:

دفن بهذا القبر رجل من أهل الخير، أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ المرحوم محمد بن زيد البلنسي سنة تسعة وعشرين ومبعمائة رحمة الله عليه وكتب ابنه فضل وحاج عنه نفعه الله به وببركة رطاه. وقد وجدت هذه اللوحة في مدينة ألمرية.

والثانية لوحة رخامية كبيرة حجمها ١,٧٥ × ٠,٨٠ مترًا وقد وجدت بمدينة غرناطة، ونقش عليها هذا النعي البليغ المؤثر:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله، هذا قبر الشاب الفقيه الأجل السري الأفضل الأبرع الأخصل المرحوم أبي جعفر بن شبرين رحم الله شبيهه، وروى بهاء

<sup>(١)</sup> نشرنا صورتي العبادة والسيف في المجموعة الخاصة بالكتاب الرابع.

<sup>(٢)</sup> راجع: Lévy - Provençal; Inscriptions Arabes d'Espagne للوحات رقم ١٣٣، ١٣٤، و١٣٥.

الرحمة تراه، لما تشوّفت منه الرتب إلى كفوها، ووليت منه مقلد حليها، واليراع إلى مجيل أفراسها، والرقاع إلى راقش أطراسها، دعاء داعي الأجل، فحث سبيله بأقصى العجل، وعاق هلاله عن التمام، صرف الحمام، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وكان إسبب وفاته رحمه الله بفرس قبض لحينه، فأكل المجد، ومحا قرّة عينه، فبأله من بدر عدا عليه الرامح، وشهاب اقتران يهتدي به اللامح، أجزل الله بمصابه ثواب والديه، وجعل له من صالح العمل نوراً يسعى خلفه وبين يديه، ولد في ظهر يوم الاثنين الرابع وعشرين لصفر أربعة وعشرين وسبعمائة وتوفي في أول يوم الأربعاء السادس عشر لذي حجة اثنين وأربعين وسبعمائة.

٢- صندوق صغير مستطيل من مخلفات مدينة الزهراء نقش على جوانبه ما يأتي:  
”بسم الله بركة الله ويمن وسعادة وسرور لأحب ولادة مما عمل بمدينة الزهراء سنة خمس وخمسين وثلاث مائة عمل خلف“.

٣- زلعة أو جرة كبيرة من الخزف بوجه مذهب، ونقوش كوفية وعربية، على مثل زلعة الحمراء، وقد نقش على عنقها مكرراً ”اليمن والإقبال“.

٤- لوحة من الخزف المذهب حجمها نحو متر في نصف متر. وقد كتب على جوانبها الأربع هذه العبارة ”عز لمولانا السلطان أبي الحجاج الناصر لدين الله“، وقد كتب عنها في الدليل الموجز الذي عمل عن بعض محتويات المتحف، أنها وجدت في حي البيازين بغرناطة.

٥- قطعة من الخزف المزخرف ظاهر أنها جزء من لوحة كبيرة، وقد نقش عليها ”الملك الدائم، العز القائم“.

٦- قطعة من قماش مستطيلة طولها متر ونصف وعرضها ثلاثون سنتيمتراً مذهبة الحواشي، وفي وسطها رقعة سوداء كتب عليها بخط مذهب باهت ”ولا غالب إلا الله“ عدة مرات.

٧- قطعة من سجاد مستطيلة ضيقة طولها متر ونصف وعرضها ١٥ سنتيمتراً وعليها كتابة مكررة ”سلطان أيده الله، بالسعد والفتح والنصر. لمولانا عمدة ملوك الأرض فتى اليمن.. إلخ“.

٨- عدة قطع أخرى من سجاد عليها نقوش مختلفة مثل ”عز لمولانا السلطان“ وغيرها.

٩- عدد كبير من الأواني الخزفية الجميلة، المنجنية والموريسكية ذات الألوان الزاهية.



متحف مدريد الحربى. إقرار لى عهد الله آخر ملوك الأندلس  
بقبول معاهدة التسليم الأخيرة



متحف مدريد الوطنى. قنديل برونزى  
من مخطك جامع الحمراء



متحف مدريد الوطنى. زخارف  
قطعة من البسط الأندلسى

## المتحف الوطني

ويضم متحف مدريد الوطني أو الأركيولوجي، قسمًا كبيرًا للأثار الأندلسية والمدرسية والموريسكية. ويضم بالأخص لوحات وقطعًا زخرفية عديدة، من مخلفات الصروح والقصور الأندلسية المختلفة، وبه كذلك عدد من شواهد القبور، رأينا من بينها شاهد قبر الأمير أبي محمد سير بن أبي بكر اللموني، القائد المرابطي الشهير والمتوفى سنة ٥٣٧ هـ، وشاهد قبر الوزير أبي عمران موسى بن الأزرق الفهري، قائد ابن مرديش المتوفى سنة ٥٦٦ هـ. وإليك بعض ما لفت نظرنا من محتوياته الأندلسية:

١- لوحة رخامية تذكارية سجل بها، إنشاء الخليفة الحكم المستنصر بالله لأحد أبراج حصن بجهة جيان على النحو الآتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر ببنان هذا البرج عبد الله الحكم المستنصر بالله، أمير المؤمنين أطل الله بقاءه على يد موله وقائده ميسور بن الحكم فتم وكمل بحول الله وتأييده وذلك في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وثلاث مائة".

٢- صندوق مربع الشكل من مخلفات إسماعيل بن ذي النون الظافر، صاحب طليطلة، نقش على جوانبه الأربع ما يأتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم بركة دائمة ونعمة شاملة وعافية باقية وغبطة طائلة وآلاء متتابعة وعز وإقبال وإعلم واتصال وبلوغ آمال لصاحبه أطل الله بقاءه مما عمل بمدينة قونكة بأمر الحاجب حسام الدولة أبي محمد إسماعيل بن المأمون ذي المجدين ابن الظافر ذي الرياستين أبي محمد بن ذي النون أعزه الله في سنة إحدى وأربعين وأربع مائة عمل عبد الرحمن بن زيان".

٣- صندوق صنع برسم المعز لدين الله الفاطمي، وعلى وجهه العاجي نقش هذا نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معز أبي تمام الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين وذريته الطاهرين مما أمر بعمله بالمنصورية المرضية صنعه أحمد الخراساني"<sup>(١)</sup>.

٤- قطعة من قماش حريري مزركش بالذهب، من مخلفات الخليفة هشام المؤيد بالله وقد كتب عليها ما يأتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الإمام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين".

(١) هذا نص من التحفة الأندلسية، ولكنه وجد في بعض الحفريات التي عملت على مقربة من بلدة بالنسيا بفشقة.



٥- طُثت وضوء من مخطت لمنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) نقش عليه ما يأتى:  
".. المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله مما أمر بعمله بقصر الزاهرة  
فتم بعون الله وحسن تليده على يدي.. الفتى الكبير العامري سنة وسبع وسبعين [وثنت مئة]".  
هذا وقد رأينا فضلاً عما تقدم فى هذا القسم الزاخر بالآثار والذكرات الأندلسية، بها  
عربياً مزخرفاً من صنع المنجنيين، وزلعة كبيرة بنقوش بديعة مذهبة على مثل زلعة الحمراء،  
وقطعاً خزفية غرناطية ترجع إلى القرن الخامس عشر، وقطعاً خشبية عليها نقوش عربية  
مختلفة قرآنية وغيرها، وأنية مختلفة من الخزف المذهب، ترجع إلى عصر الملكين  
الكاثوليكين، وعصر الموريسكيين فى القرن السادس عشر، وعليها نقوش وصور بديعة،  
وأطباقاً وأنية مذهبة رائعة الصنع ترجع إلى نهاية عصر الموريسكيين.

### متحف لازارو

ورأينا فى متحف لازارو صندوقين صغيرين من الخشب، يبدو أنهما من صنع منجنى  
أو موريسكى، وأولهما يبلغ حجمه نحو ٤٠ × ٢٠ سنتيمتراً، وغطاؤه شبه منحرف، ويبدو أنه  
موريسكى الصنع، وقد نقشت عليه صور شيوخ على رؤوسهم "كاب" تشبه العمامة وتيجان.  
وثانيهما فى حجم الأول تقريباً، وقد زينت جوانبه بصور الأزهار، ونقشت عليه عبارات  
عربية قرأنا منها ما يأتى: "البركة والسعادة" مكررة، تتخللها صور طواويس غير متقنة.

### المكتبة الوطنية

ويضم قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية، طائفة من المخطوطات العربية،  
ليس بينها كثير من المخطوطات ذات القيمة الخاصة. ومعظمها منقول عن مخطوطات  
"الإسكوريال"، وهى مذكورة فى الفهرس الخلس بها. ولهذا لا نرى مجالاً للتحدث عنها هنا.  
وتوجد فى قسم "المحفوظات التاريخية" Archivos Históricos الملحق بالمكتبة  
الوطنية، مجموعة من الوثائق العربية، نقلت إليه من دير سان كلمنتى فى طليطلة، وهى عبارة  
عن عقود بيع وشراء وهبة وغيرها، عقدت بين المسلمين والنصارى أو بين النصارى  
وحدهم، ومعظمها يرجع إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد. وقد حصانا على  
صور فوتوغرافية لعدد منها<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسباني الكبير جونثالث بلنثيا مقرونة بتراجمها الإسبانية فى  
أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان: Los Mozarabes de Toledo en los Siglos XII y XIII  
(Madrid 1926 - 1930)

الكتاب الخامس  
**ليون وجليقية والأسترياس**

## ١ - شنت ياقب

### Santiago

إنها أسطورة من أروغ الأساطير الدينية، تلك التي تحيط بنشأة مدينة شنت ياقب أو شنت ياقوب أو شنتياغو Santiago، وبالدور العظيم الذي لعبته في تاريخ مملكة جليقية، وفي حضارتها في العصور الوسطى.

وتقع هذه المدينة الدينية الثالثة في واد خفيض، تواجهها التلال، ومن حولها بسائط رائعة، في الركن الشمالي الغربي من إسبانيا، وفي جنوب غربي ثغر لاکورنيا La Coruña، على مقربة من المحيط الأطلنطي. وهي عاصمة ولاية جليقية القديمة. والطبيعة في جليقية بالرغم من عبوسها وخشونتها، أجمل ولهبج منها في بقاع كثيرة في إسبانيا. وبالرغم من أنها ليست سهولاً وبساتين متصلة، بل تتخللها التلال والمرتفعات الكثيرة، إلا أنها على العموم خضراء جميلة متنوعة، وبها غابات من مختلف الأشجار، ونكد الطبيعة في جليقية، تشبه سفوح الألب في النمسا وسويسرة، من حيث تنوعها وخضرة هضابها. والبساتين هنا خصبة جداً، والمياه موفرة لكثرة تساقط الأمطار في هذه المنطقة.

ومدينة شنت ياقب (سنتياجو) من أعجب وأجمل المدن الإسبانية، ذات طابع خاص بها. وهي لشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص. وطابعها القدم المنشعب بالجلال والوقر. وهي تبدو بشوارعها المعقودة المرصوفة بالبلاط الضخم، وميادينها التي تظللها الصروح التاريخية، مدينة قديمة عريقة حقاً. وأروغ ما تقع عليه العين كنيسها العظيم، التي تقوم في وسطها، وتبدو بواجهاتها الفخمة، وصرحها الشامخ، وبرجها العظيم، أثراً من أعظم الآثار الدينية، ويخترق المدينة من الشرق شارعان كبيران كلاهما ذو عقود حجرية من الجانبين، أولهما شارع قليار Rua del Villar، المؤدي إلى ميدان الكتدرائية، وهو من أهم شوارعها التجارية، وثانيهما الشارع الجديد Rua Nueva، وهو يسير محاذياً للأول ويؤدي إلى ميدان سان بلايو، وهما بلا ريب من أقدم شوارع المدينة إن لم يكونا أقدمها على الإطلاق.

ومعظم صروح المدينة وأهمها الصروح الدينية، من كنائس وأديرة وقصور أسقفية، ترجع إلى القرن الثاني عشر والثالث عشر، وكلها تسبق على المدينة طابع العراقة والقدم، فهي حقاً مدينة من مدن العصور الوسطى، لم تخلع عنها شيئاً من خواصها.



وبالرغم من الألق الذي يغمرها، فإن شنت ياقب مدينة كثيرة الحيوية، ذات حركة تجارية وصناعية كبيرة، وهي فضلاً عن منتجاتها الزراعية الوفيرة، تنتج الأقمشة والورق والخمور وغيرها، ويلاحظ فوق ذلك أن حوانيتها خاصة بالأثنية الفضية المزخرفة، والذكرات المقدسة من صور وتمائيل وصلبان وغيرها، ويبلغ سكانها ثمانية وعشرين ألف نفس.

ويجدر بنا قبل أن نعرض إلى معالم شنت ياقب الأثرية، أن نذكر ملخص الأسطورة الدينية التي كانت سبباً في إنشائها، والتي جعلت منها كعبة الحجاج طوال العصور الوسطى.

شنت ياقب. شارع قليل المعقود الجوانب

إن شنت ياقب هو القديس يعقوب أو يعقوب الحواري. وتذكر الأسطورة أنه قتل شهيداً بأمر هيرود، فحمل تلاميذه جثته في مركب، جازوا به البحر الأبيض إلى المحيط، ثم حملتهم الرياح شمالاً حتى انتهوا إلى موضع في قاصية جليقية، ودفنوا جثمان القديس في سفح تلال هنالك. ومضت العصور وغاض القبر ولم يعلم مكانه، حتى كانت سنة ٨٣٥ م، حيث زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر، هداه إليه ضوء نجم؛ فذاعت الأسطورة في الحال، وصدقها المؤمنون دون تردد، وهرعوا إلى البقعة المقدسة، وأنشئت فوقها كنيسة، وقامت حول المزار المزدهر مدينة نمت بسرعة، وغدت هي مدينة شنت ياقب المقدسة Santiago de Compostela، وكلمة Compostela المضافة إلى اسم المدينة مشتقة من اللاتينية Campus Stellae أي "سهل النجمة"، إشارة إلى النجم الذي اهتدى الأسقف بنوره في اكتشاف القبر. وكان لوقوع هذا الحادث، وقيام هذه المدينة المقدسة، أثر كبير في إذكاء الحماسة الدينية والعاطفة القومية الإسبانية، وغدا "القديس ياقب" حامى إسبانيا كلها، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية في سائر أوروبا.



ويعلق العلامة ألتاميرا على هذا الحادث الديني بقوله: "وقد بعث هذا الاكتشاف في النصراني فيما سرور، وانتظمت وفود عظيمة جاءت لتحج إلى القبر، لا من الأراضي الإسبانية وحدها، ولكن من الخارج أيضاً. وهكذا بدأ تيلر من الزيارات والمؤثرات الأوربية في جليقية، وكان لها أعظم تأثير في العادات والآداب"<sup>(١)</sup>.

وكانت شنت ياقب عصرًا عاصمة لمملكة جليقية النصرانية، قبل أن تنقل إلى ليون، ولم تصل الغزوات الإسلامية إلى ذلك الركن الثاني من هضاب جليقية، إلا في عهد الحاجب المنصور. ففي سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) قام المنصور بأعظم غزواته في شمال غربي إسبانيا، وتابع زحفه المظفر حتى جليقية، وقصد مدينة شنت ياقب، فاقتحمها وهدم كنيسة العظمى، وصروحها، ولكنه احترق قبر القديس فلم يمس به الجند المسلمون بسوء. وعاد المنصور إلى قرطبة مثقلًا بالغنائم، ومنها عدة من أبواب صروح شنت ياقب الفخمة، جعلت أبوابًا للمسجد الجامع بقرطبة، وكان هذا آخر عهد الجيوش الإسلامية بتلك الأتحاء.

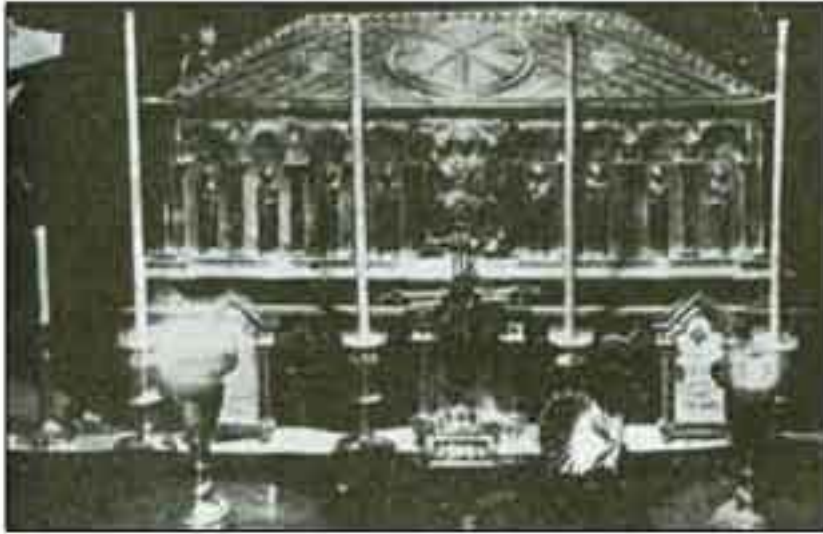
\* \* \*

ولنعرض الآن إلى معالم شنت ياقب الأثرية، فنقول إن أعظم صروحها هو بلا ريب كنيسة العظمى، أو الكندرية، التي تضم في داخلها قبر القديس يعقوب، وهي من أعظم كنائس إسبانيا ضخامة وروعة، تقع فوق مرتفع يحيط به ثلاثة ميادين كبيرة، ويطل مدخلها الرئيسي على ميدان إسبانيا، وهو مدخل قوطي شاهق رائع الفخامة، نقش عليه شعار قشتالة، ومن حوله وفوقه عمد وزخارف بديعة. وقد بُدئ بتشييد هذه الكنيسة العظيمة في سنة ١٠٨٢ م، واستمر العمل فيها حتى سنة ١٢١١ م، وكان الأسقف ديجو خلمريث D. Gelmirez الذي تولى الأسقفية في سنة ١١٠٠ م، من أعظم العاملين على توسعتها وزخرفتها، واستصدر المراسيم البابوية بالميزانها، وتأكيد مركزها الخاص، وفي عصره تقاطرت وفود الحجاج من سائر أتحاء النصرانية على شنت ياقب، حتى قيل "إنه لم تكن لغة لغة أو لهجة لم تترن أصواتها هناك".





شنت ياقب. الكنيسة العظمى



شنت ياقب. قبر القديس ياقب (يعقوب) الرسول

وقد بنيت كنثرائية شنت ياقب، على شكل صليب لاتيني هائل، يحتوي كل ضلع من أضلاعه على عدة عقود قوطية شاهقة، وفي معقده الهيكل الأعظم الذي يعلو قبر القديس ولأروقتها الوسطى التي تعلو العقود، واجهات معقودة على مثل عقود الجامع، وهي بادية القنم والروعة. وفي عقب الكنيسة عند طرف الصليب الأفقي، توجد الواجهة الداخلية المسماة "مشرقية المجد" Pórtico de la Gloria وهي عبارة عن أربعة أبواب، الأول والرابع عقدان والأوسطان غير معقودين، وقد نقشت عليها صور القديسين، وزينت بأعمدة رومانية جميلة، وهي ترجع إلى القرن الثاني عشر.

ويقع قبر القديس ياقب تحت الهيكل الأعظم، في سرداب يمتد على طوله، ويدخل إليه من الجانبين، وهو من الرخام وعليه حلية كبيرة من الفضة، صنعت على شكل مخروط، ويحج إليه المؤمنون ويجثون أمامه بمنتهى الخشوع والإجلال. ويستمتطرونه البركة والرعاية. وتوجد في متحف الكنثرائية مجموعة نفيسة، من سجاجيد زينت بصور جوياء وموريليو وغيرهما، من أعظم المصورين، وترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وإلى جوار الكنثرائية من ناحية ميدان إسبانيا، يقع القصر الأسقفى القديم المسمى قصر خلمريث، وهو قصر صخري عتيق، يرجع إلى أوائل القرن الثاني عشر، وله بهو سفلي ذو عقود عالية، وفي أعلاه بهو مماثل ذو عقود قوطية.

وتغص مدينة شنت ياقب بالكنايس والأديار القديمة. وقد زرنا منها فضلاً عن الكنثرائية، كنيسة "ماريا سالومي" وهي كنيسة صغيرة تقع في الشارع الجديد، وكنيسة سان بلايو وهي صغيرة ذات عقدتين متقابلين، وقبة كعبة الجامع، ودير كنيسة سان مرتين. ويرجع هذا الصرح إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، والكنيسة فخمة كثيرة الزخارف المذهبة

في هياكلها الثلاثة. وهيكلها الأعظم قطعة رائعة من الزخرف والتماثيل الصغيرة المقدسة. ويقع الدير أو المعهد الديني إلى جانبها، وله صحن كبير ذو عقود على نمط العقود العربية. وفي شنت ياقب جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية، أنشئت بمقتضى مرسوم بابوي أصدره البابا جوليوس الثاني سنة ١٥٠٤ م، في عهد الملك فرديناند الكاثوليكي، وبها اليوم كليات الطب والعلوم والحقوق والآداب، وتحتل كلية العلوم بناءً أثرياً هو دير فونسكا القديم، وله صحن معقود يرجع إلى عصر الإحياء.

ومن معالم شنت ياقب الأثرية منزل الملكين الكاثوليكين Hospicio de los Reyes Católicos، وهو يقع في الميدان الكبير (ميدان إسبانيا)، الذي تطل عليه واجهة الكنتراثة الرئيسية، وقد بُدِيَء بإنشائه في سنة ١٥٠٤ م ليكون فندقاً لإيواء الحجاج القادمين من سائر الأنحاء إلى المدينة، ثم حول فيما بعد إلى مقام ملكي ثم إلى مستشفى، ولكنه أعيد اليوم إلى فندق أرستقراطي فخيم. ولقد جُنِّدَ لبهاء هذا الصرح الأثري وأروقته، وشهدنا ما اتخذ من استعدادات هائلة لتأثيثه وتجهيزه، فإذا به اليوم من أروع فنادق العالم. وقد حُوِّلَت لبهائه الملوكية القديمة إلى أبهاء للطعام. وهو يضم ثلاثة أفنية كبيرة، ذات عقود قوطية ونوافير أثرية، ومصلى ملكياً فخماً، وله باب أثري شاهق يرجع إلى القرن السادس عشر.

\* \* \*

وبعد، فإن مدينة شنت ياقب هي بحق مدينة مقدسة. وهي تبدو بخطتها القديمة، وشوارعها المعقودة، وكنتراثتها العظيمة، وكنايسها وأديرتها العديدة، كأنها بيت مقدس آخر، يغمرها الجلال والوقار، وتبعث إلى نفس الذين يتجولون في طرقاتها، وفي رحابها الدينية، شعوراً بالتأثر والخشوع، مهما كانت آراؤهم ومعتقداتهم.

## ٢ - ليون

### Léon

تحتل مدينة ليون في تاريخ الأندلس أهمية خاصة، فقد افتتحها العرب في سنة ٧١٧ م، عقب افتتاح الأندلس بقليل، ولكنها لم تمكث في أيديهم سوى ربع قرن، وعاد النصارى فاستردوها في سنة ٧٤٢ م. ولما نمت المملكة النصرانية الشمالية، واتسعت رقعتها، اتخذت مدينة ليون عاصمة لها منذ أوائل القرن العاشر، وشابت عليها اسم مملكة ليون بدلاً من مملكة جليقية، وأضحت مدينة ليون مركز الكفاح والمقاومة، في النصف الشمالي من شبه الجزيرة الإسبانية، لمملكة قرطبة الإسلامية.

وكانت مملكة ليون مقصد الحملات الإسلامية الغازية من آن لآخر. ولكن هذه الحملات قلما كانت تصل إلى مدينة ليون، لأنها ووقوعها في قاصية الشمال. وفي سنة ٩٨٤ م غزاها المنصور بن أبي عامر، واحتلتها الجيوش الإسلامية مدى حين. فلما توفي المنصور في سنة ١٠٠٢ م استرد النصارى المدينة، وكان هذا آخر عهدها بالغزوات الإسلامية.

وتقع مدينة ليون على أحد أفرع نهر دويرة، فوق تل مرتفع ولكن منبسط الساحة. وهي مدينة ضخمة حديثة بكل معاني الكلمة، ذات شوارع كبيرة فسيحة Avenidas، وميادين شاسعة فخمة، تظللها مبان حديثة، ترتفع أحياناً إلى ثماني طبقات أو عشر. وإذا استثنينا قسمها الداخلي، الذي يضم معالمها الأثرية، فإن مظهرها على العموم لا يخالفه أي طابع يذكّرنا بماضيها، كعاصمة لمملكة ليون القديمة، وهي تخلو حتى من ذلك الطابع التاريخي القديم، الذي تحتفظ به مدن أخرى في شمال إسبانيا، مثل شنت ياقب (سانتياجو). وبالرغم من أنها تضم عددًا من الصروح الأثرية، فإنها لا تحمل طابع القدم والتاريخ المؤثّل، وهي بذلك قد خلت نهائياً من طابع العصور الوسطى، وغدت مدينة أوروبية بكل معاني الكلمة.

وقد نمت ليون في نصف القرن الأخير نمواً عظيماً، وأضحت مدينة تجارية وصناعية ذات شأن، وتضاعف سكانها حتى غدا اليوم خمسة وستين ألف نسمة.

وتقع معظم معالم ليون الأثرية في قسمها الداخلي، وهو يبدأ من الباب المعقود المسمى باب بلايو P. de Pelayo. وتوجد عن يمين هذا الباب وعن يساره بقية من أسوار ليون القديمة، وهي على الأغلب من بقايا الأسوار الرومانية. كما أنه توجد في شمال المدينة وفي



شرقها أجزاء كبيرة من هذه الأسوار. وتبدأ بعد باب بلايو، شبكة من الشوارع والدروب الضيقة القديمة، ويفضي إحداها إلى الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى.

وكاتدرائية ليون من أعظم وأروع الكنائس الإسبانية، ومع أنها لا تضارع كاتدرائية



ليون، الكنيسة العظمى

طليطلة أو إشبيلية في الضخامة، فإنها لا تقل عنهما زخرفاً وجمالاً. ويرجع إنشاؤها إلى نهاية القرن الحادي عشر، واستغرق العمل فيها زهاء ثلاثة قرون، ولها مدخل قوطي فخم، قد بُنيت في أعلاه وفي جانبيه تماثيل الرُسل، وصحنها الداخلي قوطي الطراز، وهو كثير الفخامة والروعة، وأهم ما يلتفت النظر، نوافذها العديدة في الجانبين، وقد نظمت صفوفاً متعاقبة، وجهزت كلها بزجاج ملون ذي صور ورسوم ساحرة. ويلحق بها من الجانب الأيسر، صحن كبير معقود وبه متحف غني، رأينا فيه إنجيلاً عربياً مخطوطاً، يرجع إلى القرن السادس عشر، وآخر مطبوعاً يرجع أيضاً إلى قرنين أو ثلاثة.

ومن كنائس ليون الأثرية كنيسة سان إيزيدورو، وهي كنيسة قديمة يرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الحادي عشر، ولها واجهة عتيقة مزخرفة، ومدخل ذو عقد قوطي وأعمدة رومانية، وهي صغيرة الحجم، وصحنها الداخلي ذو عقود عادية، ومن فوق العقود تبدو مشارف الرواق الدائري في طراز عربي معقود، وفي داخلها المدفن الملكي يضم توابيت عدة من ملوك ليون.

ومنها كنيسة ودير سان ماركوس، ويقع هذا الصرح خارج ليون في قسمها الحديث، وكان الذي وضع مشروعه الملك فرديناند الكاثوليكي فاتح غرناطة، ولكن الذي أنشأه هو حفيده الإمبراطور شارلكان، هو يتكون من دير قديم له صحن كبير معقود، وكان أيام إنشائه يستعمل نزلاً للحجاج، الذين يقصدون إلى مدينة شنت ياقب المقدسة، وهو اليوم يستعمل متحفاً يضم طائفة من الآثار الحجرية والرومانية من تماثيل وغيرها، كما يضم عدة قطع من أبواب خشبية ذات نقوش مدجنية. وتقع كنيسة سان ماركوس إلى جانب الدير، وهي كنيسة صغيرة ولكن جميلة الزخرف، وهي الآن مغلقة لا تستعمل للعبادة.



وتوجد في ليون بضعة كنائس أثرية أخرى، وكذلك بعض القصور، مثل قصر آل  
قزمان P. de los Guzmanes، وهو من أجمل قصور إسبانيا، ويرجع إلى القرن السادس  
عشر.

ومن الواضح أنه لا توجد في مدينة ليون أية آثار أو ذكريات أندلسية؛ لأنها لم تخضع  
لحكم المسلمين سوى فترة قصيرة، تلتها سلسلة من الغزوات الإسلامية العابرة، التي لم تخلف  
وراءها شيئاً من الآثار الباقية.

### ٣ - سمورة

#### Zamora

تقع مدينة سمورة فوق مرتفع صخري، يشرف على ضفة نهر دويرة (دورو) اليمنى، وهي مستطيلة الرقعة ومن ورائها بسيط أخضر، وفي ظاهرها على النهر قنطرة قديمة ذات عقود رومانية، ربما كان للمسلمين دور في إصلاحها وتجديدها، وهي تبدو على العموم بشوارعها الطويلة المكتظة بالحركة مدينة كبيرة، ويبلغ سكانها زهاء أربعين ألف نسمة.

وقد كانت سمورة من القواعد القوطية، وافتتحها المسلمون كما افتتحوا معظم المدن الشمالية، ولكنها لم تلبث في أيديهم سوى نصف قرن، واستطاع النصارى استعادتها في عهد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٥٧ م (١٣٠ هـ)، مع لك وشلمنقة وآبله وغيرهما من المدن الشمالية. ثم استعاد المسلمون سمورة بعد ذلك غير مرة، ولكنهم كانوا يحتفظون بها لفترات قصيرة فقط، وكانت آخر غزواتهم لها أيام المنصور ابن أبي عامر، فقد اجتاحتها وأحرقها في سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ).

وفي بعض الروايات الإسلامية والنصرانية، أنه قد وقعت تحت أسوار سمورة هزيمة المسلمين الفادحة، بقيادة عبد الرحمن الناصر، في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يولييه سنة ٩٣٩)، وهي الموقعة التي تعرف في تاريخ الأندلس بموقعة الخندق، لوقوعها على خنادق سمورة<sup>(١)</sup>.

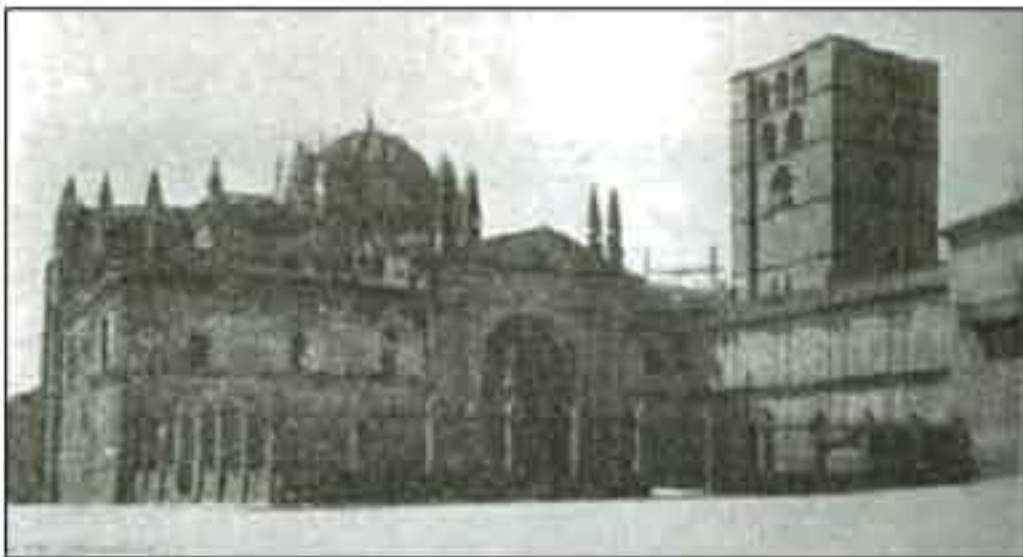
وسمورة مدينة عتيقة المظهر، وهي قسمان، القسم القديم ويحتفظ بطابع العصور الوسطى، وفيه تقع معالمها الأثرية، والقسم الحديث وهو يتكون من بضعة أحياء حديثة، بنيت خارج المدينة القديمة.

وتؤدي إلى وسط المدينة من النهر، عدة من الشوارع الصاعدة العتيقة المرصوفة بالحجارة، وتوجد مقابلها من الناحية الأخرى شوارع مماثلة، صاعدة نحو الكنيسة العظمى، وهذه الشوارع هي أقدم شوارع سمورة.

<sup>(١)</sup> راجع كتابي: نولة الإسلام في الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٣٨٨ و ٣٨٩.



سمورة. منظر عام للحصن والأسوار



سمورة. الكنيسة العظمى

وتقع كنترائية سمورة في طرف المدينة الأيمن، وهي قديمة ترجع إلى القرن الثاني عشر، قوطية الطراز، ذات عقود مستديرة من أعلى، ولها قبة مستديرة هي أقرب إلى شكل قبة الجامع، يحيط بها من الخارج، عدة قباب صغيرة مستديرة، على مثل قباب كنيسة ليا صوفيا البيزنطية، وهي جميلة الزخرف من الداخل بالرسم من صغرها، ولها برج أجراس مربع عريض ذو طابع خاص وقائم إلى يمينها، وتوجد في متحفها مجموعة ثمينة من السجاجيد، وبه تحفان أندلسيتان هما عبارة عن صندوقين، أولهما صندوق صغير من العاج، ارتفاعه ١٨ سنتيمتراً وعرضه ١٠,٥ سنتيمتراً، وقد زينت جوانبه بصور الطيور والغزلان، ونقش عليه بالخط الكوفي ما يلي:

"بركة من الله للإمام عبد الله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين مما أمر بعمله للميدة أم عبد الرحمن على يدي دري الصغير سنة ثلثة وخمسين وثلث مائة".

والثاني صندوق كبير من الخشب مطعم بالعاج، طوله ٣,١٥ متراً وعرضه متران، وارتفاعه ٢,٣٥ متراً، وعلى جوانبه نقوش عربية منقطة هذا نصها:

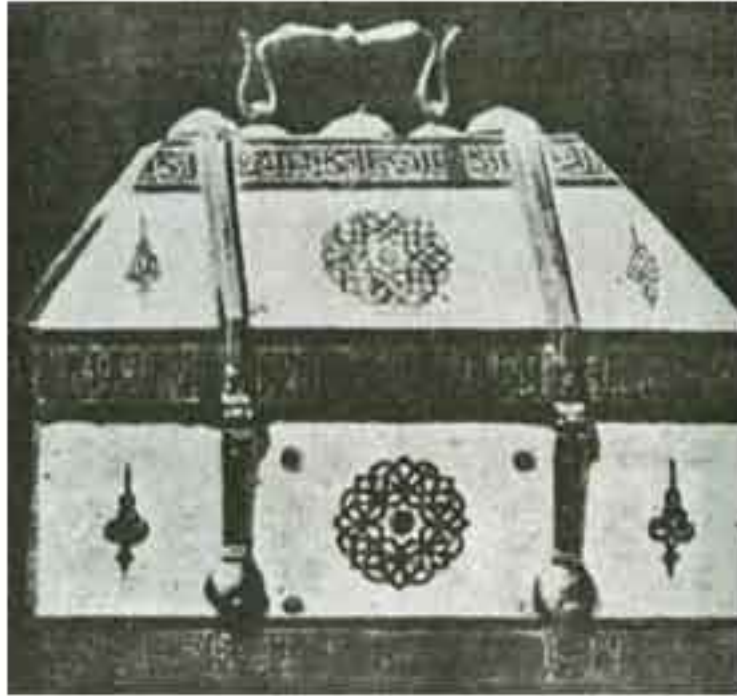
"... وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً خيراً حافظاً وهو

"العزة الدائمة والنعمة [الكاملة] والغبطة المتصلة والسعاد [ة] [ال] قبيلة واليمن والتأييد والنصر والتسديد والعز لصاحبه".

وأما عن الآثار الأندلسية، فإنه ما زالت توجد قطعة من أسوار سمورة القديمة أدمجت في ظهر بعض المباني الحديثة، وتقع بجوار هذه الأسوار شوارع عتيقة صاعدة نحو الكنترائية، التي يبدو أنها تحتل مكان الجامع أو مسجد القصبة القديمة.

وتقع قلعة سمورة فوق أعلى جزء من الربوة، ويطلق عليها اسم حصن "أوراكا". وأوراكا هذه هي لينة فرديناند الأول ملك ليون، وكان بعد أن استرد المدينة من المسلمين في سنة ٩٨٦م، قد أصلحها ومنحها لابنته المذكورة. على أنه يبدو أن حصن أوراكا قد بُني فوق أسوار ولقراض القلعة الأندلسية القديمة، التي أقامها المسلمون منذ الفتح، ويسمى أحد أبواب الحصن "باب الخيلة" P. de la Traición لأنه فُتح بخيانة حراسه في بعض المعارك، التي نشبت بين الملكة أوراكا وخصومها.

ولا داعي لأن نتحدث عن باقي المعالم الأثرية في سمورة، وهي كنائس أخرى مثل كنيسة مجدينا، وسانتا مارييا، وسانتياجو، وبعض صروح ترجع إلى العصور الوسطى. بيد أنه مما يلاحظ في خطط المدينة القديمة وشوارعها الصاعدة نحو الكنيسة العظمى، وما يتخللها من الدروب الضيقة والمنازل العتيقة الطراز، أنها تقوم على الأغلب، فوق رقعة المدينة الأندلسية القديمة، متأثرة بمظاهرها وطرازها.



سمورة. جانب من الصندوق الأندلسي الكبير المحفوظ بالكنيسة



سمورة. جانب من الصندوق الأندلسي العاجي الصغير  
المحفوظ بالكنيسة



## ٤ - شلمنقة

### Salamanca

كانت شلمنقة من أوائل المدن الأندلسية التي فقدتها المسلمون، فلم تمكث في أيديهم سوى نصف قرن، ثم استردها النصارى في سنة ٧٥٧ م، في أوائل عهد عبد الرحمن الداخل الأموي.

وتقع شلمنقة <sup>(١)</sup> على الضفة اليمنى لنهر تورمس أحد أفرع نهر دويرة، وهي مركز مواصلات مهم لمن قسالة الشمالية، مثل بلد الوليد وبرغش وسمورة وليون.

واشتهرت شلمنقة في العصور الوسطى بنوع خاص، بجامعتها الشهيرة التي كانت تنافس جامعة غرناطة الإسلامية، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، والتي مازالت إلى يومنا تسبغ على اسمها فخراً وبهاء.

وشلمنقة مدينة عظيمة، تكاد برقعها المترامية وشوارعها الفخمة، وميادينها الفسيحة، تضارع بعض المدن الإسبانية الكبيرة، مثل إشبيلية وقرطبة، بيد أنها أصغر منهما حجماً، وأقل سكاناً، وسكانها لا يعدون خمسة وثمانين ألفاً.

وتحتفظ شلمنقة بطابع تاريخي بارز، وترسم عليها ملامح المدينة القديمة النادرة، مدينة العصور الوسطى، وتسبغ عليها صروحها التاريخية المتعددة حلة الوقار والنبل والسحر، وما يزال كثير من خططها وشوارعها وميادينها على حالتها التي كانت لها منذ قرون، وميدانها الكبير Plaza Mayor، من أكبر وأروع ميادين المدن الأوربية، وهو عبارة عن مربع شاسع يبلغ ضلعه نحو مائة متر، وتحيط به من جوانبه الأربع عقود حجرية جميلة، وله مدخل عديدة من شوارع المدينة الرئيسية كلها معقودة، وتتصل به، وتقع من حوله شوارع قديمة ذات عقود، وشوارع ضيقة مسقفة على نظام (الجاليريا) أو القيسرية الأوربية. ويرجع هذا الميدان إلى أكثر من قرن، وقد أنشئ ليتسع لعشرين ألفاً من النظارة، الذين يحتشدون لشهود مصارعة الثيران.

وبالرغم من هذا الطابع التاريخي القديم، فإن شلمنقة تحتوي على طائفة من الأحياء الحديثة، التي تخرقها شوارع فسيحة مرصوفة، وتقوم بها أبنية وعمارات كبيرة حديثة الطراز.

<sup>(١)</sup> وقد رأيناها نكتب "شلمنكة" وذلك في مخطوط كشي قديم بمكتبة مدريد الوطنية.

وليس في المدينة شيء يذكرنا بماضيها الأندلسي القصير المدى، وإن كانت خططها القديمة وشوارعها المعقودة، تبدو متأثرة بطراز المدن الأندلسية في العصور الوسطى.

\* \* \*

وتجتمع معظم صروح شلمنقة التاريخية في منطقة واحدة، فالجامعة، والكاتدرائية، وغيرها من الكنائس التاريخية، والقصر المسمى "دار الأصداف" وقصر مونتييري، كلها تقع على مقربة من بعضها البعض داخل المدينة القديمة.

وجامعة شلمنقة بلا ريب هي أعرق وأشهر صروحها الأثرية، وهي أقدم جامعة في إسبانيا، ومن أقدم جامعات العالم. وقد أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر، في عصر ألفونسو التاسع ملك ليون، وأُهدى عليها الملك ألفونسو العاشر [العالم] (١٢٥٢ - ١٢٨٢) رعايته، وأنفق أموالاً عظيمة في سبيل تدعيمها، وتوسيع نطاق الدراسة فيها، وصدر مرسوم البابا إسكندر الرابع باعتبارها من معاهد الدراسات العامة، على مثل جامعت بولونيا وباريس وأكسفورد يومئذ. وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ذاعت شهرتها العلمية في سائر أنحاء أوروبا، وهرع إليها الطلاب من كل فج، وبلغ طلابها يومئذ نحو خمسة عشر ألفاً، غير أنها أخذت في التضاؤل والذبول منذ القرن السابع عشر، واستمرت كذلك حتى انتهت عند طلابها في بداية القرن الحالي، إلى نحو ألف ومئتي طالب، وأضحت في يومنا لا تحتفظ من سمعتها القديمة بأكثر من صفاتها التاريخية، وإن كانت تحاول دائماً أن تجعل من هذه الصفة شيئاً مذكوراً، بما تجريه من احتفالات تذكارية، وما تنظمه من دراسات موسمية خاصة.

وما زالت جامعة شلمنقة تحتفظ بصروحها التاريخية، التي ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهي عدة صروح متقاربة مبنية من الحجر الصلب، ولها عقود وأبهاء فخمة، وبها كثير من الزخارف المعمارية، من طراز عصر الإحياء، وتضيق هذه الصروح القديمة اليوم عن أن تتسع لكتابتها الخمس، وهي الآداب، والفلسفة، والحقوق، والعلوم، والطب، ولهذا فقد بنيت إلى جوارها وعلى مقربة منها عدة صروح حديثة، ولجامعة شلمنقة مكتبة قديمة نفيسة، تحتوي على ألف مخطوط ونحو مائة ألف كتاب.



شلمنقة. الكنيسة العظمى



شلمنقة. بناء الجامعة القديم



شلمنقة. دار الأصدقاء

وتقع كنترائية شلمنقة، فوق مرتفع يشرف على نفس الميدان الذي تشرفه عليه الجامعة، وهي كنيسة عظيمة الحجم قوطية الطراز، شاهقة الارتفاع، كثيرة التسميق والزخرف، وترجع إلى القرن السادس عشر، ولها واجهة عظيمة من الأمام وأخرى من الخلف، ومن ورائها توجد الكنترائية القديمة بقبابها وأبراجها الصغيرة المنخفضة.

ويوجد غير الكنترائية عدة أخرى من الكنائس التاريخية، منها كنيسة كليريتيا Clerecia، وهي على مقربة من الجامعة والكنترائية، وترجع إلى القرن السابع عشر، وكانت في البداية معبدًا لليسوعيين، ويقوم اليوم إلى جانبها معهد ديني آخر ذو صحن كبير معقود؛ وكنيسة سان مرتين، وهي كنيسة صغيرة ولكن قديمة فخمة.

كما شهدنا بعض الصروح التاريخية ذات الخواص الأثرية والزخرفية، منها دار الأصداف "Casa de las Conchas"، وهي ترجع إلى عصر الملكين الكاثوليكين (لواخر القرن الخامس عشر)، وقد سميت كذلك، لما تزدان به واجهتها من الأصداف المذبذبة. ومنها قصر مونتييري، وهو صرح جميل فخم مبني على طراز عصر الإحياء، وبه كثير من الزخارف الجميلة.

## ٥ - أوفييدو

### Oviedo

تقع منطقة الأسترياس Asturias<sup>(١)</sup> في شرقي جليقية، على القسم الأوسط من خليج بسكونية، وتحدها من الجنوب جبال كنتيريا الشهيرة. وكان من المتعين بعد زيارتي لجليقية، أن أجوب تلك المنطقة، التي عجز الفاتحون المسلمون عن إخضاعها، والتي نمت فيها البذور الأولى للمملكة النصرانية الشمالية.

وقد رأيت خلال تجوالي مدينة "لوك" Lugo، وهي أيضاً من مدن جليقية التي افتتحها المسلمون، وبقيت في يدهم زهاء نصف قرن، ثم كائت من أوائل المدن التي استردها النصارى، حيث استولوا عليها في سنة ٧٥٧ م، أيام عبد الرحمن الداخل، مع بعض المدن الشمالية الأخرى، مثل أسترقه وسموره وشلمنقة، حسبما سبقت الإشارة إليه.

وتقع مدينة "لوك" على مقربة من شنت ياقب فوق ربوة مرتفعة، وتقوم أحيائها موزعة متدرجة فوق أجزاء الربوة، ومن ورائها السهل الأخضر، تتلوه سلسلة من التلال، وهي فيما ييدو مدينة تجمع بين طابع العصور الوسطى والطابع الحديث.

ومنطقة الأسترياس كمنطقة جليقية، ذات طبيعة جميلة متنوعة، وتخرقها الجبال والتلال والأكلم العالية، والوديان العميقة، بلا انقطاع. وهذه الهضاب الوعرة، إما صخرية أو تغطيها الخضرة والأشجار، والبساتين منها نادرة، وهي في هذه المنطقة أشبه ما تكون ببعض نواحي الألب النمساوية، ويسير القطار خلال ساعات متوالية دون أن تتغير مناظرها.

وقبل مدينة أوفييدو تكثر التلال والبساتين المتدرجة البانعة، وهي منطقة خصبة جداً، تغطيها مختلف المحاصيل والأشجار.

\* \* \*

وتقع مدينة أوفييدو عاصمة ولاية الأسترياس، في ولا عميق أخضر تحيط به الربى والتلال، وتشغل رقعة تمتد على شكل قوس مفتوح، تجتمع في وسطه أحيائها الهامة، وتوجد في جانبيه طائفة من الأحياء الأنيقة المتفرقة بمثابة الضواحي، وأمامها وخلفها التلال تحميها، وبسيطها يانع وافر الخصب، تحيط به طائفة من التلال المتدرجة الخضراء.

(١) تسمى منطقة Asturias في جغرافية عربية بمنطقة "الشوريش".



ولوفيديو مدينة كبيرة، ذات شوارع فسيحة وميادين فخمة، وفي وسطها متنزه عظيم جميل التنسيق، وطابعها حديث، ومبانيها جميلة مشرقة، بيد أنه توجد في بعض أحيائها الداخلية بعض شوارع ضيقة عتيقة الطراز، وفي هذه الأحياء تقع صروحها الأثرية، التي نذكرنا بتاريخها القديم، أيام أن كانت عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية. والمدينة ووفرة الحركة والنشاط، وبلغ سكانها زهاء مئة ألف.

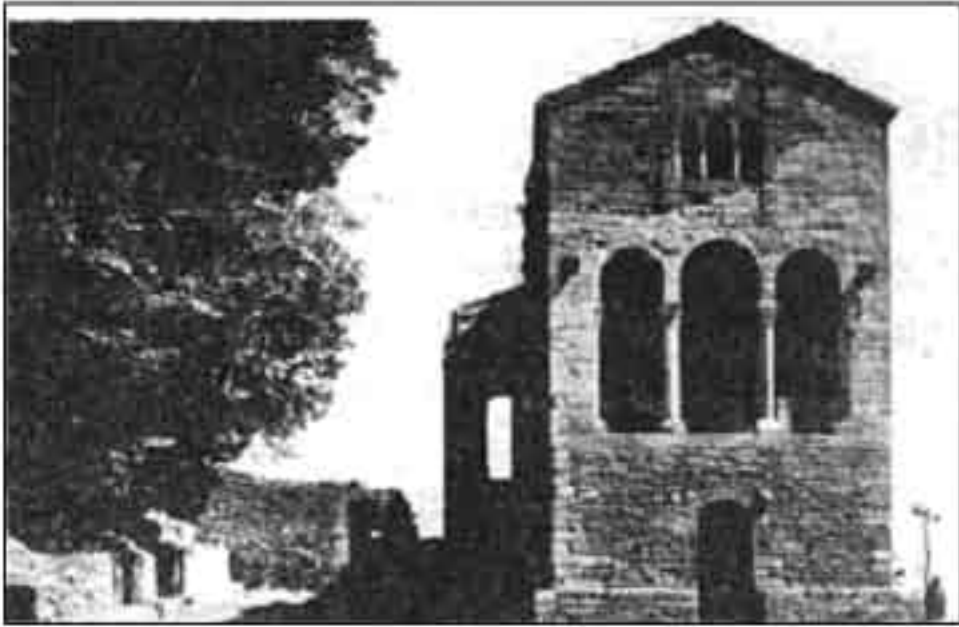
ومما يجدر ذكره أن النخيل القصير يرى في شوارع لوفيديو وضواحيها، وهو نادر الوجود في هذه الأصقاع الشمالية.

وفي لوفيديو عدة معالم أثرية، في مقدمتها الكثرائية (الكنيسة العظمى)، وهي كنيسة عتيقة قوطية الطراز، ذات واجهة تتكون من ثلاثة عقود كبيرة، وفناء مستطيل، يتوسطه عقد، وقد زينت بمختلف الزخارف وصور الرسل، وصحنها الداخلي قوطي الطراز أيضاً، وبها عدة هياكل جميلة الزخرف.

ويرجع صرح الكثرائية الحالي إلى القرن الرابع عشر، ولكنه أقيم فوق أنقاض كنيسة قديمة صغيرة بُنيت في القرن الثامن. وفي داخل الكنيسة، مصلى قديم يسمى "الغرفة المقدسة" Camara Santa، وهو يضم عدة ذخائر نفيسة، من أحجار كريمة وصلبان لثرية، ومنها صليب يقال إنه هو الذي كان يرفعه النصارى في موقعة كوفاندجا، التي هُزم فيها المسلمون في أوائل القرن الثامن.

وتوجد بالمدينة عدة كنائس أثرية أخرى، مثل كنيسة سان إيزيدورو اليسوعية، وسان خوان وغيرهما. بيد أن أقدم كنائس لوفيديو الأثرية، تقع خارج المدينة، على التل المشرف عليها.

فهناك توجد كنيسةتان ترجعان إلى القرن التاسع الميلادي. الأولى "سانتا ماريادل نراكو" وهي عبارة عن زاوية صغيرة الحجم، قديمة جداً، مبنية من الحجر الصلد، وأهم ما يميزها من ناحية الطراز، واجهتها الأمامية والخلفية، وكل منهما عبارة عن شرفة عربية ذات ثلاثة عقود صغيرة جميلة، وفي أعلاها شباك صغير ذو ثلاثة عقود صغيرة. ومدخلها وكواتها كلها ذات عقود عربية، وأعمدة رومانية، وصحنها الداخلي عبارة عن قبو قوطي مستطيل، يقوم فوق بهو يصل ما بين الواجهتين، وقد كانت هذه الكنيسة قصرًا لشيد الملك راميرو في أواسط القرن التاسع الميلادي ثم حُوِّل إلى كنيسة.



لوفيدو. كنيسة سانتا ماريا دل ترانكو



لوفيدو. كنيسة سان ميچل دي لوفيدو

والثانية هي كنيسة سن ميغل دي الليو، وهي تقع فوق الربوة على مقربة من الأولى، وهي عتيقة في حالة تدهم، وبنائها عادي لا يمتاز بشيء من الخواص الفنية، إلا نوافذها الثلاثة الصغيرة على الجانبين، فكل منها ذو عقدتين صغيرين على الطراز العربي، وفي أعلا كل من جانبيها، توجد أيضًا نافذة عربية، ذات ثلاثة عقود صغيرة، وترجع هذه الكنيسة أيضًا إلى القرن التاسع الميلادي.



أوفييدو. واجهة الجامعة القديمة

ومما يلفت النظر في شأن هذين الصرحين العتيقين، هو ما يحتويانه من العقود والنوافذ العربية، وهي ظاهرة تدل على أن الطراز العربي الأندلسي، كان له أثره منذ وقت مبكر، في طراز الكنائس والصروح النصرانية، حتى في هذا الجزء النائي من إسبانيا. وفي أوفييدو أيضًا جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية، وقد أُنشئت في سنة ١٦٠٤ م في عصر فيليب الثالث، وهي مازالت إلى اليوم تحتل صرحها القديم داخل المدينة، وهو عبارة عن بناء حجري متوسط الحجم ذي طابقين، وله فناء أندلسي معقود، تطل عليه أروقة الطابق الثاني، وهي تضم كلية للحقوق، وأخرى للعلوم (الكيمياء فقط)، وقسمًا من كلية الآداب هو قسم العلوم الرومانية. أما باقي الكليات والأقسام فهي ملحقة ببعض الجامعات القريبة الأخرى، مثل بلد الوليد وشمelnقة. ولجامعة أوفييدو مكتبة قديمة، تضم كثيرًا من المخطوطات اللاتينية، والكتب الكلاسيكية.

## ٦ - كوفادانجا

### Covadonga

طالما تأقت نفسي إلى زيارة منطقة الصخور الوعرة المسماة صخور كوفادانجا، وهي الصخور التي عجز الفاتحون المسلمون عن إدراكها، والتي اعتصمت بها فلول القوط عقب فتح الأندلس، بزعامة أميرهم بلايو، ثم كان منها خروجه لاسترداد بعض الأراضي المفتوحة من المسلمين، ووضعهم بذور المملكة النصرانية.

فلما وصلت إلى مدينة أوفييدو، حرصت كل الحرص على تحقيق هذه الأمنية، وتقع كوفادانجا شرقي أوفييدو، على قيد خمسة وثمانين كيلو مترًا منها، وتفصل بينهما منطقة من أجمل مناطق الأسترياس، وهي منطقة معظمها بسائط خضراء، ووفرة الخصب، تنمو بها مختلف الأشجار، وتوجد بها الحبوب ولا سيما الذرة، وتتخللها الرقاع المتدرجة، ولكنها دائماً خضراء. وبها كثير من المراعي الجيدة، وتحدها التلال من الجنوب. وهنا تتفوق المناظر الطبيعية في جمالها، على مناظر أوسط إسبانيا وجنوبها، وتقرب في هذا الجمال من نظائرها في بلاد أوروبا.

وتقطع ثلاثة أرباع هذه المسافة أولاً بالقطار، من أوفييدو إلى بلدة الريونداس Arriendas الصغيرة الأنيقة، ثم تؤخذ منها السيارة إلى كوفادانجا.

ولا تعدو هذه المسافة ثمانية عشر كيلو مترًا، وفي خلالها تمر بمدينة كانجاس دي أونيس Cangas de Onis، وهي بلدة صغيرة قديمة، كانت خلال القرن الثامن الميلادي، وقبل أوفييدو، أول عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية، وهي تقع في سهل منبسط نوعًا.

ومتى جزت مدينة كانجاس، فإنك تدخل منطقة الصخور التاريخية التي تنتهي بأكلم كوفادانجا. وفي هذه المنطقة تمتد الرابي الصخرية العالية على جانبي الوادي، ومعظمها رابي وعرة جرداء، ويضيق الوادي شيئًا فشيئًا حتى ينتهي إلى كوفادانجا. ولا مرأى في أن هذه المنطقة، بواديها الضيق وأكامها العالية، ومراكزها الدفاعية الكثيرة، تصلح للمعارك الحربية.

\* \* \*

كوفادانجا إنها ليست بلدًا، بل ولا قرية. وهي لا تعدو أن تكون بقعة سياحية رائعة، بها فندق وبعض مقاهي، وأفراد قليل من السكان لخدمة السياح الوافدين. وكل ما فيها عدد

من رجال الدين، وعدد من رجال الحرس الوطني، وأبنيتها قليلة متناثرة هنا وهناك في السهل، وفي أطراف الربوة التي تشرف عليه.

ولكن كوفاندنجا من جهة أخرى تقدم بصخورها الهائلة، وآكامها الشاهقة، أروع منظر يمكن تصوره.

والصخرة الهائلة، والصخرة الأثرية التي هي مقصد الناس، تسمى صخرة أوسيبا Auseba، ويقوم أزاءها من الناحية الأخرى جبل يسمى خنيس Gines، ويوجد بينهما وادٍ سحيق، هو الوادي الذي يقال إن المسلمين قدموا من ناحيته، لمقاتلة النصاري الذين اتفوا حول زعيمهم بلايو، وأن النصاري اعتصموا بمغار في صخرة أوسيبا، وصمدوا حتى يئس المسلمون من إدراكهم وانصرفوا.

إن الأسطورة تمتاز هنا بالتاريخ، وقد كان بلايو هذا (أو بلاجيوس) من زعماء أو أشرف القوط أو البسكونيين، وقد عرف بالجرأة والبسالة، فالتفت حوله قلوب الذين نجوا من بطش الفتحين، ولجئوا إلى قاصية الشمال، واحتموا بالجبال. وتعرف الرواية الإسلامية بلايو هذا وتسميه (بلاي)، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك، ولكنها كالرواية النصرانية لا تحدثنا عن نشأته أو ظروف إمارته. بيد أنها من جهة أخرى تحدثنا عن الحملات التي جردها المسلمون عليه، وعن الوقائع التي نشبت بينه وبينهم، في ذلك الموطن الشهير.

وتعرف الرواية الإسلامية هذا المكان "بالصخرة" أعني صخرة كوفاندنجا، وتحدثنا عن روعته وعن وديته السحيقة، ثم تذكر لنا كيف اجتاح المسلمون ناغار وبسكونية، ونفذوا إلى أعماق جبال الأسترياس، لكي يفضوا على تلك البقية الباقية من قوات النصاري، ولكنهم لم يستطيعوا إدراك العدو؛ لأن بلايو وأصحابه، لجئوا إلى مغار عظيم في هذه الصخرة الهائلة واعتصموا به، وكان عددهم بضع مئات، فربط المسلمون في الوادي العميق الذي تشرف عليه الصخرة، وحاصروا النصاري مدى حين، وهم يتساقطون تباركاً من الجوع، حتى لم يبق منهم على قول الرواية الإسلامية سوى ثلاثين رجلاً وعشرة نساء<sup>(١)</sup>. ثم انصرف المسلمون عنهم احتقاراً لشأنهم. ولكن الرواية النصرانية تزعم من جهة أخرى، أن بلايو وأصحابه كروا على المسلمين في السهل، وأن المسلمين هزموا هزيمة فادحة وفقدوا عدة ألوف، وكان ذلك في سنة ٧١٨ م (٩٨ هـ).

وعلى أية حال فإن موقعة كوفاندنجا، مهما كان القول في شأنها، قد أسفرت عن أعظم النتائج. ذلك أن هذه الشرائم القليلة من النصاري، استطاعت في ظرف أعوام قلائل، أن تغزو

<sup>(١)</sup> راجع أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٣٨، وفتح الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٥٧.



قوة يُحسب حسابها، واستطاع پلايو بعد أن أمن مطاردة المسلمين، أن ينظم إمارته الصغيرة، التي استحوطت غير بعيد إلى مملكة إشبانية نصرانية، لبثت تنمو وتقوى تباعاً، واستطاعت بعد صراع طويل الأمد، أن تقضي على الدولة الإسلامية في الأندلس.

\* \* \*

ولنعد إلى كوفادونجا:

إن صخرة لوسيبا التي تجتمع حولها تلك الذكريات التاريخية العظيمة، هي صخرة هائلة شاهقة ذك آكام مدبية، يجري من تحتها الماء من عيون صغيرة، وتشرف على بسيط صغير من الأرض، ويبلغ ارتفاعها نحو مائتي متر.

وفي وسط الصخرة ثغرة كبيرة، تتفرج عن ساحة صغيرة، في ركنها الداخلي كنيسة قديمة، وفي وسطها مغار صغير يضم قبر پلايو.

ويمكن الوصول إلى هذه الساحة التي بها الكنيسة والقبر، إما بواسطة نفق طويل مُد إليها من الزبوة المجاورة التي تحاذي في الارتفاع وسط الصخرة، وإما بواسطة سلم طويل منحدر، يصعد إليها من البسيط المنخفض الذي يطل عليه.

فأما الكنيسة الصغيرة فتسمى "مصلی عزراء كوفادونجا" Capilla de la Virgen de Covadonga، وهو عبارة عن هيكل صغير، أُقيم في حمى ركن من الصخرة، يجثو أمامه الرواد في خشوع، ويقام فيه القداس يوم الأحد، حينما يغص المكان بالزوار من سائر الأنحاء. وقبيل هذا المصلی يوجد قبر پلايو، وهو عبارة عن خرق قُد في الصخرة (قبل نهايتها بنحو خمسين متراً)، وقد وضع فيه تابوت من الحجر الأبيض تطل عليه كوة صغيرة معقودة، وقد حفر على واجهته بالفتالية ما معناه:

"هنا يتوي الملك دون پلايو الذي انتخب سنة ٧٢٦، والذي كان في هذه الصخرة". ويلي ذلك تاريخ الوفاة وهو سنة ٧٣٧ م.

وقد علمت من أحد الآباء المطلعين، أن رفات پلايو لم تودع في الأصل في هذا المغار، ولكنها دفنت أولاً في جبل خنيس، ثم نقلت فيما بعد في عصر صهره وخلفه الملك ألفونسو الأول، إلى مكانها في مغار الصخرة، التي صمد فيها أطم المسلمين، تنويهاً بنصره، وتخليداً لذكراه.

وإلى يسار المنخل من ناحية النفق الذي أشرنا إليه، توجد بقايا الكنزاثية القديمة، وهي عبارة عن رواق كبير معقود، يستعمل اليوم لاجتماع الرهبان ويسمى "دار الرهبان" Casa de Sacerdotes.



كوفاندنجا. منظر عام للوادي ومن حوله الجبل



كوفاندنجا. جانب الصخرة الذي به الكنيسة وقبر پلايو

وإلى كنيسة الصخرة هذه يتقاطر الحجاج، من سائر أنحاء إسبانيا الشمالية، وغيرها، وللمؤمنين في شأنها اعتقادات غريبة، ومنهم من يصعد إلى الصخرة من سلمها الأسفل أو يأتيها من النفق جانبا على ركبتيه، حتى يصل إلى هيكلها، وقد رأينا الكثير من الرجال والنساء، يسرون ركعا في التراب والطين، حتى يصلوا إليها، ويبتهلون إلى العذراء أن تقضي حاجاتهم.

وتوجد في أسفل الصخرة تحت الكنيسة، بركة صغيرة يتساقط إليها الماء كما قدمنا من عيون صغيرة، وقد علمت من أحد الرهبان، أن هذا الماء يأتي من ينابيع نهر صغير ينبع من فوق الصخرة ويسمى نهر "رينوثا" Reynoza، وهو يجري منحدرًا نحو السهل مارًا بالصخرة.

وفي هذه الربوة المقابلة للصخرة، والتي يظلها جبل خنيس Gines، تقوم كنيسة كوفاندنجا الجديدة، التي شيدت منذ خمسين عامًا فقط، وهي قوطية الطراز وتسمى "بازيلكا كوفاندنجا".

الكتاب السادس

**الأندلس الغربية والبرتغال**

## ١ - بطليوس

### Badajoz

ترجع بطليوس إلى العصر الروماني، وربما إلى عصور أقدم، ويعتقد بعض الباحثين أنها تقوم على موقع مدينة Pax Augusta الرومانية.

وكانت بطليوس، حتى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، محلة قوطية خربة، لم يعن بها المسلمون، حتى كان اضطراب الفتنة الكبرى ضد حكومة قرطبة في تلك الفترة، فالتجأ إليها أحد زعماء الثورة المولدين، وهو عبد الرحمن بن مروان الحليقي الثائر بماردة، وبناها وحصنها (٨٧٥ م)، وامتتع بها حيناً. وفي عهد الأمير عبد الله، في أواخر القرن التاسع، أعلن الحليقي الطاعة، وعاونه الأمير بالرجال والمال على تجديد بطليوس، فابتنى بها الجامع، ولبنى أيضاً مسجداً داخل القسبة، وعدة مساجد أخرى، وهكذا قامت بطليوس كقاعدة أندلسية جديدة، تحل من ذلك الحين مكانها في تاريخ الأندلس<sup>(١)</sup>.

ولما تهاوت الخلافة الأندلسية، وقامت دول الطوائف، كانت بطليوس قاعدة إمارة مستقلة في ظل بني الأفطس، الذين سطعت دولتهم في بطليوس وما حولها سبعين عاماً (١٠٢٢ - ١٠٩٤ م)، وكان منهم الأمير العالم الشاعر عمر بن الأفطس الملقب بالمتوكل، وإليها أيضاً ينتمي أبو محمد عبد الله بن محمد البطلبيوسي اللغوي الشهير المتوفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م)، وكثير غيره من أكابر العلماء والأدباء.

وتقع بطليوس في منحى نهر وادي يانة، على مقربة من الحدود البرتغالية، في البقعة المثلثة التي يحتضنها النهر، عند ملتقاء بفرعه المسمى نهر "سو". ويحدها النهر من الشمال، وهي مدينة كبيرة عتيقة الطراز، تجوز إليها فوق قنطرة حجرية عظيمة يبلغ طولها نحو خمسمائة متر، وهي ترجع إلى العصر الروماني، ثم جددتها المسلمون، وجدها الإسبان بعد ذلك، في عصر فيليب الثاني (القرن السادس عشر). ويقابلها عند مدخل المدينة باب أثري من صنع القرن السادس عشر، هو باب النخيل، P. de las Palmas، وهو عبارة عن عقد عريض يحيط به برجان كبيران، ومنه يدخل إلى المدينة.

(١) لروص المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ٤٦.



وتبدو بطليوس بموقعها على النهر العريض الضخم، فوق الربوة العالية التي تشرف عليه، كأنها في مجموعها قلعة عظيمة. والواقع أن هذه المدينة التالدة تتمتع بموقع طبيعي منيع، يذكرنا بما كان لها في سالف الدهر من أسباب الحصانة، التي كانت تجعل منها أيام عهد الفتنة، مركزاً من أشد مراكز الخروج والثورة على السلطة المركزية، كما كانت تجعل منها أيام اشتداد الغزوات النصرانية، مركزاً من أهم مراكز الدفاع الأمامية، فشأنها في ذلك شأن قرينتها مدينة طليطلة.

### القصبة الأندلسية

وليس أدل على هذه الحقيقة التاريخية من أطلال قصبة بطليوس، التي تشغل بقعة كبيرة فوق الربوة المشرفة على النهر شرقي الزاوية التي ينحرف إليها النهر، حين ينسحب إلى حدود البرتغال، والتي يبدو أنها كانت من أعظم القصبات الأندلسية ضخامة ومنعة. وهي عبارة عن عدة مجموعات من الأطلال فرققتها يد الزمن، وعوامل التخريب والتغيير، والظاهر أنه لم يبق من قصبة بطليوس القديمة، من أيام بني الجليقي، ثم بني الأفطس، آثار تذكر، وكذلك لم يبق شيء من منشأتها أيام المرابطين. ذلك أن الهجمات والحصارات التي توالى على بطليوس في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، لم تبق على شيء من تحصيناتها القديمة. ونحن نعرف أن الموحيدين، الذين حكموا الأندلس، منذ أواسط القرن الثاني عشر، قد اعتنوا بتحصين بطليوس بصفة خاصة، لوقوعها في طرف المملكة الإسلامية، وتعرضها بذلك لهجمات النصارى المستمرة. وأمر الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بإنشاء قصبة وأسوار جديدة للمدينة، ومدها بالمياه، وقد كان ذلك فيما يظهر حوالي سنة ٥٦٣ هـ (١١٧٠ م). ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأسوار والأبراج التي تحيط اليوم بأطلال قصبة بطليوس، هي من إنشاء الموحيدين. ويوجد من هذه الأطلال حسبما تقدم عدة مجموعات. فقسم منها يقع على مقربة من النهر مع جزء من السور، يبدو أنه السور الخارجي للقلعة، وقسم آخر يبعد قليلاً عن الأول، وقسم ثالث هو فيما يبدو أهم أقسام القصبة، وهو الذي يشمل باب القصبة الخارجي، ويقع هذا القسم في الواجهة الغربية للقصبة، وهو في حالة جيدة من الحفظ. ويفصل القصبة من المدينة ما بين البرج المسمى "برج إسبنتابروس"، والباب الرئيسي، ويتصل هذا البرج في الزاوية الجنوبية الغربية بالسور، وتقع بينه وبين الباب الرئيسي، ثلاثة من الأبراج الخارجية (البرانية)، ويقوم في جنوب القصبة على مقربة من النهر برجان آخران. ومما يلفت النظر أن هذه الأبراج كلها مختلفة البناء والطرز.

ولما باب القسبة الخارجي، فهو باب معقود يطل اليوم على الشارع المؤدي إلى سوق الفاكهة، ويليه ممر قصير صاعد يؤدي إلى المدخل الرئيسي، وهو عقد عال مزدوج، بنى



قوسه الخارجي من الحجارة الصلدة، ويبلغ اتساعه نحو أربعة أمتار، وارتفاعه نحو ثمانية، ومن وراءه فناء مستطيل، يخترقه عقد ثالث يؤدي إلى الخارج، ويقوم إلى يمين الباب الرئيسي، برج في حالة جيدة يبلغ ارتفاعه عن الأرض نحو ١٥ مترًا، وهو يقع بين البابين.

وهذا الجزء من أطلال القسبة، بنى عما كانت عليه من المنعة والإحكام.

وقد حجب هذا القسم من القسبة، وبنيت على جانبيه المنازل والحوادث، ولكن توجد عن يمين هذا القسم وبعده بقليل بقية أخرى من أسوار القلعة، وهي التي تمتد حتى البرج الموحد.

بطليوس، البرج الموحد من بقايا القسبة

وهذا البرج الموحد، وهو المسمى بالإسبانية كما تقدم "برج إسبنتايروس" Torre de Espentaperros، هو أهم الأبراج التي تقدم ذكرها، وهو يقع على قيد خمسين مترًا من قسم الأطلال الواقعة داخل المدينة، والتي يتوسطها الباب الرئيسي، وهذا البرج مئمن الأضلاع، ويوصله بالأطلال المذكورة سور طويل، يقوم عليه برجان صغيران للحماية. وقد أقيم فوق هذا البرج المئمن، برج آخر أصغر، وهو بناء دُخِلَ أقيم بعد عصر "الاسترداد" في القرن السادس عشر فوق البرج الموحد، ليكون برجًا للأجراس، ثم نزع منه الأجراس فيما بعد، ويبلغ ارتفاع البرجين معًا عن الأرض نحو ثلاثين مترًا، ويوجد إلى وراء هذا البرج برج آخر، أقيمت إلى جانبه كنيسة المستشفى العسكري، الذي يحتل هذا القسم من موقع القسبة.

وقد أقيم هذا المستشفى العسكري منذ أكثر من قرن على هذا القسم من أقسام القسبة، وهو القسم الذي يتوسطه الباب الرئيسي السابق ذكره، ثم وُسع تدريجيًا حتى وصل إلى أنقاض الكنيسة القديمة، التي كانت تسمى "سانتا ماريا صاحبة الحصن" Sta Maria del Castillo. وفي هذا القسم آثار أبنية قديمة، قد غطتها الأبنية الحديثة. ونحن نعرف مما تقدم، أن عبد الرحمن الجليقي منشى بطليوس، قد أنشأ مسجدًا داخل القسبة. وقد حُولَ هذا المسجد

عقب "الاسترداد" إلى كنيسة، رفعت فيما بعد إلى مركز "الكنترالية"، وسميت "سانتا ماريّا دل كاستيو"، ولبثت هذه الكنيسة، التي أقيمت على أنقاض جامع القصبة عصوراً كنترالية بطليوس، قبل أن تنشأ الكنيسة العظمى الحالية. وكانت كنيسة "سانتا ماريّا" هذه كنيسة صغيرة، وقد بقي من أنقاضها برجان أدمج أحدهما في واجهة المستشفى الجنوبية، ولما جدد المستشفى ووسع، أدخلت في بنائه بقايا الكنيسة المذكورة. ومعنى ذلك أن المستشفى يحتل ضمن أبنيته موقع جامع القصبة القديم.

وقد صعدنا إلى البرج الموحدى السابق الذكر، وألقينا منه نظرة على بطليوس، وهي تبدو منه مستكيرة الرقعة، وتبدو دروبها الطويلة الضيقة ومنازلها البيضاء، ومن حولها السهل، وتبدو القصبة واقعة في طرفها الشمالى الشرقى. وشاهدنا في داخل البرج من وسطه دائرة من العقود الصلدة، وفي أعلاه دائرة أخرى مماثلة، ثم يليها في القمة برج مربع يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، ويبدو هذا البرج من أعلى، مقابلاً لبرج الباب الذي نلشنا إليه. وبالخلاصة أن ضخامة قصبة بطليوس ومنعتها، تبدو في مختلف أجزائها، وقد كانت تشغل رقعة كبيرة تمتد من ضفة النهر حتى الأسوار التى تبدو بعد البرج الموحدى<sup>(١)</sup>.

### في متحف بطليوس

ويحتوي متحف بطليوس الأركيولوجى على عدة لوحات أندلسية، أهمها لوحة رخامية صغيرة حجمها نحو ٣٠ × ٤٠ سنتيمتراً، وقد كتب عليها بالخط الكوفى ما يأتى: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا قبر ساهور الحاجب رحمه الله. وتوفي يوم الخميس لعشر ليال خلون من شهر رجب سنة ثلث عشرة وأربعمائة، وكان يشهد ألا إله إلا الله، وساهور الحاجب المشار إليه في هذه اللوحة، هو ساهور أحد الفتيان العامريين، وقد استطاع أن يتغلب على بطليوس عقب الفتنة، وأن يبسط حكمه عليها عدة أعوام، حتى وفاته فى سنة ١٠٢٢ م (٤١٣ هـ)، وأعقبه في حكمها بنو الألفطس،

وتوجد صورتان للوحتين أخريين وجدنا أيضاً في مدينة بطليوس، وكنتنا من ذخائر متحفها، ثم نقلنا إلى متحف مدريد الوطنى، واكتفى بعرض صورتيهما. الأولى وهي أيضاً بالخط الكوفى، شاهد قبر هذا نصه:

<sup>(١)</sup> راجع مقالاً صلياً عن قصبة بطليوس وأصلها للعلامة لمرحوم الأستاذ توريث بلباس في مجلة الأندلس: Al-Andalus (1941, Fasc. I, p. 168 – 203)، ومقالاً آخر عن مسجد قصبة بطليوس Ibid: (1943 Fasc. II, P. 467)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر الشهيد المقتول ظلماً رحمه الله عبيد الله بن محمد بن أحمد الماردي بن المقتول قتلوه الملتئمين يوم خروجهم، وذلك يوم الأحد يوم تسعة وعشرين من رمضان المعظم عام تسعة وثلاثين وخمسمائة.

والثانية كذلك شاهد قبر هذا نصه:

بعد البسملة. كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. هذا قبر الشيخ الفقيه أبي القاسم خلف بن حسن بن فرحون البكري نور الله ضريحه وقنس روحه. استشهد بشرقي جامع بطليوس حين غدر العدو لها في في صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الآخر عام ستة وخمسين وخمسمائة<sup>(١)</sup>.

وتوجد أخيراً بضع قطع من الآنية الخزفية الأندلسية.

---

<sup>(١)</sup> تشير هذه التوحة إلى واقعة مهاجمة البرتغاليين بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكي لبطليوس، لأول مرة (سنة ١١٦١ م) واستيلائهم عليها، ثم استرداد المسلمين لها على الفور.





بطليوس. الكنيسة العظمى



بطليوس. باب من أبواب القسبة



بطليوس. "الميدان العالي" وقوسه المنخفض



## معالم أثرية أخرى

وتقع الكنيسة العظمى في الجنوب الشرقي، على نحو خمسمائة متر من القصبة في ميدان كبير هو ميدان إسبانيا. وهي متوسطة الحجم، بنيت على شكل صليب عقدته المصلى، وعلى جانبيه عقود قوطية، وهيكلها كثير الزخرف، ولكنها مظلمة ولا روعة فيها. وقد بنى برجها على مثل برج القصبة. وهي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ويوجد بجوار الكنيسة مربع كبير من الأروقة الفخمة ذات العقود القوطية، زينت جدرانها السفلى بالفريسك الجميلة، وصحنه عبارة عن حديقة صغيرة ذات عقود جميلة مماثلة.

وهناك عدة كنائس وأديرة أثرية، منها كنيسة سانت أوجستين، وهي كنيسة صغيرة ذات عقود جانبية على مثل الجامع، وكانت قبل ذلك ديرًا، وترجع إلى القرن الخامس عشر، والكنيسة المسماة "دير الحفاة" Convento de las Descalzas، وهي صغيرة ذات عقود قوطية وزخارف كثيرة.

وهناك أيضًا كنيسة كونثبسيون La Concepción، وتقع في وسط المدينة تقريبًا. ويلوح لنا أنه إذا كانت الكنيسة العظمى تقع فوق أنقاض جامع بطليوس لقربها من سطح القصبة، فإن كنيسة "كونثبسيون" فيما يرجح تحتل أيضًا مكان أحد المساجد الأخرى.

ويوجد في بطليوس غير أبواب القصبة وباب النخيل التي سبق ذكرها، أبواب أثرية أخرى منها العقد الضخم الواقع في "الميدان العالي" P. Alta، وهو عقد خفيض عريض يقع في مواجهة سوق الفاكهة، على مقربة من باب القصبة، "باب العمود" وهو أحد أبواب بطليوس النصرانية، ويقع في جنوبها، وهو عقدان بينهما قبر يبلغ طوله نحو اثني عشر مترًا، وباب "ترنداد" ويقع في القسم الغربي من الأسوار المسماة لسوار "قوبان".

ولنعد إلى المدينة ذاتها، فنقول إن بطليوس مدينة كبيرة الرقعة يبلغ سكانها زهاء خمسة وأربعين ألفًا، ويحد نهر وادي يانة المدينة القديمة من الشمال، ومن ورائه توجد طائفة من الأحياء الجديدة تمتد حتى محطة السكة الحديدية. وأما المدينة القديمة فتمتد جنوبًا وغربًا حتى أسوار "قوبان"، وهي التي أنشأها الفرنسيون أيام حرب "ورثة العرش" في فاتحة القرن السابع عشر، وسميت باسم منشئها المهندس والقائد الشهير قوبان، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة، وتتجه بقيتها الجنوبية من الناحية الشرقية نحو أطلال القصبة لكي تتصل بأسوارها.

ولمدينة بطليوس طابع خاص يغلب عليه القدم والاحتشام، ومع ذلك فهي تضم كثيرًا من الشوارع والمباني الحديثة، وتجتمع في قلبها وفي جانبها الشرقي شبكة كبيرة من الدروب الضيقة القديمة الصاعدة نحو ربوة القصبة، ومعظم سكانها من الطبقات الفقيرة، وتوجد في

أطراف المدينة من الشمال والغرب، جماعات من العجزة وقد علمت أن عددهم يبلغ نحو ألف وخمسمائة.

وقد كانت لبطليوس بموقعها الحصين على منحني نهر وادي يانة وعلى الحدود الإسبانية البرتغالية، في العصور الوسطى، أهمية عسكرية خاصة، وقد حاول البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيث انتزاعها من المسلمين، المرة الأولى في سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م)، وقد استردها المسلمون على الفور؛ والثانية في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م)، ولكن المسلمين عادوا فاستردوها، واستمرت في أيديهم بعد ذلك عصرًا آخر. وأخيرًا استولى عليها النصارى بقيادة ألفونسو التاسع ملك ليون، وذلك في سنة ١٢٢٧ م (٦٢٦ هـ).

وليس من العسير أن نتعرف معالم مدينة بطليوس الأندلسية، فهي واضحة في شبكة الدروب التي تتحدر من غربي القسبة وجنوبها إلى قلب المدينة.

## ٢ - ماردة

### Mérida

ماردة هي إحدى مدن ولاية بطليوس، وهي تقع شرقي بطليوس، على الضفة الشمالية لنهر وادي يانة، في بسيط أخضر وافر الخصب، وتبعد عن بطليوس نحو أربعين كيلو متراً، وقد كانت ماردة مثل بطليوس، منزل البربر والمولدين، وكانت كثيرة الخروج والثورة على سلطة حكومة قرطبة. وقد سقطت في يد النصاري بعد سقوط بطليوس بنحو عامين، في سنة ١٢٢٩ م (٦٢٨ هـ).

ولكن ماردة ليست كبطليوس، ذات طابع خاص واضح، وإن كانت لها مع ذلك ملامح خاصة بها. وهي مثلثة الرقعة تقريباً، ذات شوارع طويلة، وميادين عديدة، ويحدها من الجنوب نهر وادي يانة، وعليه تقوم القنطرة الرومانية العظيمة، على ستين عقداً. وهي كثيرة الدروب الضيقة المتعرجة، التي هي طابع المدن الأندلسية القديمة، وكثير من مبانيها الحديثة يحمل طابعاً أندلسياً من العقود والشبابيك المعقودة والأفنية الأندلسية، ويرى النخيل في شوارعها وميادينها وأحياناً في منازلها. وتضم ماردة خمسة عشر ألفاً من السكان، منهم أقلية كبيرة من العجر تسكن بجوار القصبه، وفي بعض أحياء أخرى.

### المعالم الأثرية

وفي ماردة طائفة من المعالم الأثرية الجلية، ولكن معظمها آثار رومانية، وهي تدلي بما كانت عليه ماردة في العصر الروماني، من الأهمية والمنعة، فقد كانت عندئذ تسمى باسمها الروماني Augusta Emerita، ومن مقطعها الثاني اشتق اسمها الأندلسي "ماردة". وفي مقدمة هذه الآثار، القنطرة الرومانية العظيمة التي سبقت الإشارة إليها، والتي تقوم فوقها أعمدة الجسر المائي Acueducto، التي كانت تحمل قنوات الماء إلى القصر. وتقع هذه القنطرة بجوار الأسوار الرومانية، وهي أسوار عظيمة تضم في داخلها أطلال ما يسمى بالقصبه أو القصر. وقد أشار صاحب الروض المعطر إلى قصر ماردة هذا، وإلى القنطرة ذات العمدة التي كانت تحمل إليه الماء<sup>(١)</sup>.

(١) الروض المعطر ص ١٧٦.



ماردة. القنطرة الرومانية



ماردة. منظر عام للمسرح الروماني



ماردة. العقد العربي داخل القسبة

والقسبة هي لثر أندلسي بلا ريب، وقد كانت قلعة رومانية وقوطية قديمة، فأنشأ المسلمون على أنقاضها القسبة أو القصر، وجددت هذه القسبة مراراً، ولا سيما في عهد عبد الرحمن بن الحكم، في أوئل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، كما يدل على ذلك نص اللوحة الأندلسية، المحفوظة بمتحف ماردة، والتي نتحدث عنها فيما بعد.

وأطلال القسبة خرائب متفرقة، ولكنها تدلى ببوائكها، وأطلال أبراجها المحاذية للنهر، بما كانت عليه من منعة وحصانة، وهي بلا ريب بقية القلعة الأندلسية القديمة، التي كانت تحمي القصر وتشرف على المدينة.

ويوجد على مقربة من هذه الأطلال، المنحدر المعروف بالجيب، وهو منحدر عميق تسيل إليه مياه الأمطار، وينزل إليه بسلمين؛ في كل رواق سلم.

وثاني الأثر الروماني بعد القنطرة، المسرح الروماني، وهو مسرح حجري عظيم كامل تقريباً، يقع خارج المدينة من ناحية الشمال الشرقي، وما زالت به صفوف من المقاعد الحجرية المتدرجة، وأمامها المسرح، وهو يشمل مساحة كبيرة، ويقابله من الناحية الأخرى الأثر المسمى "بالأمفيتيآترو" وهو أيضاً مساحة عظيمة، تقوم حولها المقاعد المتدرجة في نصف دائرة كالمرشح، وتفضي إليها مداخل كثيرة ذات عقود.



ويوجد في وسط المدينة أثر روماني آخر، هو عبارة عن عقد روماني عظيم شاهق يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر مترًا، وهو معقود من الحجارة الكبيرة الصلدة ويسمى "عقد تراجان" Arco de Trajano.

ولما فيما يتعلق بالكنايس، فإن كنيسة ماردة العظمى تسمى سانتا مارييا، وهي صغيرة الحجم ذات عقود قوطية، وهي قديمة أيضًا، وربما كانت تحتل موقع الجامع. بيد أن أقدم كنائس ماردة هي كنيسة "سانتا أولاليا"، وهي ترجع إلى عصر قديم جدًا، والمعروف أنها كانت قائمة أيام المسلمين، وصرحها الحالي هو صرحها المجدد بعد سقوط المدينة في يد النصارى، وهو ذو عقود قوطية خفيفة، والكنيسة أولاليا هي حامية المدينة.

هذا ومن الصعب إزاء غموض مواقع كنائس ماردة القديمة، وعدم التحقق من أن كنيسها العظمى، تحتل بالفعل موقع الجامع، أن نحدد معالم المدينة الأندلسية بصفة واضحة، بيد أنه يمكن من جهة أخرى، أن نسترشد في ذلك بموقع القسبة وأطلالها الباقية، فنقول إن المدينة الإسلامية كانت تنبج من القسبة نحو النهر، ويؤيد ذلك أن أحياء ماردة القديمة تقع في هذه الرقعة. أما امتداد المدينة الحديثة فإنه يبدأ من خارج الأسوار.

## نقوش أندلسية

وإذا كانت ماردة تخلو من الصروح الأندلسية الهامة، فهي من الناحية الأخرى تحتفظ في متحفها بلوحة من أهم وأقدم اللوحات الأندلسية.

ومتحف ماردة متحف صغير، ولكنه غني بالآثار والتماثيل الرومانية، التي استخرجت من حفريات ماردة، وبه مجموعة من النقود الأندلسية الصغيرة من دراهم وأمثالها.

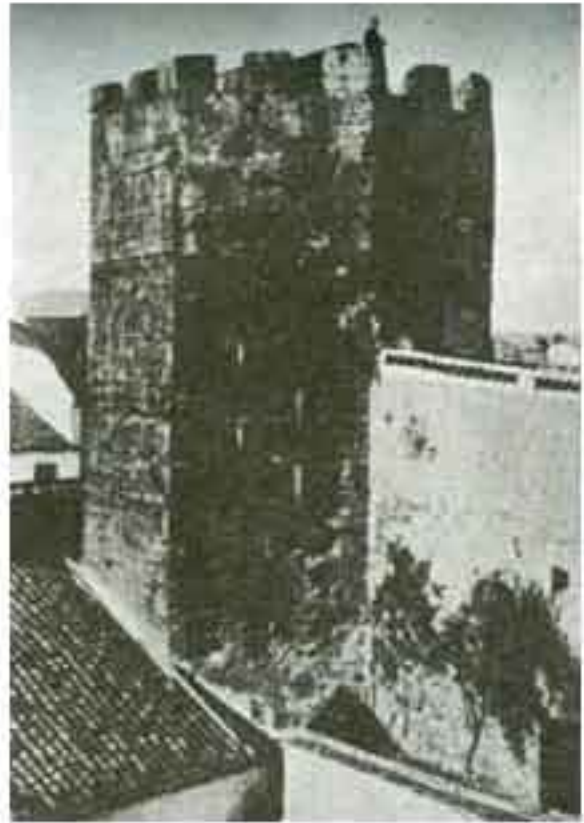
أما اللوحة الأندلسية المشار إليها، فهي لوحة رخامية كبيرة طولها نحو مترين، وعرضها نحو ثمانين سنتيمتراً، وقد وجدت في سنة ١٩٠٢ في قصبة ماردة. وهي ملقاة في ركن مهمل من المتحف، وكان يغمرها التراب والمهملات، فرجونا حارس المتحف أن ينظفها ويجلوها، وعدنا إلى المتحف عصرًا، وعكفنا على قراءة نقوشها الكوفية وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله وعصمته لأهل طاعته. أمر ببناء هذا الحصن وبإعادته معقلًا لأهل الطاعة الأمير عبد الرحمن بن الحكم أعزه الله على يدي عامله عبد الله بن كليب بن ثعلبة <sup>(١)</sup> وجعفر بن مكسر وشعيب بن موسى حاجب السد في شهر ربيع الأول سنة عشرين ومائتين".

وهذه اللوحة الأثرية تشير إلى حادث تاريخي هام. فقد كانت ماردة من المدن الثائرة على عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس، وكان يتزعج ثورتها سليمان ابن مرتين زعيم البربر، فسار الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى ماردة وحاصرها بشدة. وحدث أثناء الحصار أن قُتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده، فانهارت الثورة، وانفضت جموع الثائرين، ودخل عبد الرحمن المدينة وأمر بتجديد قصبتها، لتكون ملاذًا لأولي الأمر من أوليائه، والمدافعين عن سلطانه، وكان ذلك سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) وهي السنة التي سجلت في اللوحة المذكورة.

ويوجد في الدار الأثرية التي يحتلها اليوم الفندق الوطني Parador Nacional، فناء ذو عقود وأعمدة عربية، ومنها عمودان أو ثلاثة عليها كتابات عربية، ولكن ليس بالنقوش البارزة أو الحفر، وإنما فقط بالكحت البسيط، وهي أدعية وتحيات لا أهمية لها، وربما كانت من صنع بعض الزوار المغاربة في القرن الماضي.

(١) في لروض المعطل عبد الملك بن كليب بن ثعلبة (ص ١٧٧).



قشرش، البرج العربي الكبير



قشرش، بعض العقود العربية الباقية

هذا ولا بد لنا بهذه المناسبة أن نشير إلى ظاهرة أثرية لها دلالتها التاريخية الهامة، فقد رأيت مما تقدم، أن مدينة ماردة تغص بالآثار الرومانية الهامة، وقد كانت هذه الآثار كلها قائمة على حالها في عهدها الإسلامي، حسبما يشير إلى ذلك صاحب الروض المعطر<sup>(١)</sup>، وبالرغم من كونها تعتبر في نظر المسلمين آثاراً وهياكل وثنية، فإن المسلمين قد أبقوا عليها طيلة حكمهم للمدينة، وهو أمد استطال أكثر من أربعة قرون. ولئن دلت هذه الظاهرة على شيء، فهو أن الأمة الأندلسية المسلمة، كانت ترتفع في تقدير القيمة الفنية والأثرية لآثار العصور الماضية، إلى مرتبة تسمو على الاعتبارات القومية والدينية، وهذا ما أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب.

\* \* \*

هذا، وتوجد في هذه المنطقة من الأندلس الغربية الشمالية، بعض آثار أندلسية أخرى، نذكر منها ما يلي:

أولاً - توجد في مدينة ترخالة Trujillo، الواقعة في شمال ماردة على مقربة من جنوبي نهر التاجه أطلال حصن أندلسي، وبقيّة أسوار أندلسية، وتوجد بهذا الحصن لوحة عربية هي شاهد قبر، وقد سقطت ترخاله في أيدي النصارى في سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ)<sup>(٢)</sup>.

ثانياً - توجد بمدينة قشرش Cáceres، الواقعة غربي ترخاله، وشمالى بطليوس برج أندلسي، وعقود عربية. وما زالت قشرش تحتفظ بطابع العصور الوسطى، وبها أسوار وقصور ولباب قديمة، وتحتل كنيستها القديمة "سان ماتيو" موقع الجامع القديم.

(١) لروض المعطر ص ١٧٦.

(٢) لروض المعطر ص ٦٣.

## ٣ - ولبة

### Huelva

الآن ننقل من أرض الفرنتيره وولاية بطليوس، إلى منطقة الغرب أو غربي الأندلس، وهي المنطقة التي حرف اسمها العربي اليوم إلى كلمة Algarve الأوربية.

إن هذه المنطقة التي تمتد غربي مدينة إشبيلية على ساحل المحيط، حتى جنوبي البرتغال، ويخترقها نهر وادي يانة (وادي أنة) العظيم، من أخصب المناطق في شبه الجزيرة الإسبانية، وهي مما يلي جنوب غربي إشبيلية، عبارة عن بساط خضراء تمتد إلى مرمى البصر، وتزرع بها مختلف المحاصيل، ويتخللها قليل من التلال، وبها مراعي طيبة للماشية، وأكثر ما شاهدها بها مزارع القمح والكروم وشجرات الزيتون، وممالفت نظرننا أن القطن يزرع فيها في رقاع قليلة، ولكن شجيرات صغيرة ضئيلة.

وتمتد هذه البساتين بعد ذلك غرباً في اتجاه نهر وادي يانة، وفرة الخصب منوعة المحاصيل حتى حدود البرتغال، بيد أنها قبيل مدينة ولبة تكثر بها التلال، وتكثر شجرات الزيتون.

ومدينة "ولبة" هي نغر بحري كبير، يقع على شاطئ المحيط الأطلنطي عند مصب نهر "أوديل"، ويبلغ سكانها نحو سبعين ألفاً، وهي بوضعية الرقعة ذات شوارع طويلة، ويزدان شارعها الرئيسي الطويل الذي يخترقها مما يلي البحر بصفيين من النخيل Alameda، وكذلك تزدان به بعض الميادين، ولكن شوارعها الجانبية من الناحية الأخرى ضيقة.

وهي عتيقة الطراز والمظهر، بيد أنها لا تحمل أية مسحة أندلسية. وأقدم معالمها الأثرية كنيسة "سان بيدور" وتقع في وسط المدينة، وقد بنيت أولاً عقب سقوط المدينة في يد النصارى مكان المسجد الجامع، ثم جددت بعد ذلك في القرن الخامس عشر، ومازل طراز الجامع ظاهراً في قبتها التي على يمين الداخل، ثم في عقودها الوسطى، وممالفت النظر أنه توجد في كل من جانبيها الشرقي والغربي، نافذة مستديرة عملت على هيئة نوافذ الجامع، وأن بابها يقع في الجنوب، مما يدل على أنه عمل مكان محراب الجامع.

أما كنيسة العظمى "الكنتراية" وهي المسماة بكنيسة الرحمة La Merced، فهي قديمة أيضاً، وترجع إلى القرن الخامس عشر، ويبدو كذلك أثر الطراز الإسلامي، في عقودها وفي قبتها التي تحاكي قبة المسجد.

وفي ولبة بقية قلعة رومانية قديمة، وتمثال ضخيم لكريستوف كولومبوس مكتشف أمريكا.





ولبة. ميدان وكنيسة سن بيدور

والأثر الأندلسي الوحيد الذي رُيِّئ في مدينة ولبة، هو نافذة أثرية ذات عقدتين أندلسيين، بهما زخارف عربية، وتقع هذه النافذة في واجهة منزل عادي يقع فقي شارع "الميناء" C. del Puerto.

وهناك أثر أندلسي آخر في متحف ولبة الإقليمي هو لوحة من الفخار، بيضاوية الشكل، وهي عبارة عن شاهد قبر نقش على وجهه بالخط النسخ ما يأتي:  
"الحمد لله وحده. توفي الشاب الطالب المرحوم أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقير  
الأجل أبو عبد الله محمد بن سعيد بن علي الجبلي رحمه الله وبرد ثراه عند الزوال من يوم  
الاثنين الرابع عشر لذي قعدة عام أحد عشر وثمان مائة".  
ونقش في ذيلها "اليمن والإقبال، اليمن والإقبال".

ونقش على وجهها الآخر زخارف حول شجرة الحياة.  
وتشتهر ولبة بنوع خاص بتقن فنون الرقص  
الأندلسي، وهي في ذلك في مقدمة المدن الأندلسية.

وقد سقطت مدينة ولبة في يد القشتاليين في سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م)، بعد سقوط إشبيلية بأعوام قلائل، وكان الأمير  
الموحدي السيد أبو عبد الله الذي سقطت على يده إشبيلية، قد  
اشتراط أن يعوض عنها بولبة ولبة وشلوفة (سان لوقار)  
وحصن القصر، وهي كلها تقع غربي إشبيلية، ثم عاد  
النصارى، فاستولوا على هذه البلاد جميعا خلال بضعة أعوام.  
ومما هو جدير بالذكر أن مدينة ولبة، هي مدينة لونية  
القديمة، وبهذا الاسم كانت تسمى في العصر الإسلامي.



ولبة. الشبك العربي ذو العقدتين

## ٤ - لَبْلَة

### Niebla

إن أهم ما تمتاز به مدينة لبلة من الناحية الأثرية، هي أنها المدينة الوحيدة، التي مازالت تحتفظ بأسوارها الأندلسية كاملة.

وتقع لبلة غربى مدينة إشبيلية على قيد سبعين كيلو متراً منها، على الضفة اليمنى للنهر الأحمر Río Tinto، وهي من أعمال ولاية ولبة، وتبعد نحو ثلاثين كيلو متراً إلى شرقها، وكانت أيام الرومان تسمى Llipla، ومنها اشتق اسمها العربى لبلة، وتُعرف أيضاً في الجغرافية العربية "بلبة الحمراء"<sup>(١)</sup>.

والمنطقة الممتدة من إشبيلية غرباً إلى لبلة، ولا سيما في مرحلتها الأولى هي من أخصب المناطق وأغناها بحدائق البرتقال، وشجرات الزيتون، وحقول القمح البانعة، وتتكون على الأغلب من رقاع خضراء منبسطة، والوعر بها قليل.

وكانت لبلة أيام الدولة الإسلامية، قاعدة هامة من قواعد غربى الأندلس، واشتهرت أيام الإمارة والخلافة، بثوراتها العديدة ضد حكومة قرطبة، وبمن ظهر فيها من الزعماء والخوارج. وفي أيام الطوائف، قامت في لبلة إمارة مستقلة تحت حكم بنى اليحصبي، واستمرت على استقلالها نحو ثلاثين عاماً، حتى تغلب عليها المعتضد بن عباد، وضمها إلى مملكة إشبيلية، وذلك في سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م).

واستمرت لبلة في يد المسلمين حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر، في أواخر أيام حكم الموحدين لإسبانيا المسلمة، وقامت بها في ذلك الحين إمارة مستقلة أخرى تحت حكم ابن محفوظ. وحاول القشتاليون في تلك الأثناء افتتاحها غير مرة، وحاصروها في سنة ١١٨٧ م، واستولى عليها أسقف طليطلة خميس دي رادا في سنة ١٢٣١ م لمدة قصيرة، ثم عادت إلى المسلمين، وأخيراً حاصرها ألفونسو العاشر ملك قشتالة (العالم)، وانهى بالاستيلاء عليها بعد حصار دام تسعة أشهر. ومما هو جدير بالذكر أن الموحدين استعملوا في هذا الحصار لمدافعة النصاري، آلات تشبه المدافع، تغلف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوي كالرعد، مما يحمل على الاعتقاد، بأنهم ربما كانوا قد وقفوا على سر البارود في هذا العصر المبكر.

(١) معجم البلدان لياقوت تحت كلمة لبلة. والروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٦٨.



لبلنة. واجهة القصر الأدلسي القديم



لبلنة. برج الكنيسة وهو منارة الجامع القديم



لبلنة. بعض أطلال القصر الأدلسي

وأول ما يلتفت النظر في لبله، هو منظر أسوارها القديمة العالية التي تحيط بها إحاطة تامة إلا من جهة النهر، وهذه الأسوار التي تدور حول المدينة الأندلسية القديمة - وهي تقع فوق ربوة عالية، مستديرة تقريباً - هي أسوارها الأندلسية، وهي مازالت على حالها منذ جندرها الموحدون في أواخر القرن الثاني عشر، ويبلغ ارتفاعها في المتوسط نحو اثني عشر متراً، ويبلغ محيطها نحو كيلو مترين.

والمدينة القديمة القائمة داخل الأسوار، هي لبله الأندلسية، وهي مازالت تحتفظ بخطتها الأندلسية القديمة، دون تعديلات تذكر، ومازالت شوارعها ودروبها تحمل الطابع الأندلسي الواضح. وقد احتلت كنيساتها، "سانتا ماريا" و"سان مرتين" موقعي المسجدين القديمين، الشرقي والغربي، وقد اندثرت الكنيسة الأخيرة، وبقيت الكنيسة الأولى وحدها، وهي تحتل موقع الجامع حسبما يجيء.

ويقع خارج الأسوار، شارع لبله الرئيسي الممتد غرباً بجنوب نحو ولبة، وقد أقيم على جانبه، المواجه للأسوار، صف طويل من المنازل الحديثة يبلغ طوله نحو كيلو متر. ولبله على العموم بلد هادئ، لا يعدو سكانه بضعة آلاف، وليست بها أية حركة عمرانية ظاهرة.

## المعالم الأثرية

وأعظم معالم لبله الأثرية، هو بلا ريب أسوارها الضخمة، التي تمثل منعها القديمة، وموقعها الحصين فوق الربوة العالية، وهو منظر رائع حقاً، لا يدانيه في روعته ومنعته، سوى أسوار آبله الرومانية العربية.

وتتخلل أسوار لبله بوائك عديدة، هي بوائك الأبراج القديمة، وتتخللها كذلك خمسة أبواب قديمة معقودة، أهمها الباب المتجه نحو الشرق، ويسمى باب إشبيلية، وتنتهي الأسوار من ناحيتها الشرقية إلى "النهر الأحمر"، وهي من هذه الناحية بالية متهمة.

الكنيسة الرئيسية: هي كنيسة "سانتا ماريا" المتقدمة الذكر، وهي كنيسة صغيرة متواضعة، وهي قديمة وتحتل موقع المسجد القديم، ومازالت بها عدة من معالم المسجد، فبرجها حسبما هو ظاهر، هو منارة المسجد القديم، وهي مربعة موحدة الطراز، قليلة الارتفاع، ومازالت تحتفظ بكوتها العربية، وكذلك يبدو أن صحن الكنيسة، إنما هو صحن المسجد القديم، ومازل في جانبه عقدان قديمان، قد سداً بالبناء.



لبلّة. باب إشبيلية المتّجه شرقاً نحو طريق إشبيلية



لبلّة. جانب من الأسوار الموحّدية الكبرى



أطلال الحصن أو القصر؛ وهي بقية كبيرة من أطلال بناء ضخم، مفرقة حول فناءه التاسع، ومنها قطعة كبيرة ذات ضلعين، وله واجهة كبيرة مخربة من الداخل، ويسكن هذه الخرائب أقوام من الفقراء، وهو كثير الرثالة نعافه النفس.

وقد كان هذا موقع القصة الأندلسية أو قصر لبلة القديم Alcázar، ولما سقطت لبلة في يد القشتاليين في سنة ١٢٥٧ م، وقعت بهذا الصرح الأندلسي تغييرات وإضافات كثيرة، وفي سنة ١٣٦٩ منح هنري (إنريكي) الثاني ملك قشتالة، مدينة لبلة، مهراً لإحدى أميرات البيت المالكة، ومنح زوجها لقب "الكوثية"، وعُدت لبلة من ذلك الحين "كوثية" (إمارة)، وتعاقب أصحابها الجدد على حصنها الأندلسي القديم بالتعديل والتجديد، حتى غاصت معالمه الأندلسية، وانتهى بأن خربته الزلازل في سنة ١٧٥٥ م، وبقي على حاله من الخراب والعفاء حتى يومنا.

## الآثار الأندلسية الباقية في البرتغال

### تمهيد

كانت شبه الجزيرة الإسبانية حينما افتتحها العرب، وحدة جغرافية وسياسية واحدة، وكانت المنطقة الواقعة بين نهر منهو في الشمال والمحيط في الجنوب، وبين نهر وادي يائنة شرقاً والمحيط غرباً، وهي التي يطلق عليها اليوم "البرتغال" داخلة في نطاق الأندلس المسلمة، ومقسمة إلى عدة ولايات، ولم توضع لاس البرتغال الحديثة قبل أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

وقد بدأت قواعد هذه المنطقة الغربية من الأندلس تسقط في أيدي النصارى، في عصر مبركر، فسقطت مدينة بورتو (برتغال) في يدهم سنة ٧٦٥ م، مع بعض القواعد الشمالية الأخرى، وامتنع المسلمون في قواعدهم جنوبى نهر دويرة، (الدورو)، واستمروا يحكمون هذه المنطقة في ظل النظام الإقطاعي، حتى أواخر عهد المرابطين، وعندئذ بدأ سلطانهم في الاتحال، وأخذت هذه القواعد الغربية تسقط تباعاً في أيدي النصارى، وقويت الجيوش النصرانية الغازية، بما كان يفد يومئذ على شواطئ البرتغال، من الجماعات الدينية والصليبية المتطوعة لقتال المسلمين، وكانت مدينة قللمرية Comibra أول قاعدة فقدتها المسلمون؛ إذ سقطت في يد فرناندو الأول ملك قشتالة في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)، ثم تلتها لشبونة (لشبونة) وشنترين، ثم قصر أبي دئس، ثم يابرة، ثم شلب وباجة وشنتمرية الغرب. وكان سقوط هذه القواعد الأندلسية في النصف الأخير من القرن الثاني عشر، والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك حين اضطربت شئون الأندلس أيما اضطراب، ودبت إليها عوامل الفتنة الشاملة، وانهارت قواها الدفاعية، في أواخر عهد الموحدين.

\* \* \*

وقد رأينا استكمالاً لعناصر هذا البحث الذي نعى فيه بنقصى الآثار الأندلسية الباقية، في سائر قواعد الأندلس الذاخرة، أن نعبّر إلى البرتغال، وأن نجوس خلال قواعد الأندلسية القديمة، فزرنا منها سبعة هي: لشبونة العاصمة، وشنترية، وشنترين، ويابرة، وباجة، وشلب، وفارو أو شنتمرية الغرب.

وكان عبورنا إلى البرتغال من جنوب غربي إسبانيا عن طريق ولبة وليامونتي، وذلك لكي نخترق ولاية الغرب الأندلسية القديمة Algrave، ونتعرف خواصها وطبيعتها. وتمتد من ولبة نحو الغرب منطقة تكثر فيها التلال، ونقل البسائط، ومع ذلك فمعظمها خضراء، تغطيها غابات الزيتون والصفصاف، وحدائق الفاكهة ولا سيما التين، فإنه يكثر في هذه المنطقة كثرة هائلة، وأشجار ضخمة تغمرها الثمار.

وقد لفت نظرنا أنه توجد قبيل الحدود البرتغالية بلدان تحمل كلتاها اسمًا عربيًا ظاهرًا، أولاهما بلدة La Mezquita أي "المسجد"، والثانية بلدة "الخرق" Aljarque. وعلى مقربة من حدود البرتغال تكثر البقاع القفراء، تغطيها غابات هزيلة من أشجار التين والزيتون، وتتخللها بعض حقول القطن والبقول، وترى فيها الآبار بكثرة، تستعمل للري، ثم تليها حتى حدود البرتغال، منطقة كبيرة من المستنقعات والملاحات.

وتقع بلدة الحدود الإسبانية، وهي ثغر ليامونتي الصغير، على الضفة اليمنى لمصب نهر وادي يانة في المحيط الأطلسي، وهو ثغر متواضع يعبر منه إلى الضفة الأخرى، إلى بلدة "فيلا ريال" البرتغالية، في مراكب بخارية ساذجة، تقطع مصب النهر العريض في نحو عشرين دقيقة، وفيلا ريال هي أيضًا بلدة صغيرة ولكن نظيفة مشرقة.

## ١ - فارو

### أو شنتمرية الغرب

Faro – Sta. Maria de Algarve

كانت "فارو" أول مدينة برتغالية قصبتها، وقد قطعت إليها طريق "الغرب" بالسيارة. ولا يكاد يختلف هذا الجزء من ولاية الغرب Algarve، في طبيعته العامة عن نظيره الإسباني، ولكن اليد العاملة قد أسبغت على المنطقة البرتغالية تنوعًا وخضرة ورواء لا توجد في المنطقة الإسبانية. وعلى مثل القسم الإسباني، تكثر في هذا القسم أشجار الزيتون والفلكهة، وبعض المحاصيل ولا سيما الذرة.

وتقع بلدة فارو على شاطئ المحيط الأطلنطي، على خليج يتخذ شكل نصف دائرة، وهذا الاسم الحديث للبلدة الأندلسية القديمة، لا يثير اهتمامك إلا حين تعرف أن فارو، ليست إلا مدينة "شنتمرية الغرب" الأندلسية، التي كانت بها أيام الطوائف دولة صغيرة مستقلة، هي دولة بني هرون، الذين حكموها من سنة ١٠٢٦ إلى سنة ١٠٥٢ م. ثم حكمها بعد ذلك بنو عماد أمراء إشبيلية، واستمرت بعد ذلك تحت حكم المسلمين أيام المرابطين ثم الموحدين. ثم سقطت في يد ألفونسو الثالث ملك البرتغال سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون.

واليك ما أوردته في وصفها صاحب الروض المعطار: "وشنتمرية على معظم البحر الأعظم، سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد، وهي مدينة متوسطة القدر، حسنة التربة، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها المراكب واردة وصادرة، وهي كثيرة التين والأعقاب، وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلًا"<sup>(١)</sup>.

وفارو مدينة صغيرة أنيقة مشرقة، طيبة الهواء، حديثة المظهر، تخترقها شوارع طويلة ضيقة إلا شارعها الكبير الواقع خارجها، وبها ميادين حسنة مثل ميدان فرنسيسكو كومس الواقع على البحر، وميدان الكتدرائية. وليس في أحيائها الخارجية شيء من المظاهر الأندلسية؛ لأن مدينة شنتمرية القديمة، كانت حسبما ورد في وصفها السابق تقع لصق البحر، وقد دثرت اليوم، وإن كانت تدل عليها سلسلة من العقود، والأطلال الواقعة على مقربة من البحر.

(١) الروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١١٥.

وأهم هذه العقود العقد المسمى "عقد الحراسة" Arco da Vila، وهو عقد كبير

مزدوج، يفصل بين قوسية، قبر طولاه نحو عشرة أمتار، وبطل على ميدان كومن، وقد ذكر في لوحة ثبتت في داخله، أنه شيد فوق موقع أحد أبواب المدينة القديمة. وفوقه بناء صغير يعلوه صليب وأجراس تحتها ساعة دقاقة.



ومن هذا العقد نجوز إلى ميدان الكندرية، وهناك يوجد عقد آخر عربي الطراز، وعلى بُعد نحو مائة وخمسين مترًا منه، يوجد عقد ثالث منخفض نوعًا، وكلاهما فيما يرجح، من أبواب المدينة القديمة.

ويوجد عقد رابع، عند قوسه إلى مربع بشكل ظاهر، وعلى جانبه بقية كبيرة من أسوار المدينة القديمة.

قلو عقد الحراسة

وتقع هذه العقود كلها على مقربة من الكندرية، في شبه سلسلة متصلة الخطط، وعلى مقربة من البحر، مما يدل على أنها كانت جميعًا أبوابًا في أسوار المدينة الإسلامية.





فارو، الكنيسة العظمى



فارو، أحد أبواب المدينة الأندلسية



شلاب، واجهة الحصن الخارجية

وتقع الكندراية (الكنيسة العظمى) في شمل المدينة، في ميدان يقضى إليه "عقد الحراسة"، وهي كنيسة صغيرة، ترجع إلى القرن الخامس عشر، قوطية الطراز، ذات واجهة حجرية ساذجة، تقوم فوق عقد عربي منخفض، وصحنها الداخلي جميل، وقد عملت عقودها الوسطى والجانبية على طراز عقود الجامع، وزينت عقودها الجانبية بزخارف أنيقة مدببة وبالفسيقاه الأندلسية.

ويدل موقع الكندراية في وسط القسم القديم من المدينة، وهو الذي تحمل دروبه ومنازله ملامح الطراز الأندلسي، على أنها تحتل موقع الجامع الذي أشار إليه صاحب الروض المعطر في وصفه المتقدم.

وفي متحف فارو الأركيولوجي، وهو يقع خارجها في نهاية شارعها الكبير الظليل Alameda في كنيسة سان أنتونيو، ثلاث لوحات عليها نقوش عربية وجدت كلها بمدينة شلب، أولها وأهمها لوحة رخامية إنشائية طولها ٩٦ سنتيمتراً، وعرضها ٣٤ سنتيمتراً، وقد كتب عليها بالخط النسخ عشرة أسطر هذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله أمر ببناء هذا البرج الوحيد من.. أمير المؤمنين عبد الواحد.. (بن) الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي تقبل الله حسبه وتجاوز مرسل ربه أرائكه في شهر رمضان المعظم عام أربعة وعشرين وثمانمائة".

والظاهر أن البرج الذي تشير اللوحة إلى إنشائه هو من أبراج حصن شلب، وأن مؤسسه، وهو من أمراء الموحدين، كان والياً لشلب في هذه الفترة.

ولما اللوحتان الأخريان فهما من شواهد القبور العادية.

كذلك يوجد في متحف فارو بعض آنية وقطع من الفخار الأندلسي.

وميناء فارو قليل العمق، وهو لذلك لا يصلح إلا للإيواء السفن الصغيرة، ومعظمها من سفن الصيد، والصيد هو أهم صناعات فارو، وبها حي عظيم للصيادين يقع شمل الميناء. وتضم فارو من السكان اثنين وعشرين ألفاً.

## ٢ - شلب

### Silves

إن المنطقة التي تمتد من فارو أو شنتمزية الغرب إلى مدينة شلب، وهي أقصى مناطق ولاية الغرب البرتغالية، هي منطقة متباينة الطبيعة، تختلف بين البساط والثلل، ولكن تغلب عليها الخضرة، وتغطيها أشجار الزيتون بكثرة. ويبدو هذا القسم من ولاية الغرب أكثر نضرة وخصباً، من أي قسم آخر فيه، وتكثر فيه الحدائق والحقول البالعة، وتبدو فيه آثار العناية الفائقة بخدمة الأرض وتنسيقها، وحسن استغلالها.

دخلت إلى مدينة شلب في ضحى النهار، واخرقت أحباءها البسيطة الساحرة، ومخيلتي تضطرم بذكريتك بعيدة. أجل إن شلب هذه هي بلدة الشاعر الكبير أبي بكر بن عمر وزير المعتمد على الله العبداء، وقد ولد بقرية من أرباضها تسمى "شلبوس"<sup>(١)</sup>، ثم كان بعد ذلك حاكمها من قبل المعتمد. وكان المعتمد أيام شبابه، في عهد والده المعتمد، حاكماً لشلب (٥٥ هـ - ١٠٦٣ م)، وكان يعاونه في حكمها يومئذ أمينه أبو بكر بن عمار، وهو مثله فتى في عفتائه. وقد تركت حياة المعتمد في شلب، وما تغلب فيه في ربوعها الجميلة من مجالس اللهو والأنس، في نفسه ذكريات عميقة، تصورها لنا تلك الأبيات التي نظمها المعتمد مخاطباً لصديقه ورفيق صباه ابن عمار، حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها:

ألا حيّ أوطائي بشلب أبا بكر	وسلّهن هل عهد الوصال كما أنري
وسلّم على قصر الشرايين من فتى	له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم	فناهيك من غيل وناهيك من خدر
فكم ثيلة قد بت أنعم جنحها	بمخضبة الأرداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتي	فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل يمد النهر ليلاً قطعته	بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بانٍ منعّم	نضير كما انشق الكمّام عن الزهر

ويصف لنا صاحب القلائد، قصر الشرايين هذا وزوعته وبهائه، وما كان ينعم به المعتمد فيه أيام شبابه، من ضروب اللهو والسعادة، ثم يقول مشيراً إلى شلب:

<sup>(١)</sup> وهي اليوم قرية Estombar البرتغالية.

"وكان يعتدها مجنى أماله، ومنتهى أعماله، يميل إلى بهجة جنباتها، وطيب نفحاتها وهباتها، والتفاف خمائلها، وتقلدها بنهرها مكان حملتها"<sup>(١)</sup>.

ويفيض صاحب الروض المعطر في ذكر شلب وسقوطها في يد النصارى، واسترداد المسلمين لها، ويصفها بقوله:

"وعليها سور حصين، ولها غلات وجنات، وشرب أهلها من واديها الجاري إليها من جهة جنوبها، وعليه أرجاء البلد، والبحر منها في الغرب على ثلاثة أميال، والمدينة ذاتها حسنة البناء مرتبة الأسواق، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها"<sup>(٢)</sup>.

تلك هي شلب الأندلس التي ملأت ذكرياتها ذهني، حينما جرت إليها أقصى ملامحها الأندلسية.

وكانت شلب أيام عهدها الإسلامي قاعدة ولاية الغرب، وقد قامت بها أيام الطوائف دولة مستقلة في ظل بني مزين (١٠٤٨ - ١٠٦٣ م) ثم استولى عليها بنو عباد، وأصبحت جزءاً من مملكة إشبيلية. وفي عهد المرابطين قامت بها ولاية مستقلة، ثم استولى عليها الموحدون، وبقيت تحت حكمهم حتى انتزعها النصارى منهم سنة ١١٨٩ م، ثم استردها الموحدون في العام التالي، واستمرت في أيديهم حتى افتتحها النصارى من يد المنصور آخر ولاتها من الموحدين في سنة ١٢٤٢ م (٦٤٠ هـ)، وذلك في الوقت الذي فقد فيه المسلمون جنوبي البرتغال كله.

وشلب - وهي تنطق بالبرتغالية (سلش) Silves - مدينة صغيرة تقع في أقصى جنوبي البرتغال، على مقربة من المحيط فوق ربوة متدرجة، تشرف على نهر أراد Arade الذي يصب في المحيط، قرب ثغر بورتماو الصغير.

(١) فلكلوك العفیان ص ٣٢.

(٢) الروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٦.



شلب. منظر عام للحصن الأندلسي



شلب. أحد جوانب الحصن



شلب. بعض أبراج الحصن الداخلية



وتبدأ الربوة صاعدة من الوادي الذي يخترقه النهر، حتى تستوي مع الحصن، ودروبها قصيرة ملتوية، وأحيائها غير منسقة ولكن جميلة مؤثرة، ولها طابع خاص يغلب عليه القدم، ومظاهر العصور الوسطى، ومنازلها كثيرة الألوان ذات طابقين أو ثلاثة، وتحيط التلال العالية بالمدينة، إلا من ناحية مدخلها فوق النهر، حيث تقوم القنطرة العربية القديمة، وهي قنطرة حجرية ذات أربعة عقود، تصل المدينة بالطريق الكبرى. وهنا على جانبي المدينة تمتد البساتين الخضراء والحقول الياضية.

وفي شلب أثر أندلسي هام، هو حصنها القديم المنيع، وهو حصن كبير يشغل رقعة شاسعة، تدور حولها أسواره وأبراجه العديدة، في شبه دائرة. وتوجد من أبراجه ستة كاملة وعدة أخرى غير كاملة، وله مدخل ضخم معقود يفضي إلى ساحة كبيرة سقفها مقبى، وبرجه الكبير فوق المدخل ذو سقف معقود، وفي نهايته برج مسقوف آخر، وهو ظاهر المناعة، يقوم فوق صخرة عالية تشرف على المدينة كلها، والظاهر إنه كان يمتد إلى مسافة كبيرة أخرى؛ إذ يوجد على مقربة منه في طرف المدينة برجان آخران، وعقد كبير، وبقية أسوار، وهي كلها من نفس الطراز، ومن نفس الحجارة، والظاهر أيضاً أن الحصن (أو القصبه) كان يضم بين أسواره في نفس الوقت قصر شلب، الذي كان يقيم فيه الأمير أو الحاكم.

فهل تكون ثمة علاقة بين هذا الأثر، وبين قصر الشراحيب الذي تغنى به ابن عبد في شعره المتقدم؟ وهل يكون موقع الحصن متضمناً لموقع القصر المذكور؟ ربما.

وبدل موقع الحصن وأسواره السفلى، ومظاهرها كلها، على ما كانت تتمتع به مدينة شلب في العصور الوسطى من المنعة، وقد كانت في الواقع من أقوى وأمنع المدن الأندلسية الذائبة، ولها أسوار وقلاع عظيمة.

وقد كان هذا الحصن الأندلسي يستعمل في العصر الحديث سجناً.

وتقع الكنيسة العظمى في مواجهة الحصن، على نفس الربوة من ناحية المدينة، وهي كنيسة صغيرة عتيقة ذات مدخل وعقود قوطية، وقد كانت من قبل كاتدرائية، وشيدت فوق موقع جامع شلب منذ سقوط المدينة لأول مرة في يد النصارى في سنة ١١٨٩ م.



شلب. الكنيسة العظمى

ويوجد في وسط المدينة طلل قديم، هو عبارة عن ثلاثة عقود متصلة عالية، يتلوها في طريق الحصن عقد خفيض، وتتصل بهذه العقود أجزاء من سور قديم هو فيما يرجع سور المدينة الأندلسية القديمة. والظاهر من تجمع أحياء شلب الحديثة بين النهر وبين أسفل الزبوة، ومن مظاهر دروبها الصخرية الصاعدة نحو الحصن أو القصبة، أنها تحتل مواقع المدينة الأندلسية دون تغيير كبير.

وشلب مدينة كثيرة الحركة والنشاط بالرغم من صغرها، وتضم من السكان نحو اثني عشر ألفاً.

## ٣ - باجة

### Beja

تقع باجة في النصف الجنوبي لولاية "النتيجو" Alentejo، جنوب شرقي لشبونة. وتمتاز هذه المنطقة بتباين الطبيعة فيها، ففي جنوب ولاية "النتيجو" مما يتصل منها بولاية الغرب، تكثر التلال والرقاع الجرداء، ولكن يلاحظ دائماً أن أثر اليد العاملة هنا، وفي سائر بقاع البرتغال، أكثر ظهوراً منها في البقاع الإسبانية المماثلة، سواء في البساتين أو في المرتفعات، حيث تنمو الأشجار دائماً، والمحاصيل أحياناً فوق التلال المتدرجة. وفي جنوب باجة مباشرة تكثر البساتين الخضراء. ويلاحظ أن التربة هنا سوداء، والأشجار قليلة، ومعظم الرقاع حقول يانعة تغطيها المحاصيل المختلفة.

وباجة مدينة قديمة جداً، وقد كانت في العصر الروماني تسمى Pax Julia، ومن ثم كان الاسم الذي اختاره لها الفاتحون المسلمون. وتعرف الرواية الإسلامية هذه الحقيقة، وتعرف معنى اسمها الروماني، فقد ذكر لنا صاحب الروض المعطر في كلامه عن باجة ما يأتي:

"ومدينة باجة أقدم مدن الأندلس بنياناً، وأولها اختطاطاً، وإليها انتهى يوليس القيصر، وهو الذي سماها "باجة". وتفسير "باجة" في كلام العجم "الصلح". وحوز باجة وخطتها واسعة، ولها معقل موصوفة بالمنعة والحصانة" (١).

وقد ذكرت حينما وصلت إلى باجة اسمين شهيرين يتصلان بتاريخها، وينتسبان إليها، أولهما عائش صاحبه في عصر الفتح الإسلامي، هو الحبر العلامة إيزيدور "الباجي"، وهو الذي ترك لنا باللاتينية رواية ضافية عن حوادث الفتح وما تلاه حتى سنة ٧٥٤ م، وثانيهما العلامة الأندلسي الإمام القاضي أبو الوليد الباجي، سليمان بن خلف شارح كتاب "الموطأ"، والمتوفى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م).

وقد سقطت باجة في يد النصارى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م)، في الوقت الذي هاجم فيه البرتغاليون، بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكز، مدينة بطليوس لأول مرة، فاستولوا عليها، ثم

(١) الروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ٣٦.

استردها المسلمون منهم على الفور، واحتفظ النصارى بمدينة باجة، وافتحوا في نفس الوقت مدن البرتغال الوسطى، وفي مقدمتها مدينة لشبونة (لشبونة).

وباجة مدينة كبيرة تبدو شابة عابسة قوية، وتقع فوق ربوة صخرية مرتفعة، وهي من الداخل حديثة المظهر، بها شوارع وميادين شاسعة جميلة، وبها كذلك طائفة من الدروب القديمة الضيقة، ولكنها أنظف من أمثالها من دروب المدن الإسبانية الأندلسية وأوسع، وهي قليلة الحركة قليلة المتاجر والمقاهي، وشوارعها صاعدة، وناحيتها الشمالية منحدره نحو الوادي، ومصعدة نحو داخل المدينة، وربوة الحصن. وفي باجة من السكان نحو ثلاثين ألفاً.

\* \* \*



والحديث عن الآثار الأندلسية في باجة ذو مجال ضيق. والواقع إن باجة لا تضم كثيراً من الآثار القديمة.

هناك من هذه الآثار عقدان قديمان وبقيّة أسوار. فأما الأول فهو العقد المسمى الباب الأندلسي Porta Moura، وهو قوس ضخّم يقع شمال المدينة عند مخرجها نحو الوادي، يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، وعرضه نحو ستة، وسمكه نحو مترين، وهو مبني من الحجارة الصلدة القوية، وإلى يساره بقية من سور قديم، ويبدو من اسم هذا العقد ومن طرازه، أنه من أبواب المدينة الأندلسية القديمة، وأن ما يتصل به من الأسوار، إنما هو بقية من أسوارها.

باجة. عقد "بابرة"

والثاني هو العقد المسمى "عقد بابرة" Arco de Évora، وهو عقد صخري قديم، يقع تجاه برج الحصن الكبير، الذي نتحدث عنه بعد، والمرجح في شأنه أنه يرجع إلى أصل روماني.

وقد رأيت في باجة عقدين آخرين؛ أحدهما عقد عريض مزدوج، يقع على مقربة من دير كونسيسوا، ويبدو من طرازه العربي، أنه من أبواب المدينة الأندلسية، والثاني يقع على مقربة من دار البلدية، ويبدو أنه حديث نوعاً، كما يوجد عقد ثالث في نهاية المدينة من الجنوب، يبدو كذلك أنه يرجع إلى العصر النصراني.

وأهم صروح باجة الأثرية هو بلا ريب حصنها الواقع في طرفها الغربي، على ربوة عالية تشرف على الوادي المجاور. وهو حصن متوسط الحجم أسس سنة ١٣٠٢ م، في عصر الملك دنيس، على أنقاض حصن روماني سابق، وربما أيضاً على أنقاض حصن أندلسي، سبق

تشبيده على أنقاض سلفه الروماني، ويبدو عليه طابع الحصون النصرانية، وله برج كبير يرسو على الأرض يبلغ ارتفاعه واحدًا وأربعين مترًا، وقد عُملت في وسطه نوافذ معقودة فوق عقد كل منها فراغ في شكل الصليب، وقبل نهايته بنحو خمسة أمتار توجد مشرفة تدور حوله، ومنها ترى المدينة في أروع مناظرها.

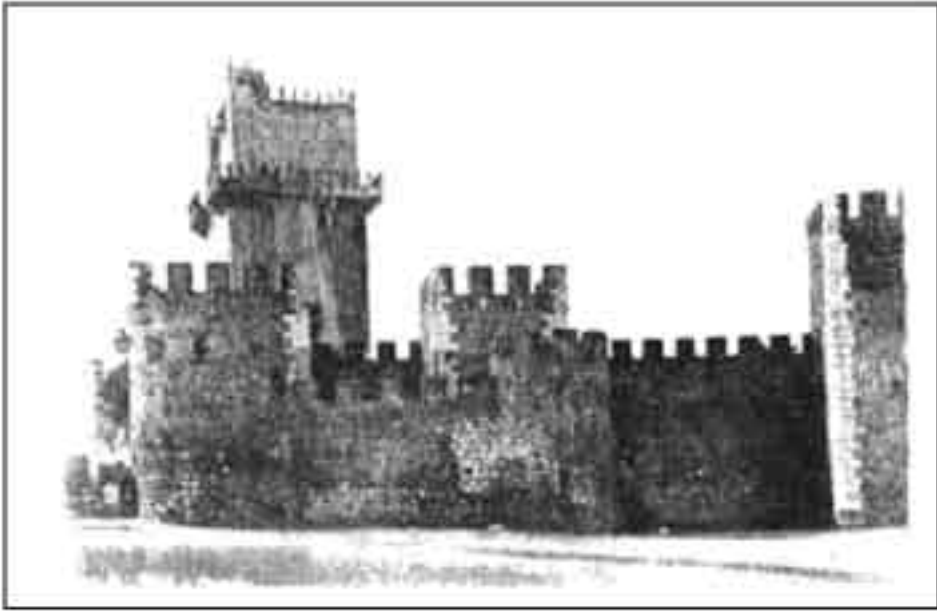
ويقال إن قسم الحصن الواقع في ناحيته اليمنى، والمواجه لكنيسة سانتياجو القريبة، يرجع إلى العصر الأندلسي، وفيه برج كامل يليه برج آخر، وله فناء ذو مدخل معقود.

وتبدو باجة من أعلى البرج الكبير، مبنية ضخمة مستديرة الرقعة، عالية المباني، واقعة فوق ربو قليلة الارتفاع، ومن حولها بسائط شاسعة، تغطيها المحاصيل، ويُرَى النخيل ظاهرًا في بعض أماكنها الداخلية، وتبدو كنائسها القديمة المسماة سانتا ماريّا في طرفها الشرقي، مقابل الحصن الذي يقع بعيدًا في طرفها الغربي.

وكنيسة سانتا ماريّا هذه هي أقدم كنائس باجة، وهي كنيسة العظمى، وهي صغيرة الحجم، ولكن فخمة ذات عقود قوطية عالية وزخارف جميلة، وتقع في منخفض قريب من السوق، ومن دير "كونسيسوا" الذي نتحدث عنه بعد.

وتوجد ثمة عدة كنائس أثرية أخرى، منها كنيسة سان أندريس وهي صومعة ذات طراز روماني وأعمدة خارجية، وتقع في طرف المدينة بعد الحصن، وكنيسة سانتياجو، وهي حديثة وتقع بجوار الحصن؛ وكنيسة الرحمة "سركورديا"، وهي عبارة عن مربع معقود في كل ضلع من أضلاعه ثلاثة عقود مسجدية الطراز، وليس لها صحن ولا برج أجراس، وتقع في ميدان البلدية.





باجة. منظر عام للحصن



باجة. عقد داخل المدينة



باجة. كنيسة الرحمة ذات العقود العربية

وتوجد في متحف باجة طائفة من التحف الأندلسية. ويقع هذا المتحف في الدير المسمى دير "كونسيبسيون" Concepción، وهو دير قديم له صحن مربع على الطراز القوطي، وقد زينت جدرانه بالزليخ الموريسكي المجلوب من إشبيلية، وفي دخله مصلى مستطيل زينت جوانبه بزخارف وتمائيل مذهبة، ترجع إلى عصر الإحياء.

وقد رأينا بين معروضات هذا المتحف عدة قطع أندلسية، منها في الطابق الأسفل:

- ١- قطعة حجرية هي جزء من شاهد قبر، عليه كلمات عربية مبتورة.
  - ٢- لوحتان أخريان من شواهد القبور، أولاهما شاهد قبر امرأة توفيت سنة ٤٤٠ هـ، وثانيهما شاهد قبر لرجل توفي في سنة ٥٦١ هـ، وهي لوحة غير كاملة ومكتوبة بأحرف كوفية.
  - ٣- بضع قطع من الفخار الأندلسي، وبضع لوحات من الموزايك الموريسكي.
- ورأينا في بهو الدير الأعلى أربع لوحات خشبية عليها كتابات عربية، ثلاثة منها سطرت عليها آيات قرآنية، والرابعة كتبت عليها بعض أدعية إسلامية.
- ومجموعة من الآنية الخزفية اللامعة ذات الزخارف البديعة، وهي ترجع إلى عصر الموريسكيين.

#### ٤ - يابرة

#### Evora

يابرة هي عاصمة ولاية "النتيجو"، وهي مثل باجة ترجع إلى العصر الروماني حيث كانت تسمى Eborac، وما زالت تقوم بها بعض الآثار الرومانية الهامة.

وتقع يابرة شمالي باجة، وجنوب شرقي لشبونة، على مقربة من مدينة بطليوس، وبينها وبين باجة منطقة شاسعة من البساتين الخصبة، تغطيها المحاصيل المختلفة، وأشجار الزيتون.

وقد كانت يابرة أيام الطوائف، من أعمال مملكة بطليوس، التي حكمها بنو الأفطس حينئذ، حتى سقطت دولتهم بسقوط بطليوس في أيدي المرابطين سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م)، وقتل المرابطون آخر ملوكها عمر المتوكل وولديه، وكانت ملأمة مروعة نظم في رثائها الشاعر الكبير، عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) قصيدته الشهيرة التي مطلعها.

الدهر يفجع بعد العين بالآثر      فما البكاء على الأشباح والصور  
أنهك أنك لا آلوك موعظة      عن نومة بين ناب الليث والظفر

وابن عبدون هو من أهل يابرة، وما زال اسمه يقرن باسمها، في كتب التاريخ والأدب البرتغالية.

وقد سقطت يابرة في يد النصارى سنة ١١٦٥ م (٥٦١ هـ)، استولى عليها بطريق المباحنة الفارس جيزالو سمبافور (الباسل)، في جماعة كبيرة من المتطوعين النصارى والمستعمرين والمغامرين، ثم سلمها بعد ذلك للملك ألفونسو هنريكيز، فصارت جزءاً من مملكة البرتغال الناشئة. وحاول الموحدون استعادتها بعد ذلك، بقيادة السلطان يعقوب المنصور، فامتنعت عليهم وبقيت في حوزة النصارى.

\* \* \*

ويابرة مدينة كبيرة جميلة منسقة الشوارع، فسحة الميادين، غنية بالمنشآت الأثرية، من كنائس وقصور وعقود وغيرها، ويوصل إليها خلال شارع طويل تظله الأشجار، وتتفرغ منه شوارع جانبية ضيقة أيضاً، وعلى جانبيه عند مدخل المدينة حدائق غناء، وشوارعها على العموم طويلة مشرقة، والدروب في أحيائها الشعبية ضيقة، ولكن نظيفة. وأكبر وأجمل

مياينها ميدان جبرالدو، وهو اسم فاتحها، وميدان الكندرية، وبها متنزّه عظيم أسفل القصر الملكي السابق، ومما يلفت النظر أنها تضم عدة شوارع ذات جوانب معقودة متصلة. وهذا الطراز من الشوارع يسبغ عليها طابعاً خاصاً، كذلك يوجد بها كثير من الشوارع الصاعدة، التي تذكرنا بالدروب الأندلسية القديمة في المدن الإسبانية، واللون الأبيض غالب على أبيّتها. وتشغل يابرة رقعة كبيرة من الأرض مستديرة تقريباً، ومعظمها قائم على بسيط مستوٍ، إلا بعض أحياء قليلة منها، مثل الحي الصاعد الذي يتجه نحو الكندرية، والحركة في شوارعها هادئة، منتظمة، ويبلغ سكانها زهاء خمسة وثلاثين ألفاً.

ويوجد في يابرة طائفة من الآثار الرومانية الهامة، أولها: معبد روماني يرجع إلى القرن الثالث الميلادي، وهو عبارة عن مربع تقوم فيه ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية الجميلة، ويسمى "معبد ديوتا" وهو اسم حديث نوعاً، والمعبد في مجموعه يديع المنظر، ويعتبر من أروع الآثار الرومانية في شبه الجزيرة الإسبانية وأكثرها سلامة وجدة، وهو يقع فوق بقعة مرتفعة على مقربة من الكندرية.

وثانيها: القنطرة الرومانية لجلب الماء وسط المدينة، وقد بقيت منها عقود كثيرة في صفيّين، ولكن معظمها قد أدخل في الأبنية المجاورة، ولم يبق مفتوحاً منها سوى ثلاثة عقود، اثنان منها في اتجاه واحد في اتجاه آخر، وتقع هذه القنطرة قرب دار البريد.

وثالثها: العقد الروماني الواقع بجوار دار البريد من الناحية الأخرى، وهو المسمى عقد دونيا إيزابيل، وهو عقد صخري منيع منخفض، يبلغ عرضه أربعة أمتار وارتفاعه أربعة ونصف، وهو مثلك الأقواس، وفوقه بقية ضئيلة من أسوار قديمة. والمقول إنه من أبواب الأسوار الرومانية القوطية التي كانت تحيط بالمدينة، والتي أصلها المسلمون واستخدموها فيما بعد. أما اسمه الحالي وهو عقد "دونيا إيزابيل"، فيرجع إلى مجاورته لدار كانت لصاحبة هذا الاسم.

وأما عن أسوار يابرة القديمة، فإنه يوجد منها جزء صغير داخل المدينة، على مقربة من مؤخرة الكندرية، وبها عقد. وقد تعذر علينا البت في أمرها؛ نظراً لأنها قد غطيت بالبياض. ولكننا نرجح أنها من الأسوار التي كانت قائمة في العهد الإسلامي، سواء أكانت في الأصل رومانية أو قوطية.



بابرة. عقود القنطرة الرومانية



بابرة. واجهة الكنيسة العظمى



بابرة. الصحن الملاصق للكنيسة العظمى ذو العقود والمشارف العربية



وترجع كنيسة يابرة العظمى (الكندرية) La Sc. إلى أواخر القرن الثاني عشر. والظاهر أنها أقيمت في البداية على موقع المسجد الجامع عقب افتتاح النصارى للمدينة، يدل على ذلك موقعها وسط المدينة، فوق مرتفع من الأرض، وفي قلب الأحياء القديمة.

ثم قامت مكانها الكندرية الحالية منذ القرن الثالث عشر، وهي كنيسة عظيمة فخمة ذات عقود قوطية عالية، كثيرة الزخارف الذهبية، وقد لفت نظرنا أن رواقها الأعلى الدائر حول عقودها، قد زين بالشرفات العربية الجميلة، وكذلك زينت أروقة الجانبين عن يمين الهيكل ويساره بمثل هذه الشرفات، وهو ما يدل على أن الفن الأندلسي، أو بعبارة أصح الفن المدجني، كان ما يزال قوي التأثير في العمارة النصرانية.

وثاني كنائس يابرة في الأهمية والقدم هي كنيسة سان فرنسيسكو، وهي ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر، وقد بُنيت على طراز خاص، فأقيمت عقودها في الجانبين على مثل عقود الجامع، وعُملت في جوانب العقود الكبيرة عقود صغيرة، وصحنها عبارة عن بهو قوطي طويل، يمتد من الباب حتى الهيكل، وهي بادية الزوعة والفخامة.

وتوجد ثمة عدة كنائس وأديرة أثرية أخرى، منها دير وكنيسة "لاجراسا" La Graça. وهو صرح يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر، وقد خربت الكنيسة وحُوِّلَ الدير إلى تكتلة عسكرية، وله صحن أندلسي جميل ذو عقود عربية وأعمدة رشيقة. وكنيسة سان براس، وهي ترجع إلى القرن الخامس عشر، وهي عبارة عن معبد، يبدو بعقوده وجناباته المستديرة على شكل قلعة، ويقع خارج يابرة، في طريقها الكبير الظليل.

وفي يابرة جامعة قديمة يرجع إنشاؤها إلى القرن السادس عشر، وهي عبارة عن كنيسة واحدة للآداب، ولها فناء جميل ذو جوانب معقودة على الطراز الأندلسي.

ومتحف يابرة الإقليمي غني بالآثار الرومانية من تماثيل ولوحات ونولويس وغيرها، وبه كذلك طائفة حسنة من آثار عصر الإحياء. وقد رأينا فيه من الآثار الأندلسية ثلاث لوحات من الرخام، عليها كتابة وزخارف عربية من آيات قرآنية وغيرها، كما رأينا رأس عمود صغير ذي زخارف عربية.

## ٥ - لشبونة

Lisboa

إن مدينة لشبونة أو لشبونة (بالبرتغالية لشبوا) عاصمة البرتغال، هي بلا ريب من أجمل وأحدث العواصم الأوروبية.

والتحدث عن العاصمة البرتغالية، وعن ضواحيها ومظاهرها العمرانية الحديثة، وعن تنسيق خططها، وضخامة أحيائها وميادينها، يقتضي إضافة لا يتسع لها موضوع هذا الكتاب، الذي نحاول أن نتقصى فيه الآثار الأندلسية الباقية، وأن نؤثرها بالتعيين والوصف، ومن ثم فإننا نكتفي بأن نتحدث عن العاصمة البرتغالية الحديثة حديثاً سريعاً عابراً.

وتتمتع لشبونة بموقع طبيعي بديع على مصب نهر التاجه، في المحيط الأطلنطي، وتشغل سلسلة من التلال المتدرجة التي تقع غربي هذا المصب، ومن الغرب المدهش أن هذه العاصمة العصرية الجميلة، لا تصل إليها الخطوط الحديدية الممتدة من الجنوب والشرق (من إسبانيا) مباشرة، بل يجب أن تعبر إليها مصب النهر في سفينة بخارية. وقد آمنت مرارة هذه المفاجأة، حينما وصلت إلى لشبونة في المساء المتأخر، قادمًا من باجة وبابرة، وعجبت كيف تقصر البرتغال - هذه البلاد الغنية ذات الإمبراطورية الاستعمارية الضخمة لعانية<sup>(١)</sup> - عن أن تقيم لعاصمتها جسرًا حديثًا على مصب النهر، يربطها بالجنوب والشرق.

وتنقسم لشبونة إلى قسمين عظيمين، لشبونة الشرقية وتسمى "ألفاما" Alfama وهي المدينة القديمة، ولشبونة الغربية وهي المدينة الحديثة.

ولشبونة مدينة عظيمة حقًا، ووفرة الروعة والبهاء، ذات شوارع فسحة وميادين ضخمة، وأحياء عصرية جميلة، تغص بالصروح العالية الفخمة من أحدث طراز، وهي تضم عدة من الشوارع المدينة الضخمة، قلما يجتمع مثلها في عاصمة أوروبية متوسطة، مثل شارع "الأميرال ريس" و"شارع الجمهورية" و"شارع الهند" و"شارع ٢٤ يولييه" وغيرها. بيد أن أشهر شوارعها وأجملها، هو بلا ريب شارع الحرية Avenida da Liberdade الذي يخترق قسمها الحيوي، ممثلاً من ميدان المركز دي بومبال، وهو من أعظم وأبدع ميادينها، حتى

(١) شهدت وأنا بالهند (ديسمبر ١٩٦١) النهار أول حجر في صرح إمبراطورية البرتغال الاستعمارية، وذلك باستيلاء الهند على مستعمرة "جوا" لبرتغالية القديمة.

ميدان رسيو Rasio، ويمتاز شارع الحرية بسعته وجمال تنسيقته، وما يتوسطه من المتنزهات الظليلة الجميلة من أوله إلى آخره. وتجتمع أحياء الأعمال والتجارة على جانبي هذا الشارع الفخم، وحول ميدان رسيو، والميدان الذي يليه وهو ميدان "رستورادورس". وتجتمع في هذه المنطقة أعظم المتاجر والمقاهي والمنتديات، ويُرَى النخيل في مدينة لشبونة، في الميادين والشوارع والمتنزهات، وأحياناً في المنازل على نمط ما هو حادث في المدن الإسبانية الجنوبية.

ويبلغ سكان هذه العاصمة الضخمة أكثر من سبعمائة ألف نسمة.

تلك هي مدينة لشبونة الحديثة. ومن بعد هذين الميدانين العظيمين رسيو ورستورادورس، نتجه المدينة شرقاً نحو النهر. ويخترقها في هذا القسم عدة من الدروب والأحياء التاريخية القديمة. وهذا القسم من لشبونة هو الذي يسمى "ألفاما" حسبما تقدم وهو الذي يهمنا هنا.

\* \* \*

والواقع إن لشبونة مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني، وكانت عندئذ تسمى "اليسيبو" Olisipo، فلما افتتحها المسلمون عقب فتح إسبانيا بقليل، سموها "الأشبونة" أو "أشبونة"<sup>(١)</sup>، وكانت أيام الدولة الإسلامية تابعة لكورة باجة. وحكمها المسلمون زهاء أربعة قرون ونصف. ثم استولى عليها البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكي في سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ)، بعد حصل دام بضعة أشهر، وكان يعاونه عندئذ في قتال المسلمين جماعات من المتطوعة الصليبيين من الإنجليز والهولنديين، الذين كانوا في طريقهم إلى الشام. وفي سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) حاول الموحدون بقيادة السلطان يعقوب المنصور استعادتها، فلم يفلحوا. ومما هو جدير بالذكر أن لشبونة، كانت أيام المسلمين، هي الميناء الذي خرج منه الإخوة المغررون في مركبهم لاستكشاف بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي)، وتتلخص قصة هذه المغامرة البحرية الشهيرة، التي ينفرد الشريف الإدريسي بذكرها في معجمه الجغرافي، في أن ثمانية إخوة أو أبناء عم، خرجوا من ثغر لشبونة، في مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفي لأشهر، وساروا في "بحر الظلمات" في اتجاه الغرب أحد عشر يوماً، ثم ساروا جنوباً مدى اثني عشر يوماً أخرى، في بحر كدر عالي الأمواج، حتى وصلوا إلى جزيرة بها أغنام كثيرة، لا تؤكل لحومها لمرارتها، فتركوها واستمروا في المسير نحو الجنوب، مدى اثني عشر يوماً أخرى، حتى لاحت لهم جزيرة، رأوا بها رجالاً عمالقة، ونساء فائقت في

(١) الروض المعطار ص ١٦

الحسن، فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أيامًا، حتى جرت الرياح الشرقية، فوضعهم في سفينة معصوبي الأعين، وسارت بهم أيامًا حتى رست في مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبي، ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة، أن أولئك المغامرين الأندلسيين، قد اكتشفوا بعض جزر الكناري، أو جزر الرلّس الأخضر الواقعة غربي السنغال؛ ويمكن كذلك إذا توسعنا في تقدير المدى الذي وصل إليه الإخوة المغرّرون في رحلتهم نحو الجنوب، وإذا تركنا جانبًا ما تدلي به قصة جزيرة العمالققة، أن نفترض أن الإخوة المغرّرين، ربما وصلوا في رحلتهم جنوبًا حتى مياه أمريكا الجنوبية الشرقية<sup>(١)</sup>.

ولا يوجد اليوم في لشبونة (الشبونة) ما يذكرنا بماضيها الأندلسي، سوى بعض أطلال دوارس، تجتمع فوق الزبوة العالية التي تتوسط قسمها الشرقي "ألفاما"، وبعض عقود قديمة تعين لنا موضع أسوارها الإسلامية. ولن يفوت الباحث المتجول في هذا القسم من لشبونة، أن يستشف من خواصه ودروبه الصاعدة ملامح المدينة الأندلسية.

فأما هذه الأطلال الدوارس التي تجتمع فوق الزبوة العالية في "ألفاما"، فهي أطلال القسبة الأندلسية القديمة، وهي التي تسمى اليوم بحصن القديس جورج Castelo da St. Jorge، وهي أطلال مازالت تحمل - برغم ما توالى عليها من التغيير والتعديل - ملامح طرازها العربي.



لشبونة. أطلال القسبة الأندلسية المسماة حصن القديس جورج

(١) راجع تفاصيل ذلك في نزهة المشتاق للشرّيف الإدريسي، المختصر (طبع رومنة) ص ١٨٢ - ١٨٥، وراجع مغلّالي في ذلك الموضوع نُشر في مجلة الهلال في عدد يولييه سنة ١٩٣٤.

وتشرف هذه الربوة على المدينة القديمة كلها، وتشرف على مصب نهر التاجه. وتقع أطلال الحصن في طرفها المشرف على النهر، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة مفرقة من العقود والأبراج والأسوار، ومدخل الحصن عقد عربي، وكذلك عقد مدخل الفناء الداخلي، الذي تحيط به أبراج الحصن. ويوجد ثمة بعد هذا الفناء الأول، فناء آخر يوصل إليه عقد ثالث. وأقدم أجزاء الحصن فيما يبدو، هو الجزء الواقع على يمين برجيه الرئيسي - برج المدخل - وهو الذي يبدو طرازه العربي واضحاً، وقد بقيت صفوف من سارياته الداخلية على حالها القديم، وأصلح البعض الآخر، وأضيفت إليه أبراج من صنع متأخر. وفيه صف من الغرف العليا، والسفلية التي تحتها من ناحية واجهة المدخل، يبدو أنها كانت تستعمل سجنًا في بعض العصور. وتوجد حول الحصن أطلال كثيرة مبعثرة هنا وهناك، مما يدل على أنه كان يشغل مساحة أكثر من تلك التي يشغلها الآن. وتقع خارج الحصن بقية سور قديم، يبدو أنه جزء من سور الحصن الخارجي، وأمامه عقد مجدد، ولكن الجزء الذي فوقه من السور يدل على قدمه، كما يدل على أنه كان مدخل الحصن من ناحية المدينة.

وتقدم مشارف الحصن من عل، منظرًا رائعًا لمدينة لشبونة، مطلة على نهر التاجه ومصبه ذي اللسان الداخلي، ويعتبر هذا الأثر اليوم أثرًا قوميًا، وتحيط به حديقة غناء. ويربط بين الكثرائية وبين حصن سان جورج الواقع فوق الربوة ممر سري، هو الذي كان يوصل بين الجامع والقصبة الأندلسية.

وموقع الكثرائية مكان الجامع في وسط لشبونة الشرقية (الفاما)، وهي التي مازالت تحتفظ بدروبها القديمة للصاعدة، يدل دلالة واضحة على أن خطط المدينة الأندلسية، كانت تشغل هذه الرقعة من المدينة الحديثة.

ويحدد نهاية المدينة الأندلسية إلى اليوم، عدة عقود قديمة تقع على مقربة من النهر في خط متصل، مما يدل على أنها كانت من أبواب المدينة الإسلامية. وهذه العقود هي:

١- العقد المسمى "بالعقد المظلم" Arco Escuro وهو يقع في نهاية المدينة على النهر، وهو قوس عتيق عمقه نحو أربعة أمتار.

٢- عقد أبواب البحر Arco das Pottas do Mar وهو يقع على مقربة من العقد الأول، وفي صفه على استقامته، وهو يضارعه في الطراز، ولكنه أعمق منه قليلًا.

٣- عقد يسوع Arco da Jesus، وهو يبعد عن العقد الثاني بنحو مائتي متر، وهو أوسع من قريبيه وأعمق منهما، يبلغ عمقه نحو ثمانية أمتار، ومن ورائه ربوة عليها دروب ومسالك عتيقة ضيقة.

ويقع الحصن أو القصبة على بُعد من هذه العقود في اتجاه الغرب.

ويحتفظ متحف لشبونة الأركيولوجي، بمجموعة من النقد الإسلامي الأندلسي.





عقد أبواب البحر أحد أبواب الأندلسية



لشبونة. الكنيسة العظمى



لشبونة. كنيسة سان جيرونيمو

ومعالم لشبونة الأثرية الأخرى من دينية وغيرها لا تقع تحت حصره وليس هنا مكان  
التحدث عنها. ونكتفي بأن نختم هذه الإلمامة الموجزة، بالإشارة إلى كنيسة "سان جيرونيمو"  
الواقعة خارج المدينة الحديثة، وهي من أعظم وأروع الكنائس التي شيدناها، وقد بنيت على  
الطراز القوطي، وزينت بأجمل زخارف عصر الإحياء، ولها واجهة عظيمة من أروع ما  
نرى العين. وفي داخلها فناء جميل شامع ذو عقود قوطية، وهو القسم الذي كان مخصصاً  
للدير، وبها مقابر طائفة من عظماء البرتغال، مثل الرحالة فاسكو دا جاما، والشاعر كامويس  
وغيرهما.

ونختتم أخيراً بالإشارة إلى متحف الركائب الملكية، وهو في الواقع فريد في نوعه،  
يضم طائفة كبيرة من العربات الملكية المذهبة، من كل طراز، ومن كل عصر.

## ٦ - شنترة

### Cinta

هي مدينة صغيرة تقع شرقي لشبونة، على قيد خمسة وعشرين كيلو متر منها، وتعتبر من ضواحيها.

وتقع شنترة في سفح جبل عالٍ، في بسيط رائع تغطيه الخضرة الينعة، والحدائق الغناء، وتتمتع بموقع طبيعي ساحر. وقد جعلت منها مناظرها الطبيعية الجميلة، وجوها البديع، مقصد المتنزهين، والمنتجعين للراحة والاستجمام.



شنترة. منظر عام للحصن الأندلسي في أعلى الربوة

والظاهر إنها كانت تتمتع على كر العصور، بهذه الخواص الطبيعية الجذابة. فقد جاء في وصفها في الروض المعطر ما يأتي:

"من مدائن الأشبونة بالأندلس على مقربة من البحر، ويعشاها ضباب دائم لا ينقطع، وهي صحيحة الهوى، تطول أعمال أهلها، ولها حصنان في غاية المناعة"<sup>(١)</sup>.

(١) الروض المعطر ص ١١٢.



شنترة. مصلى قصر الحراسة، وكان مسجداً قديماً



شنترة. عقود الحمامات بقصر الحراسة

وتغنى بجمالها شعراء العصر الحديث، وفي مقدمتهم كموتيس شاعر البرتغال الأكبر، ولورد بيرون وغيرهما.

وكانت شنترة في العهد الإسلامي كما هي اليوم صاحبة أشبونة الجميلة، وقد لبثت في أيدي المسلمين أكثر من أربعة قرون، ثم سقطت في يد النصارى فيما يرجح في نفس الوقت الذي سقطت فيه لشبونة؛ أعني في سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ).

وما زالت شنترة تضم بعض المعالم الأندلسية الأثرية، وأهمها الحصن الأندلسي Castelo de Mouros، وهو يقع في أعلى الجبل الذي تقع المدينة في سفحه، ويشرف عليها من ارتفاع شاهق، على نمط القسبة الأندلسية، وما زالت أسواره وأبراجه الخارجية في حالة جيدة. ولكنه مهتم من الداخل، وفيه بقية مسجد خرب.

ويقع إلى يمين الحصن فوق الجبل قصر "بينا"، وهو حديث النشأة، يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، وكان مقامًا للبرنس فون كوبورج.

ويقع في أسفل الجبل في السفح الذي يطل عليه الحصن، أجمل صرح أثري في شنترة، وهو وإن لم يكن أندلسي النشأة، إلا أنه قد بُني على طراز أندلسي فائق، ويطلق على هذا الصرح اسم "قصر الحراسة الوطني" P. Naçional de Vila ويرجع بناؤه إلى القرن الرابع عشر.

ويضم هذا القصر عدة أبناء وغرف أندلسية الطراز، منها قاعة الطعام، وقد زينت جدرانها بالزليخ "القيشاني" الأندلسي الجميل، وفي وسطها نافورة، وبها زلعة عربية، وسقفها مزين بالمقرنصات الخشبية العربية. ومنها بهو الاستقبال الكبير، وقد زين عرشه بمقرنصات عربية، وله مشرفة جميلة ذات عقود عربية تطل على المدينة.

ويوجد في وسط القصر مصلى كبير مسقف بالخشب المقرنص، وفي صدره عقد، وقيل لنا إنه كان مسجدًا خاصًا، فحوّل إلى مصلى نصراني، وقد يبدو من هيئته وطرازه ما يؤيد ذلك القول.

وفي فناء القصر توجد نافورة وحمام على الطراز العربي، ذو ثلاثة عقود رخامية جميلة.

ويبدو قصر شنترة على وجه العموم، إسلامي الطراز في سائر جنباته ومظاهره، وهو يدل على ما كان للفن الأندلسي، من عظيم الوحي والتأثير في تلك العصور.



## ٧ - شنترين

### Santarem

ذكرت، ولنا أسير وثيداً في الطريق الجبلي الصاعد إلى مدينة شنترين، إنها الكاتب الأندلسي الأشهر، ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب "الذخيرة"، الذي وضع مصنفه التاريخي والأدبي الرائق، قبل سقوط شنترين في أيدي النصارى بأعوام قلائل، وغادرها حسبما يحدثنا في مقدمة "الذخيرة" إلى إشبيلية، مضطرب الأحوال، كبير الفؤاد، قبل أن تقع الطامة، وتسقط المدينة في أيدي القوى المتربصة بها<sup>(١)</sup>.

وشنترين مدينة قديمة ترجع إلى العهد الروماني، وهي من مدن ولاية إسترماندوره البرتغالية، تقع في شمل شرقي لشبونة على قيد خمسين كيلو متراً منها، على الضفة اليسرى لنهر التاجه. وكانت أيام المسلمين نظراً لحصانة موقعها في منعطف النهر، من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى، ولها في ميدان الجهاد تاريخ مؤثر، فقد سقطت في يد النصارى لأول مرة في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م)، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة، ولكن المسلمين استردوها، واستمر سلطانهم بها عصرًا آخر. ولما أشتت ساعد مملكة البرتغال الناشئة، وأخذ ملكها ألفونسو هنريكيز، يغير على المدن الإسلامية المجاورة، كانت شنترين من المدن التي استولى عليها، وكان سقوطها في يد النصارى للمرة الثانية سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ)، وفي سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) حاول الموحدون استردادها بقيادة الخليفة أبي يعقوب يوسف، ففشلت المحاولة وقُتل أبو يعقوب تحت أسوارها، أو توفي بعد ذلك بأيام قلائل من الجراح التي أصابته في الموقعة.

وتحتل شنترين ربوة عالية تطل على بسائط خضراء يانعة، تغطيها المحاصيل والحدائق وعلبات الزيتون، وهي مدينة متوسطة الحجم مشرقة الطالع، بها شوارع وميادين حسنة، وشوارعها الجانبية ضيقة، ومنازلها منخفضة ذات طابق أو اثنين وأحياناً ثلاثة، وهي هادئة الحركة، جافة الهواء. ويبلغ ارتفاعها فوق سطح الوادي نحو ثلاثمائة متر، ويبلغ سكانها حسبما علمت أربعة عشر ألف نسمة.

ويقع قسم من المدينة على ربوة مقابلة أخرى، أقل ارتفاعاً من الربوة الرئيسية، وتقع بعض أحيائها على السفح المنحدر نحو السهل.

(١) مقدمة الذخيرة (طبعة جامعة القاهرة) ص ٨.

وتبدو شنترين على وجه العموم ذات طابع خاص، وترتسم على دروبها الضيقة الرطبة الآخذة من شارعها الرئيسي، ملامح المدينة الأندلسية بالرغم من ثوبها النصراني، وإنه ليخالجك هذا الشعور بنوع خاص، حين تنحدر إلى أزقتها الصاعدة الضيقة وتتأمل طراز منازلها القديم، وأكثر ما يبدو هذا الطابع قوة في الأحياء الواقعة على الزبوة الصغرى.



وما زالت شنترين تحتفظ ببعض معالمها الأثرية الأندلسية، فهناك من أسوارها القديمة، قطعة كبيرة في حالة جيدة تتكون من زاويتين، وتقع في طرف المدينة الشمالي، وراء الكنيسة العظمى، وعلى مقربة منها توجد قطعة أخرى، تحد الآن منتزه المدينة الواقع خارجها، ولكن ما بقي منها لا يتعدى ارتفاعه نحو مترين ولا يتعدى طوله مائة متر. وتشرف الزبوة التي يحيط بها السور والتي يتوسطها المنتزه الكبير، على نهر التاجه قبالتها، وهو يجري تحتها وينحني عندها.

شنترين. بقية من الأسوار الأندلسية

ويوجد تحت السور في نهاية الحديقة، عقد عربي يسمى عقد "أتمارما" Arco d'Atamrma، ويقال إنه هو الباب الذي دخل منه الملك ألفونسو هنريكس المدينة، عقب سقوطها في يد النصاري.

كذلك توجد قطعة ثالثة من الأسوار القديمة، في طرف المدينة عند مدخلها، وهو مما يحدد موقعها القديم.

أما بالنسبة للكنائس فإن شنترين تضم عدة كنائس أثرية، منها الكنيسة العظمى المسماة كنيسة سان فرانسكو، وهي كنيسة كبيرة ذات عقود عالية قوطية الطراز، وهي قديمة ترجع إلى القرن الثالث عشر، وقد جددت كلها، ولكن إفريز مدخلها قديم جدًا، والظاهر من موقعها في طرف المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية، أنها بنيت فوق موقع جامع القصب، التي كانت تحتل هذه البقعة.



شنترين. أطلال القسبة الأندلسية خارج المدينة،  
وهي المسماة اليوم "إيواب الشمس"



شنترين. كنيسة الكسوف من الداخل

ومنها كنيسة "الكسوف" Alcaçovas وهي أقدم كنائسها، وقد أنشأها فرسان المعبد (الدوية) منذ عصر الفتح النصراني، أي في منتصف القرن الثاني عشر، وتقع في طرف المدينة الشرقي، وهي ذات عقود عربية.

ومنها أيضًا كنيسة القديس يوحنا Sao Joao، وهي اليوم متحف، ويذل برج أجراسها الذي هو منارة مسجد قديم، على أنها بنيت فوق موقع هذا المسجد. وكنيسة "بيدادي" Piedade، وهي صرح صغير ذو عقود عربية.

وشمة أثر آخر يقع خارج المدينة في شمالها الشرقي، على مقربة من الأسوار القديمة يسمى نافورة فجييراس Figueiras، وهو عبارة عن بناء يتكون من ثلاثة عقود، اثنان جانبيان والثالث في الواجهة، وعليه قبة قوطية، وتحته نافورة ماء، وهو أثر نصراني يرجع إلى القرن الثالث عشر.

## خاتمة



## ١ - تراث الأندلس الفكري

لا بد لنا ونحن نتحدث عن الآثار الأندلسية الباقية، أن نتحدث عن تراث الأندلس الفكري الذي أبقت عليه يد الزمن إلى يومنا، كما أبقت على الصروح والآثار التي وصفناها فيما تقدم، من فصول هذا الكتاب. ولنا نعتي بتراث الأندلس الفكري هذا، ما حققه مسلمو الأندلس من ضروب التقدم في ميدان العلوم والآداب والفنون، فإن الكلام في ذلك هو من صميم البحث في نواحي الحضارة الأندلسية، وإنما نقصد أن نشير إلى مجموعات الكتب، التي ورثتها إسبانيا عن الأمة الأندلسية، والتي مازالت إلى اليوم محفوظة بها.

ولا مرأى في أن أعظم مجموعة من هذا النوع، هي مجموعة الكتب العربية بمكتبة الإسكوريال. ولهذه المجموعة الفريدة من تراث المكتبات الأندلسية، قصة مؤثرة أيضاً. فإليه لما سقطت مدينة غرناطة آخر الحواضر الإسلامية في يد الإسبان في فاتحة سنة ١٤٩٢م، كانت ما تزال غاصة بالمكتبات والمجموعات الخاصة، من نفائس التراث الأندلسي، هذا عدا ما كان محفوظاً في غيرها من المدن الإسلامية الأخرى، التي افتتحها الإسبان في هذا الوقت، مثل وادي آش ومالقة وألمرية ورندة وغيرها. وفي سنة ١٤٩٩ أعني بعد سقوط غرناطة بأعوام قلائل، بدأت السياسة الإسبانية في تنفيذ خططها المبيتة في تنصير المسلمين، والقضاء على مقوماتهم الروحية والفكرية والاجتماعية، فدعاهم إلى التنصير وتوسلت إلى فرضه عليهم بمختلف الوسائل. ورأى الكاردينال خميس مطران طليطلة، وبطل هذه السياسة الموضوعية، أن يقرن هذه المحاولة بمحاولة القضاء على آثار التفكير الأندلسي، لكي يحرم أبناء الأمة المغلوبة، من قوتهم الروحي والعقلي، فأمر بجمع آثار التفكير الأندلسي من أنحاء غرناطة وغيرها، وجمعت الكتب الأندلسية أكدلاً مكنسة في ساحات غرناطة، واحتفل بإحراقها في حفل من أعمال الإيمان Auto - de - fe ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب من كتب الطب والعلوم، وهبت لجامعة ألكالا "القلعة" دي هنارس. وبلغ ما هلك من الكتب العربية في تلك المحنة، أكثر من مائة ألف كتاب، وذلك وفقاً لأدق التقديرات وأكثرها اعتدالاً.

ومن الغريب أن هذا العمل الذي يشين أي مجتمع متمدن، والذي يندد به كثير من أقطاب التفكير الأوروبي، يجد بين العلماء الإسبان المحدثين، من يؤيده ويشيد به وبناتجته في حماية سياسة التنصير الإسباني. ويكفي أن نشير إلى رسالة المستشرق سيمونيت في هذا الموضوع، وإلى ما يبديه فيها من حماسة بالغة، في الدفاع عن تصرف الكاردينال خميس<sup>(١)</sup>.

(١) F. J. Simonet: El Cardinal Ximenez de Cisenros y los Manuscritos Arabigo - Granadinos.

واستمرت إسبانيا النصرانية في تعقبها للكتب العربية ومطاردتها، ثم حظّر استعمال اللغة العربية على الموريسكيين أو العرب المنتصرين، وفرضت عليهم اللغة القشتالية في الكتابة والتعامل، وخمدت بذلك آخر جذوات التفكير الأندلسي، ولم يبق يد التعصب والجهالة إلا على بقية يسيرة من الآثار العربية، جمعت وحملت فيما بعد إلى قصر الإسكوريال، لتودع فيه في المكتبة الملكية، لا كثرث عقلي ينتفع به، ولكن كتحفة وحنيفة من ضائم النصر الإسباني.



قصر الاسكوريال

ويقع قصر الإسكوريال في الضاحية المسماة باسمه، وهي تقع على مقربة من مدريد في واد عميق تحف به الجبال. وقد أنشأ الملك فيليب الثاني هذا القصر سنة ١٥٥٧ م، تخليداً لذكرى انتصاره على الفرنسيين في موقعة سان كنتان، وتتويهاً بذكرى القديس لورنسو، الذي استمد منه العون والنصر في تلك الموقعة. ويعتبر قصر الإسكوريال من أعظم الصروح الملكية في أوروبا، وهو يضم مقاماً ملكياً، وكنيسة، وديرًا، ومكتبة ومعهدًا دينيًا، ومدفنًا ملكيًا، وهي جميعًا آية في الروعة والفخامة.

والذي يهمنا هنا من هذا الصرح العظيم، هو مكتبته الشهيرة التي تنوي في أقبيتها، البقية الباقية من تراث الأندلس الفكري، وهي تقع في جناحه الأيمن، وإلى جانبها يقع المعهد الديني الذي يشرف عليه الآباء الأوغسطينيون، وهم الذين يشرفون في الوقت نفسه على المكتبة، وتضم المكتبة بهوًا شاسعًا فخماً تعرض فيه طائفة من المخطوطات النفيسة النادرة التي تحتويها المكتبة، ومنها مصحف ملكي كريم كان ملكاً للمنصور السعدي سلطان المغرب، وقد زينت صفحاته بنقوش ذهبية رائعة.

ومكتبة الإسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية، فهي تحوي ستين ألف مجلد فقط، ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه من نواذر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط. ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفاً وتسعمائة وعشرين مجلداً.

وترجع هذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم - إلى عصر فيليب الثاني ذاته، وكانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، ومما كان يشتريه سفراء الملك من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جمعت بعد سقوط غرناطة، من غرناطة نفسها، ومن سائر القواعد الأندلسية المغلوبة. ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث، حينما استولت السفن الإسبانية في مياه المغرب، فيما بين آسفي وأغادير في سنة ١٦١٢ م، على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة مولاي زيدان سلطان مراكش، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الإسكوريال، في أوائل القرن السابع عشر، نحو عشرة آلاف مجلد.

ولبثت هذه الآلاف العشرة، من المخطوطات الأندلسية والمغربية، في قصر الإسكوريال زهاء نصف قرن، وكانت أغنى وأفضل مجموعة من نوعها. ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكري. ففي سنة ١٦٧١، شب في القصر حريق انتهم معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينجذ منه أكثر من ألفين، هي التي تنوي اليوم في أقبية الإسكوريال.

ومما هو جدير بالذكر، أن سلاطين المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من إسبانيا، وكان يحذوهم في ذلك شعور بأن هذا التراث الفكري للأمة الأندلسية الشهيدة، إنما هو تراثهم المشترك، وأن المغرب هو الوارث الطبيعي لهذا التراث، خصوصاً وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاي زيدان الشهيرة، ومن ثم فقد بعث مولاي إسماعيل عاهل المغرب الكبير، في سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م)، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغساني، سفيراً إلى كارلوس الثاني ملك إسبانيا وكان من مهمته إلى جانب السعي في تحرير الأسرى المغاربة الموجودين بإسبانيا، أن يسعى في استرداد الكتب العربية، وقد نجح السفير في تحقيق الشطر الأول من مهمته، ولكنه لم ينجح في تحقيق الشطر الثاني. وفي سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م)، أرسل مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب، كاتبه أحمد بن مهدي الغزال، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا، ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة، أعنى العمل على تحرير الأسرى المغاربة، واسترداد الكتب العربية، ولكنه لم يحرز في مهمته بشأن الكتب

نجاحًا يذكر، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية، ليس من بينها شيء من محتويات الإسكوريال<sup>(١)</sup>.

وكانت الحكومة الإسبانية خلال هذه العصور تحرص كل الحرص على إخفاء هذه الآثار العربية، عن نظر كل باحث ومتطلع، كلما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامي، إلى تفكير إسبانيا النصرانية. وكان الكتاب الإسبان أنفسهم يعرضون عن كل بحث وتنقيب في هذه المجموعة النفيسة، ويؤثرون أن تكتب كتبهم من جانب واحد، ومن ثم كانت كتبهم في هذه العصور تفيض بالتحامل والتعصب، في كل ما يتعلق بإسبانيا المسلمة وتاريخها وحضارتها. وأخيرًا تبعت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المجموعة من الناحية العلمية والتاريخية، فندبت لمراجعتها والتعريف بها عالمًا شرقيًا يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، هو ميخائيل الغزيري اللبناني، الذي يعرف في الغرب باسم "كازيري" Casiri. فعكف على دراستها بضعة أعوام، وانتهى بأن وضع عنها فهرسه الشهير باللاتينية المسمى "المكتبة العربية الإسبانية في الإسكوريال" *Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis* في جزأين كبيرين، ظهر أولهما في سنة ١٧٦٠ والثاني في سنة ١٧٧٠، ودرس فيهما محتويات المجموعة العربية دراسة وافية، مقرونة في أحيان كثيرة بالشرح والتعليق والاقبال المستفيض. ونحن نقتصر على ذكر أقسام هذه المجموعة حسبما وردت في فهرس الغزيري على النحو الآتي:

يبدأ الفهرس بذكر كتب اللغة العربية وعلومها، وهي تشمل من المخطوط رقم ١ حتى رقم ١٥٩، ثم يليها الشعر وأبوابه وعلومه، ويشمل هذا القسم من رقم ١٦٨ إلى ٤٨٨. ثم الفلسفة، وما يتعلق بها، وتشمل من رقم ٤٨٩ إلى ٧٠٥ ثم الأخلاق والسياسة، وتشمل من رقم ٧٠٦ إلى ٧٨٤. ثم الطب والتاريخ الطبيعي وتشمل من رقم ٨٧٥ إلى ٩٠١، ثم الرياضة والهندسة والفلك، وتشمل من رقم ٩٠٢ إلى ٩٨٥، ثم كتب الفقه وعلوم الدين والقرآن، وتشمل من رقم ٩٨٦ إلى ١٦١٧. ثم الآثار النصرانية، وتشمل من رقم ١٦١٨ إلى ١٦٢٨، وهذه هي محتويات الجزء الأول من الفهرس. ويحتوي الجزء الثاني على كتب الجغرافيا، وتشمل من رقم ١٦٢٩ إلى ١٦٣٥. ثم التاريخ وتشمل من رقم ١٦٣٦ إلى ١٨٥١. وهذا الرقم هو نهاية فهرس الغزيري.

<sup>(١)</sup> ترك لنا كل من هذين التفسيرين كتابًا عن مهمته، فكتب الأول محمد بن عبد الوهاب الغصالي كتابه المسمى "رحلة فوزير في فتكك الأسير" (تطوان سنة ١٩٣٩)، وكتب الثاني كتابه المسمى "نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد" (تطوان ١٩٤١). وكل يفس في كتابه سيرة رحلته، وأحوال إسبانيا في عصره، وما حقق من نتائج مهمته. وقد سبق أن اقتبسنا فيما تقدم بعض فقرات من هذا الكتاب أو ذلك.

وفي أواخر القرن الماضي قام المستشرق الفرنسي هارتنج ديرنبور بمجهود جديد، لدراسة المجموعة العربية في الإسكوريال، وبدأ وضع فهرس جديد بالفرنسية عنوانه "المخطوطات العربية في الإسكوريال" Les Manuscrits Arabes de l'Escorial، وقد اتبع فيه تقريباً طريقة الغزيري وترقيمه، واستطاع أن يعثر خلال دراسته على نحو مائة مخطوط عربي جديد، لم يتناولها سلفه، إذ يصل في تعدده إلى الرقم ١٩٥٥، بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى الجزء الأول، محتوياً على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة، وذلك من رقم ١ حتى رقم ٧٠٨، وقسمًا صغيراً من الجزء الثاني محتوياً على كتب الأخلاق والسياسة. ثم توفي مؤلفه دون إتمامه، وأصدر من بعد ذلك الأستاذ ليفي بروكسال جزءاً جديداً، يحتوي على كتب علوم الدين والجغرافيا والتاريخ، (من رقم ١٢٥٦ إلى ١٨٥٢).

على أن فهرس الغزيري مازال بالرغم من قدمه، ومما وجه إليه من المآخذ، هو المعول عليه، وهو دائماً مرجع الباحثين<sup>(١)</sup>.

وقد أتبع لنا خلال رحلتنا الإسبانية المتوالية، أن نتردد على مكتبة الإسكوريال مراراً وتكراراً، ولأن ندرس فيها طائفة كبيرة من المخطوطات الأندلسية، ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ إسبانيا المسلمة ونظمها.

\* \* \*

هذا وتوجد أيضاً مخطوطات أندلسية قليلة، في بعض المكتبات الإسبانية الأخرى مثل مكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية، ومكتبة دير ساكرومونتي بغرناطة، وكذلك في بعض المكتبات الخاصة.

ومما هو جدير بالذكر، أن كثيراً من المخطوطات الأندلسية قد تسرب عقب سقوط غرناطة، وحواضر الأندلس الأخرى، إلى المغرب، مع من هاجر إليه من أبناء الأمة المغلوبة، ومازال البحث الحديث إلى يومنا، يظفر من آن لآخر في مدن المغرب، وفي بوابه، بالعثور على بعض الكتب الأندلسية، التي ظن أنها دُثرت وبانت.

وإلى جانب هذه المجموعة العربية الباقية من آثار التفكير الأندلسي، توجد بقية مؤثرة أخرى من تراث الأمة الأندلسية، يرجع إلى عصر استشهادها، بعد أن نصرت، وشتت طائفة الموريسكيين أو العرب المنتصرين. فقد اضطر أولئك العرب المنتصرون بعد أن أرغموا على

(١) لخصنا معظم ما ورد في هذا الفصل من بحث أتم ولوفى، يتضمنه الفصل الثاني والعشرون من كتابنا "مواقف حليلة في تاريخ الإسلام" (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٩ - ٢٦٨.



ترك لغتهم العربية، وألزموا باستعمل اللغة القشتالية في الكتابة والتعامل، أن يلجئوا إلى استعمال وسيلة جديدة للكتابة العربية، يحافظون بها على تراث دينهم الذي لبثوا يعتقونه خفية في أعماق سرائرهم، فكانوا يكتبون القشتالية سرًا بأحرف عربية، ويترجمون إليها كثيرًا من أحكام الإسلام والآيات القرآنية، والحديث والفقه، والصلوات والأدعية النبوية. وتسمى هذه الكتابة "بالألمبادو" Aljamiado أعني "الأعجمية". ويوجد الكثير من هذه الكتب الموريسكية، في مكتبة مدريد الوطنية، وبعض المكتبات الإسبانية الأخرى. وقد شهدنا منها الكثير خلال بحوثنا في مدريد، ونقلنا منها نماذج عديدة.

## ٢ - الآثار المعنوية

حكم المسلمون معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية قرونًا، واستطال حكمهم في الجنوب، حيث قامت مملكة غرناطة، زهاء ثمانية قرون. وكانت نظم الحكومة الإسلامية، وتقاليده الحياة الاجتماعية الإسلامية، وكل ما هنالك من مظاهر الحضارة الأندلسية في التفكير وفي الفنون، وفي سائر مقومات الحياة العامة والخاصة، كانت كلها تحدث أثرها في شبه الجزيرة الإسبانية، في الممالك النصرانية المجاورة، التي كانت تتصل خلال الحرب والسلام بجاراتها المسلمة أوتق اتصال.

وكان النصارى الإسبان، الذين يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية، وهم المستعربون أو النصارى المعاهدون من جهة، والمسلمون الذين يعيشون في ظل الحكومة النصرانية وهم المنجئون<sup>(١)</sup> من جهة أخرى، كانت هاتان الطائفتان، اللتان لعبتا في تاريخ الأندلس أعظم دور، حلقة الاتصال الوثيق، في نقل المؤثرات الحضارية، من فريق إلى آخر، وإن كان من المحقق أن هذه المؤثرات، كانت أعمق وأشد انطباعًا، في إسبانيا النصرانية منها في إسبانيا المسلمة، إذ كانت الحضارة الأندلسية يومئذ، أرقى من نظائرها وأشد تفوقًا وازدهارًا.

ولم ينقطع هذا التأثير القوي للحضارة الإسلامية، في حضارة إسبانيا النصرانية، حتى في العصر الذي أخذ فيه نجم الدولة الإسلامية في الأفول، وتضاءلت رقعة الأندلس المسلمة، حتى انحصرت في حدود مملكة غرناطة الصغيرة. ذلك أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة، كانت بالرغم من تضائل سلطانها الإقليمي والحربي، تتمتع بحضارة رفيعة، وكانت علومها وفنونها، وأوضاع حياتها الاجتماعية، مازالت تحدث أثرها في جيرانها النصارى الإسبان، وكان المهندسون والعرفاء الغرناطيون، يشتركون مع زملائهم النصارى، في إنشاء القصور والصروح القشتالية، وفي تجميلها وزخرفتها، وأحيانًا في زخرفة الكنائس النصرانية ذاتها. ولما سقطت غرناطة، وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس، لبثت آثار الحضارة الأندلسية المحتضرة عصرًا، تتسرب إلى إسبانيا النصرانية، ولبثت الفنون والصناعات الإسلامية مستقى خصبًا لمجتمع السادة الجدد للشعب المغلوب، وظهرت آثار الهندسة والزخارف الأندلسية، في كثير من الصروح والكنائس الإسبانية، التي أقيمت في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان الموريسكيون أو العرب المنتصرون عندئذ، يحملون ما تبقى من تراث آبائهم وأجدادهم المسلمين، في مختلف الفنون والصناعات، ويحتفظون بكثير من تفوقهم وبراعتهم الفنية

<sup>(١)</sup> المستعربون هم بالإسبانية Los Mozarabes، والمنجئون هم Los Mudéjares

والزخرفية، وتبدو آثار هذه البراعة، في زخارف كثير من كنائس القرن السادس عشر، وفي زخارف الأبنية الخزفية الموريسكية الرائعة، التي تحتفظ المتاحف الإسبانية بكثير منها.

ولم يغط البحث الإسباني المستنير في عصرنا، الحضارة الأندلسية حقها، ولم يحاول أن يغض من أهمية آثارها، في تكوين حضارة إسبانيا النصرانية، وفيما يلي بعض ما ورد في بحث قيم، للعلامة المستشرق الإسباني جونثالث بالنتيا، عن "آثار الحضارة الأندلسية":

"إن العمارة المدنية والدينية في بعض نواحيها، والفنون الرفيعة، والحياة المرفهة بين النصارى الإسبان، كانت تقوم على تراث المسلم الأندلسي، وكان الزليخ الأندلسي يزين الأبراج المدجنية في بلاد أراجون، وكان عريف مسلم، هو الذي أشرف على زخرفة مصليات الدير الملكي في برغش، الذي أنشأ ألفونسو الثامن، وكذلك المصلى الملكي في قرطبة، الذي أنشأ هنري الثاني".

"ولقد كان المنزل القشتالي، يعكس نفس تكوين المنزل الأندلسي، وحتى القصور الملكية، كانت صورة من القصور الأندلسية، مثل قصر إشبيلية الفخم، الذي أمر بإنشائه بيدرو الأول سنة ١٣٦٤ م، وهو قصر نصف إسلامي، عمل فيه عرفاء طليطليون وخرنابطيون وإشبيليون".

"ثم إن الفن المدجني، قد تسرب إلى كل منشآت شبه الجزيرة، فكنيسة "سان خوان التوبة" في طليطلة، والكنيسة العظمى (La Seo) في سرقطة، وكاتدرائية ترويل، هي أمثلة واضحة من آلاف الأمثلة، التي يمكن ذكرها".

"والواقع أنه لا مجال للدهشة، من تكس هذه المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية، في الحضارة المسيحية لشبه الجزيرة الإسبانية. ذلك أن الحياة المشتركة مدى قرون عديدة للحضارتين، كان لا بد لها أن تحدث أثرها. على أن هذا الأثر لم يقف عند شبه الجزيرة الإسبانية، بل لقد ترك في أوروبا بأسرها، آثاراً يمكن تقصيصها"<sup>(١)</sup>.

ولقد تحدث خلال وجودي في مدريد، مع صديقي العلامة المؤرخ الإسباني الأستاذ مننديث بيدال Menéndez Pidal، وهو من أعظم المفكرين والنقدة المعاصرين، فيما خلفته الأمة الأندلسية من الآثار الباقية، في حضارة إسبانيا النصرانية في حياتها وتقاليدها، وفيما يراء من مظاهر هذه الآثار، فأدلى إلي بما يلي، وقد سجلته أثناء حديثي معه:

"أجل، لقد تركت الأمة الأندلسية آثاراً واضحة في الحضارة الإسبانية، وفي الحياة الإسبانية العامة، وفي تقاليد إسبانيا وعاداتها، وإذا تركنا الآثار والصروح المادية جانباً، فإن

مظاهر هذه الآثار المعنوية كثيرة. ودعك من الآثار اللغوية فإن هذه معروفة، وهي ماثلة في كثير من نظمنا، ويكفي أن نذكر كلمات: Alferez, Almojarife, Alguacil, Alcaide, Alcalde وغيرها، للتعبير عن بعض المناصب العسكرية والقضائية. وفي تقاليد الملوكية الإسبانية، يبدو أثر التقاليد الملوكية الأندلسية، فمثلاً يقرن ذلك الملك بعبارة حفظه الله Que Dios guarda وهو اصطلاح عربي؛ ويبدو هذا الأثر في كثير من العادات والتقاليد الإسبانية في التعامل والأسواق، وفيما ينادي به الباعة على سلعهم، وهي نداءك مسجعة، ترجع إلى أصول أندلسية، وفي الدعوات الجنائزية، حيث يقال عن المتوفى (رحمه الله)، وفي مظاهر التحية. وفي قصة "السيد" El Cid "أن التحية تكون بتقبيل الكتف"، وهي عبارة أندلسية. وهكذا نجد أثر التقاليد والعادات الأندلسية ماثلاً في كثير من مظاهر الحياة الإسبانية.

والواقع أننا شهدنا خلال رحلتنا المتعددة إلى إسبانيا، وتجوّلنا في سائر نواحيها ومنها الأندلسية والنصرانية، من أحوال الأمة الإسبانية، ومن مظاهر حياتها المادية والأدبية، ومن تقاليدها وعاداتها، كثيراً مما يشير إليه هذا العلامة الكبير في أقواله الموجزة، وأدركنا بالمشاهدة والملاحظة، عمق هذه الآثار التي خلفتها الأمة الأندلسية، في وريثة أرضها وحضارتها، الأمة الإسبانية.

ولشد ما تبدو هذه الآثار في جنوبى إسبانيا، أعنى في منطقة الأندلس الحقيقية، وهي التي تتكون من ولايات ألمرية، ومالقة، وغرناطة، وإشبيلية. ولقد شعرنا حين التجوال في هذه المنطقة، أننا نجوس خلال أمة شرقية، أكثر منها عربية، وأن العادات والتقاليد الأوربية المحضة تكاد تختفي، تحت أكناس من العادات والتقاليد الشرقية. ولا غرو فإن مملكة غرناطة الإسلامية، لبثت تحتل معظم أراضي هذه الرقعة، حتى أواخر القرن الخامس عشر، ولبث المورييسكيون أو العرب المنتصرون بعد ذلك، يعيشون فيها جماعات كبيرة زهاء قرن آخر، ومن ثم كانت ولايات الأندلس، آخر مستودع لتراث الحضارة والتقاليد الأندلسية، وكانت آثار هذه الحضارة والتقاليد، أرسخ فيها ولقى من أي جزء آخر من إسبانيا.

ولقد عشنا أوقاتاً في أنحاء هذا المجتمع الإسباني، الذي يحمل الكثير من مظاهر الأمة الأندلسية الذاهبة وتقاليدها، فماذا رأينا؟ رأينا أولاً من الناحية العنصرية أن سكان هذه المنطقة، ملامحهم شرقية عربية أكثر منها أوربية، فقدودهم متوسطة، وعيونهم وشعورهم في الأغلب سوداء، وألوانهم مشربة بالسمرة. ولشد ما تبدو هذه الملامح الشرقية العربية في أهل غرناطة وما إليها، فهناك يشعر الإنسان حقاً بأنه يعيش في مجتمع يمت بأوثق الصلات العنصرية، إلى الأمة الأندلسية الذاهبة، فالوجود عربية سمراء، واللامح دقيقة، والشعور فاحمة، والعيون

سوداء. ونساء غرناطة هن هن اللاتي وصفين ابن الخطيب في عصره، أعنى في القرن الرابع عشر الميلادي، مازلن يبدن نفس أوصافه، فهو يشير إليهن بقوله:

"وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول ينذر فيهن" (١).

وهذا ما ينطبق حتى اليوم على نساء غرناطة أشد الانطباق.

وهذه الخواص العنصرية الأندلسية، التي تنطبع أشد الانطباق، على ملامح سكان إسبانيا الجنوبية، وولايات الأندلس بنوع خاص، يجب ألا تدهش أحدًا، فإن كثيرًا من أولئك الإسبان بالرغم من نصرانيتهم، تجري في عروقهم دماء أسلافهم مسلمي الأندلس. ومن الخطأ أن يقال إن إسبانيا النصرانية، استطاعت بأساليب القمع الذريع، الذي فرضته على الأمة الشهيدة، أن تقضي على السلالة العربية الأندلسية. ذلك أن كثيرًا من المدجنين كانوا قبل سقوط الأندلس النهائي، قد اندمجوا في المجتمعات الإسبانية التي يعيشون فيها، وكان الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان أمرًا ذائعًا، ولا سيما في عصور الانحلال الأخيرة. ولما فرضت إسبانيا التنصير على الأمة الأندلسية المغلوبة، تسرب كثير من العرب المنتصرين إلى المجتمع الإسباني الأصل، واندمجوا فيه. وكان من هؤلاء العرب المنتصرين بعض الفروع الملوكية، من سلالة بني نصر ملوك غرناطة، إذ تنصر عقب سقوط الحاضرة الإسلامية الأخيرة، ولذا السلطان أبي الحسن من زوجه النصرانية نصر وسعد، وأسبغ عليهما لقب الدوقات، وتنصر بعض الزعماء من القادة والوزراء مثل بني الثغرى زعماء حمارة، وبني يحيى النيار بطل بسطة والعمرة الشهير بسيدي يحيى، وأسرة بنيغش الوزراء. وقد اشتهرت الأسرة الأخيرة بالأخص في تاريخ إسبانيا فيما بعد، ونبع منها عدد من القادة والأخبار، وعرفت باسم Los Venegas وحذا حذو هؤلاء الزعماء في التنصير، كثير من الأعيان والأكابر، واندمجوا في عالية المجتمع القشتالي. ولما قضت إسبانيا بنفى الموريسكيين (العرب المنتصرين) نهائيًا من أراضيها، تسربت ألوف وألوف منهم، إلى داخل الأراضي الإسبانية، وكان كثير من السادة الإقطاعيين الإسبان، يخفون عمالهم ومزارعيهم من الموريسكيين ويحمونهم من النفي، ضناً بعونهم وبراعتهم في فلاحه الأرض، وهكذا استطاعت جماعات كبيرة من الأندلسيين المسلمين والمدجنين، منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ومن بعدهم جماعات كبيرة من العرب المنتصرين، خلال القرن السادس عشر، أن تندمج اندماجًا تامًا في المجتمع النصراني، وكانت بعض الأسر الإسبانية العريقة تفخر بأرومتها الأندلسية، ولا سيما في القرنين السابع عشر

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة في سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٤٤ و ١٤٥.



والثامن عشر حينما بدأ تحلل إسبانيا <sup>(١)</sup>، ولن يدهشك اليوم أن تسمع مثل هذا الاعتزاز بالأرومة الأندلسية من بعض الإسبان، في بلاد أندلسية عريقة مثل إشبيلية وغرناطة.

وإلى جانب هذه الخواص العنصرية والمادية، توجد ثمة طائفة من الخواص الأنيية، التي تبدو في كثير من الصفات الأخلاقية والتقاليد والعادات. فقد ورث الإسبان كثيرًا من صفات أسلافهم وتقاليدهم؛ فهم أهل بشاشة وتواضع وطيبة، وهم يميلون إلى الدعة، ويعشقون ألوان المرح، ويكثرزون من الغناء والرقص، وينسبون كثيرًا من ألوان مرحهم وأغانيهم إلى أصول أندلسية، وهم يبالغون في التحية والحفاوة، ويتكروونك بقولهم "أولا" (أهلا) على الطريقة الشرقية، ويتبادل الأقرباء منهم والأخصاء القبلات حتى في الطرقات، وفيهم أحيانًا نزق وسرعة للفعال وغضب، ولكن نزول لأقل ترضية، ولهم بعض عادات ذات مسحة شرقية وإسلامية أحيانًا، فهم مثلاً يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعد تناوله، وفي كثير من الفنادق الفخمة، ترى المغسل قائمًا في قاعة الطعام، وهي عادة شرقية إسلامية محضة.

وتتسرب هذه الآثار المعنوية، التي ورثتها إسبانيا النصرانية عن الأمة الأندلسية، إلى اللغة الإسبانية بقوة. فاللغة الإسبانية هي اللغة اللاتينية الوحيدة التي توجد بين حروفها (الخاء) j, ge, gi (والهاء) z, ce, ci، وتمثل في كلماتها بكثرة. وفي اللغة الإسبانية كلمات كثيرة جدًا، ترجع إلى أصول عربية، ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة إسبانية تبدأ "بال" Al هي عربية الأصل، تبدأ بأداة التعريف العربية. ونحن نكتفي هنا بأن نورد نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة:

منها في التعابير النظامية:

Alguacil	الوزير (والآن المحضر)
	الحاكم، القائد
Alcaide	(محافظ السجن)
	القاضي، العمدة
Alcalde	(رئيس البلدية)
Almojarife	المشرف
Alférez	الفارس حامل العلم

<sup>(١)</sup> يقص علينا الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني سفير ملك المغرب إلى كارلوس الثاني ملك إسبانيا سنة

١٦٩١ م في رحلته، بعض الأخبار المتعلقة بذلك (راجع "رحلة الوزير في فتك الأسير" لسلفه الذكر

	(والآن ملأزم ثان)
Alamin	الأمين (المحتسب)
Alarife	العريف
Almogávares	المغاورون <sup>(١)</sup>
	ومنها في أسماء الأزهار:
Azucenas	السوسن
Jazmines	الياسمين
Arrayán	الريحان
Azahar	الزهر
	ومنها في أسماء المحاصيل:
Albaricoque	البرقوق (المشمش)
Alcachofa	الخرشوف
Alcanfor	الكافور
Alfóncigo	الفسق
Aceituna	الزيتون
Aceite	الزيت
Arroz	الأرز
Azucar	السكر
	ومنها في شئون الري:
Albufera	البحيرة
Alcántra	القنطرة
Zafareche	الصهريج
Azuda	السد
Acequia	المسقى
Aceña	السانية (الساقية)

<sup>(١)</sup> وهم الجنود الفقاريون أو المجاهدون

Alberca	البركة
Aljibe	الجب
ومنها في الحرف:	
Albañil	البناء
Albeitar	البيطار
Alfájeme	الحجام
Alfarero	الفخار
ومنها كلمات أخرى متنوعة:	
Alqueria	القرية
Ariabal	الربض أو الضاحية
Aldea	الضيعة
Almacén	المخزن
Alacena	الخزانة
Funda – Alhóndiga	الفندق
Alcázar	القصر
Alcaiceria	القيصرية
Mezquita	المسجد
Alcazba	القصبة أو القلعة
Aldaba	الضبة
Candil	القنديل
Axarfe	الشرفة
Aljama	الجماعة
Zambra	الزمر
Axarabe	الشراب
Almizcle	المسك
Aljofar	الجوهر

Alcahaz	الققص
Aljez	الجص
Aljuba	الحبة
Almohada	المخدة
Albacea	الوصية
Alafia	العافية

هذه نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة، واللغة الإسبانية مليئة بعدد لا حصر له من هذه الكلمات، وقد ألفت في ذلك معاجم خاصة، لتبيان الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية<sup>(١)</sup>.

والخلاصة أن الأمة الإسبانية، تمت إلى الأمة الأندلسية الذاهبة، بكثير من الظواهر العنصرية والحضارية والاجتماعية، وتمثل هذه الظواهر بنوع خاص في أهل الولايات الجنوبية، الذين كان اتصالهم بالمسلمين لشدة وطول مدى، وقد استطاعت السياسة الإسبانية في عصور التزمت والتحامل، بوسائلها العنيفة المغرقة، ومن ورائها الكنيسة تضطرم بعضاً للأمة الشهيدة ودينها وحضارتها، أن تحقق تراثها المادي، وأن تقضي على معظم الصروح والآثار الأندلسية، ولكنها لم تستطع، وما كان لها أن تستطيع، أن تقضي على تراثها المعنوي والحضاري، فهذا التراث ما يزال إلى يومنا متغلغلاً في روحها وطبائعها، وفي كثير من مناحي حياتها العامة والخاصة، سنة الأجيال وقانون الطبيعة الخالد.

<sup>(١)</sup> منها معجم من تأليف العلامة Dozy عنوانه: Glossaire des Mots Espagnol et Portugais  
derivés de l'Arabe، وآخر من تأليف المستشرق الإسباني L. de Eguilaz y Yanguaw عنوانه  
Glossario de las Palabras Espanolas de Origin Oriental

## جدول تاريخي

يبين تواريخ سقوط القواعد والمدن الأندلسية

في أيدي الإسبان والبرتغاليين

- أبدة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م.  
أبله: سقطت نحو سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٣ م.  
أرشدونة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م.  
أركش: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م.  
إستجة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٧ م.  
أسترقه: سقطت في سنة ١٣٦ هـ - ٧٥٣ م.  
أشبونة: استولى عليها البرتغاليون في سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م.  
إشبيلية: استولى عليها فرناندو الثالث سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م.  
الجزيرة الخضراء: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ - ١٣٤٢ م.  
الحامة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م.  
ألش: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م.  
ألمرية: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٩٠ م.  
أوريولة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢ م.  
باجة: سقطت في أيدي البرتغاليين سنة ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م.  
بسطة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م.  
بطليوس: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٧ م.  
بذ الوليد: سقطت في أوائل القرن العاشر الميلادي.  
بلش مالقة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م.  
بلنسية: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م.  
بياسة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٢٥ هـ - ١٢٢٧ م.  
تطيلة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م.  
جبل طارق: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م.  
جيان: استولى عليها القشتاليون سنة ٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م.



- دالية: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م.
- رندة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م.
- روطة: استولى عليها ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة سنة ٥٣٤ هـ - ١١٣٩ م.
- سرقسطة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١٢ هـ - ١١١٨ م.
- سمورة: سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م.
- شاطبة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م.
- شريش ألفرنتير: سقطت في يد ألفونسو العالم سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م.
- شقوبية: سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م.
- شلب: سقطت في أيدي البرتغاليين سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م.
- شلمنقة: سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م.
- شلوبانية: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م.
- شنتر: استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م.
- شنتمرية الغرب: استولى عليها البرتغاليون سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م.
- شنت منكل: سقطت في منتصف القرن العاشر الميلادي.
- طرطوشة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م.
- طركونة: سقطت في أيدي القطلان سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٨٠ م.
- طريف: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩٢ م.
- طليطلة: استولى عليها ألفونسو السادس سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م.
- غرناطة: سلمت للملكيين في ربيع الأول ٨٩٧ هـ - يناير ١٤٩٢ م.
- قادس: استولى عليها ألفونسو العالم سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢ م.
- قرطبة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م.
- قرطاجنة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٣ م.
- قرمونة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م.
- قسطلونة: سقطت في أوائل القرن الثالث عشر.
- قلعة جابر: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م.
- قلمرية: استولى عليها فرناندو الأول سنة ٤٥٦ هـ - ١٠٦٤ م.

- لاردة: استولى عليها القطلان سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م.
- لبلة: استولى عليها الفونسو العالم سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م.
- لقنت: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م.
- لُك: سقطت في سنة ١٣٧ هـ - ٧٥٤ م.
- لورقة: سقطت في أيدي الأرجونيين نحو سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٨ م.
- لوشة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م.
- ماردة: استولى عليها القشتاليون سنة ٦٢٨ هـ - ١٢٢٩ م.
- مالقة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م.
- متريل: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م.
- مجريط: سقطت في يد الفونسو السادس سنة ٤٧٦ هـ - ١٠٨٣ م.
- مريلة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٨ م.
- مريبطر: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م.
- مرسية: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م.
- مكلين، حصن: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م.
- المنكب: سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨١ م.
- ميورقة (والجزائر الشرقية): افتتحها الأرجونيون سنة ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م.
- وادي آش: سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٩٠ م.
- وادي الحجاره: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٤٧٤ هـ - ١٠٨١ م.
- وشقة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م.
- ولية: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م.
- يابرة: استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٦١ هـ - ١١٦٥ م.

## فهرست الموضوعات

- ٣- لاردة ..... - ١٠٤ -
- ٤- طركونة ..... - ١٠٧ -
- ٥- طرطوشة ..... - ١١٠ -
- ٦- ميورقة ..... - ١١٤ -
- لמעلم الأثرية ..... - ١١٦ -
- وثيقة عربية بتقسيم أراضي ميورقة - ١٢٢ -
- مدينة سوليير ..... - ١٢٥ -
- ٧- قسطنطونة ..... - ١٢٦ -
- ٨- شاطبة ..... - ١٢٧ -
- الحصن والأسوار ..... - ١٢٨ -
- ٩- دانية ..... - ١٣٣ -
- ١٠- لقفنت ..... - ١٣٦ -
- مدينة أنش ..... - ١٣٩ -
- ١١- لوربولة ..... - ١٤٠ -
- ١٢- قرطاجنة ..... - ١٤٣ -

### الكتاب الثالث

#### مملكة غرناطة وما إليها

- ١- غرناطة ..... - ١٤٨ -
- معلمها وأثارها الأندلسية الباقية .. - ١٥٥ -
- حي البيازين ..... - ١٥٥ -
- ميدان باب الرملة ..... - ١٥٨ -
- لقبسية ..... - ١٥٨ -
- لكنيسة العظمى ..... - ١٥٨ -
- المدرسة والخان والمنازل الأندلسية - ١٥٩ -
- الأبواب والأسوار ..... - ١٦٢ -
- قصر شهل ..... - ١٦٣ -
- متاحف الأثر والصور ..... - ١٦٥ -
- وصف الغزل لغرناطة ..... - ١٦٨ -
- قصر الحمراء ..... - ١٦٩ -
- فناء الرياح ..... - ١٧٨ -
- بهو السفراء ..... - ١٨١ -

- مقدمة ..... - ٩ -
- خطاب إلى المؤلف من العلامة المؤرخ  
الأستاذ بيدال ..... - ١٤ -
- تصدير للطبعة الثانية ..... - ١٦ -

### الكتاب الأول

#### القواعد الأندلسية الكبرى

- ١- قرطبة ..... - ١٩ -
- ٢- أطلال زهراء ..... - ٣٥ -
- ٣- إشبيلية ..... - ٤٣ -
- لاخير لنا ..... - ٤٨ -
- قصر إشبيلية ..... - ٥٣ -
- دار بلاتونس ..... - ٦٠ -
- بعض نفوس العربية الأخرى ..... - ٦١ -
- الأسوار الموحدة ..... - ٦٢ -
- قلعة جابر ..... - ٦٣ -
- ٤- قرمونة ..... - ٦٥ -
- الأثر الأندلسية ..... - ٦٧ -
- ٥- إستجة ..... - ٧٠ -
- ٦- طليطلة ..... - ٧٤ -
- الكنيسة العظمى ..... - ٧٦ -
- عما السلطان أبي الحسن المريني - ٧٨ -
- الأثر الأندلسية ..... - ٨١ -
- القصر وصروح أخرى ..... - ٨٢ -
- ٧- بلنسية ..... - ٨٥ -
- ساجنتو ..... - ٩٠ -
- ٨- مرسية ..... - ٩١ -

### الكتاب الثاني

#### الشجر الأعلى وشرق الأندلس

- ١- سرقسطة ..... - ٩٥ -
- قصر الجعفرية ..... - ٩٦ -
- أثر أخرى ..... - ٩٩ -
- ٢- تطيلة ..... - ١٠٣ -



- ٣٧٢ - الأثر الأنثسي الباقية في البرتغال
- ٣٧٢ - تمهيد .....
- ٣٧٤ - ١- فازو أو شتمرية الغرب .....
- ٣٧٨ - ٢- شلب .....
- ٣٨٣ - ٣- باجة .....
- ٣٨٨ - ٤- بايرة .....
- ٣٩٢ - ٥- لثبونة .....
- ٣٩٨ - ٦- شنزة .....
- ٤٠١ - ٧- شنترين .....

#### خاتمة

- ٤٠٦ - ١- تراث الأثلس لفكري .....
- ٤١٢ - ٢- الأثر المعنوية .....
- ٤٢٠ - جنول تاريخي .....

- ٣٤٠ - ٥- أوفينو .....
- ٣٤٤ - ٦- كوفاندجا .....

#### الكتاب السادس

##### الأندلس الغربية والبرتغال

- ٣٥٠ - ١- بطليوس .....
- ٣٥١ - القصبة الأنسية .....
- ٣٥٣ - في متحف بطليوس .....
- ٣٥٦ - معالم أثرية أخرى .....
- ٣٥٨ - ٢- ماردة .....
- ٣٥٨ - المعالم الأثرية .....
- ٣٦٢ - نفوس أنسية .....
- ٣٦٥ - ٣- ولبة .....
- ٣٦٧ - ٤- لبلة .....
- ٣٦٩ - المعالم الأثرية .....



## فهرس الصور والخرائط

- ٥٧ - قصر إشبيلية. منخل فناء العذارى
- ٥٧ - قصر إشبيلية. فناء العذارى
- ٦٠ - إشبيلية. فناء دار بلاطوس وعقوده العربية
- ٦٠ - إشبيلية. فناء دار على الطراز الأندلسي
- ٦٢ - إشبيلية. برج الذهب
- ٦٣ - إشبيلية. جانب من الأسوار الموحدية
- ٦٤ - أطلال قلعة جابر
- ٦٦ - فرمونة. منخل المدينة
- ٦٦ - فرمونة. باب إشبيلية وهو بابها الغربي
- ٦٩ - فرمونة. باب قرطبة وهو بابها الشرقي
- ٦٩ - فرمونة. أطلال "القصر" القديم
- ٧١ - إستجة. منظر جزئي للمدينة
- ٧١ - إستجة. عقد عربي في فناء لكنيسة
- ٧١ - إستجة. لكنيسة العظمى
- ٧٤ - طليطلة. باب الشمس
- ٧٥ - طليطلة. منظر جزئي لواجهة المدينة
- ٧٥ - طليطلة. القنطرة الأندلسية
- ٧٧ - طليطلة. لكنيسة العظمى
- ٨٠ - طليطلة. شارع داخل المدينة
- ٨١ - المسجد المسمى "كريستو دي لوث"
- ٨٣ - طليطلة. القصر
- ٨٣ - طليطلة. بقايا الأسوار الأندلسية
- ٨٦ - بلنسية. الكنيسة العظمى
- ٨٩ - بلنسية. قلعة "الجبلين"
- ٨٩ - (بلنسية). حصن "المطارة"
- ٣ - أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
- ٤ - غرناطة. منظر عام لمدينة الحمراء
- ٥ - قصر الحمراء. نافورة فناء الأسود
- ٦ - جامع قرطبة
- ٧ - إشبيلية. منارة المنصور
- ٨ - سرقسطة. عقد من عقود قصر الجعفرية
- ٢٤ - جامع قرطبة. صحن الجامع
- ٢٤ - جامع قرطبة. عقود منخل المحراب
- ٢٥ - باب القديسة كاتالينا أحد أبواب الجامع
- ٢٧ - جامع قرطبة. "جامع المنصور"
- ٣٢ - جامع قرطبة. القصر الأسقي
- ٣٢ - قرطبة. القنطرة العربية
- ٣٣ - قرطبة. باب المدور
- ٣٧ - زخارف رعوس في حائط الزهراء
- ٤٠ - مدينة الزهراء. بعض العقود والزخارف
- ٤٢ - مدينة الزهراء. بعض الأطلال
- ٤٢ - مدينة الزهراء. جانب آخر من الأطلال
- ٤٢ - وصل الزهراء البرونزي
- ٤٧ - إشبيلية. الكنيسة العظمى (نكتراثة)
- ٤٧ - كنيسة إشبيلية العظمى. صحن الكنيسة
- ٤٩ - إشبيلية. منارة المنصور (لاخيرلدا)
- ٥٠ - إشبيلية. منارة جامع المنصور
- ٥١ - مراكش. منارة جامع لكنية شهيرة
- ٥٥ - قصر إشبيلية. بهو لسفراء
- ٥٥ - عقود من جناح لملوك الأندلسيين

- مرسية. شارع معفود الجوانب ..... ٩٢ -
- مرسية. الكنيسة العظمى ..... ٩٣ -
- مرسية. الفنطرة الحجرية ..... ٩٣ -
- سرقطة. واجهة قصر الجعفرية القديم ..... ٩٧ -
- سرقطة. منظر عام لقصر الجعفرية ..... ٩٨ -
- سرقطة. كنيسة العمود ..... ٩٨ -
- سرقطة. عقد زخرفي ..... ١٠٠ -
- سرقطة. لكتيسة العظمى (لاسيو) ..... ١٠١ -
- سرقطة. عقد "العميد" ..... ١٠٢ -
- لاردة. أطلال القصة الأتلية ..... ١٠٥ -
- لاردة. أحد عقود القصة الأتلية ..... ١٠٥ -
- طرطوشة. واجهة لكتيسة العظمى ..... ١٠٩ -
- طرطوشة. الأسوار الرومانية ..... ١٠٩ -
- طرطوشة. واجهة لكتيسة العظمى ..... ١١١ -
- طرطوشة. أطلال القصة الأتلية ..... ١١٣ -
- طرطوشة. فناء النير المجاور ..... ١١٣ -
- ميورقة. منظر عام للمدينة والميناء ..... ١١٥ -
- ميورقة. واجهة قصر المدينة ..... ١١٧ -
- ميورقة. الكنيسة العظمى ..... ١١٨ -
- ميورقة. فناء الملكة داخل قصر المدينة ..... ١١٨ -
- ميورقة. عقد باب المدينة ..... ١١٩ -
- ميورقة. فناء دير سان فرانسيسكو ..... ١٢٠ -
- ميورقة. حصن بلفير (المنظر الجميل) ..... ١٢٠ -
- ميورقة. الصفحة الأولى من مخطوط وثيقة لتقسيم العربية المحفوظة ..... ١٢٤ -
- شاطبة. الجبل الذي يقع الحصن ..... ١٢٩ -
- شاطبة. أحد أبراج الحصن ..... ١٢٩ -
- شاطبة. أطلال الحصن ..... ١٣٠ -
- متحف شاطبة. رخارف ..... ١٣١ -
- دانية. منظر ناحية من لقصة ..... ١٣٤ -
- لقت. أطلال القصة ..... ١٣٦ -
- لقت. واجهة كنيسة سانتا ماريا ..... ١٣٨ -
- لوريولة. أطلال القصة الأتلية ..... ١٤١ -
- لوريولة. دير معهد سان توماسو ..... ١٤٢ -
- فرطاجنة. حصن الأتليين ..... ١٤٤ -
- فرطاجنة. منظر الميناء تحميها الجبال ..... ١٤٥ -
- فرطاجنة. حصن "لاكسيسيون" ..... ١٤٥ -
- خرطة. غرناطة الإسلامية ..... ١٥١ -
- غرناطة. باب فحص اللوز ..... ١٥٦ -
- غرناطة. بقية من عقود جامع البيازى ..... ١٥٧ -
- غرناطة. واجهة لكتيسة العظمى ..... ١٦١ -
- غرناطة. واجهة المصلى الملكي ..... ١٦١ -
- صريح فرديناند وإسبيل ..... ١٦١ -
- غرناطة. باب إبيرة ..... ١٦٢ -
- عقود قصر شليل ..... ١٦٤ -
- غرناطة. واجهة قصر شليل ..... ١٦٤ -
- غرناطة. عقد متخل للفندق ..... ١٦٤ -
- غرناطة. فناء منزل أنلسي قديم ..... ١٦٤ -
- متحف الحمراء ..... ١٦٧ -
- غرناطة. باب الرمال ..... ١٧٠ -
- لحمراء. ميزان باب لشرعية ..... ١٧٠ -
- لحمراء. باب لشرعية ..... ١٧٢ -
- لحمراء. باب لشراب ..... ١٧٢ -
- لحمراء. برج الحراسة ..... ١٧٢ -

- خريطة مدينة الحمراء ..... ١٧٦ -
- لحمراء: ساحة البركة ..... ١٨٠ -
- لحمراء: قاعة الأختين ..... ١٨٠ -
- لحمراء: جانب من عقود بناء الأسود ..... ١٨٤ -
- لحمراء: قبة بناء الأسود الوسطى ..... ١٨٥ -
- لحمراء: منظر لملكة وبرج قمارش ..... ١٨٩ -
- لحمراء: كنيسة سانتا ماريا ..... ١٩٠ -
- أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأتلس ..... ١٩٢ -
- لحمراء: بهو السفراء ..... ١٩٣ -
- لحمراء: منظر عام لبناء الأسود ..... ١٩٤ -
- لحمراء: بهو الريحان (بهو البركة) ..... ١٩٤ -
- لحمراء: مدخل بهو السفراء ..... ١٩٥ -
- لحمراء: بهو بني سراج ..... ١٩٥ -
- لحمراء: واجهة قصر جنة التعريف ..... ٢٠٠ -
- لبهو الداخلي بقصر جنة التعريف ..... ٢٠٠ -
- عقود البهو الداخلي بجنة تعريف ..... ٢٠١ -
- وادي الش: أطلال بناء أنلسي ..... ٢٠٤ -
- بعض أبراج قصبة الأتلسية ..... ٢٠٤ -
- وادي الش: الكنيسة العظمى ..... ٢٠٤ -
- مكنين: أطلال الحصن مشرفة ..... ٢٠٦ -
- مكنين: كنيسة القائمة ..... ٢٠٦ -
- جبل: أطلال القصبة الأتلسية ..... ٢١٠ -
- جبل: برج الأعظم بالقصبة ..... ٢١٠ -
- جبل: حمامات عربية ..... ٢١٠ -
- جبل: المصلى العربي ..... ٢١٢ -
- جبل: واجهة لكنيسة العظمى ..... ٢١٢ -
- جبل: كنيسة سانتا مجدليدا ..... ٢١٣ -
- أندة: أطلال قصبة الأتلسية ..... ٢١٥ -
- أندة: باب غرناطة ..... ٢١٥ -
- أندة: كنيسة سانتا ماريا ..... ٢١٧ -
- أندة: العقد العربي المسمى باب روسال ..... ٢١٧ -
- لوشة: أطلال القصبة الأتلسية ..... ٢٢٢ -
- أرشدونة: منظر عام للمدينة ..... ٢٢٤ -
- أرشدونة: أطلال القصبة ..... ٢٢٤ -
- أرشدونة: عقود للمعبد العربية ..... ٢٢٦ -
- أرشدونة: هيكل المعبد ..... ٢٢٦ -
- مالقة: واجهة لقصبة ..... ٢٢٨ -
- مالقة: منظر عام لواجهة القبلي الداخلية للقصبة  
وفي أيسرها ..... ٢٣٠ -
- جبل فارة وفي أعلاه أطلال الحصن ..... ٢٣٠ -
- مالقة: أطلال حصن جبل فارة ..... ٢٣٠ -
- قصبة مالقة: العقود الغرناطية ..... ٢٣٢ -
- مالقة: "باب فرس المسيح" داخل القصبة ..... ٢٣٢ -
- مالقة: باب لسوق الأتلسي ..... ٢٣٢ -
- قصبة مالقة: عقد المنخل ..... ٢٣٤ -
- مالقة: لكنيسة العظمى ..... ٢٣٥ -
- بلش مالقة: كنيسة سانتا ماريا ..... ٢٣٧ -
- لورة (مالقة): بقايا الحصن الأتلسي ..... ٢٣٧ -
- فرطمة (مالقة): الحصن الأتلسي ..... ٢٣٧ -
- المنكب: منظر عام للملك وشغرها ..... ٢٤٣ -
- المنكب: أطلال الحصن المشرق ..... ٢٤٣ -
- شلوبانية: منظر عام للبلدة ..... ٢٤٦ -
- شلوبانية: الكنيسة العظمى ..... ٢٤٦ -
- لمرية: منظر عام لحدائق لقصبة ..... ٢٥٠ -

- لعمرية. منظر للميناء ..... - ٢٥٠ -
- لعمرية. منظر عام لواجهة القسبة الأنطونية
- والمشارف الباقية ..... - ٢٥٢ -
- لعمرية. كنيسة لعمرية أو الكنيسة العظمى ..... - ٢٥٣ -
- رندة. لفنطرة العربية ..... - ٢٥٦ -
- رندة. بقايا الحمامات العربية ..... - ٢٥٨ -
- رندة. المنارة العربية ..... - ٢٥٨ -
- رندة. باب المقابر ..... - ٢٥٨ -
- طريف. باب شريش ..... - ٢٦٢ -
- منظر عام لبقايا الحصن الأنطوني ..... - ٢٦٢ -
- خريطة جبل طارق ..... - ٢٦٨ -
- جبل طارق، منظر الصخرة ..... - ٢٧٠ -
- مدينة جبل طارق في أسفل الصخرة ..... - ٢٧٠ -
- جبل طارق. منظر الحصن الأنطوني ..... - ٢٧٤ -
- مشغل الحصن الأنطوني ..... - ٢٧٤ -
- إحدى واجهات الحصن الأنطوني ..... - ٢٧٤ -
- جبل طارق. الحصن الأنطوني ..... - ٢٧٦ -
- شريش. كنيسة العظمى ..... - ٢٨٢ -
- شريش. بعض أبراج القصر ولوارة ..... - ٢٨٢ -
- شريش. عقد عربي داخل القصر ..... - ٢٨٢ -
- قانس. الكنيسة العظمى ..... - ٢٨٤ -
- بنبلونة. نموذج من صور صندوق الأنطوني
- المحفوظ بالكنيسة العظمى ..... - ٢٨٨ -
- برغش. كنيسة العظمى ..... - ٢٩١ -
- برغش. لدير الملكي وعقوده الخارجية ..... - ٢٩٢ -
- (لدير الملكي). زخارف مدجنية ..... - ٢٩٤ -
- متحف برغش. عقد من الرخام ..... - ٢٩٤ -
- صندوق عاجي لعبد الملك المنصور ..... - ٢٩٩ -
- لوحة أنطونية من الخزف المذهب ..... - ٢٩٩ -
- عباءة أبي عبد الله آخر ملوك الأنطون ..... - ٣٠٠ -
- سيف علي لبطار بطل لوشة ..... - ٣٠١ -
- علم الموحدين الذي عنمه الإسبان ..... - ٣٠٢ -
- بك لوليد. عقود لمتحف ..... - ٣٠٣ -
- بك لوليد. واجهة منزل ثرفانث ..... - ٣٠٣ -
- شنت ملكش (سيمانفا) ..... - ٣٠٣ -
- شعوبية. الفنطرة الرومانية لكبرى ..... - ٣٠٥ -
- شعوبية. بقية من الأسوار الأنطونية ..... - ٣٠٥ -
- شعوبية. عقد سان أندريس ..... - ٣٠٥ -
- شعوبية. منظر عام للقصر ..... - ٣٠٧ -
- أبله. جانب من الأسوار الرومانية وقد ظهرت في
- نهايته الكنيسة العظمى ..... - ٣٠٩ -
- وادي الحجارة. لفنطرة العربية على نهر هنارس
- (القرن العاشر إلى الحادي عشر) ..... - ٣١١ -
- وادي الحجارة. برج العنمين ..... - ٣١١ -
- إقرار أبي عبد الله آخر ملوك الأنطون ..... - ٣١٩ -
- زخارف قطعة من البسط الأنطوني ..... - ٣١٩ -
- متحف مدريد الوطني. قنديل برونزي ..... - ٣١٩ -
- من مخلفات جامع الحمراء ..... - ٣١٩ -
- شارع قلبار المعقود الجوانب ..... - ٣٢٤ -
- شنت ياقب. الكنيسة العظمى ..... - ٣٢٦ -
- قبر القديس ياقب (يعقوب) الرسول ..... - ٣٢٧ -
- ليون. الكنيسة العظمى ..... - ٣٣٠ -
- سمورة. منظر عام للحصن والأسوار ..... - ٣٣٣ -
- سمورة. كنيسة العظمى ..... - ٣٣٣ -

- جانب من الصليق الأندلسي الكبير ..... - ٣٣٥ -
- سمورة. جانب من الصليق الأندلسي ..... - ٣٣٥ -
- شلمقة. بناء الجامعة القديم ..... - ٣٣٨ -
- شلمقة. كنيسة العظمى ..... - ٣٣٨ -
- شلمقة. "دار الأصداف" ..... - ٣٣٨ -
- لوفينيو. كنيسة سانتا ماريا دل ترانكو ..... - ٣٤٢ -
- لوفينيو. كنيسة سان ميغل دي ليو ..... - ٣٤٢ -
- لوفينيو. واجهة الجامعة القديمة ..... - ٣٤٣ -
- كوفاندنجا. منظر عام للوادي ..... - ٣٤٧ -
- جانب الصخرة الذي به كنيسة ..... - ٣٤٧ -
- ليرج الموحد من بقايا القصة ..... - ٣٥٢ -
- بطليوس. باب من أبواب القصة ..... - ٣٥٥ -
- بطليوس. كنيسة العظمى ..... - ٣٥٥ -
- "الميدان العالي" وقوسه المنخفض ..... - ٣٥٥ -
- ماردة. القنطرة الرومانية ..... - ٣٥٩ -
- ماردة. منظر عام للمسرح الروماني ..... - ٣٥٩ -
- ماردة. العقد العربي داخل القصة ..... - ٣٦٠ -
- قشرش. ليرج العربي الكبير ..... - ٣٦٣ -
- قشرش. بعض العقود العربية الباقية ..... - ٣٦٣ -
- ولبة. ميدان وكنيسة سان بينور ..... - ٣٦٦ -
- ولبة. شبك العربي ذو العقد ..... - ٣٦٦ -
- لبلة. واجهة القصر الأندلسي القديم ..... - ٣٦٨ -
- لبلة. برج الكنيسة ..... - ٣٦٨ -
- لبلة. بعض أطلال القصر الأندلسي ..... - ٣٦٨ -
- لبلة. باب إشبيلية المتجه شرقاً ..... - ٣٧٠ -
- جانب من الأسوار الموحدية الكبرى ..... - ٣٧٠ -
- فارو عقد الحراسة ..... - ٣٧٥ -
- فارو. أحد أبواب المدينة الأندلسية ..... - ٣٧٦ -
- فارو. الكنيسة العظمى ..... - ٣٧٦ -
- شلب. واجهة الحصن الخارجية ..... - ٣٧٦ -
- شلب. منظر عام للحصن الأندلسي ..... - ٣٨٠ -
- شلب. بعض أبراج الحصن الداخلية ..... - ٣٨٠ -
- شلب. أحد جدران الحصن ..... - ٣٨٠ -
- شلب. كنيسة العظمى ..... - ٣٨٢ -
- باجة. عقد "بابرة" ..... - ٣٨٤ -
- باجة. منظر عام للحصن ..... - ٣٨٦ -
- باجة. عقد داخل المدينة ..... - ٣٨٦ -
- باجة. كنيسة لرحمة ذات العقود العربية ..... - ٣٨٦ -
- بابرة. واجهة الكنيسة العظمى ..... - ٣٩٠ -
- بابرة. عقود لقنطرة لرومانية ..... - ٣٩٠ -
- لصحن الملاصق للكنيسة العظمى ..... - ٣٩٠ -
- لشبونة. أطلال القصة الأندلسية ..... - ٣٩٤ -
- عقد أبواب البحر أحد أبواب الأندلسية ..... - ٣٩٦ -
- لشبونة. كنيسة العظمى ..... - ٣٩٦ -
- لشبونة. كنيسة سان جيرونيمو ..... - ٣٩٦ -
- شنترة. منظر عام للحصن الأندلسي ..... - ٣٩٨ -
- شنترة. مصلى قصر الحراسة ..... - ٣٩٩ -
- شنترة. عقود الحمامات بقصر الحراسة ..... - ٣٩٩ -
- شنترين. بقية من الأسوار الأندلسية ..... - ٤٠٢ -
- شنترين. أطلال القصة الأندلسية ..... - ٤٠٣ -
- شنترين. كنيسة لكسوف من الداخل ..... - ٤٠٣ -
- قصر الاسكوريال ..... - ٤٠٧ -



## فهرست القبائل والطوائف والدول

بنو هود: ١٠٤، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١٢٦  
 بنو اليحصني: ٣٩٠  
 البيزيون: ١٢٠، ١٢٦  
 الجنويون: ١٢٠، ١٢٦، ١٦٥، ٢٩١  
 الخلافة الأنطونية: ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٣٠، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ١١٥، ١٣٧، ١٥٢، ٣٠٣، ٣٧٢، ٣٩٠  
 الدولة الأموية: ٢٠، ٣١  
 الدولة العنصرية: ٣٦  
 الدولة النصرية: ١٦٥، ١٧٤  
 الرومان: ١١٨، ١٢٦، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٩  
 الصليبيون: ١٢  
 الطوائف (ودول): ١٨، ٣٦، ٦٩، ٧١، ٩٨، ١٠٤، ١١٤، ١٤٥، ١٥٢، ١٨٩، ٢٢١، ٢٤٣، ٢٦٦، ٣٧٢، ٣٩٠، ٤٠٢، ٤١١  
 العرب: ١٥، ٩٠، ١٢٦، ١٤٠، ١٥٨، ١٨٩، ٢٩٧، ٣٤٩، ٣٨٠، ٣٩٥  
 العجم: ١١٦، ١١٧، ١٣٦، ١٦٤، ١٦٩، ٣٧٩، ٣٨٠  
 الفتيان العنصريون: ٣٧٦  
 قرآن المعبد (الداوية): ١٢٠، ١٢٨، ٤٢٨  
 الفرنسيون: ٢١٩، ٣٧٩، ٤٣٢  
 الفينيقيون: ١٣٩، ٢٤٨  
 القرطاجيون: ١٢٥، ١٥٦  
 الساسانيون: ١٨، ٤٥، ٤٩، ٥١، ٦٩، ٧٩، ٨٣، ١٥٦، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٦، ٣٠٣، ٣٢٨، ٣٨٩، ٣٩٠  
 القطلان: ١٢٥، ١٢٦  
 القوط: ٩٠، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ٢٩٧، ٣٦٧  
 المستجلون: ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٦٠، ٦٢، ٨٩، ٩٣، ١١٢، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٧، ٤٣٦، ٤٤٠  
 المرابطون: ١٨، ٢٠، ٣١٢، ٣٧٣، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤١١

الآباء الأرمن: ٤٣٢  
 الإخوة المعززون: ٤١٦، ٤١٧  
 الإسلام: ١٢، ١٨، ٢٠، ٢٩٦  
 الإسبان: ١٤، ٥٦، ٧٠، ٩٠، ٩٣، ٩٦، ١٠٥، ١١٢، ١٢٠، ١٢٥، ١٤٠، ١٤٦، ١٥١، ١٦٠، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٨، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢، ٢٠٨، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٦٦، ٢٨٢، ٢٨٨، ٢٩١، ٣١٧، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٦  
 الأمة الأنطونية: ٤٤١، ٤٤٤  
 الإنجليز: ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٤١٦  
 آل بنيفش: ١٧٩، ١٨١، ٢١٢، ٤٤٠  
 آل ثور: ١٨٠  
 التبرير: ٣٦، ٨٠، ١٨٩، ٢٣٨، ٣٨٠  
 البرتغاليون: ٣٧٨، ٣٧٩، ٤٠٦، ٤١٦  
 البنديفة: ١٦٥  
 بنو الأفطس: ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٦، ٤١١  
 بنو أمية: ٣٥  
 بنو تاجب (التجبيون): ١٠٤، ٣٠٧  
 بنو الثوري: ٤٤٠  
 بنو الحنفي: ٣٧٣  
 بنو حمود: ٢٤٣  
 بنو ذو النون: ٣٣١  
 بنو سراج: ٢٠٣  
 بنو صمدج: ٢٦٦  
 بنو عباد: ٤٣٥، ٧١، ٣٥٧، ٤٠٢  
 بنو غارة: ٢٤٨، ٤٤٠  
 بنو قسي: ٣٠٧  
 بنو مرين: ٢٧٦، ٤٠٢  
 بنون نصر: ٦٠، ١٧٦، ١٧٩، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٥٠، ٤٤٠  
 بنو هرون: ٣٩٧

الموريسكيون (العرب المنتصرون) ٩٣، ٩٦، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٧١، ٢٥٥، ٢٦٤، ٣٤٠، ٤١٠، ٤٣١، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٩، ٤٤٠.

المولدون ٨٠، ١٨٩، ٢٣٨، ٢٥٢، ٣٨٠.

النصارى ١٥، ٢٥، ٦٩، ٧٠، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٨، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٨، ٢٩٩، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٥٢، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٧٣، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٥، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١١، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦.

النصارى المعاهدون ١٥، ٤٣٦.

الهولنديون ٢٨٨، ٤١٦.

اليهود ٨٣، ١٦٢، ١٦٥.

المسلمون ١١، ١٥، ١٨، ٣٣، ٧٠، ٨٠، ٨٢، ٨٥، ١٧٦، ١٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١١٠، ١١٦، ١٢٠، ١٢٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٦، ١٨٦، ١٨٨، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٧، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٦، ٣٩٠، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٠، ٤٣٥، ٤٤٠، ٤٤٤.

المغاربة ٢٥٥، ٢٦٤، ٣٨٦.

الملكة القوطية ٨٠.

الملكة النصرانية الشمالية ٣٤٩، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٦.

ملكة أراجون ١١٢، ٣٠٩.

ملكة إشبيلية ٧١، ٢٦١، ٣٩٠.

ملكة البرتغال ٤١١.

ملكة ألمرية ٢٢١.

ملكة بطليوس ٤١١.

ملكة جنيفية ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٩.

ملكة دانية ١٢٦.

ملكة طليطلة ٣٣١.

ملكة سرقسطة ١٠٥.

ملكة غرناطة ١٦٥، ١٧٥، ١٨٦، ١٨٨، ٢٢١.

٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٤.

٢٦٦، ٢٧١، ٣٣٤، ٣٣٦، ٤٣٩.

ملكة قرطبة ٣٤٩.

ملكة ليون ٣٤٩.

ملكة نفاار ٣٠٧.

الموحدون ١٨، ٢٠، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥١، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ١٦٩، ٢٢١، ٢٧٤، ٢٨٥، ٢٩١.

٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣١٤، ٣٧٣، ٣٩٠، ٣٩٢.

٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤١٦، ٤٢٥.



الشر (ماتقة) ٢٥٠	البسطة ١٦١
الصخرة (كوفادنجا) ٣٧٠، ٣٦٧	النشرات ٢٠٧
العقاب، موقعة ١٢، ٢٣٠، ٣١٣، ٣١٤	البندقية ١٥٤
الغرب، ولاتية ١٢٦، ٣٨٧، ٣٩٠، ٣٩٦، ٣٩٧٨	النهر الذهبي ١٠٦، ١٠٨
٤٠٩، ٤٠٢، ٤٠٦	الثب ١٤٥
ألفا (أشونة) ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٠	أجنال ٢٩٧
ألفونتيو ٣٨٢، ٢٩٧، ٣٠٢، ٣٨٧	الحاثر الشرقية ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
القصة الحمراء ١٨٩	الحزيرة (شلمية) ١٣٩
القصة القديمة ١٦٢	الحزيرة الحمراء ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤
القصر الأسفل (قرطية) ٣١	الحامة ١٤٤، ١٦١
القصر الأمري ٣١	الحجار ٢٢٢
القصر الأتلي (جبل طارق) ٢٩١	الحراء، معلقة، قصبة ٩، ١٠، ١٢، ٥٨، ٨٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١١، ٣٣٨، ٣٤٠
القصر الخليلي (الزهره) ٣٨	الحراء، القعة ١٨٩، ١٩٢
القصر العربي (الحراء) ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٧	الحل (الفتح الجديد) ١٧٣، ١٧٤
القصر (أش) ١٥١	الحرق (البرغل) ٣٩٦
القصر (مليطلة) ٨٢، ٩٠	الخصي ١٣٩
القصر (شريس) ٢٩٨، ٢٩٩	الحنق، موقعة ٣٢٠، ٣٥٢
القصر (لينة) ٣٩٣	لدابة (الضبعة) ٩٨
القصر (إسبانية) ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤	الدير المتكر ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤
٤٣٧	الروضة (الحراء) ٢٠٧، ٢٠٨
ألفيرية، ١٦٤، ١٧٠، ١٧١	أريونداس ٣٦٦
أنكالا (مريد) ٣٣٣	الزاهرة ١٨٩
الكدي (بنسية) ٩٨	الزهره ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ١٨٩، ٣٣٨
الكدي (مبورقة) ١٣٦	السابط ٢٠، ٣١
المراستان المصري ١٧٨، ١٧٩	السبكة ١٦٢، ١٨٦
ألمرية ٩٨، ١٤٢، ١٦١، ١٨١، ٢٢٢، ٢٥٨، ٢٦٥	السور الأتلي (جبل طارق) ٢٩١، ٢٩٤
٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٠، ٣٣٦، ٤٣٠، ٤٣٩، ٤٤٠	كش ١٥١، ١٥٢
المنصورة ٣٣٩	الشام ٤١٦
المنكب ١٦١، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢	
أنتيو (ولاية) ٤٠٦، ٤١١، ٤١٣	
النساء ٣٤٢	
أنور ٢٥٢	
أنيسو (أشونة) ٤١٦	

باب الغدور (الحمراء) ١٩٢	أمريكا ٣٨٨، ٤٦
باب الغفران (إثينية) ٤٩	أمريكا الجنوبية ٤١٧
باب الغفران (قرطبة) ٢٢	أنكرويل ١٦٢
باب القبة (الزهراء) ٣٩	إنجلترا ٢٨٨
باب الكحل (مبورقة) ١٢٧، ١٣٤	أندرس ٣٣٤
باب المنى (مبورقة) ١٣٤	أوريون ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢
باب المقار (رندة) ٢٧٧	أوسينا، صخرة ٣٦٧، ٣٦٨
باب المنطرة (مبورقة) ١٢٧	أولبيدو ٣٦٦، ٣٦٤، ٣٦٦
باب النخيل (بعلبوس) ٣٧٣	أونية (ولية) ٣٨٩
باب النخيل (قرطبة) ٢٢، ٣٠	أباموتس ٣٩٦
باب برتين (مبورقة) ١٢٧	إيريا ٣٤٤
باب بساجرا (إثينية) ٨٢	ب - ث
باب بلايو (ليون) ٣٥٠	باب إثينية (قرمونة) ٧٣، ٧١
باب بني عسرة (غرناطة) ١٨٤	باب إثينية (أبنة) ٣٩٢
باب ترندك (بعلبوس) ٣٧٨	الباب الأندلسي (باجة) ٤٠٧
باب تيورا (قانس) ٣٠٣	الباب الملكي (غرناطة) ١٦٢
باب سان أندريس (شونية) ٣٢٥	باب البحر (مبورقة) ١٢٨
باب سيده (غرناطة) ١٧٥	باب البك (مبورقة) ١٢٨
باب شريس (طريف) ٢٧٩	باب البليط (مبورقة) ١٢٧، ١٣٤
باب شنت إشتن (قرطبة) ٢٢	باب البنية (غرناطة) ١٦٨، ١٧٤
باب غرناطة (الحمراء) ١٨٨	باب إنيرة (غرناطة) ١٧٤، ١٧٥
باب غرناطة (أبنة) ٢٣٠	باب الجديد (مبورقة) ١٢٧
باب قرطبة (قرمونة) ٧١، ٧٣	باب الخيفة (سمورة) ٣٥٤
باب مكارينا (إثينية) ٦٧	باب الزمان (الحمراء) ١٦٠، ١٨٤
باجة ٢٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٥	باب الزبانة (الحمراء) ١٦٨، ١٧٤
الباردو، سهل ٣٣٢	باب السدة (الزهراء) ٣٩
بالما دي مبورقة، انظر مبورقة.	باب السراجب (مبورقة) ١٢٧
بالنسبا ٣٣٩	باب السلاج (الحمراء) ١٩٢
ببشقا ٢٥٢	باب الشراب (الحمراء) ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢
بجاجة ٢٦٥	باب الشريعة (الحمراء) ١٨٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٢
بحر الظلمات ٢٨٤، ٤١٧	باب الشري، موقعة ١٢
البرقع ٤٨، ٣٨٧، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٢، ٤٠٦	باب الطبايق السبع (الحمراء) ١٩٢
٤٠٧، ٤١٥، ٤٢١، ٤٢٤	باب العمود (بعلبوس) ٣٧٨



البرج الأبيض (جبل قارم) ٢٤٨	بنوط (غرناطة) ٢١٨
برج إسنتايروس (البرج الموحني) ٣٧٦، ٣٧٥	بني أريج ١٤٥
برج الأكمام ١٩٠	بني تشدوي ١٤٥
برج الأسيرة ١٩٠	بني جاسر ١٤٥
برج الأميرات ٢٠٨، ١٩٠	بني دليج ١٤٥
برج الجليليين ٩٥	بني نورم ١٤٥
برج الحراسة ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢	بني سلم ١٣٦
برج الذهب ٦٣، ٦٧	بني عني ١٣٦
برج لراهب ٢٦٠	بني عيسر ١٤٥
برج لرموس ١٩٠	بني فايز ١٣٩
برج العقائل ١٩٠	بني فري ٩٨
برج العامين ٣٢٨	بني قاسم ٩٨
برج قهرة (الش) ١٥١	بني قنديل ١٤٩
برج قمارش ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦	بني لوبة ١٤٥
برج لكاروتو ٩٥	بني مرقيل ١٤٥
برج الماء ١٩٠	بني مسلم ١٣٩
برج المترين ١٩٠، ٢٠٥	بني البركة (بني الريحان) ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨
برج سانت كروث ٧٦، ٧٨	٢٠٩
برشلونة ٩٣، ٩٨، ١٠٤، ١١٤، ١١٧، ١٢٥	بني السفراء (الشميلة) ٥٨
برغش ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣٥٧	بني السفراء (بني قمارش) ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦
بركونة ٢٢٢	بني الملوك (الشميلة) ٦٢
بريقة ١٣٨	برتل ٩٨
بسطة ١٦١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٤٤٠	بورقو (برتقل) ٣٩٥
بعلبيوس (وولايمة) ٩، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٧٩	بباسة ١٦، ٢٢٨، ٣١٤
٣٨٠، ٣٨٦، ٤٠٦، ٤١١	بيت المقدس ٣٤٨
بلاد البشكنس انظر دافار	بيغ ٢٢٢
بك الوليد ٣٠٦، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٥٧	برجالة ٣٨٦
بلش مالفقة ٢٥٤، ٢٥٥	تطينة ١١٣، ١١٤
بلنسية ٩، ١١، ١٨، ٤٥، ٩٣ - ٩٦، ٩٨، ٩٩	توري سلمار ٢٥٤
١٠٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٢	تولوسة، خضيب ٣١٤
١٥٥، ١٥٦، ٢٢١، ٢٦٦، ٢٩٧، ٣١١	انشر الأعلى ١٠٤، ١١٤، ٢٣١
بنبلونة ١١٣، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩	ج - ح
بلو عبوس ٢٦٥	جامع أبدة ٢٣٢

جامع ابن عديس ٤٧، ٤٨، ٥١، ٦٦	جامع تشبونة ٤٢٠
جامع أرشدونة ٢٤٠	جامع لقنت ١٥٠
جامع إستجة ٧٨	جامع لوثة ٢٣٦
جامع إشبيلية ٢٢، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٤، ٥٦، ٦٣، ٦٦	جامع ماردة ٣٨٣
الجامع الأبيض ١١٠، ١١٣	جامع ملقة ٢٥١
جامع النوازين ١٦٨	جامع ميورقة ١٢٧
جامع الجزيرة الخضراء ٢٨٢	جامع وادي آش ٢١٦
جامع الكتبية (مراكش) ٥٥	جامع وادي الحجار ٣٣٠
جامع لمريّة ٢٧٠	جامع ونية ٣٨٦
جامع بسطة ٢٣٤	جامع يابرة ٤١٤
جامع بعلبوس ٣٧٢، ٣٧٨	جامعة أكسفورد ٣٥٨
جامع تعليلة ١١٣	جامعة ألكالا دي هنارس ٤٣٠
جامع حيان ٢٢١، ٢٢٤	جامعة أوفينبر ٣٦٤، ٣٦٥
جامع دانية ١٤٧	جامعة باريس ١٦٥، ٣٥٨
جامع رندة ٢٧٣	جامعة بك التونيد ٣١٨
جامع سرقسطة ١١٠	جامعة بولونيا ٣٥٨
جامع شاطبة ١٤٣	جامعة شلمنقة ١٦٥، ٣٥٧، ٣٥٨
جامع شريش ٣٠٠	جامعة شنت ياقب ٣٤٧
جامع شب ٤٠٤	جامعة غرناطة ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ٣٥٧
جامع طرطوشة ١٢١	جامعة غرناطة الإسلامية ١٧٣
جامع طركونة ١١٧	جامعة قرطبة ٢٢
جامع طليطلة ٨٢، ٨٣، ٨٧	جامعة يابرة ٤١٤
جامع غرناطة ١٧١، ١٨٢	جانتيا ١٤٣
جامع فارو ٤٠٠	جبل سيرا مورينا ١٨، ٣٠
جامع قانس ٣٠٢، ٣٠٣	جبل سيرا نقسادا ١٦١، ١٦٤، ١٩٢، ٢١١، ٢١٥
جامع قرطبة ٩، ١٠، ١٢، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤	٢١٨، ٢٣٢
٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٤٦، ٤٧، ٢٠٩	جبل كنتيريا ٣٦١
٣٤٤	جبل مراكش ٢٧٨
جامع قرمونة ٧٤	جبل آتيا ٢٨٤
جامع قصبة بعلبوس ٣٧٥	جبل القنح ٢٨٦
جامع قصبة شقرين ٤٢٨	جبل برنيسا ١٤٠
جامع لبلة ٣٩٢	جبل خنيس ٣٦٧، ٣٧٠

حصن أنجور ٢٢٠	جبل طارق ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٦
حصن باجة ٤٠٨	٢٩٦، ٢٩٤، ٢٩٢
حصن جبل قارو ٢٤٨، ٢٤٦	جبل طارق، مدينة ٢٨٨
حصن جيان ٢٢٢، ٢٢٤	جبل غترا ٢٦٦
حصن دانية ١٤٧	جبل قارو ٢٥١
حصن روطا ١١٣	جبل كاسي ٢٨٤
حصن سانتا كاتالينا ٢٢٢	جبل وادي الرملة ٣٣١، ٣٢٢
حصن سان تلمو ٢٧٠	جران بيا (مترين) ٣٣٣، ٣٣٢
حصن سان فرناندو ١٥٠	جزائر البليار، انظر الجزائر الشرقية
حصن سهيل ٢٥٣	جزر الرلن الأخضر ٤١٧
حصن شاطبة ١٤٠، ١٤٢	جزر الكناري ٤١٧
حصن شلب ٤٠٤	جزيرة العملاقة ٤١٧
حصن شلوانية ٢٦٢	جنيقية ٣٠٦، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٦١
حصن (قلعة) شنت منكش ٣١٩، ٣٢٠، ٣٣٤	جناح الأسود (الحصراء) ١٩٣
حصن طريف ٢٧٩، ٢٨٠	جناح الملك بيدرو (القصر) ٦٢
حصن كنيسبون ١٥٨	جناح الملوك الأنطسبين (القصر) ١٥٨، ٦٠
حصن مجريط ٣٣١	جناح الملوك الكاتوليك (القصر) ٥٨
حصن مريئة ٢٥٧	جناح فيليب الثاني (القصر) ٥٨
حصن مكين ٢١٨، ٢٢٠	جناح قسارش (الحصراء) ١٩٣
حصن موتي أجودو ١٠٠	جين (ولاية) ١٦١، ١٦٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤
حدائق القصر ٣٠، ٦٤	٢٢٧، ٢٢٨، ٣٣٩
الحصان العربية (بسطة) ٢٣٤	حدائق الملكة (غرداية) ١٧٦
الحصان العربية (جبل طارق) ٢٩٢، ٢٩٤	الحصن الأنطسي (جبل طارق) ٢٩١، ٢٩٤
الحصان العربية (جين) ٢٢٦	الحصن الأنطسي (شنترة) ٤٢٤
الحصان العربية (رنتة) ٢٧٤	حصن الأنطسبين (قرطاجنة) ١٥٦
الحصان العربية (برسية) ٩٩	حصن أوراكا (سمورة) ٣٥٤
الحصان العربية (ميورقة) ١٣٢	حصن الرابطة، انظر حصن سهيل
حصان الأميرال (بلنسية) ٩٥	حصن القديس جورج ٤١٧، ٤٢٠
حصان الحصراء ١٩٨، ٢٩٤	حصن القديسة يريارة ١٤٩
حصان كايا ٩٠	حصن القصر ٣٨٩
حصن ٤٥	حصن اللوز ١٦١
حي البيازين ١٦٨، ١٦٦، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩	حصن المنظر الحويل (ميورقة) ١٣٣
١٧٠، ١٧٤، ١٨٠، ١٩٢، ٢١٠، ٣٣٨	حصن المنكب ٢٦٠

دير نيري ٣٠٩	حي الرصافة (بنسبة) ٩٣
الرياضة ٥٤	حي الروح القدس ١٩، ٣٣
ربض البيازين انظر حي البيازين	حي القصر القديم ٣٠
ربض البيضاء ١٦٢	حي سن فرنسيسكو (رنتة) ٢٧٧
ربض الفخارين ١٦٢	حي سانتا كروث ٦٨
ربض المرابطين ١٦٢	خليج يسكونية ٣٦١
ربض المنصور ١٦٢	خوسيه أنطونيو (متريد) ٣٣٢
ربض قنارش ١٦٢	٤ - ٣
رحبة باب الزيادة ١٦٨	دار الأصداف (شلمقة) ٣٥٨، ٣٦٠
رنتة ٩، ١٣، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩٧، ٤٣٠	دار الرماية (غرناطة) ١٧٤
روس (بياسة) ٢٣٠	دار السرور ١٠٥، ١٠٦
روطة خالون ١١٣	دار القمح (غرناطة) ١٧٤
رومة ٣٣	دار المحفوظات التاريخية ٣٤
زفرة العربي الأخيرة ١٣٣	دار المحفوظات العامة ٣٢٠
س - ع	دار پلاتوس ١٦٤، ٦٦
ساجنوا ١١، ٩٨	دار محفوظات الهند ٤٦٢
ساحل الشمس ٢٥٦	دار محفوظات بلدية بنسبة ٩٦
سالادو، موقعة ٨٥، ٢٨٢	دار محفوظات مملكة بنسبة ٩٦
سان بنيتو (مرسية) ٩٩	دار محفوظات بلدية ميورقة ١٣٣
سانتافييه ١٦١	دار محفوظات بنبلونة ٣٠٨
سان روكي ٢٨٨	دانية ١٢٦، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
سان فرنانو (الفرنثيره) ٢٨٣	دير الحفاة (بطلنوس) ٣٧٨
سان كنتان (موقعة) ٤٣٢	دير الكابوسين ٦٧
سان لوقا ٣٨٩	دير ساكرومنتي (غرناطة) ١٦٤، ١٦٩، ١٨٠
سبنة ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٠٣	دير سانتا ماريا دي جراثيا (آبله) ٣٢٦
سردانية جزيرة ١٤٦	دير سن جيلونمو ٣٥
سرقسطة ٩، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠	دير سن دومنجهو ١٥٤
١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٢٦، ١٨١، ٣٢٥	دير سن فرنسيسكو ١٢٧
سمورة ٣٢٠، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦١	دير سن كمنتي ٣٤٠
السنغال ٤١٧	دير سن ماركوس ٣٥١
سهيلا ٢٥٧	دير فونسكا ٣٤٧
سوق مالفقة ٢٤٨	دير كونسيسوا (باحة) ٤٠٨، ٤١٠
	دير لاجراسا (بايرة) ح ٤١٤

عقد المدينة (مبورقة) ١٢٨	سوليير ١٣٦
عقد تراجال (مارنة) ١١، ٣٨٣	سويسرة ٣٤٢
عقد رومل (بانة) ٢٣٠	شاعلية ١٩، ١٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ٢٢١
عقد سن نورنزو (جيان) ٢٢٤	شبه الجزيرة الإسبانية ١١، ٣٧٨، ٣٩٥، ٤٣٣، ٤٣٨، ٤٣٧
عقد بايرة (باجة) ٤٠٧	شويش ألفرنشهره ٩، ٢٧٧، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٢
عقد يسوع (أشونة) ٤٢٠	شويبة ١١، ٣٠٦، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٦
عقد (المرية) ٢٦٥	شكلا (ألفرنشهره) ٢٨٣
غرناطة (وولاية) ٩، ١٣، ١٦، ١٩، ٢٦، ٢٨، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ٦٩، ٨٣، ٨٤، ١١٢، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١ - ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٥١، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٠	شلب ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٤، ٤٠٥
فد - ق	شلفقة ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١
قاروا انظر شنتورية الغرب	شلوبانية ١٦، ١٦١، ١٦٢، ٢٥٨، ٢٦٤
قاس ٢٠٧	شنتوس (ألفرنشهره) ٤٠١
قرلسا ١٤٦	شنترة ٣٩٦، ٤٢٢، ٤٢٤
قعر ألفرنشهره ٢٨٣	شنترين ٤٨، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٢٦، ٤٢٥
قليا مرتين ٢٩٧	شنترية الغرب ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١
قناه الأسونة ١٩٣، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٧	شنت منكل (سيمانة) انظر حصن شنت منكل
قناه البركة انظر بهو البركة	شنت ياقب، مدينة ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩
القناه الشرقي (الزهره) ٣٨	صومعة جامع إشبيلية انظر مشاركة جامع إشبيلية
قناه السرو (الحصراء) ١٩٨	طرموشة ١٣، ١١٤، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٣٧
قناه الصيد (القصر) ٥٨	طركونة ١١، ١١٤، ١١٧، ١١٨، ١٢٠
قناه العذاري (القصر) ٥٨، ٦٠	طريف ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٤
قناه العرائس (القصر) ٥٨، ٦٢	طليطلة ٩، ١٥، ٢٩، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ١٠٤، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٧٣، ٣٤٠
القناه الغربي (الزهره) ٣٨، ٣٩	طنجة ٢٧٨، ٢٨٣
قناه للتزاحا ٢٠٥	عدوة المغرب (العدوة) ٤٢٧، ٤٤٤
قناه المشكة (مبورقة) ١٢٨	العقد المظلم (أشونة) ٤٢٠
قناه النارج (قرطبة) ٢٢	عقد أبواب البحر (أشونة) ٤٢٠
قناه النارج لو ألفرنشهره (إشبيلية) ٤٩	عقد أثمارا (شنترين) ٤٢٦
	عقد الحراسة (قارو) ٣٩٨
	عقد العميد (سرقطة) ١٠٨



قصة لاردا ١١٤	فونخولا (سهيل) ٢٥٧
قصة ليلة ٣٩٣	فيلاريل ٣٩٦
قصة لغتنا ١٤٨، ١٥٠	فانس ٢٨٣، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٣
قصة لوشة ٢٣٥، ٢٣٦	قاعة الأخوين ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٥
قصة ماردا ٣٨٢، ٣٨٣	قاعة السراء (القصر) ١٥٨، ٦٠
قصة مافقة ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨	قاعة العدل (القصر) ٥٨
قصة واني آش ٢١٥، ٢١٦	قاعة الملوك (الحصراء) ٢٠٣
قصر أبي دالنس ٣٩٥	قاعة بني سراج ٢٠٣
قصر الإسكورييل ٣١٢، ٣٢٢، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣	قبر القديس ياقب ٣٤٧
قصر الأمير أبي مالك ٢٧٤	قبر يابوا ٣٦٨
قصر الجعفرية ١٠٥، ١٠٨، ١١١، ٣٢٤	قرطاجنة ٩٨، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨
قصر الحراسة (شقرة) ٤٢٤	قرطبة ١٩، ١٣، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٨، ٢٩
قصر الحصراء ٢٦، ٣٣، ٥٨، ١٧٤، ١٧٨، ١٨٠	٣٠، ٣٤، ٣٥، ٤٥، ٤٤، ٧٣، ٧٦، ٩٩، ١٠٤
١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٥، ٢٠٩	١١٤، ١٨٦، ٣٤٤، ٣٥٧، ٣٧٢، ٣٩٠، ٤٣٧
قصر الزاهرة ٣٣٩	قرطبة القديمة ٣٦
قصر السباع ١٩٦	قرطمة (مافقة) ٢٥٢
قصر السيد انظر قصر شليل	قرمونة ١٦، ٧١، ٧٩
قصر الشراييب (شلب) ٤٠٤	قسطونة (سهيل) ١٣، ١٣٧، ١٣٨
قصر لي قرمان ٣٥١	قسطونين ٢٠، ٢١
قصر المدينة (ميورقة) ١٢٧، ١٢٨	قشتالة ٤٥، ٦٠، ٧٠، ٨٣، ٢٢٢، ٢٢٨، ٣١٣
قصر المشرق (مريد) ٣٣٣	٣٢٨، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٥٧
قصر المعتمد بن عباد ٦٢، ٦٣	قشتالة القديمة ٣٠٦، ٣١٠، ٣٢٢
قصر المؤنس (الزهراء) ٣٥	قشرش ٣٨٦
قصر يارنو (مريد) ٣٣٣	قصة أرشدونة ٢٢٣، ٢٤٠
قصر بني هودا ١٠٥	قصة ألمرية ٢٦٦، ٢٦٨
قصر بينا (شقرة) ٤٢٤	قصة أوريولة ١٥٢
قصر جنة العريف ١٦٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١	قصة بطليوس ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٩
٢١١، ٢١٢، ٢١٤	قصة بلش ٢٥٤
قصر خمريث (شنت ياقب) ح ٣٤٧	قصة جيان ٢٢١
قصر شاركان ١٧٨، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٣، ٢٠٩	قصة زنده ٢٧٢
قصر شقوبية ٣٢٥	قصة شاطية ١٤٢
قصر شلب ٤٠٤	قصة طريف ٢٧٩، ٢٨٠
قصر شليل ١٧٥، ١٧٦	قصة فانس ٨٦

قصر مرشانة (قرمونة) ٧٤	كنترائية تطيلة ١١٣
قصر سندوسا (وادي الحجاره) ٣٣٠	كنترائية ترويل ٤٣٧
قصر مونتيري (شمنقة) ٣٥٨، ٣٦٠	كنترائية جبان ٢٢٤، ٢٢١
قلعة جابر ٦٩، ٧٠	كنترائية دانية ١٤٧
قلعة سمورة ٣٥٤	كنترائية سرقسطه ١١٠، ١١٢
قلعة طرطوشة ١٢١	كنترائية سمورة ٣٥٤، ٣٥٦
قلعة سحريط ٣٣٢	كنترائية شريش (الكولخياة) ٣٠٠
قلعة بحصب ٢١٨	كنترائية شمنقة ٣٥٨، ٣٦٠
قلمرية ٣٩٤	كنترائية شنت ياقب ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٦
قنطرة الحجر (سرقسطه) ١٠٤	كنترائية طركونة ١١٨
قنطرة القنطرة (مليطلة) ٨٢، ٩٠	كنترائية مليطلة ٢٠، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٨٨
قنطرة بنوط ٢١٨	كنترائية غرناطة ١٧١
قنطرة رندة العربية ٢٧٣	كنترائية فارو ٣٩٨، ٤٠٠
قنطرة سان تلمو (إشبيلية) ٦٣	كنترائية كوفاندجة ٣٧٠
قنطرة شقوبية الرومانية ٣٢٢، ٣٢٤	كنترائية نيون ٣٥٠
قنطرة شلب العربية ٤٠٤	كنترائية مالقة ٢٥٠، ٢٥١
قنطرة شيل ١٦١، ١٦٢، ١٧٦، ١٧٨	كنترائية وادي أثل ٢١٥، ٢١٦
قنطرة قرطبة الأندلسية ٣١	كنترائية ولية ٣٨٧
قنطرة مارة الرومانية ٣٨٠، ٣٨٢	كنترائية يابرة ٤١٢، ٤١٤
قنطرة وادي الحجاره ٣٣٠	كنيسة آية العظمى ٣٢٦
قوس المسيح (مالقة) ٢٤٤	كنيسة أرشدونة العظمى ٢٤٠
قونقة ٣١٦، ٣٣٩	كنيسة أشبونة العظمى ٤٢٠
- ك -	كنيسة الجزيرة العظمى ٢٨٢
كاتان يي (جبل طارق) ٢٩٠	كنيسة الرحمة (شريش) ٣٠٠
كاستيلانا، مقتره (مريد) ٣٣٣	كنيسة الصخرة (كوفاندجا) ٣٧٠
كانجلس دي أوتيس ٣٦٦	كنيسة القديس بطرس ٣٣، ٤٦
كنترائية إشبيلية ٢٠، ٤٦، ٤٩، ٥١، ٥٦، ٥٨، ٣٠٠	كنيسة القديس ميخا (ميورقة) ١٢٧
كنترائية ألمرية ٢٦٨	كنيسة القديسة أجيلا ٧٠
كنترائية أوفيدو ٣٦٢	كنيسة القديسة مريم ذات النخيل (الجزيرة) ٢٨٢
كنترائية برجوس ٣١٠، ٣١١	كنيسة القديس يوحنا أبي الفوارس (قرطبة) ٣٣
كنترائية بلد الوليد ٣١٨	كنيسة القديس يوحنا (شنترين) ٤٢٨
كنترائية بنسيف ٩٥	كنيسة ألكسوقا (شنترين) ٤٢٨
كنترائية بنشونة ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٦	كنيسة المنكب العظمى ٢٦١

- كنيسة أنونثاتا (لارنه) ١١٥  
 كنيسة أنونسياسيون (بسطه) ٢٣٤  
 كنيسة أوريولة العظمى ١٥٣  
 كنيسة أيا صوفيا ٣٥٤  
 كنيسة بعلبيوس العظمى ٣٧٨  
 كنيسة بيدادي (شنترين) ٤٢٨  
 كنيسة رنده العظمى ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤  
 كنيسة سان أنطرس (باحة) ٤٠٨  
 كنيسة سان أنطرس (بنفسية) ٩٥  
 كنيسة سان أنطرس (جيان) ٢٢٧  
 كنيسة سان أوجسق (بعلبيوس) ٣٧٨  
 كنيسة سان إيزيدورو (أوفينيو) ٣٦٢  
 كنيسة سان إيزيدورو (ليون) ٣٥١ كنيسة سان مابلو (أبده) ٢٣٢  
 كنيسة سان بلايو (سنتياجو) ٣٤٧  
 كنيسة سان بييرو (ولنه) ٣٨٧  
 كنيسة سانتا أولاليا (مارده) ٣٨٣  
 كنيسة سانتا كروت (استجة) ٧٦، ٧٨، ٧٩  
 كنيسة سانتا مجدينا (جيان) ٢٢٦  
 كنيسة سنتياجو (أوريولة) ١٥٣  
 كنيسة سنتياجو (باحة) ٤٠٨  
 كنيسة سنتياجو (شريس) ٣٠٠  
 كنيسة سنتياجو (قرطبة) ٣٤  
 كنيسة سنتياجو (مالقة) ٢٥٠  
 كنيسة سانتا ماري العظمى (أبده) ٢٣٢  
 كنيسة سانتا ماري (استجة) ٧٩  
 كنيسة سانتا ماري (الحصراء) ٢٦، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٠٨  
 كنيسة سانتا ماري دل تارنكو (أوفينيو) ٣٦٢  
 كنيسة سانتا ماري العظمى (باحة) ٤٠٨  
 كنيسة سانتا ماري ذات الحصن (بعلبيوس) ٣٧٥  
 كنيسة سانتا ماري (بلش) ٢٥٤  
 كنيسة سانتا ماري (بنفسية) ٩٥  
 كنيسة سانتا ماري دي بلانكا (مليطلة) ٨٩  
 كنيسة سانتا ماري (ثيلة) ٣٩٢، ٣٩٣  
 كنيسة سانتا ماري (لقت) ١٥٠  
 كنيسة سانتا ماري (مارنه) ٣٨٣  
 كنيسة سانتا ماري (وادي الحجاره) ح ٣٢٨  
 كنيسة سان جيرلسو (أشيونة) ٤٢١  
 كنيسة سان خون (لمرية) ٢٧٠٩  
 كنيسة سان خون (بلش) ح ٢٥٤  
 كنيسة سان خون دي لوس ريس (غرناطة) ١٦٩  
 كنيسة سان خون القوية (مليطلة) ٤٣٧  
 كنيسة سان خون دي لايالما (إشبيلية) ٦٧  
 كنيسة سان خوسي (البيازين) ١٦٨  
 كنيسة سان دومينجو (مالقة) ٢٥٠  
 كنيسة سان دوتريو (شريس) ٣٠٠  
 كنيسة سان سلفادور (إشبيلية) ١٥١، ٦٦  
 كنيسة سان سلفادور (البيازين) ١٦٨  
 كنيسة سان سلفادور (مليطلة) ٨٩  
 كنيسة سان سلفادور (قرطبة) ٣٤  
 كنيسة سان فرنسيسكو (استجة) ٧٩  
 كنيسة سان فرنسيسكو (شنترين) ٤٢٨  
 كنيسة سان فرنسيسكو (يايرة) ٤٠٤  
 كنيسة سان لويس (غرناطة) ١٦٩  
 كنيسة سان ماتيو (شريس) ٣٠٠  
 كنيسة سان ماتيو (طريف) ٢٧٩  
 كنيسة سان ماركوس (إشبيلية) ٥٧  
 كنيسة سان ماسو (بسطه) ٢٣٤  
 كنيسة سان مرنين (ثيلة) ٣٩٢  
 كنيسة سان ميغل (شريس) ٣٠٠  
 كنيسة سان ميغل دي ليو (أوفينيو) ٣٦٤  
 كنيسة رنده العظمى ٢٧٣، ٢٧٤  
 كنيسة سرقسطه العظمى ٤٣٧  
 كنيسة سيده المدينة (محريب) ٣٣٢  
 كنيسة سيده النصر (مالقة) ٢٥٠  
 كنيسة شاطبة العظمى ١٤٣، ١٤٤

كنيسة شقوبية العظمى ٣٢٤، ٣٢٢  
 كنيسة شلب العظمى ٤٠٤  
 كنيسة شلوبانية ٢٦٢  
 كنيسة شترين العظمى ٤٢٦  
 كنيسة طرطوشة العظمى ١٢١، ١٢٠  
 كنيسة عزراء الرأس (مقريل) ٢٦٤  
 كنيسة قانس العظمى ٣٠٢  
 كنيسة قرطاجنة العظمى ١٥٨  
 كنيسة قرطبة الجاسعة ٢٠  
 كنيسة قرمونة العظمى ٧٤، ٧١  
 كنيسة قسطنطينة ١٣٧  
 كنيسة كيرثيا (شلمقة) ٣٦٠  
 كنيسة كونسيبون (بعلبوس) ٣٧٨  
 كنيسة لاثونا (لاردة) ١١٥  
 كنيسة لاجراسا (بابرة) ٤١٤  
 كنيسة لاردة العظمى ١١٥  
 كنيسة لاسو (سرقسطة) ١١٠، ١٠٨  
 كنيسة لوثة الكبرى ٢٣٦  
 كنيسة ساربا سالومي (سنتياجو) ٣٤٧  
 كنيسة مرسية العظمى ١٠٠  
 كنيسة مسيح النصر (مالقة) ٢٥٠  
 كنيسة مكين ٢٢٠  
 كنيسة ميورقة العظمى ١٢٧  
 كنيسة واني الحجارا العظمى ٣٣٠  
 كورسيكا، جزيرة ١٤٦  
 الكورينا (مدريد) ٣٣٣  
 كوفادانجا ٣٦٧، ٣٦٦  
 كوفادانجا، موقعة ٣٦٨  
 ل - م  
 لاهيرالدا انظر منارة جامع إشبيلية  
 لاردة ١١٤، ١١٦  
 لاكورونيا ٣٤٢  
 لاثنيا ٢٨٨  
 لامنشا، ولاية ٢٢٨  
 لباتو، موقعة ٣١٦  
 لينة (ولاية) ١٦، ١٣، ٣٩٠، ٢٩٢، ٣٩٤  
 لشبونة، أنظر ألبونة  
 لغت (ولاية) ٩٨، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٣

لكه، مدينة ٣٦١  
 لورقة ٢٣٣  
 لوس باريوس ٢٨٨  
 لوثة ١٦١، ٢٣٥، ٢٣٧، ٣٣٥  
 لوثة بالنسية ٩٥  
 لونخا سرقسطة ١١١  
 لونخا ميورقة ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦  
 ليون، مدينة ٣٩، ٦٠، ٣٠٦، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١  
 ماردة ١١٩، ٣٧٢، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٦  
 مالقة ٢٩٦  
 مالقة ٩، ١٣، ١٦، ٩٨، ١٤٢، ١٤٥، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٥ -  
 ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧١، ٤٣٠، ٤٣٩  
 ماناكور ١٣٢  
 مانين (بنسية) ٩٨  
 متحف إشبيلية الأركيولوجي ١٥١، ٦٦، ٦٧  
 متحف إشبيلية الإقليمي ٦٧  
 متحف الترادو ٣٣٣  
 متحف الحمراء ١٦٧، ١٧٨، ١٩٣  
 متحف الدور الملكي ٣١٦  
 متحف الزهراء ٣٣، ٤٠  
 متحف باجة ٤١٠  
 متحف برجوس ٣١٦  
 متحف بعلبوس ٣٧٦  
 متحف بلدية غرناطة ١٦٧، ١٨٢  
 متحف بنسية دي دون خوان ٣٣٥  
 متحف جبل طارق ٢٩٢، ٢٩٤  
 متحف جنة العريف ١٨٠، ١٨١  
 متحف دار الزمالة ١٦٧، ١٨٠، ١٨١  
 متحف سرقسطة ١١١  
 متحف شاطئية ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤  
 متحف طرطوشة ١٢٢  
 متحف طركونة ١١٨، ١٢٢  
 متحف غرناطة الأركيولوجي ١٦٧، ١٧٣، ١٨٠  
 متحف فارو ٤٠٠  
 متحف قرطاجنة ١٥٨  
 متحف قرطبة الأركيولوجي ٣٧

متحف قسطلونة: ١٣٧	مسجد القصبة (لاردة) ح ١١٥
متحف كنيسة طركونة: ١٤٨	مسجد المرابطين: ١٦٨
متحف لازارو: ٣٤٠	مسجد باب المردوم (كريستوني لوث): ٨٨
متحف لشبونة: ٤٢٠	مسجد طركونة: ١١٨
متحف لوليانا (ميورقة): ١٣٠	مسجد مجريط: ٣٣٢، ٣٣١
متحف ماردة: ٣٨٢، ٣٨٤	المسجد، بلدة: ٣٩٦
متحف مئربد الوطني: ١٠٨، ٢٠٨، ٣٣٨، ٣٧٦	المرح الروماني (ماردة): ٣٨٣
متحف مئربد الحربي: ٣٣٣، ٣٣٥	مصلى الملوك الكاثوليك (القصر): ٦٢
متحف ميورقة الأسقفى: ١٣٢	مصلى بيدور الرابع (الجعفرية): ١٠٨
متحف يابرة: ٤١٤	مصلى عتراء كوفاندجا: ٣٦٨
مقريل: ١٦، ١٦١، ٢٥٦، ٢٦٤	مطابق جبل طارق: ٢٨٤
مقرين الملكة: ٢٠٥	معبد ديانا (يانرة): ١١، ١٩، ٤١٢
مجريط: ٣٣١	معبد عتراء الرحمة (أرشدونة): ٢٤٠
المجلس المؤنس (الزهراء): ٣٩	المغرب: ١٦٥، ١٦٦، ٢٠٧، ٢٦٤، ٢٧٦، ٢٧٨
مجلس الذهب: انظر دار السرور	٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٣٤، ٤١٧، ٤٣٢
مجلس الغربية (الزهراء): ٣٨، ٣٩	٤٣٣، ٤٣٥
المحليتي (بنسية): ٩٥	مكتبة أكاديمية التاريخ: ٤٣٥
محارب الجامع (قرطبة): ٣١	مكتبة الإسكوريال: ٣٤٠، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٥
منارة غرناطة النصرية: ١٧٣	مكتبة دير ساكرومنتي: ٤٣٥
منريشة: ١٢، ٨٠، ٩٣، ١٠٤، ١٢١، ٣٠٧، ٣٢٢	مكتبة مئربد الوطنية: ٣٤٠، ٤٣٥
٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٤٣١، ٤٣٥	مكئين، قرية: ٢١٨
المدينة الخليفية (الزهراء): ٣٩، ٤٠	منارة جامع إشبيلية (لاخيرالدا): ١٢، ٤٦، ٤٨، ٤٩
مدينة الفتوح: ٣٨٦	٥١، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ١٦٩، ٢٦٢، ٣٠٠
مدينة مجاهد: ١٢٦	منارة جامع لكنتية (مراكش): ٥٤
مراكش: ٤٨، ٤٩، ١٦٦	منارة جامع قرطبة: ٢١، ٢٨
مريلة: ١٦، ٢٥٦، ٢٥٧	منارة حسان: ٥٤
مربطرا انظر ساجنتو	منارة رنفة العربية: ٢٧٤
المرج (غرناطة): ١٦٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢	منظرة للتتراخا، ٢٠٤، ٢٠٥
مرسى المنكب: ٢٥٨	منورقة، جزيرة: ١٢٤
مرسى سبيل: ٢٥٧	موقعة السانعة: ٣٣٥
مرسية (وولاية): ٩، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٣٩، ١٥٢	موقعة شذونة: ٢٩٧
١٥٥، ١٥٦، ١٦١، ٢٢١، ٢٣٣	مونتي فريو: ١٦١
مرصد طرطوشة: ١٢٢	المهدية: ٢٨٤
مسجد آنية: ٣٢٦، ٣٢٧	ميدان الأجناب (الحصراء): ١٨٨
مسجد أوريونة الجامع: ١٥٣	ميدان باب إلبيرة: ١٦٤
مسجد البيلازين: ١٦٨	ميدان باب الرملة: ١٦٤، ١٧٠، ١٧١
مسجد القاتين: ١٦٩	ميدان باب الشمس (مئربد): ٣٣٣
مسجد الحصراء: ٢٦، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٠٨	ميدان ثلثس (مئربد): ٣٣٣



نهر شقورة ٩٩  
 نهر شنبل ١٧٦، ١٧٩، ١٦١، ١٧٦، ١٧٦، ٢٣٥  
 نهر قريو ٣٢٤  
 نهر مخارس ١٣٧  
 نهر مفتارس ٣٣١، ٣٣٣  
 نهر منهر ٣٩٥  
 نهر وادي آش ٢١٥  
 نهر وادي المدينة ٢٤٢، ٢٥٠  
 نهر وادي نين ٢٧١  
 نهر وادي لكه ٢٩٧، ٣٠٢  
 نهر وادي يانه ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٧، ٣٩٥، ٣٩٦  
 نهر هنارس ٣٢٨، ٣٣٠  
 نيمه ٢٠  
 وادي آش ٩، ١٦١، ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٣، ٢٣٠  
 وادي الحجازة ٣٢٨، ٣٣١  
 وادي شقورة ٩٩  
 وادي شنبل ١٨٣  
 وثقه ١١٤  
 وثبة (وولاية) ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٦  
 هيكل جامع قرطبة ٢٦، ٢٩  
 يافرة ٩، ١١، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤١١، ٤١٢، ٤١٥  
 يابسة، جزيرة ١٢٤، ١٤٥  
 يبرا (يناسة) ٢٣٠

ميدان شمسفة الكبير ٣٥٧  
 ميورقة، جزيرة ١٢٤، ١٢٦، ١٣٦  
 ميورقة، مدينة ١٣٠، ١٢٤ - ١٢٧، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٦

### ن - ي

ناقل (نهر) ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٨  
 ناقورة الأسود (الحمر) ١٩٩، ٢٠٢  
 ناقورة قجوراس (شنترين) ٤٢٨  
 نرحة ٢٥٨  
 نهر ارادة ٤٠٢  
 نهر ارانتون ٣١٠  
 النهر الأحمر ٣٩٠  
 نهر أنرش ٢٦٦  
 نهر أوديل ٣٨٧  
 نهر البيضا ١٣٩  
 نهر التاج ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٩٢، ٣٣١، ٣٨٦، ٤١٧، ٤٢٥، ٤١٨  
 نهر السوادي الكبير ٢٠، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٦، ٥٧، ٦٣، ٦٧، ٧١، ٧٦، ١٠٤، ١٦١، ٢١٥، ٢٢١، ٢٣٠  
 نهر إيسروا ١٠٤، ١٠٥، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢٠، ٣٠٧  
 نهر بسوجرا ٣٢٠  
 نهر تورمس ٣٥٧  
 نهر توربا ٩٤  
 نهر حشره ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٤، ١٩٢  
 نهر خالون ١١٣  
 نهر دويرة ٣١٠، ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٩٥  
 نهر رينوتا (كوقاندنا) ٣٧٠  
 نهر ريوجراندي ١٦١  
 نهر سحري ١١٤، ١١٥  
 نهر سوا ٣٧٢  
 نهر شقرا ١٣٩

### فهرست الأعلام

- ١ -

ابن الأقطر، عمر المتوكل: ٣٧٢، ٤١١  
 ابن الخطيب، لسان الدين: ٢٠٧، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٨، ٤٣٩  
 ابن بسم الشنتريني: ٤٢٥  
 ابن بطوطة: ٢٥٧، ٢٧١  
 ابن خاتمة، أبو جعفر: ٢٦٦  
 ابن رشد: ١٩  
 ابن زمرك: ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣  
 ابن صاحب الصلاة: ٤٧، ٥١، ٦٦، ٢٨٤، ٢٨٦  
 ابن عبد، المعتضد: ٣٩٠  
 ابن عبد، المعتد: ٤٩، ٥١، ٦٦، ٦٧، ٤٠١، ٤٠٤  
 ابن عديون، عبد المجيد: ٤١١  
 ابن عمار، أبو بكر: ١٠٠، ٤٠١  
 ابن محفوظ: ٣٩٠  
 ابن مردنيش: ٣٣٨  
 ابن ميمون: ١٩  
 ابن هلال: ١١٤  
 أبو إسحق إبراهيم، السيد: ٤٨  
 أبو الحسن المريني، سلطان المغرب: ٨٥، ٨٦، ٢٧٦، ٢٨٦  
 أبو الحسن، سلطان غرناطة: ٢٠٤، ٢١٥  
 أبو الطيب الرندي، صالح بن شريف: ٤٤، ١٣٩، ٢٢١  
 أبو القاسم بن حجاج: ٦٧  
 أبو علاء، السيد: ٦٣  
 أبو الثلث الصقلي: ٥٦  
 أبو الوليد إسماعيل، السلطان: ١٧٣، ١٧٨، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٦، ٢١٢، ٢٢٨  
 أبو الوليد الناجي: ٤٠٦  
 أبو بكر الساقلي: ٤٧  
 أبو بكر الطرطوشي: ١٢٢  
 أبو بكر بن زهر: ٤٧، ٤٩  
 أبو سعيد، السيد: ٢٨٥  
 أبو عبد الرحمن بن طاهر: ١٠٠  
 أبو عبد الله، السيد: ٣٨٩  
 أبو عبد الله السعيد (الناصر): ٥٤  
 أبو عبد الله المنصور، السلطان: ١٨٢

أبو عبد الله محمد: ١٧١، ١٨١، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٢  
 ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٥، ٢٣٧، ٢٦٤، ٣٣٤  
 أبو علي الثلوبين، الإمام: ٢٦٢  
 أبو عثمان، السلطان: ٢٨٨  
 أبو مالك المريني، الأمير: ٢٧٦  
 أبو محمد البطلاني: ٣٧٢  
 أبو يعقوب، السيد: ٢٨٥  
 أبو يعقوب، يوسف، الخليفة: ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٦٣، ٣٧٣، ٤٢٥  
 أبو يوسف المريني، السلطان: ٢٩٩  
 أبو يوسف يعقوب، انظر: يعقوب المنصور  
 أحمد بن ياسة، تعريف: ٤٧، ٤٨، ٢٧٥  
 أحمد بن سليمان بن هود، المقنن: ١٠٥  
 أنقوش (الغوسو): ٥٢  
 أردنيو الرابع: ٣٩  
 إسحق، السيد: ١٧٦  
 إسكندر الرابع، البابا: ٣٥٨  
 إسكندر السادس (بورجيا): ١٤٣  
 إسماعيل، مولاي: ٩٩، ٤٣٣  
 الإخوة المغرورون: ٤١٧  
 الإشراد (الاريكونستا): ٩، ١٥، ١٥٨  
 الألفياني: ٤٣٩  
 الإنفاث فينيب: ١٧٦  
 الأوتواقيه: ١٠٨  
 أنبا، دوقا: ٦٤  
 البارودة: ٣٩٠  
 أنورقايز (أبرهاتس): ٣٢٨  
 أنطاميرا، رافائيل: ٣٤٤  
 إل جريكو، دومنيكو: ٨٥، ٨٩، ٩٠  
 الحكم المستنصر: ٢١، ٣١، ٣٢، ٣٩، ٧٩، ١٨٩، ٣٣٩، ٣٥٤  
 السمع بن مالك: ٣١  
 السيد لكبيبادور: ٩٦، ١٥٦، ٣١١، ٣١٢، ٣٢٨، ٤٣٨  
 الشريف الإنريسي: ٤١٦، ٤١٧  
 الغزل القاسي، أحمد بن مهدي: ٢٩، ٣٠، ٤٩، ٥٦، ٦٣، ٨٨، ١٥٣، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ٢٧٩، ٢٨٠  
 ٤٣٣

- الغزيري، ميخائيل: ٤٣٤، ٤٣٥  
 الفتنة الكبرى: ٣٧٢  
 الفن الأندلسي: ٣٦، ٦٤  
 فن المنجنيق: ٦٤، ٦٥  
 لغونو الأول: ٣٧٠  
 لغونو الأول الأرجوني: ١١٠، ١٠٤  
 لغونو الثالث: ٣١٠  
 لغونو الثالث البرتغالي: ٣٩٧  
 لغونو السادس: ٨٢، ٣٢٨، ٣٣٢، ٤٢٥  
 لغونو الثامن: ٣١٣، ٣١٤، ٤٣٧  
 لغونو التاسع: ٣٥٨، ٣٧٩، ٤٣٦  
 لغونو العاشر (العالم): ١٥٤، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٥٨، ٣٩٠  
 لغونو الحادي عشر: ٣١، ٢٨٢  
 لغونو ريمونديس: ١١٣  
 لغونو هنريكي: ٣٧٨، ٣٧٩، ٤٠٦، ٤١١، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٢٦  
 المأمون بن ذي النون: ٣٣٢  
 المقرئ: ١٩٨، ١٩٩  
 الملك الكاثوليكي (فرديناند وإسabella): ١٦٤، ١٦٥  
 ٨٣، ٨٤، ٩٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٦٠، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، ٢١٢، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٥٦  
 ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٦، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٦٠  
 لغونو سانيكي، الأسقف: ٢٦  
 المتوكل بن هود: ١٨٠  
 المنصور بن أبي عسرة: ١٩، ٢١، ٣٥، ٧٩، ١٨٩، ٣٣٩، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٢  
 المنصور السعدي، السلطان: ٤٣١  
 المنصور الموحدي (وإلى شلب): ٤٠٢  
 مبادور دي لوس ريوس: ٢٨، ٦٠، ٦٦، ٣١٦، ٣١٧  
 أوركا، الملكة: ٣٥٤  
 أولاليا، القديسة: ٣٨٣  
 إرفنج، واشنطن: ٢٠٦  
 إيزيدور الهاجري: ٤٠٦  
 إيسابيل ملكة قشتالة: ١٩، ٦٤، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٩٠، ٣١٩، ٣٣٤  
 إيسابيل ملكة البرتغال: ١٠٦  
 باديس بن حبوس: ١٨٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦  
 بارالديو، المصور: ١٨٢  
 برار بن محمد، أبو إسحق: ٢٨٥  
 برنجل الثالث، كونت برشلونة: ١١٨  
 بروفسل، ليفي: ٢٠٧، ٤٣٥  
 بلاتوس، الحاكم الروماني: ٦٦  
 بلايو (بلاجيوس): ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠  
 بلول بن جندان: ٤٧، ٤٨  
 بوسكو، بلاكيت: ٣٨، ٣٩  
 بيدل، رايون ملنديش: ٩، ١٣، ١٥، ٤٣٨  
 بيدول الأول: ٦٠، ٦٣، ٣٦  
 بيدول الثالث (القاسي): ٧٤  
 بيدرو دي جرانادا (بيدي يحيى): ١٨١  
 بيرون، لورد: ٤٢٤  
 تراجان، الامبراطور: ٣٢٤  
 توريس باتياس: ٢٩٢، ٣٧٦  
 تيوسمير، أمير تنس: ١٥٢  
 تيوسمير، الأسقف: ٣٤٤  
 ثرقانتس، ميغل: ٣١٩، ٣٣٢  
 ثورليا، خميد: ٣١٨، ٣١٩  
 ج - ز  
 جوست مورينو الكبير: ٢١٠  
 جوست مورينو: ٣٣، ١٠٨، ٢٠٧، ٣١٣  
 جونثالث بالنتيا: ٣٤٠، ٤٣٧  
 جونثالفوني كورديا: ١٩  
 جوبا: ٣٤٧  
 جيرالدو سبافورا: ٤٢٢  
 حسن بن يحيى بن حمود: ٢٤٣  
 حرب وراثة العرش: ٣٧٩  
 حيايمي الأول (القاسي): ١٩٥، ١٢٦، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٨، ١٥٦  
 خمريث، الأسقف: ٣٤٦  
 خميس، الكريديال: ٤٣٠  
 خميس دي رادا، الأسقف: ٣٩٠  
 خمينا دي أوفييدو: ٣١١، ٣١٢  
 خوان الثاني: ٦٤  
 خير الدين، أمير البحر: ٢٦٤  
 خيران العسري: ٢٦٦، ٢٧٠

عبد الرحمن الداخل: ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٨٠، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٥٢  
 عبد الرحمن الناصر: ٢١، ٣٠، ٣١، ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٧٩، ١١٨، ١٢٢، ٢٦٦، ٢٨٠، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٥٢  
 عبد الرحمن بن الحكم: ٢٠، ٣٣، ٦٦، ١٢٦، ١٥٧، ٢٨٠، ٢٨٤  
 عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي: ٢٥٧  
 عبد الرحمن بن محمد: ٧٨  
 عبد العزيز المنصور: ٢٦٦  
 عبد العزيز بن موسى: ١٥٢  
 عبد الله الأمير: ٢٠، ٢٦، ٣٧٢  
 عبد الله بن بلقين: ٢٤٤  
 عبد الله بن كتيب: ٣٨٤  
 عبد الله بن موسى بن نصير: ١٢٦  
 عبد الملك المنصور: ٣٠٨  
 عبد المؤمن بن علي، الخليفة: ٤٧، ٢٨٥، ٢٨٦  
 ٢٩١، ٤٠٠  
 عثمان، الخليفة: ٢٨  
 عصم الخولاني: ١٢٦  
 علي العطار: ٣٣٥  
 علي بن سجاه: ١٢٦  
 عمر بن حفصون: ٢٣٨، ٢٥٢  
 عمر بن عبدس: ٤٧، ٦٦  
 عيسى، المسيح: ٢٩  
 ف - ك  
 قاسكو دا جاما: ٤٢١  
 فرنانث جيرا: ١٨٠، ١٨١  
 فرنانثو الأول: ٣٩٥  
 فرنانثو الرابع: ٢٢٦  
 فرنانثو (فرديناند) الخامس: ١٦٤، ١٨٢، ١٨٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٥١  
 قوردا القوطية: ٩٠  
 قسننت القديس: ٤٢٠  
 قوبان: ٤٧٩  
 قون كوبرج، النراس: ٤٢٤  
 قيبسب الثاني: ١٦١، ١٧٠، ٢٠٨، ٣١٩، ٣٧٢  
 ٤٣١، ٤٣٢  
 قيبب الثالث: ١٦٤، ٤٣٢

دري الصغير: ٣٥٤  
 دي رقيير، الجنرال: ٢٩٧  
 ديرنبور، هارتفج: ٤٣٤  
 ديوان التحقيق: ٩٠، ١٠٨  
 رامون برنجر الثالث: ١١٨  
 رامون برنجر الرابع: ١١٤، ١٢٠  
 راسيرو الثاني: ٣٢٠  
 رندريك ملك القوط: ٩٠  
 ري رعون: ١٣٣، ١٣٤  
 زهير العلوي: ٢٦٦  
 زيدان، مولاي: ٤٣٢، ٤٣٣  
 ح - ع  
 سايور الحاجب: ٣٧٦  
 سارتاوو كريس: ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤  
 سانشو الثالث (الفيل): ٣٠٨  
 سانشو لشاج: ٢٧٨، ٢٩٩  
 سان فرنانثو (فرنانثو الثالث): ١٢، ٢٠، ٢٥، ٦٣، ٧١، ٧٥، ٨٣، ١٥٦، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٦٨، ٣١٠  
 سيبون، القائد الروماني: ١٥٦  
 سعد بن أبي الحسن المصري: ٤٤٠  
 سعد بن سالم الثغري: ٣٣١  
 سليمان بن مرتين: ٣٨٤  
 سوريانو مورينو: ١٣٣  
 سير بن أبي بكر اللمتوني: ٣٣٨  
 سيف الدولة بن هود: ١١٣  
 سيمونيت، المستشرق: ٤٣١  
 شارلكن الإمبراطور: ٢٦، ٦٤، ٨٢، ٩٠، ٩٦، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٧١، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٩٠، ٣٥١  
 شارلمان، الإمبراطور: ١٢  
 شعيب بن موسى: ٣٨٤  
 شنت باق (القديس): ٣٤٣، ٣٤٤  
 صبح الشكنسية: ٧٩  
 طارق بن زياد: ٢٨٤  
 طريف بن مالك: ٢٧٨  
 عائشة الحرة: ٢٦٤  
 عبد الرحمن الحليقي: ٣٧٢

- قليب الخاسن ٦٤، ٢٠٩  
 قليب جميل ١٧١  
 قيصرا ٢١  
 كاردنباس، أنثونيوا ٢١٠  
 كارلوس الثاني ٢٩، ٤٣٢، ٤٤٠  
 كارلوس الثالث ٣٠، ١٨٢، ٢٨٢، ٣١٢، ٤٧٣  
 كارلوس الخامس ٢٠٩  
 كستيجون، رافائيل ٤٠  
 كاكستوس الثالث، البابا ١٤٣  
 كريستوف كولومبس ٤٩، ٣٠٩، ٣٨٨  
 كلمنت السابع، البابا ١٦٥  
 كمونيس، الشاعر ٤٢١، ٤٢٤  
 كوديرا، المستشرق ١١٠  
 كونتريراس، رافائيل ٢٦، ٢٨، ٥٧، ٦٤، ٢١٠، ٢٥٧  
 لورنوا، القديس ٤٣٣  
 م - ي  
 مجاهد العربي ١٢٦، ١٤٦  
 محمد، النبي ٢٩  
 محمد بن أبي عمير، انظر المنصور بن أبي عمير  
 محمد بن الأحمر (الأول) ١٩٠، ٢٢٢  
 محمد بن الأحمر للقبه (الثاني) ١٧٦، ١٩٠، ٢٤٨  
 محمد بن الأحمر المخلوع (الثالث) ٢٠٨  
 محمد بن سعد (الزغل) ٢١٥، ٢٢٠  
 محمد بن سعيد ٤٨  
 محمد بن عبد الرحمن ٢٠، ٣٠، ٣٣١  
 محمد بن عبد الله (سلطان المغرب) ٣٠، ٤٣٣  
 محمد بن عبد الوهاب العسائي ٢٩، ٨٦، ٤٣٣، ٤٤٠  
 محمد، الغني بالله ١٧٨، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥  
 مدينا سالي، أسرة ٦٤  
 مريم زوجة أبي عبد الله ٣٣٥  
 سلمة المجريطي، أبو القاسم ٣٣١  
 مورينيوا ٣٤٧  
 موسى بن الأزرق الفهري ٣٣٨  
 موسى بن موسى بن قسي ١١٣  
 موسى بن نصير ١١٠  
 مسور بن الحكم ٣٣٩  
 نصر بن أبي الحسن ٤٤٠  
 هزروباله القائد ١٥٥  
 هشام المؤيد ٣٥، ٧٩، ٩٠، ٣٣٩  
 هشام بن عبد الرحمن ٢٠، ٢٢  
 هنري الثاني ٣٩٣، ٤٣٧  
 هيرود ٣٤٣  
 ياقوت الحموي ١٥٠  
 يحيى النيار ١٨١، ٤٤٠  
 يعقوب المنصور، أبو يوسف (الخليفة) ٥١، ٥٤  
 ٦٣، ٦٩، ٤١١  
 يعقوب بن عبد الحق المريني ٨٦  
 يعيش الملقب ٢٨٥  
 يوحنا ابنة فرديناند الخامس ١٧١  
 يوسف أبو الحجاج ٨٥، ١٧٨، ١٨٠، ١٩٠، ١٩٧  
 ١٩٨، ٢٠٥، ٢٤٨، ٢٨٢، ٢٩١، ٢٩٤، ٣٣٨  
 بوليان، الكونت ٩٠



# LOS MONUMENTOS MOROS EN ESPAÑA Y PORTUGAL

ESTUDIO HISTÓRICO Y ARQUEOLÓGICO

POR  
MOHAMED ABDULLA ENAN

*Segunda Edición*

Imprenta Lagnat ul Talif

El Cairo, 1962

- مسلمة المجريطي، أبو القاسم ٣٣١  
 موريليو ٣٤٧  
 موسى بن الأزرقي القهري ٣٣٨  
 موسى بن موسى بن قسي ١١٣  
 موسى بن نصير ١١٠  
 ميسور بن الحكم ٣٣٩  
 نصر بن أبي الحسن ٤٤٠  
 هزرويل، لقائد ١٥٥  
 هشام المؤيد ٣٣٩، ١٩٠، ١٧٩، ١٣٥  
 هشام بن عبد الرحمن ٢٠، ٢٢  
 هنري الثاني ٣٩٣، ٤٣٧  
 هيرون ٣٤٣  
 ياقوت الحموي ١٥٠  
 يحيى التمار ١٨١، ٤٤٠  
 يعقوب المنصور، أبو يوسف (الخليفة) ٥١، ٥٤،  
 ٦٣، ٦٩، ٤١١  
 يعقوب بن عبد الحق المريني ٨٦  
 يعيث الملقى ٢٨٥  
 يوحنا ابنة فرديناند الخامس ١٧١  
 يوسف أبو الحجاج ٨٥، ١٧٨، ١٨٠، ١٩٠، ١٩٧،  
 ١٩٨، ٢٠٥، ٢٤٨، ٢٨٢، ٢٩١، ٢٩٤، ٣٣٨  
 يوليان، الكونت ٩٠

# LOS MONUMENTOS MOROS EN ESPANA Y PORTUGAL

ESTUDIO HISTÓRICO Y ARQUEOLÓGICO

POR  
MOHAMED ABDULLA ENAN

*Segunda Edición*

Imprenta Lagnat ul Talif

El Cairo, 1962

## كلمات البحث

٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٦، ٤٠٩، ٤١١،  
٤١٢، ٤١٤، ٤١٥  
البربر ٢٥، ٦٥، ٧٤، ١٧٤، ٢٢٨،  
٢٦٠، ٣٥٨، ٣٦٢  
البرتغال ١، ١٠، ١١، ١٤، ٤٧، ٩٨  
الجزيرة الخضراء ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦،  
٤٣١  
الزهراء ٢٣، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠،  
٤١، ٤٣، ١٧٥، ٣١٩  
العرب ١٤، ١٥، ٧١، ٨٣، ٨٦، ٨٧،  
١٠٣، ١١٦، ١٤٧، ١٥٤، ١٧٥  
٢٤٣، ٢٧٩، ٣٠٩، ٣٣٠، ٤٠٨،  
٤١١، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٦  
الفجر ١٠٧، ١٥٨، ٣٥٩  
القسطنطينيون ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٦٨، ٣٦٨،  
٤٢١، ٤٢٣  
القصة ٦٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢، ١١٤،  
١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١،  
١٤٢، ١٥٧، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦،  
٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١،  
٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٢،  
٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩،  
٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٦،  
٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦،  
٢٦٢، ٢٧٣، ٣٠٧، ٣١٣، ٣٢٥،  
٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٥٨،

الأسترياس ٢٨٦، ٣٢٢، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٥،  
٣٢٤، ٤٣٤  
الإسبان ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠،  
٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٦، ٣٩،  
٤٠، ٤٣، ٤٨، ٥٤، ٩٩، ١٣٣، ١٥٤،  
٣٢١، ٤١٢، ٤١٩  
الإسلام ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢،  
٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٤٣، ٤٤، ٤٦،  
٤٧، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣،  
٦٥، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١،  
٨٢، ٨٥، ٨٦، ٩٠، ٩٥، ٩٦، ١٠٢،  
١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١١٢،  
١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥،  
١٢٧، ١٣١، ١٣٣، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤،  
١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤،  
١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،  
١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧١،  
١٧٣، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٩٦،  
١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٩،  
٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٣، ٢٣٥،  
٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٤٨،  
٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠،  
٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨١، ٢٨٤،  
٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٨،  
٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٥،  
٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٤٥،  
٣٤٦، ٣٥١، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧،  
٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٩٣، ٣٩٤





بنبلونة ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،

جبل طارق ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧،

٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣،

٢٧٦، ٢٧٨،

جلبقية ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٤١،

جيان ١٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤،

٢١٥، ٣٢١،

دالية ١٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦،

رندة ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠،

٢٧٩،

سرقسطة ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢،

١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٦، ١٦٨،

شاطبة ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢،

٢٠٩،

شقوبية ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩،

شلب ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩،

٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٢٢،

شلمنقة ١٥٤، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩،

٣٤٠، ٣٤١، ٤٢٢،

شلوبانية ١٦، ١٥٠، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٨،

٤٢٢،

شنتر ٣٧٣، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٢٢،

شنترين ٤٧، ٣٧٣، ٤٠٢، ٤٠٣،

شنتمرية الغرب ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٩،

طرطوشة ١٣، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٣،

١٢٧،

طركونة ١٠، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١١،

١١٢،

طريف ٩٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤،

٢٦٦، ٢٦٥،

طليطلة ٩، ١٥، ٢١، ٢٩، ٥٧، ٧٥، ٧٧،

٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣،

٨٥، ٩٦، ٣١١، ٣١٤، ٣١٥،

٣٢١، ٣٢٢، ٣٣١، ٣٥٢، ٣٦٨،

٤١٤، ٤٠٧،

غرناطة ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٦،

٢٠، ٢٦، ٥٤، ٥٥، ٥٩، ٦١،

٦٤، ٧٨، ١٠٣، ١٢٢، ١٤٨،

١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣،

١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،

١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤،

١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،

١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨،

١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢،

١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣،

٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٥،

٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣،

٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤،

٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠،

٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٧، ٣١٦، ٣١٧،

٣١٨، ٣١٩، ٣٣١، ٣٣٧، ٤٠٧،

٤٠٩، ٤١١، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٦،

٤١٧،

فارو ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٧٩،

فانس ٢٦٥، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٥،

قرطاجنة ٩١، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧،

قرطبة ٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٥، ١٦، ١٩،

٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٨،

٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥،

٣٦، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٦١،

٦٦، ٦٨، ٧١، ٧٥، ٨١، ٨٦،

٩٢، ٩٦، ١٠٥، ١٥٠، ١٦٨،

١٩٧، ٢٢٦، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣٧،

٣٥١، ٣٥٩، ٣٦٨، ٤١٤،

قرمونة ١٦، ٦٦، ٦٨، ٧٣،

قشالة ٢٠، ٢٥، ٤٤، ٥٥، ٦٥، ٦٦،

٦٨، ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨،

١٠٤، ١٤٢، ١٤٥، ٢٠٠، ٢٠٨،

٢٠٩، ٢١٠، ٢١٥، ٢٦٤، ٢٨٦،

٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٨، ٣٠٥،

٣١١، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٢٧،

٣٦٨، ٣٧٢، ٣٧٣، ٤٠٢،

قصر الحمراء ٢٦، ٣٣، ١٥٣، ١٦١،

١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٤،

١٧٥، ١٧٨، ١٩١، ١٩٧،

قصر جنة العريف ١٥٦، ١٦٦، ١٦٧،

١٦٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢،

لاردة ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١١،

لقلات ٩١، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩،

١٤٠، ١٤٢،

لوشة ١٥٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٣١٧،

ليون ٣٨، ٢٨٧، ٢٩٨، ٣٣٠، ٣٣١،

٣٣٢،

ماردة ٩، ١١، ١٥١، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٢،

٣٦٥، ٣٦٣،

معلقة ٩، ١٣، ١٦، ٩١، ١٢٩، ١٥٠،

٢٠٣، ٢١٠، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٩،

٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧،

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣،

٢٤٥، ٢٥٤، ٢٥٥، ٤٠٧، ٤١٥،

٤٢١،

متريل ١٦، ١٥٠، ٢٤١، ٢٤٨،

مطريـ ١١، ١٣، ١٤، ٧٥، ٨٦، ٩١،

٩٦، ١٠٠، ١١٣، ١٥٥، ١٩٢،

٢٨٨، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٤،

٣١٥، ٣١٦، ٣٢١، ٣٥٤، ٤٠٨،

٤١١، ٤١٢، ٤١٤،

مربنة ١٦، ٢٤١، ٢٤٢،

مرسية ٩، ٩٢، ٩٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٤١،

١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ٢٠٩، ٢٢٠،

ميورقة ١٣، ١٠٥، ١١٥، ١١٦، ١١٧،

١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤،

١٢٦،

وادي الحجارة ٣١١، ٣١٣، ٣١٤،

وادي آش ٩، ١٥٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٢٠،

٢٤٩، ٤٠٧،

ولية ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٤،

يايرة ٩، ١١، ٣٧٣، ٣٨٥، ٣٨٩، ٣٩٠،

٣٩٣، ٣٩٢،